

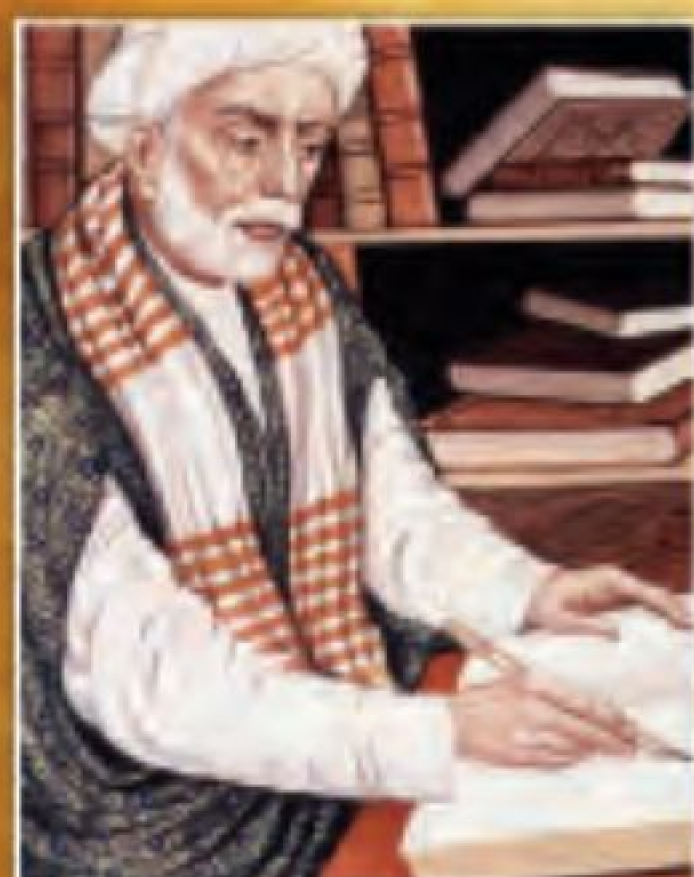
مركز تعريب العلوم الصحية

تاريخ الطب العربي



تأليف

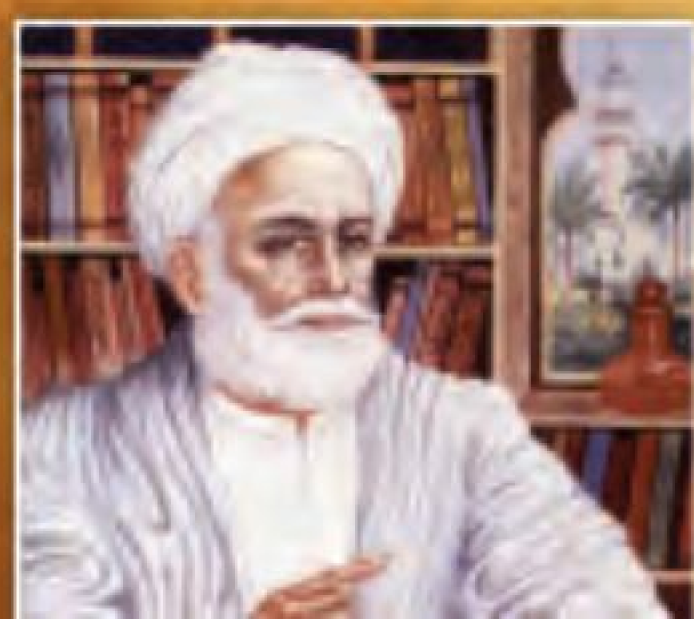
د. محمد جابر صدقي



مراجعة وتحرير

مركز تعريب العلوم الصحية

سلسلة المناهج الطبية العربية





مركز تعريب العلوم الصحية



ACMLS ـ دولة الكويت

تاريخ الطب العربي

تأليف

د. محمد جابر صدقي

مراجعة وتحرير

مركز تعريب العلوم الصحية

سلسلة المناهج الطبية العربية

مركز تعريب العلوم الصحية ، 2014م
فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

610.91761 صدقي، محمد جابر.

تاريخ الطب العربي/ محمد جابر صدقي.

- ط1 . – الكويت: مركز تعريب العلوم الصحية، 2014

252 ص: خرائط، رسوم، صور؛ 24 سم. – (سلسلة المناهج الطبية العربية؛ 150)

ردمك: 978-99966-34-61-1

1. الطب العربي ـ تاريخ   2 . الطب الإسلامي ـ تاريخ   أ. العنوان

ب. مركز تعريب العلوم الصحية الكويت (ناشر)   ج. السلسلة

رقم الإيداع : 827 / 2014

ردمك: 978-99966-34-61-1

الطبعة الأولى **2015**

ص.ب 5225 الصفاة – رمز بريدي 13053– دولة الكويت
هاتف : 25338610/1/2 (965)+   فاكس : 25338618/9 (965)+
البريد الإلكتروني: acmls@acmls.org


بسم الله الرحمن الرحيم



مركز تعريب العلوم الصحية

منظمة عربية تتبع مجلس وزراء الصحة العرب، ومقرها الدائم دولة الكويت وتهدف إلى:

- توفير الوسائل العلمية والعملية لتعليم الطب في الوطن العربي.
- تبادل الثقافة والمعلومات في الحضارة العربية وغيرها من الحضارات في المجالات الصحية والطبية.
- دعم وتشجيع حركة التأليف والترجمة باللغة العربية في مجالات العلوم الصحية.
- إصدار الدوريات والمطبوعات والأدوات الأساسية لبنية المعلومات الطبية العربية في الوطن العربي.
- تجميع الإنتاج الفكري الطبي العربي وحصره وتنظيمه وإنشاء قاعدة معلومات متطورة لهذا الإنتاج.
- ترجمة البحوث الطبية إلى اللغة العربية.
- وضع المناهج الطبية باللغة العربية للاستفادة منها في كليات ومعاهد العلوم الطبية والصحية.

ويتكون المركز من مجلس أمناء حيث تشرف عليه أمانة عامة، وقطاعات إدارية وفنية تقوم بشؤون الترجمة والتأليف والنشر والمعلومات، كما يقوم المركز بوضع الخطط المتكاملة والمرنة للتأليف والترجمة في المجالات الطبية شاملة المصطلحات والمطبوعات الأساسية والقواميس، والموسوعات والأدلة والمسوحات الضرورية لبنية المعلومات الطبية العربية، فضلاً عن إعداد المناهج الطبية وتقديم خدمات المعلومات الأساسية للإنتاج الفكري الطبي العربي.

المحتويات

المقدمة

يشكل تاريخ الطب والصيدلة عند العرب جزءاً هاماً من تراث الحضارة العربية والإسلامية الذي أصبح بعد ذلك جزءاً لا يتجزأ من الإرث الثقافي العالمي، وأصبح جذراً لشجرة الحضارة الإنسانية الذي يمدها بالثبات والاستقرار وكذلك ما تحتاجه من عناصر تضمن النمو والازدهار.

إن دراسة تاريخ الطب العربي تطلعنا على علامات مشرقة في طريق تطوره حيث كانت الحضارة العربية هي المحطة الرئيسية في تاريخه، نظراً لكونها تحفل بالاكتشافات العديدة في ذلك المجال، وما تركته من ميراثٍ زاخر من المؤلفات والاكتشافات التي تصف أغلب الأمراض وطرق شفائها، فلقد أخذت تلك الحضارة العظيمة عناصرها الأولى من عصارات الحضارة السابقة، وأضافت إليها الكثير في ميادين العلوم المختلفة، ووضعت الضوابط السلوكية والأخلاقية لهذا التقدم، لكي يستقيم فكر الأفراد وسلوكياتهم وتتحسن حياتهم، وجمعت هذه الحضارة العلماء من كل جنس ودين وأتاحت لهم المناخ الملائم والمجال الواسع والإمكانات المتعددة التي مكنتهم من أن ينتجوا بغزارة في مجال العلوم، ويتبنوا طلاباً كثيرين فيعلموهم ليصبحوا علماء أجلاء تركوا بصمات إبداعاتهم في سجل التاريخ، وقدموا للعالم إنجازات هائلة ظلت عبر قرون طويلة منارة له وكانت أساساً للنهضة العلمية المعاصرة، ومن هذه الإنجازات التراث الضخم من المؤلفات الطبية العديدة مثل كتاب (الحاوي في الطب) لمؤلفه أبي بكر الرازي الذي ألف أكثر من مائتي كتاب ومقال في مختلف جوانب العلوم، ومنها الكثير من المؤلفات الطبية، حيث يضم هذا الكتاب كل المعارف الطبية من الحضارات القديمة وظل المرجع الطبي الأساسي في جامعات أوروبا ومدارسها الطبية لمدة تزيد على أربعة قرون.

وقد جاء اختيار المركز لتأليف هذا الكتاب ليس تكراراً لما هو موجود، وإنما لإبراز دور الحضارة العربية والعرب في إثراء مجال الطب وكمحاولة لإرجاع الفضل لأهله، ودحض المزاعم الغربية في إنكار فضل العرب على الحضارة الغربية بأنهم أهل الحضارة والريادة، وقد انفرد هذا الكتاب بأن مزج مؤلفه بين دراسته للعلوم الطبية والدراسة الأدبية في علم التاريخ، حيث تناول مواضيع الكتاب برؤية علمية منهجية أدت إلى بث الروح إلى مادة

التاريخ الجامدة، ولم يتبع في تقسيم الكتاب تسلسلاً تاريخياً وإنما جاء مسايراً لتطور الطب. فالهدف ليس العودة إلى الماضي ولكن دراسة الماضي الذي يمثل في جوهره التعرف على الذات ومن ثم استشفاف المستقبل. نأمل أن يحقق هذا الكتاب الغاية المرجوة منه وأن يكون لبنة في صرح التعليم الطبي.

والله ولي التوفيق،،

الدكتور/ عبد الرحمن عبد الله العوضي
الأمين العام
مركز تعريب العلوم الصحية

التمهيد

الطب هو العلم الذي يجمع الخبرات الإنسانية المختلفة ويهتم بالإنسان وصحته وما يعتريه من اعتلال وأمراض وإصابات تنال من بدنه أو نفسيته أو المحيط الذي يعيش فيه، ويحاول إيجاد العلاج المناسب، كما يتناول الطب دراسة الظروف التي تساعد على حدوث الأمراض وطرق تفاديها والوقاية منها، فالطب هو علم تطبيقي يستفيد من التجارب البشرية على مر التاريخ، ويعمل على توثيق تلك التجاربٍ بالدراسات العلمية الموثقة بالأساليب الإكلينيكية، فقد كان الطب في العصور الأولى بدائياً اقتصر على التجارب والتعاويذ المتوارثة بين الأفراد، وقد اقتصر معظمه على الكي بالنار واستئصال الأطراف والتداوي بالعسل ومنقوع الأعشاب النباتية، واللجوء إلى بعض التعاويذ والتمائم على يد الكهان والسحرة والعرافين، وبعد الفتوحات العربية اهتم العرب بالطب وجاء الإسلام فقضى على الكهانة وأبطل المداواة بالسحر والشعوذة، وعملوا على نقل العلوم الطبية من مصادرها القديمة، وأضفوا عليها خبراتهم في التطبيب والمداواة، وألفوا الموسوعات الطبية العربية أمثال كتاب (فردوس الحكمة) الذي كتبه ابن ربن الطبري في سبع مجلدات وكذلك كتاب (الحاوي)، (الجامع الكبير) للرازي وقد نشر في ثلاثة وعشرين مجلداً والذي يعتبر موسوعة طبية هامة ظلت معظم الجامعات الأوروبية تستخدمه كمرجع طبي هام، وقد ظلت بعض المؤلفات الطبية العربية أمثال كتاب (القانون في الطب) لابن سينا، (والتصريف لمن عجز عن التأليف) للزهراوي تُدرَّس في جامعات أوروبا حتى القرن الثامن عشر.

وقد ساعد تقبل العرب للأفكار الجديدة ومحافظتهم على العلم القديم على تقدم الطب من خلال إضافة الأفكار والتقنيات الجديدة وتطوير العلوم الطبية، وتعزيز المعرفة الطبية في مجالات الطب المختلفة وتطوير الممارسة العلمية التجريبية، مما جعل الطب يأخذ شكله المعروف اليوم، وهذا ما جعل العديد من الباحثين الغربيين يعترفون بفضل العرب في تقدم الطب.

ولقد جاء هذا الكتاب ليلقي الضوء على دور الحضارة العربية والعرب في إثراء مجال الطب والتداوي، وكمحاولة لإرجاع الفضل لأهله، فقد تناول هذا الكتاب بين جنباته من خلال تقسيم فصوله إلى خمسة فصول، كل فصل عبارة عن تسلسل تاريخيٍ لتطور الطب خلال العصور المختلفة، فتحدث الفصل الأول عن الطب والتداوي كونه ملازماً للتطور الحضاري، ثم جاء الفصل الثاني ليبين إسهامات العرب الطبية لإبراز ما أنتجته قرائح الأطباء العرب من اكتشافات وابتكارات تخدم البشرية، وتناول الفصل الثالث البيمارستانات (المستشفيات)،

وكذلك أماكن العلاج المختلفة وممارسة التمريض، وبيَّن الفصل الرابع أهمية الصيدلة عند العرب وعلم الأدوية وما زخرت به الحضارة العربية من اكتشافات لعقاقير جديدة تساعد على علاج الكثير من الأمراض، كما أفرد الفصل الخامس الحديث عن حركة الترجمة الطبية ورحلة نقل العلوم من وإلى الغرب، ودور العرب في النهضة الغربية الحالية، وبذلك نكون قد وضحنا دور الحضارة العربية في نهضة العلوم الطبية.

نأمل أن يكون هذا الكتاب مرشداً ومفيداً لكل من يطلع على تراثنا العربي في مجال العلوم الطبية، وكذلك للدارسين الذين يجولون بكتب التراث باحثين عن كنوز المعرفة، وأن يستفيد منه دارسو التاريخ العربي.

والله ولي التوفيق،،

الدكتور/ يعقوب أحمد الشراح
الأمين العام المساعد
مركز تعريب العلوم الصحية

المؤلف في سطور

د. محمد جابر لطفي أحمد صدقي

ـ مصري الجنسية.

ـ حاصل على بكالوريوس الطب والجراحة ـ كلية طب القصر العيني ـ جامعة القاهرة ـ 1989م.

ـ حاصل على درجة الماجستير في الباثولوجيا الإكلينيكية والكيميائية ـ كلية طب القصر العيني ـ جامعة القاهرة ـ 1995م.

ـ حاصل على ليسانس الآداب قسم التاريخ ـ جامعة القاهرة ـ 2000م.

ـ يعمل اختصاصي أمراض الدم ـ وحدة فصل الدم العلاجي ـ بنك الدم المركزي ـ دولة الكويت.

مقدمة المؤلف

الطب العربي في المصادر التاريخية هو مصطلح عام يشمل علوم الطب والصيدلة التي تطورت ودونت خلال العصر الذهبي للحضارة العربية الذي يمتد من القرن الثامن الميلادي وحتي بدايات القرن السادس عشر الميلادي عندما بدأت شمس الحضارة الأوروبية الحديثة في البزوغ، وفي الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الغربية تحرم ممارسة الطب، وهو الاعتقاد الذي ظل سائدًا في الغرب حتي القرن الثاني عشر، باعتبار المرض عقاباً من الله لا ينبغي للإنسان أن يوقفه. كان العرب والمسلمون ينهلون من علوم من سبقوهم في كل صنوف المعارف، ومن بينها الطب عن طريق ترجمة أمهات الكتب والمصنفات التي أنتجتها قرائح العلماء اليونان والفرس والهنود وغيرهم، وقد ألهبهم تشجيع الحكام والأمراء ورجالات بعض الأسر الثرية. أدت تلك العوامل إلى خلق مناخ مناسب لتقدم العلوم الطبية والصيدلة نتيجة تراكم الخبرات العلمية المكتسبة وأثمرت في نهاية المطاف في خلق منهج تجريبي متميز يقوم على التجربة والقياس، مما ساعد العلماء العرب في القرن التاسع الميلادي لتطوير نظام طبي يعتمد على التحليل المنهجي، وبالتدريج بدأ كل من العامة والحكام يقتنعون بأهمية العلوم الطبية وفنون العلاج بمختلف الأدوية والعقاقير التي أصبحت شديدة التنوع، وسهلة المنال في آن واحد، واجتهد الأطباء كذلك في إيجاد أنجع السبل للعلاج، وكذلك تطوير البيمارستانات أو أماكن الاستشفاء التي انتشرت في حواضر وأرجاء الدولة الإسلامية التي امتدت من تخوم الصين وحتي الأندلس في دمشق، وبغداد والقيروان والقاهرة وقرطبة، وغيرها التي قدمت خدمات طبية متميزة لملايين من البشر الذين استفادوا من الخدمات الطبية والجراحية والدوائية التي كانت تقدم بالمجان.

كان لزاماً أن تفرز الحضارة العربية أفذاذاً من العلماء في مختلف العلوم والمعارف وخاصة في مجال الطب والعلاج، وقد زخرت المراجع التاريخية بالمئات منهم وبما تركوه للبشرية من بعدهم من إبداعات واكتشافات أثرت تاريخ الطب والصيدلة حتي وقتنا الحاضر ومصنفات ظلت قروناً المرجع المعتمد للعديد من مدارس الطب الأوروبية في ساليرنو بإيطاليا ومونبلييه بفرنسا، وبالرمو بصقلية والعديد من المدن الأسبانية كطليطلة وقرطبة وإشبيلية وغيرها، ومن هؤلاء العلماء النوابغ علي بن العباس المجوسي، وأبو بكر الرازي، والشيخ الرئيس ابن سينا، وأبو القاسم الزهراوي، وأبو ريحان البيروني، والبتاني، وكوهين العطار، وداود الأنطاكي وغيرهم الذين تسربت نظرياتهم ومصطلحاتهم الطبية والدوائية لتجد طريقها في نهاية الأمر في العديد من الكتب والمؤلفات المعاصرة.

عرَف الأطباء العرب علاج الأمراض والعلل في مؤلفاتهم الطبية باسم التدبير، وهو عبارة عن العلم الذي يبتغي شفاء المريض، وقد برعوا في معالجة المرضى واستخدموا كافة الوسائِل التي كانت متاحة في زمنهم من أنواع الأغذيةِ والعقاقير وحتى الحِمية، وكذلك باستخدام فصد الدم والحِجامَة وإجراء العمليات الجِراحيّة المختلفة، ولم يهملوا دور التّوجيه والنُّصح والإرشاد للمرضى في اتباع الطرق الصحيةَ في المأكل والمشرب وحتى الاستحمام. وقد وَضعوا لطرق المُعالجة تلك مجموعة كبيرة من القوانين والقواعد الطبية التي لا يَجوز إهمالها أو الاستهانة بقدرها، منها إذا أمكنَ علاج المريض باستخدام الغذاء فلاحاجة إلى الأدوية، كذلك لا يفضل استعمال الدّواءَ المركّب في حالة كفاية الدّواء المفرد، وإلا يبدأ العلاج بالدواء إلا بعد التشخيص المتأني للمرض الذي كان يعتمد في الأساس على استجواب المريض استجواباً دقيقاً، وكذلك على فهم أعراض وعلامات المرض ولابد من فحص المريض إكلينيكياً عن طريق النظر والجسّ والشمّ وجسُّ النبض، وفحص البول، واختبار نفث الدّم والبصاق، وكذا ملاحظة لون البشرة وبيَاض العينين وحتى ملمس الجلد من حيث درجة الحرارة وخشونته أو ليونته، وقد مارس الأطبَّاءُ العرب تلك المهارات التشخيصية الإكلينيكية خلال زيارة المرضى في بيوتهم، أو في أثناء عملهم في البيمارستانات، ونراهم قد عرفوا التخصص، فكان منهم أطباء العيون أو الكحالون، بالإضافة إلى أطباء أمراض النساء والجراحون والفصادون والحجامون.

وقد نظَّمت الحضارة العربية صناعةَ الطب والصيدلة، ووضعَ لهما قواعدَ وقوانينَ وأنظمة واختبارات، يجبَ اتِّباعَها، فقد كان أبو بكر الرازي يعقد امتحاناً لتلامذته في التشريح، والجانب العملي، ومن كان يفشل منهم في اختبار التشريح لا يسمح له بدخول الامتحان العملي، وقد بدأت الدولة العباسية في زمن سنان بن ثابت بن قرة الذي عهد إليه الخليفة المقتدر باختبار المتقدمين لمارسة الطب، والحصول على إجازة رسمية بممارسة مهنة الطب والتداوي خاصة وبعد موت أحد المرضى نتيجة خطأ طبي. وبالنسبة لمهنة الصيدلة فقد أمر المأمون بعقد امتحان أمانة للصيادلة، ثم جاء أخوه المعتصم من بعده الذي أقر امتحان الصيادلة قبل ممارسة المهنة، وكان نظام الحسبة يهدف لمراقبة مصالح الناس وأرزاقهم، وما قد يؤثر على الصحة العامة لعامة الناس من أمور الغش في المكاييل والموازين، وبالتدريج انسحب ذلك النظام الرقابي على ممارسة مهنة الطب والتداوي بالأدوية والعقاقير، وألفت العديد من المصادر التي تعين رجال الحسبة في رقابتهم، وكان من مهام المحتسب مراجعة البيمارستانات والصيدليات والكشف عما بها من أدوات وأجهزة وجعل الأطباء والصيادلة يلتزمون بقسم أبي قراط الذي تم تعديله ليتوافق مع البيئة العربية الإسلامية.

إننا في هذا الكتاب نحاول أنِ نلقي بصيصاً من الضوء على تاريخ الطب والصيدلة عند العرب الذي يشكل جزءاً هاماً من تراث الحضارة العربية والإسلامية الذي أصبح بالتالي جزءاً لا يتجزأ من الإرث الثقافي العالمي، وأصبح جذراً لشجرة الحضارة الإنسانية

الذي يمدها بالثبات والاستقرار، وكذلك ماتحتاجه من عناصر تضمن النمو والازدهار. وقد اهتم الكتاب بإلقاء الضوء كذلك على سبل انتقال الحضارة الغربية وعلومها وخاصة في مجال الطب والصيدلة إلى القارة الأوروبية مع ذكر مفصل بالطرق والمعابر التي انتقلت تلك المعارف عن طريقها، وهي الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا مع شرح مبسط لتأثير تلك المؤلفات والمصنفات الطبية التي تم ترجمتها من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية، ومن ثم اعتمادها مراجع أساسية وضرورية لكل دارسي الطب والصيدلة في العديد من المدارس والمعاهد الطبية الأوروبية، وقد ذكر الكتاب أيضاً كيفية انتقال علوم الغرب مرة أخرى إلى العالم العربي منذ بداية القرن التاسع عشر، مما أدى إلى نشوء حركة الطب العربي الحديث وخاصة في عهد محمد علي بمصر ومختلف البلاد العربية في القرن العشرين.

نأمل أن يكون هذا المؤلف مرشداً ومفيداً لكل من يهتم بإرثنا العربي في مجال الطب والتداوي، وكذلك للدارسين الذين يجولون بكتب التراث باحثين عن كنوز العلوم العربية الطبية والصيدلية، وأود أن أعتذر للقارئ الكريم إن وجد خطأ غير مقصود أو نسياناً أو تقصيراً أثناء كتابة الكتاب.

الدكتور/ محمد جابر لطفي أحمد صدقي

الفصل الأول

الطب والتداوي

نبذة عامة:

يعتبر علم الطب والتداوي من أشد العلوم التصاقاً بحاجات الشعوب، لأنه على صلة وثيقة بغريزة البقاء لديهم لذا كان اهتمام تلك الشعوب بالمعارف الطبية ملازماً ومصاحباً للتطور الحضاري فلجأ بعضها إلى استعمال التعاويذ وصنوف السحر والتنجيم لشفاء مرضاهم وعالج بعضها الآخر بتقصي عوارضها والعناصر التي يمكن أن تسببها، كما تعاطوا التشريح والجراحة، واستفادوا من مختلف أنواع النباتات الطبية الموجودة في بلادهم لتركيب الأدوية التي ساهمت في شفاء الأمراض.

إن أية حضارة إنسانية لابد وأن ترتكز على قواعد علمية ثابتة تبدأ بدراسة ماحققته الحضارات السابقة لوجودها من تقدم في العلوم المختلفة، وأخذ مايناسبها منه ثم العمل على تقويمه والإضافة إليه، وهذا عين ماقامت به الحضارة العربية الإسلامية ولهذا فإن لكل حضارة بشرية خصائصها وقوتها الدافعة، وقد تميزت حضارتنا العربية الإسلامية بوجود رافدين عظيمين لنشوء تلك الحضارة، وهما: قرآن خالد، به كل مايصبو إليه عقل الإنسان، وتراث نبوي مطهر يشتمل على توجيهات سامية يحدد مسار تلك الحضارة، ولم تتخلف الحضارة العربية الإسلامية عن مثيلاتها في الأخذ بأسباب التطور في العلوم الطبية، لأن لديها من الأسس الثابتة في القرآن والسنة النبوية ما يدعم ذلك التوجه، فنجد آيات كريمة تدعو إلى النظر بتمعن في الإنسان نفسه كما في قوله تعالى ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ سورة الذاريات ، آية (21)، وهناك نصوص أخرى تصف خلق الإنسان وترسم صورة دقيقة لمراحل تطوره الجنيني، وذلك يدعو صراحة إلى معرفة شاملة لكل مكونات الكائن البشري، ويفتح كذلك أبواب العلوم الطبية من تشريح، وعلم وظائف أعضاء وعلم الأجنة وغيرها الكثير على مصراعيها.

ولقد أسهمت السنة النبوية المشرفة في إثبات أهمية الطب والتداوي، وحثت عامة على علاج الأمراض المختلفة، حيث قرر النبي ﷺ بوجود دواء لكل داء مما يؤدي بالتبعية إلى شحذ العقل البشري للبحث بلا هوادة للوصول إلى المسببات الحقيقية للأمراض، وكذلك الطرق المناسبة لعلاجها، وتلك دعوة صريحة لاستعمال منهج البحث التجريبي، إذ بدأ العرب حضارتهم، ولديهم يقين جازم بأن الله عز وجل لم يخلق شيئاً في الكون عبثاً أو سدى فانطلقوا وهم موقنون بهذه الحقيقة يتفكرون في ما حولهم من كتاب الله المنظور ليبتكروا أنجع الوسائل للحفاظ على حياتهم وجعل بيئتهم نقية نظيفة خالية من الأمراض، لذا فإننا نجد أن الطب وعلومه يعد من أوسع مجالات العلوم الحياتية التي كان للعرب المسلمين فيها إسهامات بارزة على مدار عصور حضاراتهم، وكانت تلك الإسهامات لها من الشمول والتميز الشيء الكثير، ولم يقتصر إبداع الحضارة العربية في العلوم الطبية على علاج الأمراض فحسب، بل تعداه إلى تأسيس منهج تجريبي أصيل انعكست آثاره على جميع جوانب الممارسة الطبية وقاية وعلاجاً ومرافق وأدوات وأبعاد إنسانية وأخلاقية تحكم الأداء الطبي.

جاء الإسلام فقضى على الكهانة والالتجاء إليها لدفع تأثير القوى الشريرة غير المنظورة، وفتح الباب للطب الطبيعي على مصراعيه، وذلك عن طريق إبطال المداواة بالسحر والشعوذة ولم يستحدث مكان الكهانة طبقة جديدة تتولى العلاج باسم الدين، بل سمح النبي ﷺ باستشارة الأطباء المتخصصين ولو من غير المسلمين، ونرى هذا جلياً لما مرض (سعد بن أبي وقاص) في حجة الوداع عاده النبيﷺ، وقال للطبيب (الحارث بن كلدة) «عالج» والحارث هذا يومئذ على غير دين الإسلام، وكذلك نعت القرآن الكريم لقمان بالحكيم، ومن معاني الحكمة التطبيب أو هي الطب كمهنة، وكذلك جعل الإسلام هذه الصناعة نعمة يشكرها من أسبغها الله عليه، واتخذها وظيفة معترفاً بها.

نستطيع أن نجمل القول فنذكر إن كان الطب العربي الإسلامي يستهدف حفظ الصحة على الأصحاء، وهذا هو الجانب الوقائي الذي نسميه الآن بعلم الصحة الوقائية، فقد توصّل العرب المسلمون إلى طرق ناجعة للوقاية من الأمراض بدراسة الجسم ووظائف أعضائه، وحاولوا الكشف عن أسباب الأمراض وطرق انتشارها، لمعرفة أساليب تجنبها، كما استهدفوا أيضاً رد الصحة إلى المرضى، الذي هو في الواقع شفاء الأمراض.

الطب والتداوي عند الأمم السابقة:

الطب والتداوي في مصر القديمة

(من الألف الرابعة قبل الميلاد وحتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد):

ظلت مصر موضعاً لإعجاب المؤرخين والباحثين في أصول الحضارة ونشأة العلوم، نظراً لكونها تحفل بالإنجازات غير المسبوقة التي كانت تسبق عصرها والتي تركت آثارها على الحضارات اللاحقة لها وحتى العصر الحديث، ساعد على ذلك ميل مصر الشديد إلى تكوين دولة موحدة تحمي المنجزات الحضارية لديها، وكذلك وجود طريقة للكتابة خاصة بها، لها عناصر التميز والاستمرار، لذا فإن مصر قد تركت تراثاً ضخماً مكتوباً على البرديات يصف العديد من المعلومات عن المهنة الطبية والأطباء والأمراض وطرق العلاج، وكذلك الأدوية والعقاقير المستخدمة في ذلك العصر مثل بردية ايبرز المحفوظة في ليبزج التي تحتوي على عرض لأمراض البطن والعين والجلد، وتصف إحدى وعشرين طريقة لعلاج السعال، بالإضافة إلى 700 نوع من الدواء و800 تركيبة دوائية، وبردية أدوين سميث بنيويورك، وكذلك بردية كاهون التي تختص بأمراض النساء.[1]

كانت المهنة الطبية في مصر تبدأ في دور الحياة (بيت عنخ)[2]، وهي مدارس لتعليم النشء، ثم ينتقل المتعلم الجديد إلى أحد المعابد لتلقي الطب على أيدي الأطباء المهرة الذين كانوا أيضاً في الأغلب كهاناً ككهنة إيزيس التي كان المصريون يضرعون إليها لشفاء الأمراض المستعصية والتي طبقت شهرتها الطبية الآفاق لتعبد حتى داخل روما نفسها أيام الأمبراطورية الرومانية، ويذكر أن مهنة الطبابة لقربها من الطبقة الكهنوتية الدينية قد امتزجت بالسحر واستخدام التمائم لطرد الشياطين.

ولقد تميز الأطباء في مصر القديمة بباع طويل في فنون التشخيص الطبي والعلاج، واكتشفوا طرقاً لعلاج العديد من الأمراض والعلل كأمراض المعدة وحالات الإسهال وعقم النساء حتى أنهم قد أشاروا إلى حدوث الذبحة الصدرية وانحباس البول، وتشير البرديات كذلك ببراعتهم في علاج أمراض الأسنان، ولقد وصلت إلينا أسماء حوالي مائة طبيب عن طريق البرديات.

ولقد تميزت طبقة الأطباء عن باقي أفراد الشعب بقربها من الحكام وكانوا يتقاضون راتباً ثابتاً في صورة غذاء أو ثياب من الدولة[3]، ويذكر هيرودوت في تاريخه أن معظم الأطباء المصريين كانوا من المتخصصين، يؤكد هذا وجود البرديات المتخصصة على علوم الطب

(1) حسن كمال: الطب المصري القديم، ص4.

(2) نفس المصدر، ص45.

(3) نفس المصدر، ص44، 45.

المختلفة. إن علم التحنيط يشير إلى معرفة واسعة بالتشريح ويبدو أن هذا العلم قد سهل للأطباء المصريين إجراء عمليات الجراحة، وكذلك العظام التي يبدو أنها كانت أكثر استعمالاً بين العمال المكلفين ببناء الأهرام والمعابد الضخمة، حيث تكثر الحوادث التي يمكن حدوثها وهناك الكثير من حالات الكسور الملتئمة في المومياوات الخاصة لهؤلاء العمال.

نبغ الكثير من الأطباء خلال فترات التاريخ المصري القديم ونجد أشهرهم هو الطبيب ايمحوتب[1]،[2] الذي عاش في عصر بناء الأهرام، والذي كان مهندساً ووزيراً في عهد الملك زوسر حوالي 2380 ق.م، وقد كان كذلك كبيراً للكهان، ثم قدسه المصريون واعتبروه إلهاً للطب وأقاموا عند قبره معبداً لتخليد ذكراه، وكذلك نذكر الطبيب (كوى) كبير كهنة عين شمس الذي ابتكر قطرة للعين، ومن المدهش أن نعرف بوجود طبيب في الفريق الطبي الذي يعالج الفرعون من يحمل لقب «حارس شرج الملك»، يدل هذا على التخصص الدقيق الذي كان سائداً بين أطباء مصر في ذلك العصر السحيق.

الطب والتداوي في بلاد مابين النهرين

(من الألف الرابعة قبل الميلاد وحتى منتصف القرن السادس قبل الميلاد):

كان الطب في بلاد ما بين النهرين كما في حضارة مصر القديمة يشوبه الكثير من الكهانة والسحر والاعتماد على السحرة لطرد الشياطين والأرواح الشريرة التي تجلب الأمراض، لأن المرض في المفهوم الشعبي كان عقاباً إلهياً للمريض على ارتكابه للذنوب، ثم انفصل الطب عن السحر، ونجد ذلك جلياً في اختلاف المصطلحات التي أطلقتها النصوص المسمارية على الطب والسحر، وقد سادت في ذلك العصر أنواع متعددة من طرق العلاج، منها المعالجة بالنصح والبعد عن مصادر المرض، أي الالتجاء إلى الطب الوقائي، وكذلك المعالجة بتشخيص العلة ووصف الدواء والعقاقير من مصادرها الطبيعية، ولكننا نجد أن السحر والتعاويذ قد انتشرت أيضاً بين الناس لدفع تأثير القوى غير المنظورة من آلهة أو شياطين أو من فعل سحر قام به بعض الأشخاص، ويقال إن أهل بابل كانوا يعرضون المريض في مكان عام حتى يصف له كل من أصيب بنفس المرض أو حتى سمع عن علاج شاف له.[3]

لقد اهتم أطباء بلاد مابين النهرين بالتشريح فقد ذكروا القلب والكبد وبقية الأحشاء وكان لديهم اعتقاد بوجود قوة عليا تتحكم في أعضاء الجسد، وكذلك كانوا معتقدين أن الكبد أهم عضو في الجسم البشري وأنه مصدر الدم، وهذا ما أكده علم الطب المعاصر وقد كان الطبيب الأشوري يظن أن المسبب للمرض هو وجود أجسام لاترى تدخل الجسد مع هواء التنفس أو الطعام والشراب، وهذا ما يمكن أن نقارنه بما يعرف الآن بالعدوى الجرثومية التي تدخل الجسم البشري من البيئة المحيطة، وقد عزل الأطباء في آشور مرضى الجذام، وعرفوا أيضاً مرض السيلان.[3]

(1) بول غليونجي: الطب عند قدماء المصريين، ص9.

(2) حسن كمال: الطب المصري القديم، ص49.

(3) البدري عبد اللطيف: من الطب الآشوري، المجمع العلمي العراقي، ص19.

وقد عثر في أطلال مدينة كيش السومرية على لوح طيني يرجع تاريخه إلى حوالي عام 4200 ق.م[1] وقالب آخر منقوش عليه نصوص طبية، أما في بابل فإن أقدم النصوص الطبية هي الدليل التشخيصي للطبيب ايساجيل-كين-ابلي من مدينة بورسيبا خلال عهد الملك البابلي أداد-ابلا-ادينا (1069-1046 ق.م)، ولقد اكتشف ذلك الطبيب مجموعة متنوعة من العلل والأمراض، ووصف أعراضها، وتشمل هذه الأعراض أصنافاً عديدة من الصرع وعللاً أخرى ذات صلة، وفي ذلك العصر فإن الأعراض والأمراض قد عولجت من خلال وسائل علاجية مثل الضمادات، المراهم والحبوب، وإذا كان المريض لا يمكن شفاؤه جسدياً، فإن الأطباء البابليين غالباً ما كانوا يعتمدون على طرد الأرواح الشريرة لتطهير المريض من أية لعنة قد أصابته بفعل غضب إلهي، أو سحر قام به أحد من قبل، ولقد ساعدت التشريعات وقتئذ على تنظيم المهنة الطبية كقوانين الملك البابلي حمورابي الذي نظم أسعار الخدمات الطبية وأجور الأطباء وكذلك فرضت عقوبات مشددة على الحاضنات والمرضعات اللائي أهملن عنايتهن بالأطفال الرضع.[2]

الطب والتداوي في بلاد الصين

(حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد):

كانت ومازالت الصين دوماً أرضاً للعجائب والإنجازات في مختلف فروع العلم، ومن بينها الطب بالطبع، ويمكن إرجاع نشوء المهنة الطبية إلى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد[3]، وقد قدم الصينيون الكثير في مجالي الطب الباطني والجراحي، نجد ذلك في اكتشاف طريقة الوخز بالإبر في معالجة العديد من الأمراض، وكذلك ابتكار عدد من الآلات الجراحية البسيطة، وقد عرف الصينيون فائدة قياس النبض وعلاقته بالتشخيص، وقد كانوا يعتقدون أن من أسباب الأمراض وجود تغير في درجات الحرارة والرطوبة نتيجة تعاقب الفصول، لذا فإنهم قد عزوا انتشار أمراض الصدر في الشتاء القارس وأمراض الجلد في فترة الصيف، ويعد (وأي بويانج) من المشهورين في ممارسة مهنة الطب، وكذلك الإمبراطور (فيويو) الذي كان أول باحث عن النباتات الطبية وخواصها ولم يكتف بذلك بل كان يختبر أثرها على نفسه.

الطب والتداوي في بلاد الهند

(حوالي القرن السادس قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي):

عندما نرنو بأبصارنا تجاه شبه القارة الهندية فإننا نجد أن الطب عند الهنود كان ممتلئاً بالمفاهيم الخرافية والكثير من الأساطير التي تتعلق بالعديد من القوى غير المنظورة من آلهة وشياطين، وقد كانوا يعتقدون أن الأمراض تنشأ نتيجة ذنوب، لذا فهي عقاب أو ربما نشأت نتيجة فساد في الأخلاط وهناك كتاب شهير للطب الهندي يدعى (أترافا-فيدا) ويشمل

(1) طه باقر: لمحات من تراثنا الحضاري القديم في الطب.

(2) البدري عبد اللطيف: من الطب الآشوري المجمع العلمي العراقي، ص19.

(3) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات، ص25.

العديد من الأمراض المختلفة ثم يأتي ذكر الأعراض المصاحبة لتلك العلل، لكن الكتاب يحفل أيضاً بالكثير من الوصفات السحرية. وتشير بعض المصادر إلى استعمال الأطباء الهنود للتلقيح ضد مرض الجدرى، ولقد كانت الحروب الكثيرة والعقوبات البدنية الشائعة سبباً في ظهور عمليات التجميل، وتقدم فن الجراحات، وقد استخدموا أيضاً الكي لوقف النزف، واخترعوا الكثير من الأدوات الجراحية المختلفة، وقد عرفوا عملية إزالة حصى المثانة وترقيع الأنف التجميلية، وبالنسبة للأمراض فقد عرف منه الأطباء الهنود الكثير منها مثل الملاريا والطاعون وحتى مرض البول السكري الذي أسموه بول عسل النحل.

وقد نبغ الكثير من الأطباء الهنود منهم الطبيب (شاراكاً)[1] الذي ألف كتاباً ضخماً في الطب أسماه (سماهيتا) وقد كان رحيماً بالمرضى، إذ حث تلامذته على السعي لتخفيف آلام الإنسانية من غير سعي إلى نفع مادي أو كسب دنيوي، وهناك أيضاً الطبيب (سوشروتا) حوالي عام 300م الذي وضع كتاباً يتحدث فيه عن علوم النساء والتوليد والجراحة والأدوية والاهتمام بالرضع، ومن الأطباء الهنود الذين برزوا الطبيبة (فاجيهاتا وروسي) التي كانت تعمل بأمراض النساء والتوليد، وجدير بالذكر أن علوم الطب الهندية قد أضافت الكثير إلى العلوم الطبية عند العرب بفضل ماقام به الأطباء الهنود في عصر الدولة العباسية مثل (ابن دهل) كبير أطباء بيمارستان البرامكة في بغداد (ومنكه) طبيب الرشيد الذي ترجم كتاب (سوشروتا) الطبي وكذلك كتاب السموم للطبيب الهندي (شاناق).

الطب والتداوي عند الفرس القدماء

(حوالي القرن السادس قبل الميلاد وحتى القرن السابع الميلادي):

يقول المؤرخون إن كهنة الفرس هم واضعو علم الطب فقد كان الطب عندهم خليطاً من التعازيم السحرية، وبعض المبادئ الطبية كاستخدام العقاقير من النباتات الطبيعية وأصول علم الطب يمكن متابعتها في كتابهم المقدس (زندافستا)، وقد برزت ثلاث طبقات من الأطباء إحداهن تعالج بتلاوة الأدعية والصلوات، والثانية باستخدام الأدوية والعقاقير أما الثالثة فتستعمل الآلات والأدوات الجراحية.

لقد استفاد الطب الفارسي من علم الطب اليوناني عن طريق الأسرى اليونان الذين أتى بهم الفرس لمداواة بعض ملوكهم مثل: (ديموسيدس) الذي عالج الملك دارا الثاني، وكذلك الطبيب (ستسياس) ليكون أحد أطباء البلاط الفارسي، وقد أنشأ الملك (سابور الأول) 241–272م مدينة جنديسابور ليوطن فيها أسرى الرومان ومن بينهم من له معرفة بالعلوم اليونانية ومن بينها الطب، وقد قام (سابور الثاني) (310–379م) باستقدام الطبيب (ثيودوسيوس) وبنى بيمارستان على نمط ماكان في الإسكندرية وأنطاكية، وبعد

(1) كمال السامرائي: مختصر تاريخ الطب العربي، ص 66.

إغلاق البيزنطيين مدرسة الرها التي تتبع مذهب النساطرة المحظور وقتها هاجر علماء تلك المدرسة إلى جنديسابور وحملوا معهم المراجع، والمصادر اليونانية التي شملت الكتب الطبية مثل مؤلفات (أبقراط وجالينوس)، وقد بلغت جنديسابور ذروتها في عهد كسرى أنوشروان (531–579م) عندما استقدم عدداً من الأطباء الهنود وكتبهم ليضيف إلى التراث الفارسي وللطب.[1]

وقد قام (أنوشروان) ببناء بيمارستان ضخم تحول إلى نموذج يحتذى فيما بعد واستطب النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده بأطباء جنديسابور كالحارث بن كلدة، وقد أفادت الحضارة الفارسية العلوم الطبية عند العرب أيما إفادة نتيجة التأثير القوي لمدرسة جنديسابور الطبية التي أفاضت بكتبها وممارساتها الطبية على الأطباء العرب في العصر الأموي والعباسي الباكر، وقد قام الحكام العرب باستقدام العديد من أطباء جنديسابور مثل: (جورجيوس بن بختشيوع، وعيسى بن شهلاتا، وسابور بن سهل، وعيسى بن صهاربخت) وغيرهم.

الطب والتداوي عند اليونانيين القدماء

(حوالي القرن السادس قبل الميلاد وحتى القرن الرابع قبل الميلاد):

لقد اهتم الأطباء اليونان بنتاج الأمم السابقة كمصر وبلاد النهرين[2] فدرسوا أعمالهم عن قرب، نرى ذلك في إشارات (هوميروس) صاحب (الإلياذة والأوديسة) على مقاطع مقتبسة من أساطير وحكايات خرافية مصرية بالمثل نرى أن (أبقراط) أبو الطب قد استلهم برديات تحوي الكثير من النباتات الطبية والعقاقير المركبة لكننا نلاحظ أن اليونان الأقدمين قد زادوا على طب تلك الحضارات الكثير، نظراً لأن عقلية اليونان كانت تميل إلى البحث في النظر الفلسفي، لذا فإن الإنجازات اليونانية في علوم الطب قد تميزت عن غيرها بميلها إلى الترتيب المنهجي والبحث الفلسفي في أسباب العلل والنتائج المترتبة عليها.

سادت في العصر اليوناني طريقتان للعلاج إحداها تعالج المرضى باللجوء إلى السحر والكهانة واستخدام التمائم والتعاويذ لطرد تأثير الأرواح الشريرة واستجلاب رضا الآلهة، وطريقة أخرى تستخدم أساليب الطب الطبيعي في التشخيص المنهجي واستخدام العقاقير والأدوية المركبة، نبغ في الحضارة اليونانية الكثير من الأطباء منهم (اكرون وستياس) الذي أدخل الطب اليوناني إلى بلاد فارس، و(أنبادوقليس) و(أوريفيون) الذي يعتبر أول من قال إن الشرايين مملوءة بالدم مثل الأوردة، وكذلك (ديموسيدس) الذي عالج الملك دارا الثاني الفارسي لكن أشهرهم على الإطلاق (أبقراط) وهو أول من بوب الطب ورتبه وبناه على أسس صحيحة إلى درجة أن اللاحقين له قد أسموه (أبو الطب)، وقد تبنى نظرية الأخلاط الأربعة

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص42-44.

(2) جورج سارتون: تاريخ العلم ـ دار المعارف القاهرة، ص58-59.

وطورها بما يجعلها مناسبة للتطبيق، وكذلك قد خلف قسماً للأطباء مازال يعمل بتعاليمه للوقت الحالي في معظم البلدان.[1]،[2]،[3]

إن الطب اليوناني لم يقف عند المبادئ العامة للتشخيص، والتنبؤ بالأعراض لكن قد امتد إلى إحداث العديد من الابتكارات في مجالات علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء. كان أطباء اليونان يعرفون الطب على أنه قياس وتجربة، وكان أبقراط يعرف أسباب المرض بالبعيدة عندما تكون ناتجة من تأثير الجو والأطعمة، وأخرى بالقريبة نتيجة فساد في الأخلاط الأربعة التي يتكون منها الجسد، وهي: الدم والصفراء والبلغم والسوداء.

وقد استفاد الطب اليوناني من تقدم علوم الصيدلة والعقاقير في مصر القديمة فاقتبسوا منها الكثير، وأضافوا العديد من الاكتشافات المهمة بوصفهم تأثير العديد من النباتات كتأثير نبات الصفصاف على النساء في الولادة، وجدير بالذكر أن الصفصاف يحتوي على مادة السالسيلات، وهي المادة الفعالة في عقار الأسبرين المسكن للآلام، والجدير بالذكر أن المسلمين قد قاموا بترجمة إنتاج أبقراط العلمي، ومن عمل بسيرته من الأطباء اليونان الذين طوروا منهجه وجعلوا فن الطب مشاعاً بين طبقات المجتمع، وبهذا أنقذ الأطباء العرب تراث اليونان الطبي من الضياع ونقحوه من الأغلاط بل زادوا عليه وقدموه للحضارات التي تلتهم ومنها حضارتنا المعاصرة.

الطب والتداوي عند الرومان

(حوالي القرن الثاني قبل الميلاد وحتى القرن الرابع الميلادي):

ورث الرومان الطب اليوناني وبقيت روما ومدن الإمبراطورية الرومانية تعمل بأحكام الطب اليوناني، وقد تميز الرومان باستعمال الرياضة والحمامات الساخنة، ونتيجة لانتشار الحروب في تلك الفترة فقد نشأت الحاجة إلى الجراحة وفنونها، فنجد أن الرومان قد مارسوا العديد من عمليات البتر، والكي في حالات الغرغرينة، وكان أول طبيب يوناني يظهر في روما هو (أركاجاتوس) الذي كان صديقاً للقائد العسكري (لمارك انطونيوس) وكذلك الطبيب (أسكليبادوس) يوناني الأصل روماني المولد الذي كان أول من شق القصبة الهوائية، وكذلك كان أول من وصف علامات الالتهاب من تورم وحرارة وألم واحمرار، والطبيب (تسالوسٍ) الذي كان طبيباً (لنيرون)، أما الطبيب (سورانوس) من مدينة افسوس فقد كان مختصاً بأمراض النساء والتوليد، وهو أول من استعمل آلة لثقب جمجمة الجنين.

كان (جالينوس) هو أشهر الأطباء الرومان[4] الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، وقد كان يوناني المنشأ، إذ ولد في مدينة برجامون عام (131م) وتوفي عام (200م)، وقد

(1) كمال السامرائي: مختصر تاريخ الطب العربي، ص 91 و120.

(2) ابن أبى أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 47.

(3) حسن كمال: الطب المصرى القديم (ج 1)، ص 16.

(4) كمال السامرائي: مختصر تاريخ الطب العربي، ص 91 و120.

جمع أعمال (أبقراط)، وحافظ عليها من الضياع، وقد كان عالماً تجريبياً، حيث كانت له بحوث واسعة في تشريح الحيوان، وقد توسع في تشريح العضلات، لكنه أخطأ في وصف القلب، حيث اعتقد أن القلب له تجويفين هما البطينين وأن الدم يمر خلالهما عبر فتحات غير منظورة، وله في الجراحة إنجازات مهمة مثل علاج الفتق السري وإزالة حصوات المثانة، ويذكره (ابن أبي أصيبعه) في طبقات الأطباء بأنه كان خاتم الأطباء الكبار المعلمين[1] ولم يجيء بعده من الأطباء إلا من هو دون منزلته ومتعلم منه، وقد ترجم الأطباء العرب المسلمون العديد من أعماله ونقدوها وأضافوا الكثير إليها، كابن سينا، والرازي، وابن النفيس.

الطب والتداوي في مدرسة الإسكندرية القديمة

(من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الرابع الميلادي):

أنشأ الإسكندر المقدوني العديد من المدن في العالم القديم باسمه وبرزت منها واحدة في سماء الحضارة تلك التي هي في وادي النيل، وقد أقيم متحف ومكتبة عظمى شملت مئات الآلاف من المخطوطات النادرة في شتى العلوم والمعارف من أجلها الطب، وقد أدى انفتاح السكندريين إلى اتخاذ أساليب منفتحة تجيز تشريح الجسم البشري، وقد برز (هيروفليس) الذي يطلق عليه أبو التشريح، فقد برع في تشريح الجهاز العصبي والسحايا وتجاويف الدماغ وكذلك (ايراستونيس) الذي زامل هيروفليوس، وقد قام بدراسة الجهاز الدوري من قلب وأوعية دموية وصحح أخطاء أرسطو التشريحية، ووصف كذلك صمامات القلب، وأول من أشار إلى الشعيرات الدموية، وهي تلاقي الشرايين والأوردة وبلغ شأواً عظيماً لدرجة أن الملك سلوقس المعاصر له في سوريا استدعاه لمعالجة ابنه (انطيخوس)، وقد تأثر العرب المسلمون بمدرسة الإسكندرية الطبية، واستقدموا الأطباء منها الذين قاموا بترجمة الكتب اليونانية الطبية لإثراء الطب العربي في تلك العصور الزاهرة.[2]

الطب والتداوي عند البيزنطيين

(حوالي من القرن الثالث الميلادي إلى القرن السابع الميلادي):

ورثت الإمبراطورية البيزنطية إنجازات ما سبقتها من الحضارة اليونانية والرومانية من علوم وفنون ومن ضمنها العلوم الطبية، لكن نتيجة الانقسامات المذهبية سيطر رجال الكنيسة على الطب فقد قاموا بمطاردة الأطباء النساطرة الذين هربوا إلى فارس وأسسوا مدرسة جنديسابور، وقد اعتبر الكهان النصارى إن الطبيب الذي يخرج عن شريعتهم التي كانت قائمة على الأدعية والصلوات هو من الهراطقة، بل حرموا على الرهبان تناول العقاقير

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 272.

(2) كمال السامرائي: مختصر تاريخ الطب العربي، ص 144 و145.

الأرضية، ثم أباحوا للعوان تدمير الكتب اليونانية على اعتبار أنها من بقايا الوثنية، ثم كانت ثالثة الأثافي بإغلاق مدرسة أثينا في عصر الإمبراطور (جوستنيان)، وكان أول من برز من أطباء ذلك العصر هو (أوربيز) الذي كان معلم الإمبراطور (جوليان)، وقد ألف موسوعة طبية كبرى قام بتناول وشرح ونقد أسلافه من الأطباء العظام، ووضع كذلك كتاباً في علم الأدوية ظل مستعملاً في الغرب مدة طويلة، وجاء بعده (ايتوس)، ووضع كتاباً في الصيدلة وأكد على ضرورة الدقة في التشخيص، ثم ظهر (جاكوس) الطبيب النفسي الذي أدخل ولأول مرة وظيفة طبيب الإمبراطور، وقد اهتم بالحمية الطبية فاستحق لقب المجدد وتلاه الطبيب (الإكسندر الترالي) الذي عاصر الإمبراطور (جوستنيان)، وقد استخلص من نبات الخشخاش أدوية مسكنة للسعال والبلغم وتوسيع الشعب الهوائية، وقد علق أهمية كبرى على التشخيص الذي يعتمد على استجواب المريض، وفحص شكواه، ومن مؤلفاته، الكناش وكتاب المعد، وكتاب الماليخوليا.[1]

الطب والتداوي عند العرب قبل الإسلام:

قبل أن نتحدث عن المهنة الطبية في الحضارة العربية الإسلامية يجب أن نذكر في عجالة حال تلك المهنة قبل بزوغ فجر الدين الحنيف ذلك لإظهار التأثير القوي الذي أحدثه ظهور الإسلام في نواحي الحياة العربية، ومن بينها الطب والطبابة. كان العرب قبل ظهور الإسلام قبائل متناثرة في صحراء عظيمة بعيدة عن مراكز الحضارة العالمية المعاصرة في فارس وبيزنطة، وكذلك الهند والصين، ولكن البيئة العربية الصحراوية كانت نقية وأدى ارتفاع درجات الحرارة والجفاف إلى الحد من الكثير من الأمراض، لذا فإن المعرفة الطبية للعرب قبل الإسلام كانت من النوع الشعبي، وكذلك كانت محدودة وقاصرة، حيث إن القراءة والكتابة كانت مقصورة على البعض فكان انتقال العلم يمر شفاهاً عبر الأجيال.

انقسمت المعرفة المتعلقة بالنواحي الطبية إلى قسمين أحدهما يقوم على الكهانة والاستعانة بعلم التنجيم والتعاويذ والرقية والسحر، وكان في كل قبيلة رجل أو امراة يرجع إليه أفراد القبيلة للاستشفاء فيما يصيبهم من أمراض، ولكن الجهالة الضاربة أطنابها في جزيرة العرب وقتئذ أدت إلى الاستعانة بهؤلاء الكهان والسحرة لدرء تأثير القوى الشريرة والشياطين عن طريق اللجوء إلى العديد من أنواع التمائم والتعاويذ التي تسترضي القوى غير المنظورة بزعمهم[2]. كانت هناك مجموعة أخرى تعتمد على الوسائل الطبيعية في التداوي، كالكي بالنار أو بقطع الأعضاء التي امتد الفساد إليها، أو الضمادات والجبائر للكسور وقالوا بوصفات قائمة على تناول عسل النحل، وكذلك استخدام الأعشاب النباتية المتوافرة

(1) كمال السامرائي: مختصر تاريخ الطب العربي، ص308.
(2) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات، ص47.

في البادية وعلمتهم تلك الممارسات الشيء الكثير وازدادت مكانة هذه الفئة بمرور الزمن، واعتمد منهم الكثير على التمسك بنظام غذائي أو حمية، فنرى حكماءهم يتداولون أقوالاً تحث على الاعتدال في الطعام، حيث إن (المعدة بيت الداء) في رأيهم لكنهم يقررون أيضاً أن الحمية هي رأس الدواء، لكن تلك الممارسات لم تكن ناجعة لعلاج بعض الأدواء فنجدهم قد مارسوا الحجامة، وفصد الدم لإزالة الدم الفاسد في زعمهم، وكذلك قاموا بالكي أو ما أسموه بالعلاج الأخير، فقد كان يستعمل في الكثير من الحالات المرضية التي لا تستجيب للمعالجات، وكان تأثيره عبارة عن إحداث آلام في المنطقة السطحية التي تعلو العضو المصاب تلهي المريض حتى ينسى ألمه الأصلي.(1)

تلك كانت حالة الأعراب الطبية القاطنين في الفيافي والقفار، أما العرب الذين يسكنون في المدن المتاخمة للفرس والروم في الحيرة وبصرى الشام، فقد اختلطوا بأطباء تعلموا في مدارس طبية شهيرة كجنديسابور وأنطاكية، وقد سافر بعض سكان تلك المدن إلى تلك المدارس الطبية ونهلوا من علومها، وهناك استزادوا من تلك العلوم وتدربوا على الممارسة الطبية. ومن الأطباء الذين عاشوا في عصر ماقبل البعثة النبوية أسماء لمعت في سماء الطب نذكر منها، (ابن حذيم)، و(زهير بن جناب)، و(رباح بن عجلة)، و(الأبلق السعدي النجدي)، و(ابن أبي رمثة التميمي) الذي كان مشهوراً بالجراحة، وكذلك (الشمردل بن قبقاب الكعبي) من نجران و(ضماد بن ثعلبة الأزدي)، وكان أشهر أولئك الأطباء قاطبة (الحارث بن كلدة) الثقفي الذي تعلم الطب في مدرسة جنديسابور ولقد عاصر النبي ﷺ ومات في زمن (معاوية بن أبي سفيان)، وكانت له معالجات كثيرة وتتناول الأخبار محاورته الشهيرة مع كسرى أنوشروان، وقد وردت في تلك المحاورة العديد من النصائح الطبية التي اشملت على مايعرفه العرب، وكذلك ماتتضمنه علوم اليونان الطبية، وما درسه في مدرسة جنديسابور الفارسية، أما ابنه (النضر بن الحارث بن كلدة)، فقد سافر وتعلم مثل أبيه لكنه بقي على عداوته للإسلام حتى قتل في غزوة بدر.(2)

الطب والتداوي في عصر النبوة (610-632م):

جاء الإسلام فأحدث انقلاباً في العديد من المفاهيم المتوارثة، ومنها بالطبع مهنة الطبابة، لأن الإسلام قد نظر إلى الإنسان الذي هو بؤرة اهتمام العلوم الطبية على أنه مكون من شقين متكاملين لا ينفصمان، شق مادي يتأثر بما حوله من العوامل الطبيعية، وآخر غير مادي أو روحي ينفعل بمؤثرات غير مادية، لذا فإن توجه الدين الحنيف لوضع مفاهيم شاملة تنظم العلوم الطبية ومهنة الطب بصفة خاصة نراه جلياً في حث الرسول ﷺ بطلب الخبرة الطبية

(1) البدري عبد اللطيف: الطب عند العرب ـ موسوعة وزارة الإعلام العراقية، ص28.
(2) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص48.

من أهلها والمتمرسين بها، ولفت الانتباه إلى وجود طرق علاجية غير مادية كذلك كالالتجاء إلى الخالق الكريم بالدعاء والابتهال لرفع البلاء كما جاء في الآية الكريمة ﴿أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ سورة النمل آية، وكذلك الأمر بالتصدق لمعالجة المرضى كما في الحديث الشريف عن أبي أمامة (داووا مرضاكم بالصدقة) قال الشيخ الألباني (حديث حسن)، عندما نقارن ذلك التوجه الحكيم للرسول ﷺ في مجال الصحة بما كان عليه قبائل العرب في صدر الإسلام، حيث لم تعن بشيء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها إلا علوم الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس إليها.

إن الشريعة الإسلامية قائمة على جلب المصالح ودرء المفاسد والمضار ودفع الحرج والمشقة في التكاليف، لذا فإنها راعت حاجة الإنسان للتداوي والمعالجة فأباحت الطب واستخدامه بما يحقق حفظ النفس البشرية التي يشكل حفظها مقصداً من مقاصد الشريعة الإسلامية. وتعلم الطب من فروض الكفاية التي يجب على طائفة من المسلمين القيام بها لوجود حاجة ماسة داعية للتداوي والمعالجة، لذلك كان الحكم على من عالج مريضاً فآذاه ولم يكن معروفاً عن هذا المعالج أنه ماهر بالطب متمرس فيه فإنه يتحمل المسؤولية عن ذلك، وقد روى ابن جريج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن الرسول ﷺ قال «من تطبب ولا يعلم منه طب فهو ضامن» (حديث حسن)، وجدير بالذكر أن النبي ﷺ قد أشار بقوله (أنتم أعلم بأمر دنياكم) ليوضح أن هناك من الأمور الكونية من هي قائمة على قواعد لاتدخل فيها الرسالة السماوية مباشرة، لكنه أتى ليضع أطراً أخلاقية تنتظم بها الحياة وتشمل بلا شك النشاط البشري عامة وجميع صنوف المهن الإنسانية ومن بينها الطب والتداوي.

وفي الأحاديث النبوية الشريفة الكثير من الإشارات التي تحث على التوجه لأهل الاختصاص والبعد عن التمسك بالأفكار الخرافية عن منشأ الداء، بل نجده يأمر بالتداوي ويقرر بأن لكل داء دواء ونجده في ذات الوقت يحث الأطباء إلى البحث الدقيق عن مسببات الداء، وذلك لمعرفة أنسب أصناف الدواء المناسبة لهذا الداء، وهذا بلاشك يعتبر أساساً من أسس العلم التجريبي في الطب، وهذا المفهوم نراه أيضاً في قول الرسول ﷺ «إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء» (رواه الحكم) عن ابن مسعود، وكذلك في قوله ﷺ «تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد الهرم» (رواه أحمد والترمذي وأبو داود ونجده) ﷺ كذلك يؤكد نظرية السببية المرضية في قوله عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال «لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله» صحيح مسلم، وقد اهتم المسلمون أيما اهتمام بوصايا الرسول ﷺ بما ذكره عن أصناف الأغذية والأشربة التي تستخدم في صنوف عدة من الأمراض وجمعوه في ما يعرف بكتاب الطب النبوي للإمام

ابن القيم الجوزية، وقد أثر عن الرسول الكريم ﷺ أنه كان يأمر بالتداوي بالتمر والأعشاب وكذلك عسل النحل.

وقد أمر الرسول الكريم ﷺ بانتقاء أفضل الأطباء المعاصرين وأمهرهم وأعلمهم بخبايا المهنة الطبية عندما اختبر رجلين من بني أنمار قبل أن يعالجا رجلاً من الصحابة قد جرح بقوله لهما (أيكما أطب) (موطأ مالك). ولم ينه الرسول ﷺ عن الالتجاء لأطباء من غير المسلمين مع شرط مهارتهم عندما وصى (سعد بن أبي وقاص) بالذهاب إلى الطبيب العربي الذي تعلم في مدرسة جنديسابور الفارسية (الحارث بن كلدة الثقفي)، وهناك أيضاً حادثة مشابهة عندما بعث الرسول الكريم ﷺ إلى (أبي بن كعب) طبيباً فقطع منه عرقاً ثم كواه عليه. ومن المتطببين أيضاً في عصر النبوة (النضر بن الحارث بن كلدة) الذي ورث الطب من أبيه (الحارث) وتعلم حيث تعلم، و(ابن أبى رمثة الجراح) و(الشمردل بن قباب الكعبي النجراني) الذي شهد للنبي ﷺ بالباع الطويل في الطبابة[1]، وأخيراً (ضماد بن ثعلبة الأزدي) من أزد، وهو الذي كان يدعى ضماد مكة، وقد جاء معتمراً فسمع كفار قريش يقولون: محمد مجنون فأراد أن يعالج النبي لكن النبي ﷺ تكلم بكلمات كانت لها وقع السحر على (ضماد) فأسلم وشهد شهادة الحق وبايع النبي ﷺ على نفسه وقومه.

والملاحظ أنه في العصر النبوي لم تحدث تفرقة بين الذكر والأنثى في اتخاذ الطبابة كمهنة فنجد أن هناك طبيبات وآسيات، وتمثل الطائفة الأولى (رفيدة الأسلمية) قد تميزت واشتهرت لإتقانها فن التداوي، وأصبحت خيمتها أول مستشفى ميداني في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية[2]، وهذا يعتبر سبقاً في عالم الطب. ولم تكن (رفيدة) هي الوحيدة التي مارست تلك المهنة الشريفة، فقد ساهمت العديد من أمهات المؤمنين في العناية بجرحى المسلمين ومؤاساتهم، مثل (أم سلمة الأنصارية) و(أم عطية الأنصارية) التي أمرها النبي الكريم ﷺ بأن تغسل ابنته زينب، ويروي عنها (محمد بن سرين) أنها قالت «غزوت مع النبي ﷺ غزوات فكنت أصنع لهم طعامهم وأخلفهم في رحالهم وأداوي الجرحي وأقوم على المرضى». وأمر النبي ﷺ بإرسال الصحابي الجليل (سعد بن معاذ) بعد إصابته بسهم أثناء موقعة الخندق إلى خيمة رفيدة الأسلمية، ونذكر أيضاً (الشفاء بنت عبد الله القرشية) التي اشتهرات بعلاج النملة التي يعتقد إنها نوع من الحساسية الجلدية أو الإكزيما، و(كعيبة بنت سعد الأسلمية) التي كانت لها خيمة علاجية، مثل (رفيدة)، وتمثل طائفة الآسيات أي اللاتي يعملن على تضميد الجراح، وجبر العظام وإسعاف المرضى، وهناك (نسيبة بنت كعب المازنية) التي ساهمت بدور فعال أثناء غزوة بدر، و(أميمة بنت قيس الغفارية) التي أدت دوراً كبيراً في إسعاف جرحي غزوة خيبر و(الربيع بنت معوذ)، و(أم سنان الأسلمية).[3]

(1) ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة ج2، ص156.
(2) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص40.
(3) أحمد شوكت الشطي: العرب والطب، منشورات وزارة الثقافة، ص40.

وقد اهتمت السنة النبوية المشرفة بصحة الجسم ونظافته، وكذلك رعاية الجلد عن طريق الوضوء والغسل، وكذلك رعاية الفم والأسنان باستعمال السواك، وتعتبر الصلوات الخمس نوعاً من الرياضة البدنية اليومية، وقد حث الرسول ﷺ على الاعتدال في المأكل والمشرب ونهى عن الإسراف، ولم تهمل التعاليم النبوية ما للحالة النفسية من أثر على صحة الجسد فنجدها تأمر المريض بالصبر والدعاء، وذلك لإزالة عوامل الإجهاد التي تساعد على تفاقم المرض. وكذلك حرص الشرع على إبقاء البيئة المحيطة بالإنسان نظيفة وخالية من عوامل انتقال الأمراض، وذلك بمنع التبول في الماء الراكد، أو في الطريق أو تحت ظلال الأشجار وكذلك بتغطية آنية الشراب، وعدم التنفس أو النفخ فيها، وقد نهى النبي ﷺ عن تناول لحم الخنزير، لأنه يسبب الكثير من الأمراض، وكذلك حرم المسكرات والخمور لأثرها المدمر على صحة الإنسان.

الطب والتداوي في العصر الأموي (662-750م):

على الرُّغم من أن العصر الذهبي للعلوم والحضارة الإسلامية كان في العهد العباسيّ، فقد كان للأمويين دورٌ بارز في التمهيد لهذا الازدهار والتهيئة له، إذ أنهم أرسوا أسس التراث العلميّ الذي بنى عليه العباسيون، ومن أهم هذه التطوُّرات التي هيأت للنهضة العلمية العباسية حركة التعريب في عهد (عبد الملك بن مروان)، كما عمل (الوليد بن عبد الملك) أيضاً على إنشاء المدارس والمستشفيات تحت رعاية الدولة التي ساهمت هي الأخرى في النهضة الإسلامية اللاحقة، وقد كان من أهم الإنجازات في تطوير الحركة العلمية في العصر الأمويّ تدوين العلوم وتعريبها للمرّة الأولى، وهو ما أتاح لعلماء العرب والمسلمين الاطلاع عليها بسُهولة، كما أن اتساع الدولة ودخول شعوب جديدة في الإسلام أتاح التعرف على حضاراتها والاستفادة من تلك المعارف في تطوير الحضارة الإسلامية.

كان العرب على درجة عالية من الوعي، فلم يمسوا المؤسسات العلمية والدينية التي كانت قائمة في البلاد المفتوحة بأي سوء، لهذا تابعت مدرسة جنديسابور رسالتها في نشر العلم زمن الخلافة الأموية، وانطلق منها العلماء، وخاصة الأطباء إلى دمشق بناءً على دعوة الخلفاء والأمراء أو طلباً للرزق، وقد قام بعضهم إلى جانب ممارسة المهنة بترجمة بعض الكتب من اللغة السريانية، وهي لغة العلم في ذلك الوقت إلى اللغة العربية التي هي لغة الدولة ويذكر (ابن أبي أصيبعه) في كتابه الموسوعي طبقات الأطباء أن (ماسرجويه)، وهو طبيب يدين باليهودية، ومترجم بارز أيضاً قد حمل على عاتقه ترجمة الموسوعة الطبية اليونانية التي تسمى (الكناش) من لغتها الأصلية إلى اللغة العربية، وكان هذا في عهد الخليفة (مروان بن الحكم)، واعتمد خلفاء هذا العصر على الأطباء الروم في هذه المدن، فكانوا بذلك من أول الحكام العرب الذين أدخلوا الأطباء الأعاجم إلى حاشيتهم.(1)

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج2، ص24.

كل هذه العوامل السابقة أدت إلى حث طلاب العلم من البلاد المفتوحة إلى أن ينضموا إلى تلك المؤسسات العلمية الجديدة لكي يدرسوا مختلف أنواع العلوم التجريبية، وبالطبع كانت الدراسات الطبية واحدة منها، وفي هذا العصر اكتملت مقومات المهنة الطبية بوجود أطباء مهرة لديهم ثقافات متعددة ومراجع طبية ودعم من الحكام المعاصرين، فكان من الطبيعي أن تبدأ المستشفيات أو البيمارستانات في الظهور لخدمة المرضى. يذكر بعض المؤرخين أن الخليفة الأموي (معاوية ابن أبي سفيان) أول من أنشا بيمارستان بشكله المنظم(1)، وذلك تحت المئذنة الغربية من الجامع الأموي في عام (660–679م) وتشير الأبحاث التاريخية إلى أن أول من بنى البيمارستانات في العالم الإسلامي هو الخليفة الأموي (الوليد بن عبدالملك) المتوفى في عام (715م)، فقد اكتمل في عصره بناء مستشفى كبير في دمشق سنة (707م) خُصِص للمصابين بمرض الجذام(2) العضال، وكان ذلك البيمارستان يقع بالقرب من الباب الشرقي لمدينة دمشق عاصمة الخلافة وقتئذ مزوداً بما يكفي من الأدوية، وحاجات المرضى المختلفة من طعام وشراب وحتى الملابس، وقد اهتم الخليفة (الوليد بن عبد الملك) بالمصابين بمرض الجذام، وبالعجزة والعميان، وقال «لا تسألوا الناس وأعطى كل مُقعَد خادماً وكل أعمى قائداً»، ومن الطريف أن نذكر أن (زياد بن ابيه) والي الأمويين على البصرة قد كتب صحيفة دواء لداء الكلّب وعلقها على باب المسجد الأعظم ليتعرف عليه الناس ويتعالجون به حينما تفشى داء الكلّب في البصرة على شكل وباء في تلك الأيام.

ولم تنفرد دمشق بالطبع باحتوائها على أماكن لعلاج المرضى، لكن التاريخ يذكر أن هناك بعض المستشفيات التي نالت أيضاً شهرة كبيرة في ذلك العصر المبكر، منها البيمارستان الصغير الذي كان بمدينة دمشق، وبيمارستان آخر يقع في زقاق القناديل بمصر.

وبالطبع لايكتمل الحديث عن المهنة الطبية بدون ذكر العاملين بها من أطباء مهرة، فبالرغم من قلة المعلومات عن هؤلاء الأطباء مقارنة بنظرائهم في العصرين العباسي والأندلسي، فقد أمدتنا المصادر التاريخية بأسماء البعض، نذكر منهم (ابن آثال النصراني)، وقد اختاره معاوية ـ رضي الله عنه ـ طبيباً خاصاً به وكان يعهد إليه بعلاج أهل بيته وكان خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة والسموم، وكذلك (أبو الحكم الدمشقي النصراني)، وقد طلب خدماته الطبية العديد من خلفاء بني أمية بدءاً من (معاوية بن أبي سفيان) وحتى (الوليد بن عبد الملك)، ثم جاء بعده ابنه الحكم الدمشقي، وقد عمر مائة وخمسة من السنوات وأدرك حكم بني العباس حتى توفي في عصر (المأمون) عام (805م)، ومن الأسرة الحاكمة الأموية نجد أن الأمير (خالد بن يزيد بن معاوية) توفي عام (704م) قد تلقي الطب على يد (مريانوس واسطفانوس)

(1) القلقشندي أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ص431.
(2) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص60.

من رهبان مدرسة الإسكندرية الطبية، وكذلك (يحيى النحوي الديلمي) كما أخبر (البيهقي)، وقد أمر ذلك الأمير بترجمة بعض الكتب اليونانية في الطب للعربية.(1)

وفي عصر الخليفة (عبد الملك بن مروان) نجد مثالاً آخر وهو (تياذوق الرومي) الذي كان مقرباً من الرجل الأول في الدولة وهو (الحجاج بن يوسف الثقفي)، وقد كان كريم الخلق ذا نوادر مستحسنة في الطب، له كتاب إبدال الأدوية، وكيفية دقها وإذابتها وقد شاركه في خدمة الحجاج الطبيب (فراتا بن شحناتا)، وهناك أيضاً الطبيب العربي من بني فراس (عبد الملك بن أبجر الكناني)(2) الذي كان أستاذاً بمدرسة الإسكندرية في زمان الخليفة عمر بن عبد العزيز، وقد اعتنق الإسلام على يده، ومن أشهر مقالاته في الطب: إن المعدة حوض الجسد والعروق، و(بدارقس) الذي كان طبيباً رومياً، وقد تميز في فن الجراحة إذ أجرى عملية جراحية بارعة في وجه السيدة (سكينة بنت الحسين) رضي الله عنها لاستئصال ورم أسفل إحدى عينيها وقد شفيت ولم يبق إلا موضع الجرح، وكذلك (أحمد بن إبراهيم) الذي كان طبيب الخليفة الأموي (يزيد بن عبد الملك)، وجدير بالذكر أن النساء قد أسهمن أيضاً في إثراء المهنة الطبية حيث نجد (زينب) طبيبة بني أود من عشيرة (أود كهلان) التي كان لها خبرة عظيمة في أمراض العيون والجراحات.(3) في ذلك العصر كانت معلومات أطباء العرب والمسلمين محصورة في الحفاظ على الصحة، ومنهج الوقاية من الأمراض الوبائية، وعمل بعض العمليات الجراحية البسيطة.

الطب والتداوي في العصر العباسي (750-1258م):

بعد غروب شمس الدولة الأموية بزغت إلى الوجود بواكير حضارة زاهرة ألا وهي الحضارة العربية الإسلامية في عهد العباسيين الذين أكملوا النهج الحضاري، وعملوا على تأسيس دولة قوية مترامية الأطراف تمتد من تخوم الصين وأواسط آسيا شرقاً إلى شواطئ المحيط الأطلسي غرباً، وكانت درة هذه الحضارة مدينة بغداد، دار السلام التي ازدهر فيها العلم والثقافة والعمران والتي اجتذبت أنظار كافة الشعوب الجديدة التي انضوت تحت لواء الخلافة العباسية، وكان منهم ممن عاشوا في ظل الحضارة الفارسية التي سادت أراضي فارس والعراق، والتي تحتفظ بتراث خاص ساهمت في تكوينه الحضارتان الصينية والهندية، وكذلك الحضارة البيزنطية الرومية التي كانت تسيطر على البلدان المطلة على حوض المتوسط، وهي ذات أصول يونانية رومانية وأثمر هذا التزاوج والاختلاط عن آثار إيجابية أدت إلى نهضة العلوم والآداب ومنها الطب بالقطع.

(1) ابن النديم: الفهرست، ص354.
(2) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج2، ص125.
(3) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص61-63.

إن كان للدولة الأموية فضل الفتوح والانتشار والاتصال بحضارات الشعوب التي سبقتها فإن للخلافة العباسية دورها القوي في رعاية هذه الحضارات والعمل على تقويتها وازدهارها، فنجد أن المسلمين الأوائل قد نقلوا وترجموا إلى اللغة العربية هذا التراث الوافر ثم جاءت مرحلة استيعاب ما قد ترجم ودفعهم هذا إلى الاتجاه للإنتاج والإبداع حتى وصلوا إلى مرحلة التأليف والإضافة ليقدموا للعالم ما عرف بالنهضة العلمية الكبرى التي لها خصائص ثلاث: التميز والأصالة، والدور البارز في تطور البشرية فمع بداية العصر العباسي، بدأ العرب في نقل العلوم الطبية من مصادرها اليونانية مباشرة، بعدما عرفوا ما في الترجمات السريانية من ضعف، فقد أخذت الترجمة طابع الشمول فبعد أن كانت محصورة في نطاق رغبة الخلفاء لإشباع النهم العلمي أصبحت سنة من سنن الدولة ومنهجاً من مناهج الأفراد، والأسر عندما استشعروا الحاجة إلى علوم ومعارف من خالطوهم من شعوب جديدة فقربوا العلماء والأطباء والحكماء وأجزلوا لهم العطاء.

كان (أبو جعفر المنصور) ثاني خلفاء بني العباس مولعاً بالطب والنجوم والفلك والهندسة فنراه يخاطب ملوك الروم يطلب منهم ماليديهم في هذا الشأن، ونجده كذلك قد استقدم (جورجيس) رئيس أطباء مدرسة جنديسابور العريقة ليكون طبيبه الخاص لما شاع عنه من مهارته الطبية[1]، وكان ذلك الطبيب يجيد اليونانية والفارسية فقام بترجمة كثير من كتب الطب، وسار أولاده وتلاميذه مثل (بختشيوع وسرجيس) على نهجه في الترجمات الطبية. ولم يتخلف (هارون الرشيد) عن نهج من سبقوه من خلفاء من بني العباس فنراه قد اختار من أبناء مدينة عمورية الرومية مجموعة من العلماء والمترجمين وضمهم إلى حاشيته وطلب منهم انتقاء أمهات الكتب، ولم يكتف بذلك بل أمر أكبر أطباء العصر (يوحنا بن ماسوية) بترجمتها إلى اللغة العربية واختيار من يريد في سبيل إتمام تلك المهمة وطلب (الرشيد) من طبيبه الهندي (منكه) أن يتولى نقل الكتب الطبية من الهندية للعربية، وقد ساهم معه في النقل (ابن دهن) الذي كان يشرف على إدارة بيمارستان البرامكة ببغداد، أما (المأمون) الذي بزغت في عهده صنوف العلوم فنجده قد انتهج سياسة فريده في سبيل الحصول على الكتب فأرسل بعثات من المترجمين إلى بلاد الروم منهم (ابن البطريق) وكان هؤلاء المبعوثون يتصيدون نفائس الكتب ويساومون أصحابها بالشراء أو بالنقل.

لم يتوقف اهتمام الحكام على الترجمة والنقل بل امتد ذلك الولع إلى الأفراد والأسر، يشهد على ذلك ماقام به (عبد الله بن المقفع) الذي نقل بعض الكتب الطبية، و(أبو يحيى بن البطريق) و(حنين بن إسحاق) و(حبيش بن الحسن الأعشم)، أما بالنسبة للأسر التي عنيت بالترجمة سواء بنفسها أو استقدمت غيرها لتلك المهمة فهي أكثر من أن تحصى أو تعد، نذكر منها (آل ماسرجويه) اليهودية سريانية اللغة، و(آل موسى بن شاكر) الذين تبنوا (حنين بن إسحاق العبادي) الذي صارت له مدرسة في الترجمة بعد ذلك.

(1) القفطي: تاريخ الحكماء، ص 158.

ويأتي ذكر أطباء ذلك العصر، ويمكننا أن نضعهم في طبقات متوالية كانت أولاها طبقة الرواد والأوائل وكان أولهم (جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع) الذي كان رئيساً لمدرسة جنديسابور الفارسية، واستدعاه المنصور ليكون طبيبه الخاص عام (765م) لمعالجته من اضطراب في معدته، وبقي حتى عام (769م)، ومن مؤلفاته (الكناش) وهو من أوائل الكتب التي ترجمت في بغداد، وقام بذلك (حنين بن إسحاق) وخلفه ابنه (بختيشوع) الذي استدعاه الرشيد وولاه رئاسة بيمارستان بغداد، وله كناش في الطب يدعى التذكرة في الطب، وتبعه (جبرائيل بن بختيشوع) حفيد (جورجيوس)، والذي اشتغل في بداية حياته ببيمارستان جنديسابور حتى استدعاه الرشيد، وبعد وفاته قام ذلك الطبيب بعلاج (الأمين والمأمون)، وتوفي عام (828م)، وله عدة كتب طبية منها (كتاب الباه) و(رسالة في الطعام)، وكان آخر تلك العائلة الطبية هو (بختيشوع بن جبرائيل).(1)

وظهرت كذلك عائلة من نوابغ الطب وهي (آل ماسويه) ومؤسسهم (ماسويه الخوزي)، والذي التحق ببيمارستان جنديسابور وعمل في صيدليتها يدق الأدوية، ثم صار طبيباً (للفضل بن الربيع البرمكي)، وقد توفي في عهد (المأمون)، وخلف (يوحنا وميخائيل) ابني ماسويه وعمل أولاهما في خدمة (الرشيد والمأمون) وصار في عصره رئيساً لبيت الحكمة عام (830م)، ودائرة الترجمة بها وخدم (المعتصم، والواثق والمتوكل) وكذلك جماعة البرامكة، ولقد توفي في عام (857م)، ومن كتبه (دغل العين) أي ما يضر العين ويؤذيها، وهو أول كتاب عربي في علم الرمد، وكذلك يؤثر عن هذا الطبيب أنه كان يدرس التشريح في أجسام القردة وله أيضاً نوادر الطب والحميات والأدوية المسهلة، ثم أتت بعدهم طبقة عصر المترجمين، وهم رهط جنديسابور السريانية، ومنهم (جبرائيل بن بختيشوع) ورهط العباديون العرب من أهل الحيرة وعلى رأسهم (حنين بن إسحاق) (توفي عام 873م)، وابنه (إسحاق) وابن أخته (حبيش)، وقد تتلمذ (حنين) على يد (يوحنا ابن ماسويه)، وذهب إلى بلاد اليونان ليتقن لغتها وعلوم الطب فيها، وقد عهد إليه الخليفة (المأمون) برئاسة بيت الحكمة، وكذلك بمهمة ترجمة الكتب اليونانية الطبية إلى العربية وله مولفات عديدة منها كتاب في تركيب العين وكتاب (المدخل) لعلم الطب أو كتاب (المسائل) ومقالات في العين.

وكان هناك رهط ثالث من أهل مدينة حران رئيسهم (ثابت بن قرة) الذي قربه الخليفة (المتوكل)، وقد توفي ثابت عام (901م)، وقد كان له معرفة بالعديد من اللغات منها العربية والسريانية والعبرية واليونانية ومن مؤلفاته (وجع المفاصل)، وكتاب (الحصى المتولد في الكلى والمثانة) (وجوامع الأمراض الحادة) لـ (جالينوس)، جاء بعده ابنه (سنان بن ثابت بن قرة)، ثم حفيده (ثابت بن سنان)، وقد ظهر في بغداد رهط ليس له موطن محدد ينسب إليه منهم (عثمان الدمشقي) و(ابن البطريق)، و(قسطاً ابن لوقا) و(اصطفين بن باسيليوس)، وقد اشتهر منهم (بن إسحاق الكندي) الذي اختاره المأمون وعهد إليه بترجمة العديد من

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات، ص 65-67.

الكتب الطبية والفلسفية اليونانية لأرسطو وغيره، وقد تميز في كلا العلمين حتى استحق لقب فيلسوف العرب، وله العديد من المؤلفات الطبية منها كتاب في البصريات والأدوية المركبة والبرص والمسهلات وكذلك في الحميات.(1)

وتلت طبقة المترجمين طبقة أخرى من المؤلفين الذين وضعوا مؤلفات طبية على نسق ما ألفه أطباء اليونان، ومنهم (على بن ربن الطبري) الذي توفي عام (861م)، وكان يتقن العربية والسريانية، وربما اليونانية والهندية أيضاً وخدم (المعتصم) في سامراء وهو أول المؤلفين العرب والمسلمين، حيث قام بوضع كتاب (فردوس الحكمة) ويمثل تلك الطبقة أيضاً (سنان بن ثابت بن قرة) الذي عهد إليه الخليفة (المقتدر) باختبار المتقدمين لمارسة الطب والحصول على إجازة رسمية بممارسة مهنة الطب والتداوي(2)، وينسب إليه إنشاء أول مستشفى للسجناء بأمر وزير الخليفة (المقتدر على بن عيسى الجراح)، وقد توفي (سنان) عام (942م) ومع الوقت، انتشرت ممارسة مهنة الطب حتى أنه بلغ عدد الأطباء في بغداد وحدها في زمن الخليفة العباسي (المقتدر) أكثر من 860 طبيب، وظهرت المصنفات التي تصنف الأطباء بحسب الفترة الزمنية التي عاشوا فيها، أو بحسب المناطق التي استوطنوها، ولعل أهمها كتابي (طبقات الأطباء والحكماء) (لابن جلجل) و(عيون الأنباء في طبقات الأطباء) (لابن أبي أصيبعه)، وفي هذا العصر قل استخدام الطب التقليدي الذي كان شائعاً في الجاهلية وصدر الإسلام الذي اعتمد على الكي كعلاج رئيسي عند العرب قبل الإسلام للآلام وتم الاتجاه بقوة نحو العلم التجريبي.

أسهم دور كل من المترجمين والمؤلفين في إنشاء جو عام من الثقافة الطبية أدت إلى بروز العديد من نوابغ الطب فيما يمكن أن نسميه العصر الذهبي للطب العربي الإسلامي منهم الطبيب (أبو بكر الرازي) المتوفى في الري عام (925م)، ويعتبر أفضل طبيب إكلينيكي أنجبته الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي وقد استقدمه الخليفة (المكتفي بالله) عام (905م)، حيث عينه رئيساً لبيمارستان بغداد، وقد اهتم بتدوين مشاهداته الطبية نتيجة البحث العلمي بإجراء التجارب على الحيوانات وعلى نفسه شخصياً، وقد سجل التطورات الإكلينيكية على المرضى، وقد كان بارعاً أيضاً في التشخيص المقارن وبلغ من إتقانه لعلوم التشريح وفنون الطب الأخرى أن انتقد بعض أفكار (جالينوس)، وكان من السابقين إلى التفرقة ما بين العرض والمرض وبين أنواع عدة من الحميات، وقد ألف أكثر من خمسين كتاباً في الطب منها كتاب (المرشد أو الفصول) و(رسالة في الجدري والحصبة)، وفي طب الأطفال وكتاب (المنصوري) الذي ضم آراء (الرازي) في الطب النظري(3)، أما في نطاق الكتاب العملي فإن كتاب (الحاوي يعتبر مرجعاً أساسياً لطلاب الطب في عصره، ويقع في ثلاثين جزءاً يهتم كل جزء بعضو، أو أكثر من أعضاء الجسد البشري كأمراض الرأس والعيون والأنف والأذن والتوليد وأمراض النساء.

---

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 163-169.

(2) القفطي: تاريخ الحكماء، ص 191.

(3) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 368.

ومن أطباء ذلك العصر نذكر (إسحاق ابن عمران)[1] ظهر في عصر (المعتمد على الله العباسي) (870–892م)، ومات عام (902م) وكان طبيباً لأسرة بني الأغلب في تونس وله أكثر من خمسة عشر مؤلفاً منها كتاب (الماليخوليا)، وكذلك ظهر (الفارابي) الذي اشتغل بالطب في عصر المقتدر العباسي في بغداد، ثم اتصل (بسيف الدولة الحمداني) وصحبه إلى دمشق عام (950م) ومنهم (أحمد بن الأشعث) الذي توفي عام (970م) و(علي بن أبي العباس المجوسي) وصنف كتاب (الملكي أو الكامل للصناعة الطبية) للملك (عضد الدولة) وهو من عشرين جزءاً، وكذلك (أحمد بن محمد الطبري) الذي كان طبيباً لركن الدولة[2]، ومن أهم مؤلفاته (المعالجات البقراطية) الذي حوى جزءاً عن طب الأطفال وعلم التوليد وهو من أول المؤلفات العربية في علم طب الأطفال، وهناك أحمد بن محمد البلدي، وألف كتاب (تدبير الحبالي والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم)، أما (ابن الجزار القيرواني) الذي توفي عام (980م)، وكان من أشهر مؤلفاته (زاد المسافر وقوت الحاضر)، وكتاب (طب المشائخ وحفظ صحتهم)، وكذلك (سياسة الصبيان وتدبيرهم) وقد نقل (ابن سينا) منه الكثير من الأفكار التي تتماشى مع مفردات طب الأطفال الحديث.

وتلاهم (أبو العلي بن الحسين بن سينا) الذي توفي حوالي عام (1037م)، ويعتبر رائداً من رواد الطب العالمي، حيث بدأ في وضع المؤلفات الطبية، وهو حديث السن لا يتجاوز الحادية والعشرين من عمره، وقد لقب (بالشيخ الرئيس)، وله العديد من الكتب أهمها (القانون في الطب) الذي شمل خمسة أجزاء أولها الأمور الكلية، ثم الأدوية المفردة والأمراض الجزئية والأمراض العامة والجزء الأخير في الأدوية المركبة. وجاء بعده العديد من الأطباء منهم (أبو محمد بن أحمد الفلكي البيروني)، و(ابن الهيثم) الذي ألف في علم البصريات، و(ابن جزلة) الذي عاصر (المقتدي) وله كتاب (تقويم الأبدان)، وتوفي عام (1080م)، و(علي بن عيسى الكحال) وله كتاب (تذكرة الكحالين) الذي كان مكوناً من ثلاثة أجزاء، الأول في تشريح العين، والثاني في أمراض العين الظاهرة، والثالث في أمراض العين الداخلية، وظهر في مصر العديد من الأطباء منهم (عمار بن علي الموصلي) الذي ألف كتاب (المنتخب في علاج العيون) و(أبو الحسن بن رضوان)، وقد قام بشرح بعض كتب (جالينوس)، ووضع رسالة في الجذام والنافع في كيفية تعليم صناعة الطب وعاصرهم (أبو الحسن بن بطلان) الذي توفي عام (1052م)، وله كتاب (تقويم الصحة) ومقالة في شرب الدواء المسهل وكتاب (المدخل إلى الطب) وكتاب (دعوة الأطباء).[3]

وتتابعت السنون وظهر العديد من الأطباء منهم (ابن هبل البغدادي) الذي توفي عام (1213م)، وأشهر كتبه (المختارات في الطب)، و(عبد اللطيف البغدادي)، وكان يقرأ الطب في الجامع الأزهر، ثم توجه للقدس، حيث قابل صلاح الدين، وقد خالف (جالينوس) في العديد من آرائه، وله مؤلفات عديدة في الطب منها مقالة في الحواس وجاء من بعدهم (ابن

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص429.
(2) نفس المصدر، ص381 .
(3) نفس المصدر، ص390.

النفيس) المتوفى في عام (1288م) الذي ألف في الفلسفة والطب، وكانت طريقته في الطب والتداوي تقوم على تنظيم تناول الغذاء أكثر من اعتماده على استخدام الأدوية والعقاقير، ويعتبر أوَّل طبيب نصح مرضاه بضرورة الاعتدال في تناول ملح الطعام، وقدّم أدق الأوصاف لأخطار الملح، وأثره على ارتفاع الضغط، وقد أصبح رئيس أطباء مصر، ومن كتبه الطبية (موجز القانون) الذي اختصر فيه شرح قانون ابن سينا، وقد تميز بمخالفة آراء (جالينوس) واكتشف الدورة الدموية الصغرى.(1)،(2)

وفي الشام ظهر العديد من الأطباء ومنهم (مهذب الدين الدخوار)(3)، وتتلمذ عليه (ابن النفيس) و(ابن أبي أصيبعه)، ويعتبر أول من أنشأ المدارس الطبية التي تهتم بعلم الطب النظري العام وقد جعل داره مدرسة للطب، وتوفي عام (1230م)، ومنهم (أبو الفرج بن القف) المتوفي عام (1286م)(4) له كتاب (الشافي في الطب)، وكتاب (العمدة في علم الجراحة)، أما (ابن أبي أصيبعه) فقد تدرب على يد (الدخوار)، وكذلك (ابن البيطار)، وقد قام بتأليف موسوعة عن طبقات الأطباء، وقد ذكر فيها سيرة أكثر من 400 طبيب من عصر اليونان القدماء وحتى زمانه، وقد توفي عام (1303م).

نادى الشرع الحنيف بالمساواة بين النساء والرجال وأباح للنساء الحصول على ما تشاء من علوم بارتياد مجالس العلم، أدى ذلك إلى ظهور العديد من النساء اللائي تميزن في علوم الطب نذكر منهن (بنت دهن اللوز الدمشقية)، وأخت الحفيد بن زهر وابنتها، وقد تميزتا في علم النساء والتوليد، وكانتا تدخلان بحرية على نساء المنصور العباسي(5)، وكذلك ابنة (شهاب الدين بن الصائغ) رئيس البيمارستان المنصوري بالقاهرة، وتولت رئاسته بعد والدها، وقد ساهمن بتعليم وإرشاد القابلات في علم التوليد وخاصة في حالات الولادة المتعسرة.

لا تعتبر دراسة تاريخ الطب الإسلامي كاملة مالم تشفع بدراسة وافية في تاريخ التعليم بهذه الصناعة، وهناك إشارات إلى بعض أطراف هذا الموضوع نقف عليها أحياناً في تراجم بعض الأطباء المسلمين، وفي بعض مؤلفاتهم العلمية، ولكنها لا تفي بالغرض المطلوب لكننا نلاحظ أن للأطباء المسلمين كتباً نستنتج من أسمائها أنها وضعت في بحث التعليم الطبي، إلا أن تلك الكتب لا تزال مع الأسف تعد من المفقودات.

من مظاهر الاهتمام بالعلوم بشكل عام وبالطب بشكل خاص نشوء مدارس للطب الإسلامي في عصر الدولة العباسية، حيث كانت هذه المدارس الطبية تنتهج نهجين في تدريسها لفنون الطب، الأول نظرياً، والآخر عملياً قائم على التدريب العملي، وكان النهج الأول

(1) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية، ص451.
(2) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين، ص 205 ـ 207.
(3) نفس المصدر، ص66.
(4) نفس المصدر، ص700.
(5) نفس المصدر، ص471.

يجده الطالب في المدرسة الطبية، والنهج الثاني عندما يلتف الطلبة حول الطبيب المعلم ذي الخبرة الواسعة، كما كان يفعل (الرازي) وهو يكشف على المرضى ويفحصهم أمام تلامذته بل ويصف لهم العلاج، وهذا يمكن أن نطلق عليه طريقة التدريب الإكلينيكي، وقد ظهر في أيام (هارون الرشيد) مركز لعب دوراً ضخماً في نشر العلوم الطبية وتوفير الكتب لطلابها، ذلك هو (بيت الحكمة) في بغداد وكان فيه مدرسة لتعليم الطب بأستاذية (ابن ماسويه)، ثم (حنين بن إسحاق) وكان فيها أيضاً مدرسة لتعليم أصول الترجمة من اللغتين اليونانية والسريانية إلى العربية، ولما كثر الأطباء من ذوي المستويات العالية، وأصحاب الكفاءات والتجربة في تعليم الطب، كثرت أيضاً مراكز التعليم في البيمارستانات التي كان أوسعها وأشهرها (البيمارستان العضدي) الذي عمل فيه ما يزيد على عشرين طبيباً أكثرهم من ذوي الخبرة في التطبيب والتعليم، كانت الكتب المدرسية في تعليم الطب من مؤلفات الأطباء العرب متوفرة بكثرة في أسواق الوراقين وكانت الكتب معتدلة الحجم، مثل كتاب (مسائل حنين)، وكتاب (المنصوري) للرازي أكثر تداولاً بأيدي طلبة العلم من الكتب الضخمة ككتاب (الحاوي) للرازي، وكتاب (الملكي) لابن المجوسي و(القانون) لابن سينا التي لم يكن يقتنيها إلا المتمرسين من أهل الصنعة، وهواة جمع الكتب وزيادة في التحرز من التصحيف والأخطاء العلمية أو الإملائية كان بعض الأساتذة يراجعون الكتب بأنفسهم ليتأكدوا من صلاحيتها للمقابلة مع النسخ التي يقتنيها التلاميذ.

وعندما ينتهي الطالب من الدراسة كان يجلس للامتحان، ويعد أول من كتب في امتحان الأطباء من العرب هو (يوحنا بن ماسويه)، وعنوان كتابه (محنة الطبيب) وله كتاب آخر بعنوان (محنة الكحالين)، ومن المؤسف أن هذين الكتابين لا يزالا من المفقودات، ولأبي بكر الرازي كتاب أيضاً بعنوان: (محنة الطبيب)، ويذكر أن أول اختبار عقد للأطباء على يد الطبيب القدير (سنان بن ثابت بن قرة) في عهد الخليفة (المقتدر العباسي) بعد وفاة أحد المرضى نتيجة خطأ طبي، وبعد نجاح طالب الطب يقسم قسم الطب وبعده يمنح إجازة الطب التي تؤهله لممارسة المهنة تحت رقابة الدولة بواسطة (المحتسب)، وبهذا يمكن القول إن العرب المسلمين كان لهم قصب السبق في إرساء نظم ممارسة المهنة الطبية، وكان لابد من وجود مستشفيات متميزة يمارس فيها هؤلاء الأطباء المهرة فنون الطب المختلفة، فلما حكم العباسيون كان (المنصور) أول من استقدم الأطباء من بيمارستان جنديسابور، ولم ينشيء بيمارستان ولكنه أنشأ داراً للعميان والأيتام والقواعد من النساء[1]، ثم جاء (الرشيد) فأنشأ عدة بيمارستانات حينما أمر طبيبه (جبرئيل بن بختيشوع) أن ينشيء بيمارستان بغداد وجعل على رأسه طبيباً اسمه (ابن ماسويه) ثم تولاه بعده ابنه (يوحنا بن ماسويه) وقد خدم يوحنا بن ماسويه الأمين والمأمون من بعد الرشيد وبقي إلى أيام الخليفة العباسي المتوكل، وكان البرامكة أهل علم ولهم رغبة في طب الهند فأنشأوا بيمارستاناً باسمهم وولوا عليه طبيباً اسمه ابن

(1) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان وأنباء الزمان ج2، ص31.

دهن وهو ممن ترجموا الكثير من كتب الطب من الهندية إلى العربية مباشرة، ثم أصبحت بغداد تزخر بعدد كبير من البيمارستانات حيث كان كل خليفة أو أمير يأمر ببناء بيمارستان له في المدينة، ويتم اختيار الموقع المناسب له، فقد اختار (عضد الدولة) بيمارستانه في الجانب الغربي من بغداد، وكذلك بني الخليفه القادر بيمارستاناً قلّ أن يعمل مثله (الذهبي) (سير الأعلام)، وأنشأ (فخر الملك) كذلك بيمارستاناً آخر في مدينة المنصور، وقد أنشأ أيضاً البيمارستان الصاعدي أيام (المعتضد) في الجانب الشرقي من بغداد، وكذلك نجد البيمارستان المقتدري الذي بناه (المقتدر) سنة (306هـ/918م)، وبيمارستان السيدة الذي أنشأته أمه في الأعظمية[1]، وبيمارستان ابن الفرات الذي أنشأه وزيره (أبو الحسن علي بن الفرات)، ولما اشتهر بيمارستان بغداد دار السلام، قلدتها باقي المدن في مختلف الأمصار، مثال ذلك يتضح في إنشاء (الفتح بن خاقان) وزير الخليفة (المتوكل) أول بيمارستان في مصر الذي عرف باسمه وأمر أن يعالج فيه العامة فقط، وكان يتعهده بنفسه كل جمعة بعد أن حبس عليه ريعاً يضمن بقاءه ثم توالى إنشاء البيمارستانات في حواضر الدولة الإسلامية، منها على سبيل المثال لا الحصر بيمارستان (أحمد بن طولون) والبيمارستان الأسفل في عهد (كافور الإخشيدي)، وبيمارستان القشاشين والبيمارستان الناصر، وكذلك عرف بمدينة واسط بيمارستان كبير لخدمة المرضى.[2]

الطب والتداوي في العصر الأندلسي (711-1492م):

رأينا كيف تسلمت الدولة العباسية تراث الحضارات السابقة لها فحافظت عليه من الضياع ليكون تراثاً لبني الإنسان ثم أضافت إليه من المنجزات الباهرة في مختلف فروع الثقافة ما أضاء سماء العلوم المختلفة، ومن بينها الطب وانتقل ذلك الضياء عبر الأقطار الإسلامية حتى تلقفته الأندلس، وصاغت منه لآلئ تفخر به الإنسانية جمعاء ولقد امتازت حضارة المسلمين في الأندلس بميلها الشديد إلى العناية بالآداب والعلوم والفنون، فأنشأوا المدارس والمكتبات في كل ناحية وترجموا الكتب المختلفة ودرسوا العلوم المختلفة.

ويجدر بنا أن نذكر أن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس لم تتوقف عند مجرد الاقتباس، وإنما قطعت شوطاً بعيداً في الإبداع المتميز، فنرى أن العلماء العرب في الأندلس الزهراء قد ألفوا كتباً وموسوعات طبية جليلة ذات مكانة رائدة، وعظيمة النفع سردوا فيها تجاربهم، وأدت بالطبع إلى ظهور العديد من الاكتشفات ذات الأهمية البالغة في مجالي تشخيص الأمراض والأدوية، ونجدهم قد قاموا أيضاً بالعمل على تطوير البيمارستانات من أجل العناية بالمرضى، كما اهتموا اهتماماً بالغاً لا نظير له بطب الصحة العامة، وأهل الأندلس أشد خلق الله عناية بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده ما يقوت يومه فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها.

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 302.
(2) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص 151،84.

قامت الإمارة الأموية في الأندلس على يد الأمير (عبد الرحمن الأول الأموي) (الملقب بالداخل 756–785م)، الذي اصطحب معه طبيبه الخاص (أبا إبراهيم الوليد المذحجي)، وهو أول من عُرف بصناعة الطب في الأندلس، ويذكر أن بعض النصارى كانوا يطببون في زمن الأمير (عبد الرحمن الأوسط)، ولكن لم تكن لهم بصارة بالطب، وإنما كان المعول عندهم كتاب اسمه (الأبريشم) ومعناه الجامع أو الفصول. أما أول كتاب تأليف في علم الطب فكان (لعبد الملك بن حبيب السُلمي الإلبيري) (238هـ/853م)، الذي ألف كتاباً بعنوان (المختصر في الطب)، جمع فيه أخباراً عن الطب العربي القديم وضمنه أحاديث شريفة وأصولاً فقهية في التطبيب والعلاج، وأتى فيه بمعلومات عن الأدوية والأغذية والأمزجة والطبائع وما إلى ذلك.(1)

وقد اهتم حكام الأندلس في عهدها الباكر بعلوم الطب وكتبه نرى ذلك جلياً في عهد الخليفة (عبد الرحمن الثالث) حينما قدم له مبعوث البلاط البيزنطي بالقسطنطينية كتاباً للطبيب اليوناني (دسقوريدس)، وقد عهد الخليفة للطبيب اليهودي (حسداي بن شبروت) مهمة ترجمة ذلك الكتاب إلى العربية يساعده (نيقولا الراهب المسيحي)، وكانت جائزة هذا العمل أن يحصل هذا الطبيب غير المسلم على منصب رفيع في البلاط ونجد أن الأطباء المهرة كانوا يتمتعون بامتيازات ضخمة في بلاط الخليفة، خصوصاً إذا كانوا تميزوا وبرعوا في صناعتهم الطبية، ولم يكن الخليفة يهتم بالديانة التي ينتمي إليها هؤلاء، لأن المقياس الوحيد لديه كان هو الكفاءة وهذا المثال يوضح سماحة الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، وهناك مثال آخر لا يقل روعة في الاهتمام بالعلوم يتمثل في الخليفة (الحكم الثاني المستنصر بالله) (961–976م) الذي صرف جهوده في حياة أبيه إلى جمع الكتب واقتنائها وأسس خزانة علمية تضم مايقرب من 400 ألف مجلد.

منذ القرن العاشر الميلادي لم يعد التحدي الذي يواجه الأطباء في الأندلس هو الترجمة، ذلك أن ما وجد من كتابات (جالينوس) و(أبقراط) قد تمت ترجمته إلى العربية التي أصبحت لغة كتابة أعمال وأبحاث اليهود والنصارى والمسلمين في مجال الطب، ففي البداية اطلع الأندلسيون على ما ترجمه أوائل المترجمين في بغداد من تراث الأقدمين في الطب من إسكندريين وفرس ويونان وحتى هنود، وخصوصاً ما قام به (حنين ابن اسحق) و(يوحنا بن ماسويه)، و(منكه وابن دهن)، لكننا نلاحظ أنهم قد فحصوا تلك التراجم وحاولوا إكمال مابها من معلومات ناقصة ويمثل هذا التيار العالم الجليل (ابن جلجل) في كتابه الفريد (طبقات الأطباء) الذي أكمل كتاب (ديسقوريدس)، وذكر العديد من الأدوية التي لم يذكرها العالم اليوناني.

لقد شكلت تلك البيئة المعطاءة والخصبة في الأندلس الزهراء فرصة نادرة للعديد من الأطباء الموهوبين حتى يبرزوا عبقرياتهم في البحث العلمي والطب التجريبي واكتشاف أدوية جديدة، وكذلك تصنيف العديد من الكتب الموسوعية في العديد من فروع الطب المختلفة.

(1) محمد العربي الخطابي: الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، ج1 ص11-35.

من هؤلاء الأطباء (أبو القاسم الزهراوي) الذي توفي عام (1013م)، وقد عمل طبيباً للخليفة (عبد الرحمن الثالث)، وهو أول من نبغ في علم الجراحة من العرب فقد أجرى العديد من العمليات المبتكرة، مثل شق القصبة الهوائية، وإزالة الغدة الدرقية، وحصى المثانة ومجرى البول، وقد ابتكر العديد من الآلات الجراحية بلغ عددها أكثر من مائتين وقام بتأليف مرجع موسوعي هام وهو (التصريف لمن عجز عن التأليف) الذي يحتوي على ثلاثين مقالة في علوم الطب المختلفة، وكان له تأثير واضح على علم الجراحة لعدة قرون[1]، وبرز كذلك (ابن زهر) وهو من عائلة تميزت بإتقان فنون الطب والتداوي وقد انتقد آراء (ابن سينا) لاحتوائها على الكثير من الآراء الفلسفية وقد ألف كتاب (التيسير في المداواة والتدبير) وله كتاب (الترياق) وكتاب (الأغذية) ومقال في علل الكلى.

ومن أطباء الأندلس نذكر (ابن ميمون القرطبي اليهودي)[2] الذي يطلق عليه (ابن أبي أصيبعه) بالرئيس الذي نزح لمصر ودخل بخدمة صلاح الدين، له مؤلفات طبية عديدة منها (تلخيص كتب جالينوس الستة عشر) و(شرح فصول أبقراط) و(الرسالة الأفضلية) التي تبحث في الحالات النفسية، أما (ابن طفيل) فقد ولد في قادس، وتوفي عام (1185م) في مراكش، وله أرجوزة في الطب العلاجي تبحث أنواع العلل وتاريخ الداء والدواء، أما (ابن رشد) المتوفى عام (1198م) فقد جمع بين الطب والفلسفة وله في الطب كتاب (الكليات)، وكان (ابن البيطار) المالقي العشاب باحثاً عن النباتات ومواطنها اشتهر بحذقه في علوم الطب، وكان يميل إلى الاستنباط والتجربة، ومن مؤلفاته (الجامع لمفردات الأدوية) و(الأغذية) و(المغني في الأدوية المفردة) وجادت أشبيلية بعالم يدعى (عبد الله بن قاسم الحريري الأشبيلي) وقد نبغ في علم الكحالة أو طب العيون، وقد توفي في عام (1249م)، ووضع مايعرفه في كتاب (نهاية الأفكار ونزهة الأبصار)، وهو يعتبر من أفضل ما كتب في علم أمراض العيون عند العرب.

وقد شاركت النساء الرجال في الأندلس مهنة الطب والتداوي فنجد أسماء لمعت منها (أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي)، وكانت واسعة الاطلاع في العديد من العلوم، درست الطب ففهمت أغراضه، وعلمت أسبابه وأعراضه، واشتهرت بتحصيل العلوم الحكيمة، وكذلك (سارة بنت أحمد بن عثمان بن الصلاح الحلبية)، شاعرة أديبة، وطبيبة متميزة، كانت تجيد فن الصناعة الطبية والأدبية، وقد اشتهرت بمداواتها، زارت الأندلس، ومدحت أمراءها، فلقيت (أبا عبد الله محمد بن نصر) المعروف بـ «ابن الأحمر»، وهو من ملوك غرناطة، توفت عام (1300م).

لم تنعزل مدن الأندلس في وقت من الأوقات عن نظرائها في المشرق مثل بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان، إذ جلب حكامها وكبار رجالاتها هذه المؤلفات مثل مصنفات الطبيب الرائد (أبي بكر الرازي) حوالي عام (864–923م)، ومؤلفات (ابن الجزار القيرواني) حوالي

(1) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ص513.

(2) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص531.

عام (1009م) التي اتخذها مؤسس علم الجراحة (أبو القاسم الزهراوي) في وضع موسوعته، وما كتبه الطبيب (إسحاق بن عمران البغدادي)، وكذلك كتاب (الصناعة الطبية) (لعلي بن العباس المجوسي)، وقد انتبه العديد من الأطباء الأندلسيين إلى أهمية السفر إلى المراكز العلمية في المشرق للنهل من مصادرها، نذكر منهم (يحيى بن يحيى بن السمينة)[1] وهو من أهل قرطبة، والأخوين (أحمد وعمر ابنا يونس الجذامي) اللذان رحلا للدراسة على يد (ثابت بن سنان) في بغداد، و(محمد بن عبدون الجبلي) الذي رحل إلى البصرة، ثم إلى الفسطاط ونظراً لتميزه في المهنة الطبية وفنونها، فقد اسندوا إليه إدارة بيمارستانها الشهير، وكذلك (ابن جلجل) الذي فسر كتاب (ديسقورسدس) للأدوية الذي كان قد ترجم من قبل على يد (اصطفن بن باسيل) وصححه (حنين بن اسحق)[2]، ثم جادت الأندلس بالطبيب الجراح أبي القاسم الزهراوي (936–1013م)[3] الذي وضع موسوعة ضخمة في شتى فروع الطب وأسماها (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وقد ضمنه العديد من الآلات الجراحية التي اخترعها والتي تزيد عن المئتين، وشرح فيه طريقة لصنع الأقراص الدوائية وقد ظل ذلك الكتاب مرجعاً مهماً في الصيدلة والجراحة طوال قرون.[4]

وهناك العديد من الأطباء الذين لمعوا كذلك في سماء الطب في العصر الأندلسي نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر (القاضي التغلبي) و(عبد الرحمن اللخمي)، و(أصبغ بن محمد الغرناطي)، و(عمر بن عبد الرحمن الكرماني) الذي أدخل رسائل أخوان الصفا، وكذلك (أبو مروان بن زهر) الطبيب الأشهر الذي كان مؤسس عائلة من الأطباء، والطبيبات النوابغ، والتي امتدت حوالي ثلاثة قرون من الزمان[5]، ولا ننسى العلامة (ابن باجة)، وكذلك الفيلسوف المشهور (ابن طفيل) صاحب مؤلف (حي بن يقظان) الشهير، و(أبو مروان بن أبي العلاء بن زهر) صاحب الكتاب الموسوعي (التيسير في المداوة والتدبير)، و(موسى بن ميمون اليهودي) و(ابن البيطار) الذي ألف في علم الصيدلة ووضع مؤلفه الشهير (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية)، وأخيراً نذكر (لسان الدين بن الخطيب) صاحب كتاب (عمل من طب لمن حب).

وعرفت الأندلس أمراضاً كثيرة كالنقرس، والجذام والجدري والعمى والحصبة والبواسير والسل والرمد والظفرة. والفدع، وأمراض خفية كالسعال والفواق والداحس. وأمراض أخرى كان يكتفي بالإشارة إليها باسم داء أو ما شابه ذلك. أما الأدوية فكانت في غالبيتها مستخلصة من الأعشاب والنباتات والحشائش، كالعنصل والقاقلة والوشق

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 433.

(2) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 443.

(3) خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ج2، ص 310.

(4) شوقي أبو خليل: علماء الأندلس وإبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوروبية، ص 32-33.

(5) نفس المصدر، ص 48.

والحلتيت والمرقد ومن باب النظافة، إضافة إلى الحمام كان يذهب الأندلسيون إلى مجمعات الماء الساخن التي كانت تعرف بالحامة، وهي نافعة لكثير من الأمراض الجلدية والمفصلية.

ولا يكتمل الحديث عن المهنة الطبية دون ذكر أماكن الاستشفاء أو البيمارستانات التي بصورة واضحة واحدة من المنشآت والعمائر الإنسانية كالمساجد والمدارس والتكايا التي شيّدها الخلفاء والحكام والأمراء وأهل الخير صدقة وحسنة وخدمة للناس وتخليداً لذكراهم، ولم تكن مهمة البيمارستانات قاصرة على مداواة المرضى، بل كانت في الوقت نفسه معاهد علمية ومدارس لتعليم الطب، يتخرج منها الأطباء والجراحون والكحالون، وقد كان بيمارستان غرناطة الذي بناه السلطان محمد الخامس في عام (767–768) من الهجرة يتميز بفخامة بيت وتعدد مساكن ورحب ساحة ودور مياه وصحة هواء ونقد خزائن ومتوضآت وانطلاق خيرات وحسن ترتيب وتدفق المياه، وتمرج البحر وانسدال الأشجار وكأننا في فردوس ولسنا في بيمارستان.

أخلاقيات المهنة الطبية:

الأخلاق هي جمع خُلق واسم لسجية الإنسان، وطبيعته التي خلق عليها تستوي إن كانت حسنة أو غير ذلك، والأخلاق الحسنة هي مجموعة من الآداب والعادات التي ارتضاها المجتمع، أو العرف، وهي جملة القواعد والأسس التي يعرف بواسطتها الإنسان معيار الخير والشر في سلوك ما، لذا فهي أساس الحضارة وتعتبر الوسيلة المثلى للمعاملة بين الناس. يصف الله نبيه، بقوله في ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ سورة القلم (آية 4). ويصف الرسول الكريم الهدف الأساسي لبعثته الشريفة كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال ﷺ «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، وقال أيضاً «إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً» (رواه البخاري)، وقال أيضاً «إن من أحبكم إليَّ أحسنكم أخلاقاً» (رواه البخاري).

إن الطب مهنة لها ميثاقها الأخلاقي الذي يضم القواعد المرشدة لممارسة تلك المهنة، وذلك في سبيل الارتقاء بمثالياتها وتدعيم رسالتها، لذا فإن أخلاقيات الطب أو آداب الطب جزء من الأخلاقيات يبحث مشكلات تعامل الأطباء مع المرضى ومع زملائهم من الأطباء؛ وهي مجموعة من القوانين واللوائح والأخلاقيات المتعارف عليها طبياً خلال ممارسة مهنة التطبيب، وهي أخلاقيات وقيم تم اكتسابها وتبنيها من قبل الهيئات الطبية على مدار تاريخ الطب واستناداً لقيم دينية وفلسفية وأخلاقية.

يمكن تتبع نشأة أخلاقيات الطب إلى العصور القديمة، وذلك إلى ما يعرف بالقسم المنسوب إلى الطبيب اليوناني الأشهر أبقراط[1] وفي حضارتنا الغرّاء نجد أمثلة متنوعة على إدراك أهمية الالتزام بالأسس الأخلاقية لمهنة الطب، وذلك في كتاب (آداب الطبيب)، (لإسحاق

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 27.

بن علي الرحاوي) الذي له أعمال جيدة في صناعة الطب، وكان طبيباً متميزاً عالماً بكلام (جالينوس)، وهناك ماسطره العالم الفذ الطبيب (أبو بكر محمد بن زكريا الرازي) في كتابه (أخلاق الطبيب) الذي ألفه إلى بعض تلاميذه لشدة اهتمامه بالأخلاق الحميدة، وقد شرح فيه العلاقة الإنسانية بين الطبيب والمريض، وبين الطبيب والطبيب، وضمّنه كذلك بعض النصائح للمرضى في تعاملهم مع الأطباء، ونجد نفس الاهتمام بالأخلاق الطبية عند مفكرين يهود مثل (موسى بن ميمون القُرْطبيّ). وفي عصرنا الحالي هناك ست قيم أساسية يجب أخذها بعين الاعتبار عند ذكر الأخلاق الطبية، وهي الاستقلال الذاتي، والتي تعني أن للمريض الحق في اختيار أو رفض طريقة معالجته. والمعاملة الحسنة أي أن على الطبيب أن يعامل المريض بكامل الاهتمام وعدم الإيذاء والعدالة في توفير العلاج من غير تفرقة لأي سبب كان وأن للمريض الحق في الكرامة والصدق والأمانة في التعامل من قبل الطبيب.

لقد سبقت الحضارة العربية الإسلامية القوانين الحديثة عندما وضعت منهاجاً متميزاً للأخلاق الطبية يضم العديد من القيم الأساسية التي لابد وأن تتوافر في الطبيب المسلم ليكون كفؤاً في أن يمارس أشرف المهن وأجلها، فيجب أن يكون شخصاً مؤهلاً لممارسة مهنة الطب وعلاج المرضى، لذا ينبغي أن تكون لديه خبرة بالتطبب إذ يقول النبي الكريم ﷺ «من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن» أخرجه أبو داوود ، (حديث حسن)، وكذلك أن يأذن له ولي الأمر بمزاولة المهنة بعد إجراء اختبار خاص قبل السماح بمزاولة الطبابة.

كان لزاماً على الطبيب العربي المسلم في تلك العصور الزاهرة أن يتحلى بفضيلة الصبر على المكاره، لأنه ربما يتعرض إلى إيذاء من ردة فعل المرضى، يقول جل وعلا ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ سورة آل عمران (آية 186)، وكذلك يجب عليه أن يكون رفيقاً بالمريض ولايكشف ستره يقول النبي ﷺ «من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة» (أخرجه مسلم) وأيضاً فإن الطبيب المسلم يرى أن مجرد مداواته للمريض هي من باب تفريج الكربات مصداقاً لقول النبي «ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة» (أخرجه البخاري) ويجب عليه أيضاً أن يعي أنه لا يوجد سقف محدد للمعلومات الطبية التي تشمل كذلك معرفة الأحكام الشرعية، لذا فإن عليه السعي الدائم للاستزادة من العلم يقول الله عز وجل ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ سورة طه (آية 114) وقال أيضاً ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ سورة يوسف (آية 76)، وينصح الخليفة العادل (عمر بن عبد العزيز) بقوله: «من عملَ بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح» ولذا قالت العرب: «ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك» والأسس الأخلاقية للحضارة العربية الإسلامية تفرض على الطبيب الالتزام بتخصصه الطبي إذ أن الاختصاصات الطبية متعددة، ويجب أن يقوم بإحالة الأمراض التي لا يعلمها إلى زملائه ذوي التخصص فيها طاعة لله الذي يقول في كتابه الكريم ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة الأنبياء (آية 7)، وكذلك إذا طلب منه النصيحة في مجاله وجب عليه فعل

ذلك كما قال الرسول الكريم ﷺ «الدين النصيحة»، وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال ﷺ: «المستشار مؤتمن» صحيح ابن ماجه.

أما خلق الأمانة فحدث ولاحرج فإن الطبيب العربي المسلم في تلك الأزمان كان يحمل أمانة المحافظة على صحة المسلمين ورفع الضرر عنهم، يدفعه إلى ذلك مراقبة الله في كل خلجاته. وكان على الطبيب أن يحاذر من قول الزور وخاصة عندما يطلب للشهادة، قال الله تعالى ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ سورة البقرة (آية 283)، والتواضع لله سمة من سمات الطبيب المسلم، بل يشكره على أن وفقه لفهم المرض وأسباب الشفاء كما قال النبي ﷺ «من تواضع لله رفعه» رواه أحمد وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري. وكذلك أمر الشرع الحنيف الطبيب بالتحرز من الوقوع في المحارم والشبهات فلا يساهم في أي فعل يمس شرف المهنة الجليلة كذلك عليه أن يستعين بالله حتى يهديه سواء السبيل.

تختلف الأخلاق الإسلامية عن بعض مثيلاتها في الوقت المعاصر في الإفراط بإعطاء الحقوق للمرضى الميئوس من شفائهم في إزهاق أنفسهم تعللاً بالرحمة، لكن في شريعتنا الغراء نجد أنه لا يجوز للطبيب أن يهدر حياة المريض بدافع الشفقة، لأنه عبارة عن قتل للنفس التي حرم الله إلا بالحق، حتى لو كان ذلك بناء على طلب المريض نفسه أو أهله.

أما علاقة الطبيب المسلم بزملائه الأطباء فنجدها قد اكتست بطبقة أخلاقية مميزة نراها في الاعتقاد الجازم للطبيب بأن غيره من الأطباء أخوة له في الإنسانية، لذا يجب على الطبيب أن يعامل زملاءه كما يحب أن يعاملوه مصداقاً وأن يعمل على أن يسود بينهم الحب والتعاون على البر والتقوى والبعد عن الإثم والعدوان امتثالاً لقوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ سورة المائدة (آية 2) وكذلك فإن الطبيب العربي المسلم وقتئذ كان لابد وأن يحفظ غيبة زملائه، ويتجنب إساءتهم، بل ويقدم لهم صنوف النصح والعون، ولا يأكل لحومهم وهم أحياء، بالاغتياب أو بالكيد لهم، ولا يتبع عوراتهم، ويكون كما أمره الشرع الحنيف، فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً».

الرقابة على المهنة الطبية:

عندما نشأ الطب في العصور القديمة صاحبه حدوث الأخطاء المهنية التي كانت في بعض الأحيان تودي بحياة المريض فكان لزاماً على مشرعي الحضارات القديمة أن يضعوا من الأسس القانونية والتنظيمة ما يفرق بين المضاعفات التي يحتمل أن تنشأ كتطور طبيعي للأمراض، وخاصة مع استخدام الوسائل البدائية في العلاج والأخطاء المهنية التي تنشأ نتيجة جهل ممارس المهنة الطبية بالقواعد التي تراعى في التطبيب.

وبالإضافة إلى القوانين المجتمعية نجد عاملاً رقابياً آخر، ففي مصر القديمة التي كان حس الأفراد ـ ومن بينهم الأطباء ـ بالرقابة الداخلية عالياً يمكن أن نقرأ في كتاب (الموتى) هذا النص «*لم أتسبب في أذية إنسان وماقتلت وماغدرت، بل وما كنت محرضاً على قتل*»، وكان الأطباء في مصر القديمة يعالجون الأمراض طبقاً للقواعد القديمة التي سبق أن أقرها من سبقهم من كبار الأطباء التي كان على الطبيب أن يسير بمقتضاها، وعند ذلك لا يتعرض لأي مسؤولية جنائية حتى ولو مات المريض، أما إذا خالفها فإنه يعاقب بالإعدام، وقد ذكر أرسطو في كتابه (السياسة) أن الطبيب في ذلك العصر عليه تغيير أسلوب العلاج إذا مرت أربعة أيام كاملة ولم يلاحظ أي تحسن في صحة المريض.

وقد تطورت التشريعات الرقابية على الأطباء في بابل القديمة، وذلك في عصر الملك (حمورابي) الذي وضع في نصوص قوانينه مواد خاصة بالأخطاء المهنية الطبية وعقوباتها، ويذكر (عبد الرحيم الكيالي) في دراسته عن شريعة (حمورابي) أن المادة (218) تذكر أن الطبيب الذي يحدث شقاً كبيراً بواسطة سكين، ويقتل المريض أو يزيل ورماً ويفقأ عيناً فإن يد ذلك الطبيب يجب أن تقطع. وتقضي المادة (220) من نفس القانون بأن يعاقب الطبيب بالحبس إذا تقاضى أجراً فوق ماقرره له القانون، مما أدى إلى زيادة حرص الأطباء إلى تقليل الأخطاء المهنية تباعاً.

لم يكن يسمح لليهود القدماء بممارسة الطب إلا بعد أخذ إذن من مجلس القضاء وقد أشار (التلمود) بأن لا يخاف من إقدامه لعلاج المريض، كما أعطى الإذن بالممارسة الطبية وبأنه يمارس المهنة على أصولها قدر الاستطاعة. ولم يطبق اليهود في ذلك العصر قانون العين بالعين بل قبلوا بالدية كتعويض عما فقده المريض.

وفي أوج الحضارة اليونانية أراد (أبقراط) توسيع دائرة ممارسة الطب والعلاج بالخروج عن القاعدة التي أرساها الطبيب (اسقليبوس) الذي كان يحصر المهنة في أفراد أسرته، مما أدى إلى زيادة مطردة في عدد الأطباء فكان لابد من وجود ضوابط تنظيمية ورقابية للمهنة الطبية، بحيث تحفظ حقوق المرضى وتعيق الأطباء من الاستخدام المسيء للمهنة، ولقد كتب ما عُرف بعد ذلك (بالقسم الطبي لأبقراط)[1] فنراه يذكر في الجزء الثاني من القسم بأن الطبيب لابد وأن يمتنع عن كل شر وظلم وألا يضع السم لأحد إذا طلب أو اقترح منه أي فرد وأنه لن يساعد أية امرأة على أن تجهض نفساً، أما في الجزء الثالث نجده يقول بأنه لن يفشي سراً عرفه خلال ممارسته للمهنة لكننا نلاحظ أنه قد قرر في آخر القسم بأنه ـ أي الطبيب ـ في حالة نقضه للعهد والقسم سوف يجازى ويحاسب، مما يدل على وجود تشريعات قانونية في ذلك العهد تجازي الطبيب حال قيامه بأخطاء مهنية، وهكذا نرى بأن ذلك القسم كان معياراً أخلاقياً يرسي مبدأ الرقابة الداخلية ويقوي من وازع الضمير أو الرقيب الداخلي عند الطبيب كونه المرافق الدائم للطبيب في أعماله

(1) حسن كمال: الطب المصرى القديم.

وممارسته للمهنة دون غيره، وكان الطبيب لا يتحمل المسؤولية إذا ما مات المريض رغماً عنه، ولكن إذا ما مات بتقصير منه فإن الطبيب كان يقتل، حدث هذا في عصر (الإسكندر المقدوني) عندما أمر بقتل الطبيب (جلوكيس) الذي كان يداوي (هيفاستيون) أحد أصدقائه الذي توفي أثناء معالجة الطبيب له، وكان قد أصيب بحمى، فنصحه ذلك الطبيب سيء الحظ بالصوم عن الطعام، لكن (هيفاستيون) هذا لم يعمل بالنصيحة وأكل وشرب حتى شبع ومات، وكان الفيلسوف (أفلاطون) يشكو قلة الرقابة على فئة الأطباء والمعالجين نراه يقول بحسرة «إن الأطباء يأخذون أجرهم سواء شفوا المرضى أو قتلوهم»، ويضيف. «هم والمحامون كذلك يستطيعون أن يقتلوا عملاءهم دون أن يتعرضوا لأية مسؤولية»، لكن الطبيب الذى يساعد على الإجهاض كان يعاقب عقوبات شديدة، وكانت العقوبات في ذلك العصر تتباين حسب اختلاف الطبقة الاجتماعية، فإذا كان المريض عبداً ومات لزم الطبيب تعويض سيده بقيمة ذلك العبد، أما إذا كان الطبيب من طبقة أدنى من المريض وتسبب بوفاته فإن الطبيب يقتل.

ولم تشذ الحضارة العربية عن مثيلاتها من الحضارات فنجد اهتماماً واضحاً بأخلاق المهنة الطبية ووضع القوانين العامة لتنظيمها، فمنذ الأيام الأولى للدولة العربية في عهد الرسول ﷺ نجد أن الطبيب الذي يعرف عنه ممارسته للمهنة يعتبر ضامناً نرى ذلك جلياً في قول ﷺ «من تطبب ولم يعلم منه طب قبل ذلك، فهو ضامن»، أي من تعاطى الطب ولم يسبق له تجربة ولفظ التفعل يدل على تكلف الشيء والدخول فيه بكلفة من ليس من أهل المهنة، لذا لزمته الدية إن مات بسبب إقدامه على ما يؤدي إلى وفاة المريض وكذلك قال ﷺ كما روى ابن مسعود «المستشار مؤتمن»، لأن المريض عندما يستشير طبيبه فإنه يأمنه على نفسه لذا فإن غشه الطبيب وحدث خطأ طبي نتيجة لذلك فإن الطبيب ضامن أيضاً. أي يلتزم بالدية وتعويض المريض أو أهله.

وهناك واقعة لاختبار الأطباء حدثت في عهد الدولة العربية الإسلامية حينما أراد الخليفة العباسي (هارون الرشيد) أن يمتحن (بختيشوع بن جرجيس) الطبيب، أمام جماعة من الأطباء فأمر بعض خدمه بإحضار بول حيوان، فلما رآه (بختيشوع) قال: يا أمير المؤمنين ليس هذا بول إنسان فقال له الخليفة: من أين علمت أنه ليس ببول إنسان؟ قال (بختيشوع): لأنه ليس له قوام بول الناس، ولا لونه، ولا رائحته ثم التفت الخليفة إلى (بختيشوع) فقال له: ما ترى أن نطعم صاحب هذا الماء فقال: شعيراً جيداً. فضحك الرشيد ضحكاً شديداً، ووهب له مالاً، وأمر بتعيين (بختيشوع) رئيساً للأطباء بعد اجتيازه ذلك الاختبار الصعب.[1]

ولما زاد عدد الأطباء والصيادلة وخصوصاً في العصر العباسي كان من الضروري إنشاء نظام يتولى مراقبة أداء الأطباء، وكذلك محاسبة الدجالين الجهلاء الذين التحقوا بتلك المهنة، ففي عام (931م) مات مريض في بغداد بسبب خطأ طبي، فأمر الخليفة العباسي (المقتدر) محتسبه (أبو إبراهيم بن محمد بن أبي بطيحة) بتكليف رئيس الأطباء في ذلك العهد

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص142.

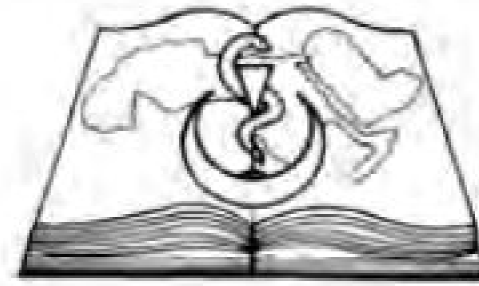
(ثابت بن قرة) باختبار قدرات جميع من يمارس مهنة الطب ومنع جميع الأطباء من المعالجة إلا من امتحنه رئيس الأطباء وكتب له رقعة بما يطلق له التصرُّف فيه من الصناعة، ومن لم يكن كذلك لا يعط تلك الإجازة ويؤمر بالاشتغال عند زملائه من الأطباء المرموقين في تلك الصنعة، وقد امتحن في بغداد وحدها وقتذاك (800) طبيب، عدا الذين لم يدخلوا الامتحان لشهرتهم وعلو شأنهم في الطب، أما ذلك الطبيب الذي تسبب في قتل المريض فقد غرم هذا دية المريض، ومنع من ممارسة الطب.

وكان (المحتسب) في ذلك العصر يأخذ على الطبيب قسم أبقراط بعدما تم تعديل نصوصه وإزالة ما يشير إلى الشرك، بأن يقسم بألا يصف دواء مضراً أو سماً، أو يساعد امرأة على الإجهاض ولا يكتب دواءً يقطع نسل الرجال، وكذلك بأن يغض البصر عند دخوله على النساء وبأن لا يفشي سراً، ومن أشهر من قام بوظيفة الحسبة على أماكن العلاج هو (أبو إبراهيم بن محمد بن أبي بطيحة) الذي عاش في عصر الخليفة العباسي (المقتدر) عام (931م)، وكذلك (كمال الدين الشهرزوري) الذي كان يعمل كوظيفة محتسب للبيمارستان النوري في دمشق عام (1048م).

كان الطبيب في ذلك العصر عليه أن يكتب يومياً أثناء مداواته للمريض سجلاً فيه مايذكره المريض من أعراض، ويدون فيه العلامات الخاصة بالمرض كالنبض وأوصاف البول ولابد من أن يذكر الطبيب أيضاً فيه ما وصف من أدوية وعقاقير، وفي النهاية يسلم ذلك السجل اليومي لأهل المريض، فإذا مات ذلك المريض ذهب أهله بالسجل إلى طبيب مشهور وعرضوا عليه ماكتب الطبيب المعالج، فإذا رآها مرضية وتتمشى مع القواعد المتبعة حكم ببراءة الطبيب المعالج، وأن رآها غير ذلك حكم بالدية نتيجة تسبب الطبيب في إحداث ذلك الخطأ المهني. وقد كان الطبيب المعلم لتلاميذه يعطيهم إجازة بعد انتهاء فترة تدريبهم على يديه ويمثل هذا إجازة (ابن النفيس) لتلميذه (أبي الفضل بن أبي الحسن) في طب العيون بعد استيعابه كتاب (أبقراط) في هذا التخصص. وكذلك كان (المحتسب) يراقب أدوات الطبيب كل حسب تخصصه. نذكر هنا أمثلة من تلك الأدوات والآلات المستخدمة في ذلك الزمان، مثل كلابات الأضراس ومكاوي الطحال وكلبات العلق المستخدمة في استخراج الدم الغليظ وزراقات الذكر وملزم البواسير، أما الكحالون أو أطباء العيون في ذلك العصر فقد كان يختبرهم (المحتسب) بكتاب (حنين بن إسحاق) بما تضمنه من عشر مقالات في العين، فكان لا يسمح للكحال بممارسة تلك المهنة الدقيقة إلا بمعرفته بتشريح العين ومعرفة أمراضها وعوارض تلك العلل، ولابد أن يكون عالماً بتركيب الأكحال والأدوية المستخدمة في علاج العيون، وأخيراً يطلب (المحتسب) من الكحال أن يريه ما يملك من آلات وأدوات، وحتى المجبرون أو أطباء العظام القدامى كان (المحتسب) يختبرهم بناءً على ماذكر في كتاب (بولس)، والمختص بعدد عظام جسم الإنسان وصورها ومواضعها في الجسم، وذلك حتى إذا حدث كسر لعظم أو خلع لمفصل استطاع ذلك الطبيب المختص

بأن يعيده إلى سابق عهده، وكذلك كان الجراحون يسألون بما ورد في كتاب (جالينوس)، وخصوصاً في المقالات السبعة المختصة بالجراحة والمراهم، ثم صار اعتماد (المحتسب) على كتاب (الزهراوي) الشهير (التصريف لمن عجز عن التأليف) لاختبار معرفة الجراح بتشريح الجسد والقواعد المتبعة أثناء الجراحات، وذلك لتقليل حدوث أخطاء مهنية. حتى الحجامون والفصادون كان لزاماً على (المحتسب) أن يختبرهم في معرفتهم بأصول تلك الممارسات كما جاء في الفصل الرابع والأربعين من كتاب (معالم القربة في أحكام الحسبة) لابن الأخوة[1]، وكان يشترط توافر الأمانة والعلم بالتشريح حتى لا يقطع عرقاً أو شرياناً بطريقة غير مقصودة فيموت المريض وكان المحتسب يأخذ عليهم القسم بأن لا يقدموا على المعالجة بالفصد في عشر حالات إلا بعد مشاورة أهل الخبرة من الأطباء، ومن الطريف أن المحتسب يأخذ على الفاصد عهداً بألا يفصد عرق الوصواف، وهو عرق خلف الأذن كان يفصد لقطع النسل كما كان يعتقد أطباء ذلك العصر. وبعد انتهاء العملية الرقابية على الطبيب ويطلب منه أن يتلو النص التالي «*برئت من قابض أنفس الحكماء ورافع أوج السماء، فاطر الحركات العلوية إن خبأت نصحاً وبدأت ضراً أو قدمت ما يقل عمله إذا عرفت ما يعظم نفعه*»، ثم ينصحه بالتزام حسن الخلق «*ولا تضيع من ألقي إليك زمامه من المرضى فإن فعلت فأنت ضائع*»، ويحذره بأن الله هو الشاهد عليه ويسمع مايقول فإذا نكث بهذا العهد، فقد استوجب عقاب الله، وقد قام مؤلفو الكتب بصياغة مراجع تهتم بمفهوم الرقابة على العاملين في المهنة الطبية مثل كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة الشريفة) (لعبد الرحمن بن نصر الشيزري)، وكتاب (معالم القربة في أحكام الحسبة) لابن الأخوة.[2]

كل ما سبق يشير إلى ما وصلت إليه الحضارة العربية الإسلامية من رقي وتطور في أخلاقيات ممارسة المهنة الطبية، وكذلك صنوف الرقابة عليها لتقليل حدوث الخطأ المهني، وكذلك مدى اهتمام أطباء المسلمين على تطوير المهنة ومراعاة الجوانب الأخلاقية والقانونية كذلك.



(1) ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، الفصل 44-45.

(2) الشيزري: نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة، ص 29-35.

الفصل الثاني

إسهامات العرب الطبية

قبل أن نذكر إسهامات الطب العربي في العديد من المجالات يجب أن نشير إلى ماقدمته الحضارات السابقة، ذلك لإبراز ما أنتجته قرائح أطبائنا العرب الذين نجحوا في الجمع الدقيق والمتقن لمؤلفات القدماء، ممن سبقوهم من العلماء في العصور الغابرة، ولم يكتفوا بذلك بل نقدوها وأضافوا إليها اكتشافات وابتكارات لم يسبقهم إليها سواهم، ومن هذه المجالات:

علم التشريح والأجنة:

يعرف علم التشريح بأنه علم يبحث في تركيب أجزاء الجسم وترتيبها ومايحتوي من عروق وأعصاب وغضاريف وعظام وعضلات وغيرها في كل عضو من الجسد(1)، وقد تم تصنيف علم التشريح إلى ثلاثة أصناف هي علم التشريح الوصفي الذي يهتم بدراسة مختلف الأعضاء والأجهزة التي يتركب منها جسم الكائن الحي، وهو أكبر وأوسع تلك الأقسام، وعلم التشريح الخارجي الذي يعنى بدراسة علاقة الأعضاء فيما بينها وأقسامها وأخيراً علم التشريح المقارن الذي يهتم بدراسة التغيرات المتتالية التي تحدث في الكائنات الحية، والاختلافات الموجودة بينها(2)، ولقد تَطَوّر علم التشريح ليصبح علماً منذ أن بدأ فحص الأجسام المضحى بها (المسموح بها من قبل أصحابها) إلى التحليل المتطور الذي يقوم به العلماء الحاليون.

بدأت دراسة علم التشريح في مصر القديمة، وكانت تقام لمجرد حفظ جسم الإنسان لأهداف ومعتقدات دينية ولكن بمرور الزمن تراكمت المعرفة التشريحية لدى المصريين القدماء، ففي حوالي عام (1600ق.م)، وهو تاريخ بردة (إدوين سميث) الجراحية التي أظهرت معرفة المصريين القدماء بوجود الكبد والطحال والرحم والمثانة، وأن القلب هو مركز إنتاج الدم، وتتصل به أوعية تربطه بكل عضو في الجسم، كما اعتقدوا أن القلب نقطة التقاء عدد من الأوعية التي تنقل كل سوائل البدن كالدم والدموع والبول والحيوانات المنوية، وأن هناك أوعية أخرى بعضها ينقل الهواء، وأخرى تنقل المخاط، و ذكروا أن هناك وعائين يتجهان إلى الأذين الأيمن، يحملان «أنفاس الحياة»، ووعائين يتجهان إلى الأذين الأيسر يحملان «أنفاس الموت»

(1) إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، 1/ 480.
(2) عبد المجيد كمي: علم التشريح والإسلام، ص16.

أما البابليون فقد عرفوا التشريح سواء أكان على الإنسان أم الحيوان، إلا أنه كان يقوم على أسس بدائية غير صحيحة، وذلك من خلال معرفتهم لبعض أعضاء الجسم الداخلية وخاصة الكبد، حيث كانوا يدعّون قراءة الغيب من خلال النظر إليه بعد تقطيعهم للحيوانات التي كانت تذبح إرضاءً للإله، أو لإطعام الناس، أو نتيجة للحروب التي كانت تسفر عن مقتل عدد من الجند والناس فيعمدون إلى تشريحهم.(1)

أما في الحضارة اليونانية فنجد أن (أبقراط) قد قدم شرحاً أساسياً للتركيب العضلي العظمي، وكذلك لمبادئ وظائف بعض الأعضاء كالكلى، وقد اعتمد أغلب عمله وطلابه ومن تبعهم على التوقعات النظرية بدلاً من أن يكون لهم تجارب عملية، ونجد أن أعظم إنجازاته في مجال التشريح هو اكتشاف الصمام الثلاثي للقلب ووظيفته، وقد قام بتوثيق ذلك في مقالة عن القلب في القرن الرابع قبل الميلاد، أما (أرسطو) فعلى النقيض من ذلك فقد استخدم نظاماً تجريبياً بشكل أكبر ممن سبقه، معتمداً على تشريح الحيوان(2)، وقد اشتهر عن (براكساغوراس) بأنه أول من عرف الفرق بين الشرايين والأوردة، وكذلك علاقة الأعضاء بعضها البعض، ووصفها بشكل أدق ممن سبقه، وذلك في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، بينما نجد أول استخدام للجثث البشرية في أبحاث تشريحية، عندما حصل كلٌ من (هيروفيلوس) و(اراسيستراتوس) على إذن الملوك البطالمة بتشريح مجرمي الإسكندرية، وقد أنشأ الأول علم التشريح، والثاني علم وظائف الأعضاء.(3)

ولقد ساهمت الحضارة الرومانية في مجال التشريح عن طريق ما قام به (جالينوس) الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، واعتمد في كثير من معلوماته على من سبقوه من العلماء، لكنه أكمل أبحاثه عن وظائف الأعضاء عن طريق تشريح الحيوانات وهي حية، وأيضاً بسبب عدم توفر عينات بشرية كافية، وقد طبّق اكتشافاته في تشريح أجسام الحيوانات على الإنسان وكانت أغلب مجموعة رسوماته على تشريح الكلاب، وهي التي استخدمت كمرجع للتشريح لـ 1500 سنة، و(جالينوس) أول من قرر أن الشرايين في الحيوان الحي تحتوي على دم لا على هواء(4)، وكان يعتقد أيضاً أن القلب يضخ الدم في الأوعية الدموية مخلوطاً بشيء سماه النفس، وهي كما كان يرى أنه نوع من الروح تحصل عليه الرئتان عند استنشاق الهواء، ورأى كذلك أن الدم يتم ضخه إلى الأعضاء المحتاجة إليه، ولايجري في حركة دائرية ومن مؤلفاته في هذا العلم (علاج التشريح) المعروف بالتشريح الكبير، وكتاب (فيما وقع من الاختلاف بين القدماء في التشريح)، وكتاب (تشريح الأموات)، وكتاب (تشريح الأحياء).

كان تزمت البعض بل وتوجيه الاتهام لمن يقوم بعملية تشريح الجسد البشري بالبعد عن مفاهيم الدين، بل والابتعاد عن الرحمة والشفقة سبب في حدوث قصور لدى الأطباء العرب في

(1) قناديل شكر: موقف الدين من التشريح، ص12.

(2) حسان حلاق: مقدمة فى تاريخ العلوم والتكنولوجيا، ص16-17.

(3) نجيب بلدي: تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها، ص40.

(4) برهان العابد: مختارات من تاريخ الطب، ص 22.

صدر الحضارة العربية عن تحقيق تقدم في علم التشريح. لم يبحث الفُقهاء الأَقْدَمُون بحثاً مُفَصَّلاً في موضوع تشريح الجثث، سوى ما جاء في شق بطن الحامل الميت؛ لإخراج جنينها إذا ترجَّح حياة الجنين في بطنها، وكذلك أباح الفُقهاء الأَقْدَمُون شَقَّ بطن الميت لو بلع مال غيره في أثناء حياته، لكن الملاحظ أن العرب كانت لديهم بعض المبادئ التشريحية البسيطة ظهرت خلال العهد الراشدي الباكر، وكانت الحجامة وفصد العروق التي مارسها العرب بشكل واسع لوقت طويل قد أعطت الأطباء العرب بعض المعلومات الجيدة في هذا المجال، فقد عرفوا منذ القدم عدد العروق المتواجدة في جسم الإنسان التي عادة ما يفيد فصدها في علاج بعض الأمراض، ومما يدل على ذلك ما ذكره (ياقوت الحموي) في أثناء حديثه عن حادثة اغتيال أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) قال: «لما جرح علي ابن أبي طالب وجمع له الأطباء لما ضربه (عبد الرحمن بن ملجم)، وكان أبصرهم بالطب (أثير بن عمرو السكوني) الكوفي المعروف (بابن عُمريا) أخذ أثير رئة شاة حارة فتتبع عرقاً فيها، فاستخرجه وأدخله في جرح الأمام علي (رضى الله عنه) ثم نفخ في العرق واستخرجه فإذا عليه بياض الدماغ، وذكر (أثير) أن الضربة قد وصلت إلى أم الرأس».[1]

لكن الأطباء العرب في بداية الحضارة العربية قد اكتفوا بالمعلومات التشريحية عن الجسد البشري، مما قرأوه في كتب اليونان الأقدمين أو ما لاحظوه من تشابه واضح بين البشر والحيوان عندما قاموا بفحص وتشريح جثث الحيوانات، مثل تشريح (ابن طفيل)لأنثى الظبي في قصة (حي ابن يقظان)، حيث أخذ يقلب جسمها حتى وصل إلى الكبد الذي عرفه بأنه العضو الذي يكون فيه الغذاء، ثم وصل إلى الرئتين، فأخذ يقلبهما حتى وصل إلى موطن القلب فرأى القلب ساكناً لا حركة فيه فشرحه فوجد فيه تجويفين اثنين أيمن وأيسر، وعندما قام (يوحنا بن ماسويه) باستجلاب بعض القرود من بلاد النوبة بغرض تشريحها[2]، وكتب عما رآه كتاباً استحسنه أعداؤه فضلاً عن أصدقائه، وكذلك عندما قام الرازي بفحص أرحام الغنم ومقارنتها بأرحام النساء التي لايمكنه القيام بتشريحها، وأخيراً ماذكره (ابن أبي أصيبعه) في كتابه (طبقات الأطباء) عن قيام (الأشعث) بفحص أعضاء أسد بعد تشريحه.

وبتقدم الزمن وتزايد المعرفة الطبية نجد في كتابات بعض المؤرخين أن بعض الأطباء قد مارس علم التشريح سرّاً، ويستدلون على ذلك بدليلين؛ أولهما أنهم وصفوا أجزاء الجسم البشري ـ كالعين والقلب والكبد والرحم ـ وصفاً دقيقاً (كالزهراوي) و(ابن طفيل)، وغيرهما وكذلك عندما قالوا بآراء تخالف آراء كثير من الأطباء اليونانيين السابقين، بل وبينوا خطأهم في بعض ما ذهبوا إليه كما فعل (الرازي) عندما ألف كتابه «الشكوك على جالينوس»، وكذلك فإن أطباء العرب قد رأوا وفحصوا العديد من الهياكل البشرية في المقابر يذكر

---

(1) حسان حلاق: مقدمة في تاريخ العلوم والتكنولوجيا، ص21.

(2) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات «حاشية»، ص99.

ذلك (عبداللطيف البغدادي)، فقد صرَّح في كتابه: «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعايَنة بأرض مصر» بأنه وجد تلاً مِن الهياكل البشرية في إحدى المقابر، ويقول «فشاهدنا مِن شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها، وأوضاعها ما أخذْنا عِلماً لا نستفيده مِن الكتُب»، وقال (ابن النفيس) في كتابه (الإفادة والاعتبار) «والذي شاهدناه مِن حال هذا عظْم الفك الأسفل، أنه عظْم واحد ليس فيه مَفصِل ولا درز أصلاً، واعتبرناه ما شاء الله مِن المرَّات في أشخاص كثيرة تَزيد على ألفَي جمجمة بأصناف مِن الاعتبارات، فلم نجده إلا عظْماً واحداً من كل وجه»، وقد قال (ابن رشد) «من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيماناً»، وكذلك قال (الرازي) «يحتاج في استدراك علل الأعضاء الباطنة إلى العلم بجوهرها أولاً بأن تكون قد شوهدت بالتشريح»، وقد قام الأطباء العرب كذلك في القرن العاشر الميلادي بتشريح الجثث في قاعات مدرجة خصصت لذلك في جامعة صقلية تحت الحكم النورماني بعد إخراج العرب منها.

لكن فضل العرب والمسلمين وابتكاراتهم في هذا المجال يمكن أن نجمله في شيئين اثنين أولهما الحفاظ على كتب الأقدمين من هنود وسريان ويونان وورمان وسكندريين والتي فقدت أصولها فقاموا بجمعها وتصنيفها وشرحها ونقدوها بمنهاج علمي خالص، والثاني هو وضع مؤلفات وتصانيف خاصة بهم وضعوا فيها خلاصة ماقاموا به من اكتشافات وأبحاث جديدة في هذا المجال الحيوي، ومن تلك الكتب كتاب (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) (للقزويني)، حيث ورد فيه تشريح لجسم الإنسان عضواً عضواً الذي ذكر المؤلف فيه بالتفصيل وظيفة العين والعصب البصري وكيفية الإبصار والعضلات المحركة للعين والجفون والأهداب، كما وضع وصفاً تشريحياً للأنف والأذن والشفتين والفم، وتحدث عن الشعر واللحية، كما تحدث عن تشريح العنق والمريء والقصبة الهوائية، وتناول وظيفة القفص الصدري والأضلاع واليدين والعمود الفقري والساقين، كما ذكر تشريح الأجزاء الداخلية في جسم الإنسان، ووصف الدماغ والقلب والكبد والقناة الصفراوية والمرارة والمعدة والكلية ونجد كذلك أن (ابن النفيس) قد ابتدع كتاباً خاصاً بعلم التشريح في مؤلفه (شرح تشريح القانون)، وقال (أبو القاسم الزهراوي) في كتابه (التصريف) بضرورة تشريح الأجسام بعد الوفاة لمعرفة سبب الموت للانتفاع بهذه النتائج في الأحوال المماثلة.

ولقد عرف عن الطب العربي أنه لم يتلق آراء السابقين في الطب التي وصلت إليهم عن طريق الترجمة بالتسليم والانبهار، ولكنه أخضع تلك المعلومات للفحص الدقيق والنقد المستفيض، فما تعارض منها مع الملاحظات والمنهج التجريبي قام الأطباء العرب بنقده ورفضه، وهذا ما ذكره الكثير من علمائهم (كأبي بكر الرازي) و(الشيخ الرئيس ابن سينا)، وكذلك (ابن الجزار) و(ابن رضوان) و(علي بن العباس المجوسي) في مؤلفاتهم الكثيرة التي حوت العديد من النقد لآراء من سبقهم من قدامى الأطباء، وفي ذلك المجال نجد أن (موفق

الدين عبد اللطيف البغدادي) قد ذكر مواطن عدم الدقة في وصف (جالينوس) لبعض أجزاء الهيكل العظمي، وذلك بعد فحصه للعديد من الهياكل البشرية في المقابر، وكذلك ماقال به (ابن النفيس) عند تشريحه للشريان الوريدي في كتاب (شرح تشريح القانون)، حيث خطّأ رأي (جالينوس) بوجود منفذ غير ظاهر بين تجويفي القلب، بل وخالف أيضاً غيره من أطباء العرب (كابن سينا) في عدد بطين القلب، إذ كان (ابن سينا) يعتقد أن للقلب ثلاثة بطون، وقد ذكر (ابن النفيس) أن للقلب بطينين فقط، وذلك بقوله «والتشريح يكذب ماقالوه»(1)، وخالفه أيضاً بأن دم البطين الأيمن يغذي القلب، ويعتبر (ابن النفيس) أول من قال بوجود شرايين خاصة لتغذيته وسماها الأوعية التاجية، وقد ذكر لأول مرة الدورة الدموية الصغرى أو الدورة الرئوية، وذلك قبل العالم (وليام هارفي) بقرون بل، وسبق الطبيب (سرفيتوس) باكتشاف أن الدم يتم تنقيته في الرئتين، وأن القلب لا يوجد اتصال بين بطينيه، وكذلك كان أول من قال بوجود شرايين تغذي القلب، وهو بذلك أول من وصف الشريان التاجي وفروعه. وقد قام أيضاً بذكر عدد تجاويف القلب وخالف من سبقه، وقد وصى ذلك العالم الجليل بتشريح الموتى بعد الوفاة مباشرة لتجنب تجمد الدم في العروق.(2)

ولم يكن (ابن النفيس) وحيداً في ذلك المجال بل شاركه الكثير من علماء العرب، مثل (علي بن العباس المجوسي) الذي كان أول من وصف الشعيرات الدموية، وهي تلاقي الشرايين بنهايات الأوردة بشكل جلي في كتابه (كامل الصناعة الطبية)، وكذلك (ابن القف) الذي قال عنها في كتابه (العمدة) في صناعة الجراحة أنها شبيهة بنسج العنكبوت، ونجد أن (الرازي) هو أول من قال بوجود الفرع الحنجري للعصب الصاعد، وأنه يوجد بفرعين في بعض الأوقات، أما وظيفة وعدد الأغشية القلبية فقد ذكرها (ابن القف) في كتاب (العمدة) سابق الذكر الذي وصف فيه كذلك منافذ القلب الأربعة.

علم الأجنة وخلق الإنسان:

كان المصريون القدماء على معرفة بالدور الذي يقوم به الذكر في عملية الحمل الذي أسموه في الأدب المصري القديم «بالدور الجميل»، لكنهم لم تكن لديهم معرفة بما يحدث لبذرة المرأة (البويضة) في الداخل، وكانوا يعتقدون أن المني ينبع من الحبل الشوكي (النخاع)، ولذا فإنهم أطلقوا على الفقرات السفلية من العمود الفقري بالمقدسة ربما لارتباطها بالحفاظ على مني الرجل، وقد عرف المصريون القدماء مدة الحمل التقريبية وقدروها مابين (275 و294 يوم)، وجاء من بعدهم اليونان القدماء، ومنهم (أرسطو) أو (المعلم الأول) عند العرب (مابين 384 و322 ق.م) الذي خصص جانباً من أبحاثه لعلم الأجنة، وذلك بناء على ملاحظاته

(1) بول غليونجي: ابن النفيس، ص 128.

(2) جلال مظهر: مآثر العرب على الحضارة الأوربية، ص 346-347.

على أجنة الطيور والحيوان، وقد قال بأن الجنين يكون جاهزاً في مني الرجل، فإذا دخل رحم المرأة نما داخلها وأن الجنين يتخلق من دم الحيض، حيث يقوم المني بعقد دم الحيض كما تفعل منفحة اللبن وتحيله إلى جبن.

وجاء دور الأطباء العرب فنراهم قد أسهموا بتغيير الكثير من المعتقدات الأسطورية والخرافية عن نشاة الإنسان نتيجة ماعرفوا من آيات الخلق في القرآن الكريم، وما ذكره الرسول الكريم عن تطور خلق الإنسان، ففي البداية نجد أن الأطباء العرب قد رفضوا بنشوء الجنين من دم الحيض، وقالوا بأن كلاً من ماء الرجل والمرأة سبباً في تكوينه وأن الإنسان هو نتاج عملية مشتركة بين الذكر والأنثى، وأن مني الرجل ماء دافق أي متحرك، وكذلك فإن الجنين يتطور خلقه طوراً من بعد طور في رحم الأم، فهو نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم يكسى لحماً، ثم ينشأ خلقاً آخر، ولم يكتف العلماء العرب بذلك بل وضعوا المؤلفات في ذلك العلم، فنجد أول كتاب صُنف في خلق الإنسان هو كتاب (أبو مالك بن عمرو)، ثم تناول ذلك الموضوع كل من (النضر بن شميل) و(أبو عمرو الشيباني) و(الأصمعي) و(ابن سيدة) في (المخصص) الذي سار فيه على نهج (الأصمعي) و(نصر بن يوسف صاحب الكسائي) و(ابن قتيبة)، وربما كان آخر من كتب في هذا الموضوع هو السيوطي الذي استوعب الكثير مما صنفه الأوائل ورتبه وسماه «غاية الإحسان في خلق الإنسان».[1]

الجراحة أو صناعة اليد:

الجراحة هي أحد التخصصات الطبية التي تعتمد على الإجراءات اليدوية والأدوات التقنية المطبقة على المرضى بغرض المعالجة أو التحقق من وجود حالة تلف نسيجي قد تحدث نتيجة لبعض الأمراض أو لإصابة ما، ويهدف الإجراء الجراحي إلى تحسين الأداء الوظيفي أو الشكل الظاهري للعضو، وفي بعض الحالات قد يكون الغرض دينياً، وتوجد دلائل للتدخل الجراحي في رفات إنسان ما قبل التاريخ تعود إلى العصر الحجري الحديث، حيث وجد المنقبون وعلماء الآثار ثقوباً في الرأس حيث تفتح الجمجمة أو تحفر فيها حفرة صغيرة بهدف إزالة الغطاء العظمي عن الأم الجافية التي تحيط بالدماغ، وذلك لعلاج الأمراض المتعلقة بالضغط داخل الجمجمة[2]، وقد كشفت اللوحات الجدارية المصورة على جدران الكهوف استمرار هذا الإجراء لمدة طويلة وأكثر ما يدعو للدهشة هو أن المرضى في تلك الأزمنة قد نجوا من تلك العمليات، وأظهروا مؤشرات على شفاء الجمجمة، وأظهرت بعض الحفريات في وادي السند حوالي عام (3300 ق.م) وجود عمليات حفر للأسنان، وقد كانت الحضارة الفرعونية في مصر القديمة من أكثر الحضارات القديمة تطويراً للتقنيات الجراحية، حيث وجدت مومياوات تعود إلى حوالي عام (2650 ق.م)، وقد احتوت على ثقبين في الفك السفلي

(1) إبراهيم السامرائي: كتاب خلق الإنسان للزجاج، ص107.

(2) Brothwell : Digging up Bones; The Excavation, Treatment and Study of Human Skeletal Remains, p.126.

بالقرب من جذر الضرس الأول، مما يشير ربما إلى احتمال وجود خراج في الأسنان، وقد كان الجراحون في تلك الفترة من الكهنة المتخصصين في علاج الأمراض(1)، وقد كتب المصريون القدماء وصفاً لعديد من العمليات على أوراق البردي، كما أسفرت اكتشافات مقابر العمال حول هضبة الأهرام على وجود أدلة تنم عن إجراء عملية جراحية بالمخ في مومياء عامل من بناة الهرم كان قد عاش لفترة بعد إجراء العملية.

وفي الهند في القرن السادس قبل الميلاد وصف (ساشروتا) الذي عرف بأبي الجراحة الهندي، وهو أحد أشهر جراحي الهند القديمة في كتابة أكثر من (120) أداة جراحية وحوالي (300) إجراء جراحي، وتصنيف لفئات الجراحة مقسماً إياها إلى (8) فئات، وقد أجرى عمليات تجميلية وأخرى لعلاج الماء الأزرق (الزرق)، وكذلك عمليات قيصرية، وفي الصين كان «هوا توه» الطبيب الصيني الشهير قد أجرى خلال فترة أسرة هان الشرقية وعصر الممالك الثلاث عملية جراحية بمساعدة التخدير، وإن كان ذلك بطريقة بدائية وغير متطورة، أما في اليونان القديمة فقد أجرى أطباؤهم بعض العلاجات الجراحية، ومنها استخراج خراج من الجهاز الهضمي وإزالة مواد خارجية اخترقت الجسم، وخلال تلك العمليات كان المرضى في حالة من النوم محفزة باستخدام عدد من المواد المنومة، مثل الأفيون، أما في روما القديمة فإن (جالينوس) الذي يعتبر واحداً من أعظم جراحي العالم القديم بدأ طبيباً في مدرسة للمصارعين، حيث تعلم الكثير من فنون الجراحة أثناء علاجه لجروح المجالدين ثم انتقل إلى روما في عام (162م)، حيث أسس عيادته الخاصة ثم عمل طبيباً خاصاً للإمبراطور (ماركوس أوريليوس)، وقد كان أول من توصل إلى العلاقة بين الكسر في العمود الفقري وانقطاع الحبل الشوكي والشلل، وقد أجرى العديد من العمليات الجريئة كجراحات المخ والعين.(2)

كانت المعلومات الجراحية منتشرة عند القبائل العربية من قديم الزمن، وعرفوا من فنونها القليل منها الكي وفصد الدم والحجامة، بالإضافة إلى استخدام الجبائر لعلاج الكسور، ولم تكن تلك الممارسات تجري بواسطة أطباء، وإنما تتم من قبل الحلاقين والمجبرين الشعبيين، وقد ورث العرب أيضاً احتقار الجراحة من اليونان، إذ أن ترجمة كلمة الجراحة الحرفية هي صناعة اليد، كما ورثوا الخوف من الجراحات لما فيها من خطر محتمل على حياة المريض، وقد عبر (ابن سينا) عن رأيه ورأى الكثير من معاصريه في الجراحة فحقر من شأنها وقال «إنها من الصناعات اليدوية وأنها لا تستحق أن ترفع إلى مقام الطب»(3) بالرغم من أنه قد مارسها، ووصف الكثير من العمليات الجراحية في مصنفاته، وربما يعزى

(1) Dawson: Medicine in the legacy of Egypt, p.179-198.

(2) Garrison: An Introduction to the History of Medicine, P. 43-62.

(3) حنيفة الخطيب: الطب عند العرب، ص32.

هذا الموقف السلبي من علم الجراحة لأنه وغيره من ممارسي مهنة الطب كانوا يعتبرونه ـ أي الطب ـ نوعاً من الفلسفة التي هي من نتاج العقل المفكر، وبالتالي فهو أعلى منزلة من أي شيء آخر يتعلق بالمهن اليدوية ومنها الجراحة بالطبع.

في صدر الحضارة العربية نجد أن الأطباء العرب قد قاموا بترجمة المؤلفات اليونانية والفارسية والهندية القديمة لكنهم لم يقفوا عند تقديس هذه المعلومات فحسب، بل إنهم مع مرور الزمن وتراكم المعلومات الطبية والخبرات الإكلينيكية في زمن السلم، بالإضافة إلى المعلومات المستقاه من التشريح ومشاهدة الجروح والتئامها أثناء فترات الحروب والمعارك قد ساهمت إلى زيادة كبيرة في معرفة جسم الإنسان وطريقة عمل أعضائه، واستخدم العلماء العرب تلك المعارف لدفع العلوم الطبية إلى مستويات غير مسبوقة، وأن يقدموا للعالم أفكاراً تتميز بالجدة والابتكار، وبالتدريج بدأ الأطباء العرب بتأليف المصنفات المتخصصة في علم الجراحة.

كان أول مؤلف عربي وضع في الجراحة هو كتاب (في صناعة العلاج بالحديد) (لإسحاق بن حنين)، إلا أن هذا المؤلف قد فقد[1] لكننا نجد من بقاياه في طيات مؤلف (لعلي بن ربن الطبري) وهو (كتاب فردوس الحكمة)، ثم تبعه (علي بن العباس)، حيث كتب فصلاً كاملاً عن الجراحة في مصنفه (كامل الصناعة)، ثم جاء من بعدهما (الرازي) الذي سمي (بجالينوس) العرب (856–925م)، فقام بتخصيص جزأين من كتابه (الحاوي) والمكون من اثنين وعشرين مجلداً للجراحة وأمراض المسالك البولية والتناسلية، واحتوى المجلد الحادي عشر على علاج الرضوض عامة، ومنها التي تحدث للأعصاب، وعلاج القروح، وأعضاء التناسل والمقعدة، وتكلم عن جراحات الأعصاب والعضلات والأوتار والأربطة، وذكر كذلك خياطة جراحة البطن والأمعاء وفرق ما بين عسر التئام الجراحات وسهولتها حسب الأعضاء، ولم ينس جراحات الدماغ والخراجات الحادثة في داخل الأذن، كما خصص (الرازي) المقالة السابعة من كتابه (المنصوري) للجراحة في تسعة عشر فصلاً، ثم جاء من بعده (علي بن العباس المجوسي) في حوالي عام (984م)، ووضع مصنفه الكتاب (الملكي) أو (كامل الصناعة الطبية) في عشرين جزءاً، قال فيه (ابن أبي أصيبعه) «هو كتاب جليل مشتمل على أجزاء الصناعة الطبية علمها وعملها»، وقال (القفطي) عنه «مال الناس إليه في وقته، ولزموا درسه، إلى أن ظهر كتاب ابن سينا فمالوا إليه». وقد خصص (علي المجوسي) الجزء الثاني والثالث للتشريح والباقي للجراحة، وشرح فيها عملية الشق العجاني على الحصاة، وتكلم عن علاج مرض السرطان، وداء الخنازير، وورم اللوزتين، وقطع الأطراف الفاسدة

في الأندلس كان الجراح الطبيب (أبو القاسم الزهراوي) (912–1013م) هو أول من رد الاعتبار لعلم الجراحة وفرق بينها وبين سائر المواضيع الطبية وأكسبها بذلك الكثير

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات «حاشية»، ص99.

من التقدير، وقد خصص المقالة الثلاثين من كتابه (التصريف) للجراحة والآلات الجراحية التي استعملها وكان بهذا أول من وضع كتاب مصور لفنون الجراحة، وشرح فيه الكثير من العمليات الجراحية وكيفية إجرائها[1]، ويأتي من بعد ذلك الطبيب والجراح العربي (أبو الفرج ابن القف) (1233 – 1286م)، الذي يعتبر آخر من وضع مصنفات في علم الجراحة، ولعل أول إبداع له هو إدخاله كلمة جراحة بدل صناعة اليد، وكلمة جراح أو جرائحي يصف بها الجراح، وقد سمى كتابه «العمدة في الجراحة»، وخصصه لتثقيف الجراحين وتعليمهم كيفية ممارسة المهنة.

أرسى الأطباء العرب العديد من القواعد الجراحية التي ظلت تستعمل من بعدهم لقرون عدة، منها ما يتعلق بجراحات النصف الأسفل من جسم الإنسان، وقد أوصى (الزهراوي) الجراحين بوضع المريض في وضع خاص بهدف تقليل تدفق الدم إلى مكان الجراحة، وهذا يؤدي إلى وضوح الرؤية، وكذلك زيادة معدل إرجاع الدم إلى القلب، وهذا الوضع يسمى حالياً «وضعية ترندلبرج»[2]، أما مايتعلق بخياطة الجروح فإن (أبا بكر الرازي) هو أول من أدخل استعمال الخيوط من أمعاء القطط، وتبعه (الزهراوي) الذي كان أول من استخدم الحرير في خياطة الجروح وابتكر طريقة التخييط بإبرتين لجعل الجرح غير مرئي[3]، و(الرازي) ينصح بتوسيع فم الجرح ويخيطه إذا كان عرضياً ويتركه إذا كان طولياً[4]، وقد أشار أيضاً إلى حدوث مرض التيتانوس أو الكزاز نتيجة لتلوث الجروح، وفي حالة الجروح نتيجة عضة الأفعى كان (موسى بن ميمون) يترك الجرح مفتوحاً بعد مص السم بالفم، أو باستخدام الفصد أو الكي مع عمل رباط فوق الجرح لوقف انتشار السم[5]، وقد وصف (ابن سينا) الكحول مقلداً (الرازي) الذي كان أول من حصل عليه بتقطير النشا ذلك لتنظيف الجلد قبل إجراء العمليات، وإن لم يتوفر الكحول كان الأطباء يستعملون العسل والزيت والماء، وكان (الرازي) أول من استعمل الفتائل والقثاطر والدرنقات لتسهيل خروج الدم والصديد المتجمع بعد إجراء الجراحات، أما (ابن سينا) فقد استعمل الغيار الجاف.

كان علم التخدير ومازال من أساسيات الجراحة إذ كان الأطباء العرب يستعملون العديد من الأدوية المخدرة والمقللة لحدوث الألم مثل القنب الهندي والأفيون أو الخشخاش وست الحسن والشويكران، وقد استخدموا كذلك التبريد بواسطة الثلج والماء البارد وهناك دلالات على استخدامهم مادة الأيثير، حيث إنهم قد اكتشفوا المواد الأولية لإنتاجه عن طريق التقطير وهي الكحول وحامض الكبريتيك أو الزاج الأخضر.

(1) حنيفة الخطيب: الطب عند العرب، ص 107.
(2) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص 378.
(3) نفس المصدر، ص 278.
(4) محمد كامل حسين: طب الرازي ـ دراسة تحليلية، ص 137.
(5) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص 105.

وبعد إجراء العملية الجراحية فإن الأطباء العرب قد ابتكروا أساليب متنوعة لإنعاش المرضى مثل دفع الهواء بالضغط المتناوب أو باستعمال المنفاخ، أما ابن زهر فقد ابتكر أنبوبة فضية أدخلها في البلعوم لتغذية المرضى، أما في حالة ضيق المريء فإنه قد أوصى بالتغذية عن طريق الشرج.

وفي مجال ابتكار الأدوات والآلات الجراحية نجد أن الطب العربي يذخر بالعديد من الإنجازات منها القثاطير الأنبوبية التي اخترعها (الرازي) التي يمر منها القيح والدم والصديد والتي كانت مزودة بفتحات جانبية حتى لاتسدها تلك الإفرازات[1]، وقد وصف (الزهراوي) أكثر من مائتي آلة جراحية منها المثقاب الذي يخترق الجمجمة[2] والسنانير التي تستخدم لإزالة زوائد الأنف اللحمية، وكذلك الحقنة الشرجية التي استخدمت حتى للأطفال، وقد كان (عبد الله بن محمد الأزدي) المعروف (بابن الذهبي) الذي توفي عام (1033م) رائداً في اختراع المجسات من معدن الرصاص التي كانت بمقاييس متدرجة مختلفة، وذلك لتوسيع مجرى البول، وقد تكلم (الرازي) عن قثطرة البول ولجعلها لينة ومطاطية فقد صنعها من الرصاص، أما (ابن سينا) فقد أوصى بصنعها من جلود بعض الحيوانات بعد دبغها.

جراحة الفم والأسنان:

تعتبر جراحة الفم والأسنان من أهم أقسام الجراحة التي كان للأطباء العرب دور بارز فيها إذ تناولوا مواضيع وأمراض قل أن يتناولها من أتى قبلهم فنرى، مثلاً (الزهراوي) يتكلم عن اللحم الزائد في اللثة[3] وكيفية إزالته، وكذلك عن معالجة العقد التي تحدث في الشفتين، أما عن الأورام التي تحدث تحت اللسان فقد تحدث عنها وفرق مابين أنواعها وحدد العلاج لكل نوع منها، بل وعالج جراحياً اللسان المعقود ووصف الآلات الجراحية التي استخدمها في ذلك الإجراء الجراحي، أما تسوس الأسنان فقد أسهب (ابن سينا) في أسباب ذلك وفرق ما بين تغير لون الأسنان نتيجة الرواسب، أو ظهور التسوس في لبها ووصف جلو وتنقية الرواسب في الحالة الأولى، وكذلك معالجة التسوس بما يحللها، ومن ثم يخرجها من السن في الحالة الثانية، وإذا لم يجد هذا العلاج فإنه لجأ إلى المثقاب حتى تستطيع الأدوية والعلاجات الوصول إلى موضع العفونة (التسوس) وشاركه في ذلك (الرازي)، حيث بدأ بتبخير الفم ثم استخدم المثقاب وقطر في السن الزيت المغلي، وإذا لم يكن يجد أي من العلاجات السابقة فإنه يقلع السن المصابة، وحتى الأسنان المخلخلة لم ينسها الجراحون العرب في ذلك الزمان فقد قاموا بتثبيتها بواسطة سلسلة من الذهب كما أوصى بذلك (الرازي).

(1) عبد العزيز بن عبد الله: الطب والأطباء بالمغرب، ص 4.

(2) فوسيه أزكريدو: فضل الجراح الأسباني المسلم (أبو القاسم الزهراوي) على جراحة الأعصاب من أبحاث مؤتمر الطب الإسلامي في الكويت، 1981.

(3) أبو القاسم الزهراوي: التصريف لمن عجز عن التأليف، ص 62.

وقد شدت الرواسب القلحية على الأسنان انتباه الأطباء العرب ورأوها خطرة على صحة الأسنان، فأشار (الزهراوي) بإزالتها ووصف الأدوات اللازمة لذلك[1]، وكان فقد الأسنان نتيجة التسوس أو الإصابات يمثل إشكالية لدى المصاب، وخصوصاً النساء لذا فقد أشار (الزهراوي) بتعويضها صناعياً من عظام البقر الذي ينحت على شكل السن المفقود، ويثبت في مكانه، وحتى فن تقويم الأسنان نجد له ذكراً في مؤلفات الجراحين العرب، حيث يذكر (الزهراوي) اضطراب شكل الأسنان في الفك، وكيفية نشر أو برد الضرس النامي خلف ضرس آخر، وأخيراً فقد نالت كسور الفكين اهتمام الكثير من الجراحين العرب في ذلك العصر، فنجد أن (علي بن العباس المجوسي) هو أول من وصف كسر الفك الأسفل ووصف كيفية علاجه ثم أتى من بعده (الزهراوي) ليصف الراحة للمريض، ويحدد له حمية لينة خاصة، ويقدر مدة التحام الكسر بثلاثة أسابيع، بل ويحدد مايمكن أن يحدث من مضاعفات ويصف العلاج المناسب لكل منها.[2]

جراحة الأنف والأذن والحنجرة:

كان لهذا التخصص الدقيق عند الأطباء العرب رعاية خاصة إذ كان يشمل الأنف التي كانت ولا تزال معياراً للجمال، وخاصة عند النساء، وهي كذلك علامة للأنفة والكبرياء العربية، وكذلك الحنجرة الذين عرفوا باحتوائها على آلة إصدار الأصوات والكلمات التي تميز الجنس البشري عما عداه من باقي المخلوقات، وهي كذلك تحتوي على مدخل القصبة الهوائية التي يمكن إذا حدث لها مكروه أن تسبب اختناقاً يؤدي إلى الوفاة، لذا فإن الأطباء العرب قد استفادوا بخبرات من سبقوهم في عملية فتح القصبة الهوائية مثل (اسكليباديوس) اليوناني، لكن أول من وصفها من العرب كان (يوحنا بن ماسويه) الذي ذكر طريقته في تلك الجراحة (أبو بكر الرازي) في كتابه (الحاوي)[3]، ثم ذكرها (الزهراوي) في كتابه (التصريف) وهون من خطورتها ووصى بإجرائها عند اللزوم، ثم جاء (ابن زهر) فأحدث تغييراً في عملية إجرائها نتيجة لتراكم المعلومات من أبحاثه التجريبية على الماعز التي ضمها كتابه (التيسير)، وكان من ابتكارات أطبائنا العرب إدخال أنبوب معدني صاغوه من الفضة أو الذهب لتجاوز الاختناق التنفسي نتيجة انسداد الحنجرة أو القصبة الهوائية، وقد قام (الزهراوي) بابتكار خافض للسان مصنوع من الفضة أو النحاس أثناء عملية استئصال اللوزتين اللتين كان التكوين الظاهر لها في أول الحلق والحنجرة سبباً مباشراً في أن يفحصها أطباء العرب في ذلك الوقت الباكر، لذا فقد شخص الكثير منهم أمراضها بالفحص المباشر، بل واستخدموا الأصابع لتحسسها ومعرفة سطحها[4]، وكيفية تحرك أجزائها، ونذكر منهم الشيخ الرئيس

(1) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص 212 ـ 215.

(2) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 108.

(3) الرازي: الحاوي في الطب ج3، ص225.

(4) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 115.

(ابن سينا)، و(الزهراوي)، و(الطبري)، و(الرازي)، وكذلك (ابن زهر الأندلسي) في مؤلفه (التيسير)، حيث ذكر بالتفصيل حالات شلل الأحبال الصوتية والعديد من حالات الأورام، وقد قام (ابن سينا) بإجراء عملية استئصال اللوزتين بنجاح، وذكر ذلك بالتفصيل في كتابه (القانون في الطب)، وقد أجرى الأطباء العرب كذلك العديد من العمليات التجميلية للأذن، كما ذكر ذلك (ابن القف) في كتابه (العمدة) عن إزالة الزوائد اللحمية منها، والذي نجح أيضاً في فتح ثقب الأذن المسدود نتيجة لتشوه خلقي أثناء الحمل، وتم اكتشافه عند الولادة، وحتى السرطان في تلك المنطقة كانوا على دراية به، وفرقوا مابينه وبين الزوائد اللحمية الأنفية التي أطلقوا عليها اسم بواسير الأنف، وذلك على أساس الكشف الظاهري من حيث اختلاف اللون وصلابة الملمس ووجود الألم من عدمها ذكر ذلك (الرازي)، و(ابن سينا) بشيء من التفصيل في (الحاوي) و(القانون) وحتى كسور الأنف قاموا بعلاجها يذكر ذلك (ابن القف) في كتابه (العمدة) في الجراحة معلماً من يأتي بعده من الأطباء بشرح واف دقيق.

جراحة الأوعية الدموية:

كان للعرب خبرة طويلة في التعامل مع الأوعية الدموية، وذلك أثناء عمليات فصد العروق والحجامة، وقد ساعد تراكم المعلومات الطبية في إذكاء خبراتهم ومهارتهم عند إجراء العمليات الجراحية التي تتناول العروق، مثل دوالي الساقين، على سبيل المثال فقد قام (الزهراوي) في الأندلس بإجراء عملية دعاها «سل العروق» أي جذبها خارج الساق، ووصف تلك العملية بكثير من التفصيل في كتابه (التصريف)، وهو بذلك قد سجل سبقاً لم يدانيه جراح من قبل في إجراء ذلك النوع من عمليات الأوعية الدموية[1]، وفي كتاب آخر وهو (كامل الصناعة الطبية) ذكر (علي بن العباس) طريقة جراحية لعلاج حالات انتفاخ الوعاء الدموي، حيث ربط أعلى وأسفل الانتفاخ حتى يحد من إمكانية النزف من ذلك الوعاء الدموي.

كان النزف أثناء العمليات الجراحية ولازال شبحاً يؤرق كل الجراحين، وقد مثل هذا خطورة كبرى في ذلك الزمن القديم عندما لم تكن هناك أية وسيلة لنقل الدم الذي يعتبر مجرد إجراء روتيني اليوم، لكن ذلك لم يوقف أطباءنا العرب عن المضي قدماً في إجراء مختلف أنواع العمليات الجراحية، حيث ابتكروا أنواعاً مختلفة لوسائل توقف النزف من الأوعية الدموية نذكر منها، الربط، فقد ذكر (علي بن العباس) فائدة ربط الشريان العضدي في حالة عدم استجابة النزيف للقابضات، وكذلك الكي المباشر الذي استعملوه بطريقتين، أولاهما باستخدام عقاقير ومواد لها خصائص كاوية، مثل الخل والزنجار والزاج، بل والكمون، والأخرى باستخدام النار، وقد قال بتلك الطريقتين الكثير من الجراحين العرب وبرع في ذلك أبو القاسم الزهراوي الذي وصف الكثير من أدوات الكي في كتابه (التصريف)، وهناك

(1) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص 140 - 143.

الألقام التي ذكرها (ابن سينا) لوقف نزيف الأوعية الدموية، وهي أنسجة عليها مواد تمنع نزف الدم ثم يغطى بها الشريان ويشد عليها رباط، وهناك طريقتان أخرتان لعلاج النزف، وهي التبريد بوضع أشياء باردة فوق الشريان، كما وصى بها (ابن سينا)، وكذلك وضع مواد لزجة تلتصق بالشريان فتمنع نزفه كالكندر والراتنج.[1]

جراحة المسالك البولية والتناسلية:

يؤدي تكون الحصيات البولية إلى حدوث آلام شديدة للمريض، ويمكن أن يصاحبها نزف في البول، ولقد أصاب كل من (الرازي) و(ابن الجزار) كبد الحقيقة عندما أشارا إلى طريقة تكون حصاة البول من نواة مركزية تتراكم عليها أملاح توجد في البول[2]، وعند انتقال الحصيات البولية من حوض الكلى إلى المثانة عبر الحالب تحدث تقلصات شديدة، ويصاحبها آلام مبرحة، وقد تتشابه تلك الآلام مع التهاب القولون المسمى بالقولنج، لكن (الرازي) نجده يفرق بين ذلك المرضين بذكره ملاحظات دقيقة وصحيحة تدل على خبرة طويلة في علم الجراحة، وكذلك قد يؤدي وجود الحصيات البولية إلى التهاب في المثانة البولية يصاحبها أوجاع شديدة، وقد أدرك ذلك (أبو بكر الرازي) ونصح باستخدام الأفيون وقام بوضعه على خرقة من النسيج ثم استخدمه كأقماع داخل فتحة الشرج بعد خلطه مع قليل من الزعفران، وإذا لم يحدث التدخل الطبي باستخدام العقاقير أي تحسن في الحالة فإن التدخل الجراحي يكون ضرورياً، وأول من ذكر الشق الجراحي عن الحصاة كان (الرازي)، ثم تبعه (علي بن العباس)، وكذلك (أبو القاسم الزهراوي)، وذكر (ابن سينا) أيضاً عملية استخراج حصاة الكلى من الخاصرة والظهر وقال بخطورة ذلك الإجراء[3]، ووصف عملية استخراج حصيات المثانة في كتابه (القانون) مع شرح واف للمضاعفات المحتملة كالنزف وانسكاب للبول، وكذلك قام (أبو نصر بن عيسى) ومساعده (ابن عكاشة الكرخي) بإجراء نفس العملية للخليفة (الناصر) بنجاح، وحتى حصاة مجرى البول الصغيرة التي يمكن أن تكون محشورة في القضيب محدثة انسداداً في مجرى البول قام (الزهراوي) بإجراء عملية جراحية لإزالتها، وأخيراً فقد عرف الأطباء العرب أيضاً نشوء سرطانات في الجهاز البولي ولاحظوا وجود الدم الغزير الذي يحدث بلا سبب وبغتة وأيضاً بدون ألم، وهي علامات تصاحب ذلك الداء الخبيث كما ذكر ذلك (الرازي).

أما الخصية فقد نالت اهتماماً بالغاً لدى الجراحين العرب في ذلك الزمان، حيث يتكلم (الزهراوي) عند الأدرة المائية وكيفية علاجها جراحياً، وهي سائل يتجمع حول الخصية فيكبر حجمها وفرق بينها وبين الكيس المنوي، وكذلك وصف (الزهراوي) عملية إزالة الصفاق

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 117 - 119.

(2) الرازي: الحاوي في الطب ج10، ص 95.

(3) ابن سينا: القانون في الطب ج3، ص 165.

المحيط بالخصية، وحتى دوالي الخصيتين قام بوصفها وإزالتها، وقد شكل الختان ضرورة جراحية حيث إنه يعتبر واجب ديني يقوم به كل ذكور الأمة الإسلامية، لذا فإن الكثير من أطباء العرب قد وصفوا عملية الختان، لكن أمهرهم كان (الزهراوي) الذي وصف ذلك الإجراء بدقة في كتابه (التصريف).

جراحات العظام وفن تجبير الكسور:

كان للعرب خبرة سابقة بتجبير الكسور، إذ نجد في كل قبيلة من كان له خبرة بممارسة الطب الشعبي ومنها تجبير الكسور، لكن تلك الخبرة قد تحولت إلى علم يدرسٍ وتكتب فيه المصنفات من قبل أطباء لهم الكثير من الخبرة والتجريب المنهجي، نرى ذلك جلياً فيما ذكره (الرازي) في كتابه (الحاوي) عن ضرورة فحص العضو في حالة اشتباه الكسر، وذلك بتحريكه للتأكد من سلامته[1]، ويشير بأن الكسر إذا وقع بجوار مفصل فإن ذلك يعسر من حركة العضو، أما في حالة التأكد من وجود كسر فإن (الرازي) ينبه إلى احتمال حدوث ورم نتيجة التجمع الدموي، لذا فإنه ينصح بألا يربط ذلك الكسر ربطاً محكماً في أول الأمر ويضع وقتاً زمنياً للتجبير، حيث إنه قد لاحظ أن طول مدة الشد تضعف العضو المصابٍ، ذكر بأن لو أصيبت عظمة الرضفة التي تقع في مقدمة الركبة بالكسر وجب إزالتها جراحياً، وفي الكسور بصفة عامة يذكر (ابن سينا) كيفية التئامها، وبأنها تتكون في أول الأمر من أنسجة غضروفية، ويصف عملية الالتحام الخاطئ، وينصح بالتدخل الجراحي لإصلاحه.

أما كسور الجمجمة والفكين فقد نالتا اهتماماً كبيراً عند الكثير من أطباء العرب، منهم (علي بن عباس المجوسي) الذي وصف حالات كسر الفك الأسفل، وعالجها علاجاً مناسباً وكان عليماً بكسور الجمجمة وطريقة حدوثها بل وما تحدثه من أعراض على الأعصاب، وتكلم عن الكسر الشعري الذي وصفه بأنه ربما يخفي عن الجس، لكنه يمكن أن يكون مميتاً، وقد ذكر أيضاً طريقة تضميد كسور الجمجمة، وأشار بعدم شدها بطريقة قوية حتى لا تترك أثراً ضاراً على المصاب، وأشار (ابن سينا) إلى حقيقة أن كسر عظام الجمجمة يلتئم بطريقة تخالف باقي عظام الجسد إذ أن تلك الكسور يجمعها ببعض نسيج ليفي ضام، وتبقى منفصلة غير ملتئمة بعظم، ويؤكد ذلك (عبد اللطيف البغدادي) الذي ذكر حالة أحد المرضى الذي أُزيلت من رأسة قطعة عظمية وصار في رأسه موضع إذا صاح انتفخ كالرمانة، وتكلم الشيخ الرئيس (ابن سينا) عن ارتجاج المخ، وذكر أن المسهلات تنقص الماء من الجسم، وذلك لتخفيف الضغط داخل الجمجمة، ونجد في بعض كتابات (الزهراوي) مايشير إلى أنه قد استخدم إجراءً جراحياً يشبه التربنة أو إحداث ثقوب في عظام الجمجمة وذلك لإزالة العظام المكسورة.[2]

(1) الرازي: الحاوي في الطب ج 13، ص160.

(2) عبد القادر عبد الجبار: جراحة الجمجمة والدماغ عند الأطباء العرب ـ من أبحاث مؤتمر الطب الإسلامي في الكويت، 1981.

وقد اهتم الأطباء والجراحون العرب القدامى بخلع المفاصل وشخصوها ووصفوا الوسائل الناجعة لعلاجها، وقد ذكر (ابن سينا) في (القانون) علامات الخلع في مفصل الكتف، وكذلك خلع الفقرات وما يترتب عليه من مضاعفات في كل حالة، وقد ذكر (الزهراوي) حدوث الشلل أو الفالج نتيجة حدوث كسر في الفقرات، وحتى عمليات البتر التي تحتوي على نشر العظام نجد أن (الزهراوي) قد تكلم بإسهاب في كتابه (التصريف)، حيث يذكر ظهور الفساد أو التعفن في العضو إما بسبب خارجي كلسع العقرب مثلاً، أو داخلي وينصح بإزالة الجزء الفاسد لينجو المريض من الموت، أما الجبائر والأربطة فقد كانت محط رعاية الأطباء العرب منذ زمن طويل حيث استخدموها في العديد من علاجاتهم، فنجد أن (الزهراوي) يصف الكثير منها، وقد استعملها في علاج أصناف عدة من الكسور الخفيفة والكبيرة وكذلك في حالات خلع المفاصل في الكتف والذراع والأصابع، وقد استخدم جبيرة مصنوعة من خليط غبار الرحا وبياض البيض، مما يجعلاه أول مستخدم للجبس في الجبائر[1]، ونجده يهتم بالأنسجة الملامسة للجبيرة فينصح بوضع قطعة من الصوف في الحافة.

الجراحات التجميلية:

تسعى الجراحات التجميلية في مفهومها البسيط لاستعادة التناسق والتوازن لجزء من أجزاء الجسم، وذلك بترقيع أنسجة الجسم، وهي تجرى لتحقيق إصلاح عيوب الوجه وأجزاء الجسم الأخرى الناجمة عن التشوهات الخلقية والحروق والرضوض، والأمراض المختلفة لأغراض تتعلق إما باستعادة وظيفة العضو المصاب أو بتحقيق مقاييس جمالية أفضل، وجدير بالذكر أن علم جراحات التجميل ليس بالعلم الحديث، وذلك على عكس ما يعتقده الكثيرون من الناس لأن تاريخ تلك الجراحات قد بدأ في مصر الفرعونية حوالي ألف وستمائة عام قبل الميلاد، حيث وجد علماء الآثار برديات فرعونية تحمل الكثير من التفصيلات والتعليمات الجراحية التي تسعى لاستعادة شكل المريض جراحياً لما كان عليه من قبل، منها بردية (أدوين سميث) التي توضح بالصور كيفية إعادة الأنف المشوه إلى مظهره السابق جراحياً، ومن الأمثلة المعروفة لتلك العمليات التجميلية مافعله المحنطون بمومياء الملك (رمسيس الثاني)، حيث قاموا بإدخال عظم صغير وحفنة قليلة من البذور داخل الأنف وذلك لضمان عدم تغير أبرز معالم الوجه ولضمان أن تتعرف عليه الروح في الحياة الأخرى حسب المعتقدات الفرعونية آنذاك، كما تم تعديل مومياء الملكة (موت نجمت)، وذلك بحشو ضمادات في الخدود والبطن، لكن الملاحظ أن الكثير من تلك المخطوطات كانت عبارة عن مزيج من الجراحة والسحر. وفي حوالي عام (600 قبل الميلاد) قام الطبيب الهندي (سوسروتا) بابتكار تقنية جراحية تستخدم الشرائح الجلدية في الترميم، مأخوذة من الجبهة أو الخد، وذلك لإعادة الأنف المشوه إلى حالته الطبيعية[2]، وقد كان تشوه ذلك العضو واسع الانتشار نتيجة للإصابات

---

(1) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص145.

(2) Dwivedi, Girish & Dwivedi, Shridhar. History of Medicine: Sushruta.

في الحروب المتعددة، أو كعقاب على جرائم مختلفة كالسرقة والزنا، وقد كان الجاني يسعى إلى التخلص من تلك الوصمة بالتجميل الجراحي، أما في عهد الرومان فقد كان أطباء جراحة التجميل يستخدمون تقنيات بسيطة، مثل إصلاح الأضرار في الآذان بدءاً من القرن الأول قبل الميلاد وفي إزالة الندبات لضحايا الحروب أو في حلبات المصارعة، أو تجميل أفراد الطبقات العليا، أو للأشخاص الذين يحضرون في الأماكن العامة ويريدون الظهور بأجسام خالية من الوشم والعيوب كالعبيد العتقاء، أما في عصر الإمبراطورية البيزنطية فقد تمت عملية في القرن السابع الميلادي إصلاح أنف أحد الأباطرة بعد أن قطع في حادث.

قد ساهمت الحضارة العربية في الحفاظ على الكثير من إنجازات الأطباء القدامى، ففي عهد الخليفة (أبي جعفر المنصور) (753 – 774م) ترجمت أعمال (سوشروتا) إلى اللغة العربية بأمرٍ من الخليفة نفسه، وبمرور الوقت تطورت معرفة الجراحين العرب بهذا الفن فنرى مثلاً (الرازي) كان من أوائل من أشاروا إلى الجراحة التجميلية في كتابه (الحاوي)، وقد تكلم عن كيفية إصلاح العيوب الخلقية مثل تشوه الشفة الخلقي[1]، وتبعه (ابن سينا)، حينما ذكر في (القانون) كيفية علاج بعض من حالات الخنوثة التي يكون فيها نوع المولود غير محدد، وكذلك لحالات تجمع الماء في رؤوس المواليد، لكن (أبا القاسم الزهراوي) كانت لديه إسهامات غير مسبوقة إذ وصف وعالج العديد من حالات التشوه الخلقي، مثل حالات الرباط تحت اللسان أو سدة الأذن[2]، وكذلك للعديد من حالات تشوهات الإصابة، وفرق ما بين أنواعها المختلفة سواء أكانت لحمية أم عظمية، وانسداد مجرى البول عند بعض المواليد الذكور، وكذلك فتحة الشرج غير المثقوبة، وحتى قصر الجفن التي كان يسميها الشترة قد وصفها وعالجها جراحياً، ولم تقتصر الجراحة التجميلية في ذلك العصر على إصلاح عيوب التشوهات الجنينية، بل تعدتها إلى تركيب أعضاء اصطناعية في حالة تعرضها للتشوهات أو الإصابة كالرجل أو اليد أو الأنف أو الأسنان، وكانت أول حالة ذكرت لتركيب أنف صناعية (لعرفجة بن أسعد التميمي) في العصر النبوي الذي قطعت أنفه (يوم الكلاب) ـ معركة مشهورة بالجاهلية ـ فاتخذ أنفاً من ورق فأنتن عليه، فأمره النبي ﷺ أن يتخذ أنفاً من ذهب كما جاء في سنن الترمذي، عن عرفجة بن أسعد قال: (أصيب أنفي يوم الكلاب في الجاهلية فاتخذت أنفاً من ورق فأنتن علي، فأمرني رسول الله ﷺ أن أتخذ أنفاً من ذهب» (حديث حسن)، وقد عرف عن (الزمخشري) صاحب كتاب (الكشاف) أنه قد كان له رجلاً من خشب بعد تعرضه لإصابة ذكر ذلك (ابن خلكان) في كتابه (وفيات الأعيان)، وكذلك ذكرت المصادر التاريخية الشاعر (خلف بن خليفة) الذي اتخذ أصابع جلدية بعد قطع يده.

جراحات منطقتي الصدر والبطن:

قام (ابن زهر الأندلسي) بوصف خرّاج في منطقة الحيزوم، وهي المنطقة في أعلى الصدر خلف عظمة القص في كتابه (التيسير) وكيفية علاجه جراحياً[3]، وكذلك قام (الزهراوي) في

(1) الرازي: الحاوي في الطب ج6، ص218.
(2) أبو القاسم الزهراوي: التصريف لمن عجز عن التأليف، ص297.
(3) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند الأطباء العرب، ص104.

كتاب (التصريف) بإجراء جراحة لعلاج تضخم الغدة الدرقية حوالي عام (952م) التي كان يسميها قيلة الحلقوم، وهي من العمليات شديدة الخطورة نظراً لاحتمال النزف فيها وكذلك لاحتمال إصابة العصب الخاص بالحنجرة.

وقد شكلت قرحة المعدة سبباً مهماً لآلام البطن واشتركت مع العديد من الأمراض في الأعراض، فاهتم بها الأطباء العرب في ذلك الزمان، فنجد أن (الرازي) على سبيل المثال قد ذكر أعراضها بالتفصيل في كتابه (الحاوي)(1)، وقام من بعده (ابن سينا) بذكر الفروق بين أعراضها وبين أعراض العديد من القرح الأخرى التي تنشأ في المريء والأمعاء، وذلك بتحليل دقيق لكل ألم منها، من حيث الشدة والعلاقة بتناول الطعام(2)، وقد قام (الرازي) أيضاً بذكر الفرق بين التهاب الرئة أو ذات الجنب المصاحبة بالبصاق الملون باختلاطه بالدم، والألم أثناء التنفس وبين خراج الكبد بالسحنة، ونوع الوجع (الألم) المصاحب، وقد قام (الرازي) أيضاً بوصف عملية بزل السوائل الموجودة داخل تجويف البطن في حالات الاستسقاء، ونبه أيضاً إلى الاحتياطات الواجب أخذها أثناء تلك العملية، أما جراحات الفتق السري فقد وصفها (الرازي) وصفاً بالغ الدقة بالقياس إلى عصره، ووضح خطورتها واحتمال نشوء المضاعفات بعد إجرائها، وهو كذلك يصف عملية خياطة البطن بعد الجراحة، وكيفية التعامل مع الغشاء البيرتوني (الصفاقي) الذي يسميه الثربة أثناء الجراحة، أما الفتق الأربي فقد تكلم عنه (الزهراوي) بشيء من التفصيل في كتابه (التصريف) بأن يدفع الفتق داخل تجويف البطن، ثم يخيط المنطقة التي بها ضعف في جدار البطن التي أدت إلى بروز الفتق مع الحفاظ على الخصية، وكذلك فإن (الزهراوي) قد قام بعلاج الناسور الشرجي جراحياً، وقد قام باستخدام الكي، وفتيل أدخله في الناسور وأخرجه من المقعدة.(3)

الطب الباطني:

الطب الباطني هو التخصص الطبي الذي يهتم بكل من الوقاية والتشخيص والعلاج لأمراض البالغين، فبدءاً من القرن السادس قبل الميلاد، بدأ الفلاسفة اليونانيون بالبحث عن تفسيرات للحياة، والكون وكل شيء وشمل ذلك الإنسان بالطبع ومثل نظرائهم في بلاد الصين، فقد رأوا الجسم كوناً صغيراً يعمل كامتداد للكون الكبير، وهو خاضع لنفس القوانين الطبيعية التي تحكم العالم من حوله، ومن وجهة النظر اليونانية فإن الجسم يتكون من أربعة أخلاط أو عناصر هي: الأرض أو التراب والهواء والماء والنار، وكان لكل عنصر صفة أو طبع، وهي البرودة والحرارة والجفاف والرطوبة، وقالوا بأن اضطرابات الجسم تحدث نتيجة اختلال التوازن بين تلك السوائل، وأول من قال بأن الصحة هي توازن ما بين الأخلاط هم (الخيمايون) ثم تحمس لها (امبادوكليس) (493–433ق.م)، حتى جاء (أبقراط)

(1) الرازي: الحاوي في الطب ج5، ص 40.

(2) ابن سينا: القانون في الطب ج2، ص 332 - 427.

(3) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص 130.

وتبنى تلك الفكرة وقال بتوازن العناصر، ولكن إذا زاد أحد العناصر أو نقص أو امتنع عن الاعتدال بالعناصر الأخرى حدث المرض، وأكثر الأمراض ناجم عن ازدياد في البرودة أو الحرارة، فالمرض حسب نظرية (أبقراط)، يحدث نتيجة لعدم التعادل بين هذه الأخلاط، أو بسبب فساد بعضها أو زيادتها أو نقصه، أما الآن فالعلم الحديث ينسب تغير السوائل إلى المرض ولا يعدها سبباً له، واعتقد اليونانيون القدماء أيضاً بأن ثمة تماسك وتضامن بين أعضاء الجسم ووظائفه، فإذا مرض عضو أثر على الأعضاء كافة، ولقد لاحظ (أبقراط) أن لكل مرض سيراً، وتطوراً مقنناً فله ابتداء وصعود ونهاية وانحطاط وتكون النهاية بالشفاء أو بالموت، وجاء من بعده (أرسطو) ومن تعلموا على يديه فجمع بين العناصر والصفات، ويوضح ذلك (أبو زيد البلخي) في كتابه (مصالح الأبدان والأنفس): «ذكر اليونان العناصر الأربعة، وهي البلغم، المِرة الصفراء، المِرة السوداء، الدم، والأمزجة وهي الحرارة، الرطوبة، البرودة، اليبوسة وجعلوا الغالبَ على كل خلط منها طبيعةً فجعلوا طبيعةَ الدَّم طبيعة الهواء التي هي الحرارةُ والرطوبةُ، وطبيعةَ المرَّة الصفراء طبيعةَ النارِ التي هي الحَرارةُ واليبوسةُ، وطبيعةَ المرَّة السوداء طبيعةَ الأرضِ التي هي البرَودةُ واليبوسةُ، وطبيعةَ البلغمِ طبيعةَ الماءِ التي هي البرَودةُ والرطَوبةُ».

كان التشخيص والعلاج في الطب العربي مبنياً على نظرية الأخلاط الأربعة، وهي النظرية العامة التي ورثها الأطباء العرب عن نظرائهم اليونانيين، لكنهم قد صقلوها وأضافوا إليها نتيجة تجمع المعارف الطبية، فنجد أن (نجم الدين اللبدي) قد اعتقد بأهمية الدم، وقال إن الحياة تعتمد عليه بدرجة أكبر من اعتمادها على العناصر الأربعة التقليدية، وفي العلاج شاع لديهم استعمال الأغذية والأشربة المختلفة وعدم استعمال الأدوية ويحذرون من استعمالها سواء كانت مفردة أو مركبة إلا في الأحوال القصوى، كما يذكر (الرازي): «مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب»، لكنهم قد ألفوا العديد من المصنفات المتعلقة باستخدام الأدوية على اختلاف أنواعها منها مانقلوه عن نظرائهم من الأطباء الأقدمين، ومنها ما ابتكروه كاستخدام الطباشير في علاج قرحة المعدة وزيادة الحموضة.(1)

الأمراض المعدية:

كان العرب أول من تكلم عن الأمراض المعدية والحميات إذ لم ينقلوا معارفهم عن اليونان في ذلك المجال بالتحديد، لكنهم أشاروا إلى ظهور الأوبئة المختلفة وأثبتوا حدوث العدوى ووصفوا الكثير من الأمراض المعدية، وذكروا طرق الوقاية منها وكيفية الحد من انتشارها والأدوية والعلاجات المختلفة في كل حالة، وقد ذكر (الرازي) أن الحمى ليست مرضاً وإنما عرض.(2)

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 186.

(2) نفس المصدر، ص72.

كان العرب والمسلمون أول من اكتشفوا الكحول(1) واستعملوه كمطهر قبل إجراء العمليات الجراحية، وكانوا يضعون الآلات الجراحية على النار قبل استعمالها في مختلف الجراحات لضمان نظافتها، وكانوا يعرفون أن الأماكن جيدة التهوية التي يسطع عليها ضوء الشمس هي أكثر الأماكن صحة كما أثبت ذلك (الرازي) بعد تعليقه كتل من اللحم في أنحاء بغداد، واختار آخرها تعفناً لبناء مكان بيمارستان جديد(2). وقد ذكر (ابن التميمي) استعمال التدخين لتطهير الهواء من الأوبئة في كتابه (مادة البقاء في إصلاح الهواء والتحرز من أضرار الوباء)(3). وقال (ابن خلدون) في كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر)، بأن الزحام والهرج يسببان انتشار الأوبئة وخاصة أمراض الرئة، وتكلم عن تلوث الهواء في المدن المزدحمة بسكانها، وقد أشار (ابن عذاري) إلى ارتباط ظهور المرض بالجدب وذلك في القيروان عام (1005م) بدليل اختفائه عند الخصب، ويذكر (ابن رضوان المصري) في رسالته (الحيلة عن دفع مضار الأبدان بأرض مصر عند تلوث مياه النيل عندما يتوقف جريانه أو عند حدوث الفيضان، نظراً لأنه يحمل أوساخاً ومواد متعفنة من مختلف الأماكن التي يمر بها. وقال أيضاً بأن الآبار قد تختلط بمياه المراحيض فتصبح غير صالحة للاستهلاك الآدمي(4) وقد ذكر (ابن خاتمة المراكشي) المتوفي عام (1349م) أن وباء الطاعون ينتقل من مريض لآخر بالتلامس، ولفت ابن التلميذ الانتباه إلى خطورة الذباب ودوره في تلوث الجروح، وأشار (الدميري) في كتابه (الحيوان) إلى أن الكلب المصاب بداء الكلب ينقل المرض إلى غيره من الكلاب الصحيحة أو غيره من الحيوان كالذئب وابن آوى والعرس والثعلب وحتى الإبل وكذلك إلى بني البشر، لكن (ابن سينا) يذهب إلى أبعد من ذلك، ويقرر بأن هناك شيئاً وأسماه السبب هو الذي يحدث المرض لكن النتيجة النهائية تعتمد على الصراع مابين قوة ذلك السبب والقوة بالجسم، وكذلك اختلاف الزمن الحادث فيه المرض وربما يكون هذا أول إشارة إلى وجود المكروبات والجراثيم(5)، كما اعتقد كذلك أن أمراض الطحال ربما تؤدي إلى ظهور حميات وحدد (إبراهيم عبد الرحمن الأزرق) في كتابه (تسهيل المنافع في الطب والحكمة) مسافة رمح بين السليم والمريض بالأمراض المعدية كالسل والرمد والجذام.

وقد عرف الأطباء العرب والمسلمون العديد من الأمراض المعدية مثل الجدري والحصبة، و(الرازي) أول من فرق بين أعراضهما ووصف كل واحد منهما وصفاً تفصيلياً، وذكر أوقات انتشار المرضين على انفراد، كما وصف الطفح الخاص لكل منهما، وقد أضاف (ابن سينا) بأن الحصبة تكثر أثناء فصلي الربيع والخريف، ويذكر (البلدي) بأن مريض الجدري أو

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 152.

(2) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج2، ص 343.

(3) أمين خير الله: الطب العربي، ص 188.

(4) محمد رشدي: مدينة العرب في الجاهلية والإسلام، ص 27 – 28.

(5) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 282.

الحصبة يصبح لديه مناعة دائمة ولايصاب بهما مرة أخرى وقد وصف مرض الحميقاء الذي يمكن أن يكون جدري الماء[1]، أما (الجذام) فأول من وصفه كان (ابن ماسويه) وشدد على البعد عن المريض حتى لا تنتقل العدوى إلى غيره من الأصحاء، وكان (عبد الله بن قاسم الحريري) أول من قرر بأن الرمد من أمراض العين المعدية، وذلك في كتابه (نهاية الأفكار ونزهة الأبرار)، ووصف (ابن سينا) كذلك أعراض مرض السل، وحدد سن العدوى وأن بعض الأجسام تكون مستعدة للعدوى أكثر من غيرها، ووصف أعراضه من سعال وبصاق مدمم وحمى، ثم هزال وقلة الشهوة للطعام، وكان (الرازي) من قبل قد ربط بين تقوس الأظافر وذلك المرض، وذكر (ابن الجزار) السيلان كمرض معدٍ يصيب القضيب في الذكور.

أما ما تسببه الحشرات والطفيليات من أمراض معدية فقد تكلم عنها العديد من الأطباء، مثل مرض الجرب الذي ذكره (أحمد الطبري) في كتابه (المعالجات الأبقراطية) عندما قال إنه يتولد من الجرب حيوان مثل الصئبان[2]. وكان (أبو منصور القمري البخاري) المتوفى عام (991م) أول من ذكر أوصاف حبة بغداد، وكذلك فعل (ابن سينا) من بعده، وأشار (إسماعيل بن حسن الجرجاني) المتوفى عام (1137م) إلى وجود صلة ما بين عضة البعوض وذلك المرض وحتى الملاريا أو حمى المستنقعات قد أشار إليها (السرّاج) صاحب كتاب (الحلل السندسيّة في تاريخ البلاد التونسيّة)، أما مرض النوم فقد كان (القلقشندي) المتوفى عام (1418م) أول من أشار إلى انتشاره في أهل مملكة مالي في عهد الملك (قنبتا بن سليمان) الذي أصابه الداء وأدى في النهاية إلى وفاته بعد عامين من المعاناة[3]، وأخيراً فقد أشار (ابن سينا) إلى الجمرة الخبيثة ووصفها وصفاً دقيقاً[4]، وقد كانت الديدان والأمراض التي تسببها محط اهتمام الأطباء العرب والمسلمين، وقد وصفوها وصفاً دقيقاً وذكروا أعراضها بالتفصيل، ومنها الإحساس بالجوع وخفقان القلب والمغص والإسهال وحتى انتفاخ البطن، وربما أثرت على الرئتين فأحدثت سعالاً ومن علاماتها سيلان اللعاب وأيضاً حكة المقعدة، وحدوث صراخ وتململ عند الصغار، وقالوا بأنها منتشرة أكثر عند صغار السن، وتهيج أكثر عند وقت النوم[5] وقد وصفوا لعلاجها الكثير من الأغذية كالفواكه والبقول واللحم وكذلك الأدوية والعلاجات كالشيح والترمس وبزر الكرفس وقشر الرمان وورق الخوخ، وذكروا أن الإرهاق والرياضة قد تسهل خروج الديدان من الجسم، ولقد عرف الأطباء في ذلك العصر العديد من الديدان المعوية منها الشريطية أو العراض، ولقد وصفها (البلدي)، ومنها الإنكلستوما والفيلاريا أو داء الفيل التي ذكرها (ابن سينا)، أما دودة المدينة أو العرق المدني،

---

(1) أحمد بن محمد البلدي: تدبير الحبالي والأطفال والصبيان، ص165.

(2) أحمد بن محمد الطبري: المعالجات الأبقراطية، ص5.

(3) القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج5 ص، 297.

(4) ابن سينا: القانون في الطب ج3، ص 118.

(5) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 294.

فقد ذكرها الكثير من الأطباء (كالرازي)، و(الزهراوي) الذي عالجها جراحياً، وكذلك ذكرت المصادر التاريخية علة البقر التي تكلم عنها (الزهراوي) بشيء من التفصيل وأسماها الدود المتوالد تحت الجلد واسمها الحديث دودة (اللوا اللوائية)، وذكر أنها تعالج إما بإخراجها أو بكي موضعها بالنار حتى تحترق[1].

أمراض الجهاز الهضمي والكبد:

الجهاز الهضمي هو قناة طويلة تمتد من المريء حتى فتحة الشرج وتصب فيها الغدد الملحقة بها الكثير من السوائل الهاضمة، كالكبد والمرارة والبنكرياس، وعندما تكلم الأطباء العرب عن ذلك الجهاز الحيوي قسموه تشريحياً، ثم أفاضوا في ذكر وظائفه ومايحدث له من علات، ثم يتبعون ذلك بذكر الأسباب المحتملة لكل علة وتشخيصها بما يفرقها عما يشابهها من أمراض، وكذلك المضاعفات التي تنشأ منها ثم يذكرون الدواء سواء أكان مفرداً أو مركباً.

أول ماذكروه كان المريء الذي يمتد من البلعوم حتى المعدة، وكان أهم ماذكروه في أمراض المريء هو صعوبة البلع، وقد قام (الرازي) في كتابه (الحاوي) بذكر الأسباب المختلفة لذلك العرض وقسمها، إلى داخلية في جدار المريء وأخرى تأتي من خارجه كما في حالة سل الفقرات الظهرية أو الأورام الباردة كما كان يسميها، وذكر في هذه الحالة أن عسر البلع لايصاحبه ألم، أما إن كان هناك ورم داخل جدار المريء فإن الألم تصاحبه صعوبة في البلع وأتوا كذلك على ذكر المعدة، فأفاضوا في وصف عضلات جدارها وقسموها إلى ثلاث طبقات وقد أقدم (أحمد بن أبي الأشعث) بحضرة الأمير (الغضنفر) على تشريح معدة أسد[2]، وذكر ذلك بالتفصيل في كتابه (الغاذي والمغتذي)، وكذلك فقد فصل (ابن سينا) في كتابه (القانون) كيفية عمل عضلة البواب في الطرف الأسفل للمعدة، أما ما يتعلق بتقرحات المعدة فقد تكلم (الرازي) عن أعراضها بالتفصيل حيث فرق بينها وبين قرحة المريء بذكر مكان الألم وعلاقة الألم بوقت تناول الطعام[3] وجاء من بعده (ابن سينا) الذي حدد مكان الألم بدقة، وشدد على أن الألم إذا لم يزول بالعلاج، أو امتد به الوقت فترة أطول من المعتاد فعلى الطبيب الشك بأن هناك ورماً في المعدة، وقد اهتم الأطباء العرب بحدوث القيء الدموي إذ كان ولايزال عرضاً خطيراً قد يودي بحياة المريض. وقد فرق (الرازي) بين سببين من أسباب القيء الدموي[4]، وهما انفجار لعرق دموي أو تآكل لجدار المريء نتيجة لقرحة، وذلك بوجود الألم في الحالة الثانية، وأضاف (ابن سينا) وجود اسوداد الدم وعكارته مع وجود اصفرار للمريض في الحالة الأولى، وذلك إشارة إلى حدوث مرض في الكبد أدى إلى وجود دوالي أو بواسير المريء كما كان يذكرها، وقد قال (ابن سينا) بوجود سبب آخر للقيء الدموي وهو انقطاع الغشاء المخاطي للمريء.

(1) أبو القاسم الزهراوي: التصريف لمن عجز عن التأليف، ص 294.

(2) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج2، ص 142.

(3) الرازي: الحاوي في الطب ج5، ص 23 ـ 40.

(4) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص 60.

كان للكبد شأن كبير في تصانيف العرب الطبية، فقد قاموا بوصف العديد من أمراضه وصفاً دقيقاً وخصوصاً تأثير الخمور عليه كما نجد في كتاب (القانون)، وقد قال (ابن سينا) بوجود فارق بين لون البراز في أمراض الكبد المختلفة وتحدث عن ابيضاض لونه في حالة وجود انسداد ما بين الغدة الصفراوية أو المرارة والأمعاء[1]، وتكلم (الرازي) بشيء من التفصيل عن خراج الكبد أو الدبيلة كما كان يسمى في ذلك العصر وذكر أعراضه المختلفة، وقد فرق (ابن سينا) بين أورام الكبد الناشئة من السرطان والورم الحار أو الالتهابي الذي يمكن أن يصير دبيلة أو خراجاً بذكر العديد من الأعراض كالقشعريرة، والحمى والألم المصاحب للنوع الثاني، وتحدث حتى عن تصريف الخراج إما إلى تجويف الأمعاء أو الكلى أو في الغشاء الصفاقي أو الجوف كما كان يسميه، وذكر وجوب وضع أنبوب لتصريف القيح والصديد، أما في حالة الورم السرطاني فقد ذكر حدوث الاستسقاء والهزال بدون ارتفاع حاد في درجة الحرارة.[2]

كان الاستسقاء مرضاً ألهب عقول أطباء تلك الفترة فأسهبوا في وصفه وذكر أعراضه المختلفة، وقسموه إلى ثلاثة أنواع وهي الزقي الذي يكون فيه الماء له صوت مسموع إذا خض البطن أو تحرك المريض من جنب إلى جنب، واللحمي ووصفوه بأنه يكون معه انتفاخ عام في البدن، والأخير كان الطبلي الذي يصاحبه خروج السرة ويستريح المريض بخروج الريح، وقد ذكر (ابن سينا) أن تضخم الطحال يؤدي على ظهور الاستسقاء، وذكر أيضاً سبباً آخر هو انبثاق القرح في الأمعاء، أما (الرازي) فقد أشار إلى وجود سبب في الرحم يؤدي إلى انتفاخ البطن وحدوث أعراض تشبه الاستسقاء، أما في علاج ذلك العرض فيتكلم (ابن سينا) عن الأكل بميزان ويحذر من البذل، لكنه يصفه وصفاً دقيقاً في كتاب (القانون) لمن يحتاج إليه من الأطباء.[3]

وفي آخر القناة الهضمية يأتي ذكر البواسير التي فرق بين أنواعها الأطباء العرب وقسموها إلى داخلية أو غائرة وخارجية، أي ناتئة، وقد نبه (ابن سينا) أن البواسير ربما تكون مظهراً لمرض آخر[4]، وهو قروح المستقيم، أما ما يتعلق بعلاجها فهناك الكثير من وصف الأدوية المسقطة فإذا لم تصلح تلك العلاجات فإن التدخل الجراحي يكون واجباً، وقد ذكر (الزهراوي) طرقاً جراحية في كتابه (التصريف) لعلاج ذلك المرض، وقد ذكر الأطباء العرب كذلك النواسير، وهي القنوات الممتدة من جدار المستقيم والشرج، وقسموها إلى نوعين نافذ وغير نافذ، ثم تكلموا عن علاجها بالمراهم، وأما النافذ منها فيعالج بالخزم[5].

---

(1) ابن سينا: القانون في الطب ج2، ص 360.

(2) الرازي: الحاوي في الطب ج7، ص 72-71.

(3) ابن سينا: القانون في الطب ج2، ص 390.

(4) نفس المصدر، ج2، ص 478.

(5) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص 75.

أمراض الجهاز التنفسي:

هي مصطلح شامل لأمراض الرئة، والشعب الهوائية والقصبة الهوائية والحنجرة، وهذه الأمراض تتراوح بين البسيطة التي يمكن شفاؤها والخطيرة التي تهدد الحياة كالالتهاب الرئوي الجرثومي أو الجلطة الرئوية، ويمكن تصنيف أمراض الجهاز التنفسي تحت مسمى إما انسدادية؛ أي الأمراض التي تعرقل معدل تدفق الهواء إلى داخل وخارج الرئتين مثل الربو الشعبي، أو مقيدة؛ أي الأمراض التي تتسبب في حدوث انخفاض في حجم الرئتين الوظيفي، كالتليف الرئوي، ويمكننا أيضاً تصنيف أمراض الجهاز التنفسي على أنها إما أمراض الجهاز التنفسي العلوي أو أمراض الجهاز التنفسي السفلي. لقد أفاض الأطباء العرب في وصف الظواهر الإكلينيكية لكثير من أمراض الجهاز التنفسي، بالرغم من عدم وجود الأجهزة الحديثة التي تساعد على التشخيص وأبسطها السماعة الطبية التي لم تكن ظهرت إلى الوجود بعد، ومن الأمثلة الواضحة على وصف تلك الأمراض هو ما ذكره (الرازي) في تفريقه لأسباب ضيق التنفس من وجود ربو، أو ورم التهابي أو خراج في الرئة، أو ظهور ورم في القصبة الهوائية، وقد قال أيضاً بوجود العامل النفسي لحدوث الربو، ووجود رطوبة أو ارتشاح في القصبة الهوائية والرئة مما يتطابق مع النظريات الحديثة لنشوء ذلك المرض(1).

أما في حالات البصاق الدموي فقد ذكر الرازي أسباباً عدة له من أمراض بالرئة أو المريء أو المعدة أو حتى في اللهاة والحلق، وفرق بين الأعراض المختلفة المصاحبة لكل مرض وقد أفاض (ابن سينا) أيضاً بوصف ذلك العرض في كتابه (القانون)، وذكر وصفاً تفصيلياً للبصاق الدموي من حيث اللون والقوام والكمية ووجود الزبد من عدمه.(2)

وفي حالات التهاب الغشاء المغطي للرئة أو الجنبة الذي كان يدعى بذات الجنب فقد تكلم (الرازي) عن ذلك المرض وذكر الأعراض المصاحبه له ووصف أيضاً التقيح في الرئة، وكذلك علامات انتقال الصديد من خراج الرئة إلى التجويف الصدري، أما السل أو الدرن، فقد ترك لنا كل من (الرازي) و(ابن سينا) وصفاً إكلينيكياً دقيقاً لمرضى ذلك الداء الوبيل ويشرح علامته من سعال وحمى وهزال للجسم، وفقد الشهوة للطعام وكان (الرازي) أول من لاحظ تقوس الأظافر، لكن يقال إن (ابن سينا) هو أول من ذكر أن السل يعتبر من الأمراض المعدية(3).

---

(1) الرازي: الحاوي في الطب ج4، ص 3 ـ ج4، ص 35.

(2) ابن سينا: القانون في الطب ج2، ص 232.

(3) شحاته قنواني: تاريخ الصيدلة والعقاقير، ص 161.

أمراض القلب والأوعية الدموية:

هي فئة من الأمراض قد تصيب القلب أو الأوعية الدموية التي تتكون من الشرايين والأوردة والشعيرات الدموية، ولقد اهتم الأطباء العرب بتشريح القلب وكذلك اهتموا بمعرفة وظيفته، كما فعل (الرازي) الذي نزع قلب بعض الحيوانات ووصف التغيرات عليها قبل الوفاة[1] وكذلك اهتموا بالأعراض الإكلينيكية الناتجة عن الأمراض التي تصيب ذلك العضو الهام، وحظي النبض بالكثير من الملاحظة وتحديد أنواعه المختلفة، فنجد أن (الرازي) قد عمل على اختصار ماذكره (جالينوس) من قبل، وأضاف الكثير في شرح صفات كل نوع منه بكثير من التفصيل في كتابه (الحاوي)، وقد فرق ما بين الانقباض والانبساط الشرياني، وذكر أن الأنسجة الواقعة فوق الوعاء الدموي قد تغير من إدراك الفاحص لزمن كل منهما، وقد ربط (الرازي) بين أمراض القلب المختلفة وبين سرعة النبض[2]، وأيضاً اختلافاته التي أسموها اختلاجاً، وقد استخدم (ابن سينا) تسارع النبض في تشخيص حالة اكتئاب لمريض شاب عندما لاحظ تسارع النبض عند سؤاله بعض الأسئلة المتعلقة بأسباب مرضه.

وقد نجح (ابن زهر) في معرفة التهاب كيس القلب أو غشاء التأمور الذي يحيط به[3] وذكر (الرازي) و(ابن سينا) أعراض الجلطة الحادثة في الشرايين التاجية المغذية لعضلة القلب من تغير في النبض والإغماء، أما حالة الأزمة القلبية التي تسبب صعوبة التنفس واضطراب شديد في النبض، فقد ذكروا أن ذلك المرض خطير وقاتل، وكان ارتفاع ضغط الدم الذي أسموه بالامتلاء قد وصف من قبل الأطباء في ذلك الزمن بتمدد العروق، وكثرة الإعياء وثقل الرأس وزيادة النبض الذي يمكن أن يتطور إلى رعاف أو نزيف أنفي أو حتى بصاق مدمم، وقد نصحوا المريض بالسكون وفصد الدم، أما فقر الدم الذي يؤدي إلى ضعف الشهية، فقد استخدم (ابن سينا) في علاجه نخاع العظم وماء الحديد، وقد لفت النزيف الوراثي أو الناعور نظر (أبي القاسم الزهراوي) عندما عالج عدة أفراد من عائلة واحدة، وقال باحتمال توارثه للمرض، وقد حاول علاج تلك الحالات باستخدام الكي.[4]

أمراض الجهاز البولي:

كان الجهاز البولي محطاً لاهتمام الأطباء العرب، وقد سبق الحديث عنه في جراحة المسالك البولية، حيث تكلم (ابن الجزار) عن تكون حصيات البول، ووصف (الرازي) التهاب المثانة نتيجة وجود الحصيات، وفرق ما بين آلام الحالب البولي والتهاب القولون وقد عالجها بأقماع تحتوي على الأفيون، وقد ذكر أيضاً أعراض سرطان ذلك الجهاز بتدفق الدم بغتة بلا ألم.

---

(1) الرازي: الحاوي في الطب ج4، ص 34.

(2) نفس المصدر، ص 23-30.

(3) زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص 272.

(4) أمين خير الله: الطب العربي، ص 174.

أمراض الجهاز العصبي:

كان للأطباء العرب الكثير من المساهمات في تشريح الأعصاب منهم (ابن سينا) الذي قسم الأعصاب إلى شوكية تخرج من الحبل الشوكي (النخاعي) الواقع بين الفقرات، وأخرى قفحية أو التي تخرج من الرأس، وقد عرفوها بأنها سبعة أزواج من الأعصاب تغذي كلاً من العين واللسان والحنك والأذنين والأحشاء، ووصفوا كذلك وظيفة كل زوج، وقد فرق (الرازي) الأعصاب إلى حسية وحركية، وذكر أن اضطراب وظيفة العصب يحدث نتيجة بتره أو رضه أو ورم يحدث فيه أو حتى تعرضه لبرد شديد، أما التهاب الأغشية المحيطة بالدماغ أو السحايا فلم يفرق الأطباء العرب بينها وبين الالتهاب المخي الذين سموهما بالقرانيطس، وقد ذكر (الرازي) أنها قد تحدث بعد حمى شديدة.[1]

وصف (الرازي) في كتابه (الحاوي) مرض الصرع وصفاً دقيقاً، وقال بأنه نوع من التشنجات غير الدائمة لكنها تجتاح الجسم كله، وحدد سبب المرض بأنه علة دماغية وقد فرق بينه وبين الصرع الذي تكون مدته قصيرة، وقد أطلق على الفترة الواقعة قبل التشنجات بالكابوس، وهي التي تنذر بحدوث النوبة، وقد فرق بين نوعين من الصرع بناءً على سن ابتداء نوبات التشنج، أما (ابن سينا) فقد فرق ما بين أعراض الصرع الكبير أو العام الذي أسماه بالصعب، والصرع الصغير الذي أطلق عليه السهل، وقد قسم النوع الكبير إلى ثلاث مراحل متتابعة، الأولى النسمة، ثم الارتجاج، ثم أخيراً مرحلة الاسترخاء أو السكون، ويذكر بعض المورخين أن (ابن سينا) قد استخدم السمك الرعاد الذي يصدر شحنات كهربية لمعالجة المصابين بمرض الصرع.[2]

السكتة الدماغية قد عرفها الأطباء العرب، وذكروا أن من أسبابها انسداد في الأوعية الدموية، وقالوا بأن الأعضاء تعجز فيها عن كل من الإحساس والتحرك وفرقوا بينها وبين الغيبوبة التي أطلقوا عليها لفظ السكون، ويقول (الرازي) إن السكتة الدماغية عادة ما يسبقها ألم حاد بالرأس وصداع شديد ودوار وإحساس ببرودة في الأطراف واختلاجات في كافة الجسد وربما ثقل في الحركة وغالباً ماتنتهي بحدوث شلل[3]، و(الرازي) في هذه الحالة ينصح بمعالجة السكتة بالفصد، وذلك محاولة منه لتقليل امتلاء العروق أو ما نسميه اليوم بفرط ضغط الدم، أما (ابن سينا) فإنه يحذر المعالجين من إعلان حالة الوفاة لمريض السكتة، وخاصة عند عدم القدرة على إدراك التنفس، وكذلك النبض، فإنه ينصح في تلك الحالة بالانتظار لمدة أقلها اثنين وسبعين ساعة، حيث إنه شاهد حالات كثيرة يستفيق منها المريض ويحيا.[4]

وكان الفالج أو الشلل يثير قريحة الأطباء في ذلك العصر، وقد اهتم به (الرازي) وقسمه إلى ثلاثة أقسام رئيسية، الشلل النصفي ويتحدث عن أعراضه التي تبدأ بما يشبه أعراض

(1) الرازي: الحاوي في الطب، ص208.
(2) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص212.
(3) الرازي: الحاوي في الطب ج2، ص 14.
(4) ابن سينا: القانون في الطب ج2، ص 87.

السكتة الدماغية دون حدوث فقدان للوعي، والشلل الناشئ عن النخاع، ويصف أن الجزء الذي فقد التغذية العصبية قد أصبح مسترخياً، وأما الجزء الذي يكون أسفل منه قد يصيبه التشنج، أما النوع الثالث فهو الشلل الذي يصيب أعصاباً بعينها منفردة، وهو شلل يسميه الاسترخاء في حالة الإصابة الكاملة، أما في حالة الإصابة الجزئية فيسميها خدراً، وذلك الشلل قد يفقد الإنسان إما بعض الوظائف الحركية أو الحسية أو كلاهما، وقد خالف رأي (جالينوس) في مكان الإصابة ويرى أن العلة تصيب جرم الدماغ وليس جوفه كما قال الأول.[1]

أشار (ابن سينا) إلى وجود الجهاز العصبي الودي، حيث ذكر وجود اختلافات بين نصفي الجسد في حالة الشلل من حيث حرارة الجلد ولونه والتغير في اتساع بؤبؤ العين أو حتى اختلاف النبض بين الشقين، وتحدث (الرازي) عن الشلل الوجهي الذي أسماه اللقوة[2] وقد أشار أن أغلب حالاته تشفى، ولكن بعضها قد ينذر بحدوث شلل أو سكتة دماغية، أما إذا استمر وجود ذلك الشلل الوجهي لمدة تزيد عن ستة أشهر، فإنه يتحول إلى مرض مزمن، وقد قسمه إلى نوعين استرخائي وتشنجي وفرق بينهما بوجود الألم مع النوع الثاني، وحتى الصداع، أو ألم الرأس فنراه قد نال حظه من الوصف، وذكر أنواعه وأعراض كل صنف منه، فقد ذكر (الرازي) الشقيقة ووصفها ثم تكلم عن البيضة والذي ربما يكون الألم الناشئ في حالات البيضة تكون مصاحبة نتيجة شلل العصب الخامس، وقد ذكر أيضاً حدوث الصداع كعرض مصاحب للعديد من الحميات والأمراض كأمراض الكلى، والعلل التي تنشأ في الرحم والتهابات الزائدة والحوض، وتحدث (ابن أبي أصيبعه) عن الارتعاش، وذكر بأن تقدم السن والإفراط في الخمور التي تضعف من قوة الأعصاب سبب مباشر لبعض حالاته.

بعض الأمراض المختلفة:

لقد ذكر (الرازي) آلام المفاصل وأعراضها المختلفة وخاصة مرض النقرس[3] الذي وصف أعراضه بالتفصيل، وقد لاحظ أن له عاملاً وراثياً حيث إنه يحدث في بعض المرضى وآبائهم، وأن معدل حدوثه قليل في صغار السن أو في النساء وخاصة في وقت الحيض. وقد أشار أيضاً إلى اختفاء آلام المفاصل أثناء حدوث التهابات المرارة والكبد وعودتها بعد الشفاء من تلك الأمراض، مما يشير إلى وجود عامل يقلل من التهاب المفاصل الذي يمكن أن يكون بذلك أول من أشار إلى وجود الكورتيزون الذي تفرزه قشر الغدة الكظرية[4]، وقد قام (ابن ماسويه) بتسجيل ملاحظاته عن بعض الأمراض المتعلقة بالحساسية لتناول بعض أنواع الطعام كالسمك والحليب ومشتقاته، وأشار أن هناك علاقة بين زكام الأنف ووقت تفتح الأزهار أو مانسميه حديثاً بحمى القش.

(1) الرازي: الحاوي في الطب ج1، ص 13. 16.
(2) نفس المصدر، ج 1، ص 106. 108. 116.
(3) راجي عباس التكريتي: نظرات حديثة في الطب العربي، مجلة آفاق عربية، العدد الخامس.
(4) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص214.

طب العيون أو الكحالة:

هو ذلك الفرع من الطبّ الذي يتعامل مع أمراض وجراحة الجهاز البصري ويتضمّن العين، العصب البصري، والمناطق المحيطة بالعين مثل: الجهاز الدمعي وجفني العين. وقد انفصل طب العيون عن الطب منذ عهد قدماء المصريين، ويُعتبر طبيب العيون من الأطباء المرموقين في كل عصر، وخاصة في ظل المجتمع العربي والإسلامي، وكان العرب يُسَمُّون هذه المهنة (صناعة الكحل)، ويطلقون لقب الكحّال على الشخص الذي لديه خبرة جيدة بعلاج الأمراض التي تصيب العين، ولديه قدرةٌ على علاجها باستعمال الأغذية والأدوية أو حتى الجراحة، كما يجب على الكحال أيضاً أن يعرف تشريح العين بصورة كافية، فقد كان (الرازي) أول من لاحظ تغير البؤبؤ بشدة الإضاءة وأشار إلى القناة الدمعية وانسدادها عندما قال بأن تدميع العين يمكن أن يحدث نتيجة ذلك، ويجب على الكحال أيضاً أن يعرف كيفية الحفاظ على صحة العين ووقايتها من الأمراض قبل حدوثها كالبعد عن إجهاد العين وتحاشي الغبار والعناية بالطعام والشراب والنظافة العامة، وكان للكتب اليونانية المترجمة أثر كبير في علم أمراض العيون ثم سرعان ما ألف الأطباء العرب والمسلمون الكثير من المصنفات التي تهتم بذلك العلم، مثل كتاب (دغل العين) (ليوحنا بن ماسويه) المتوفى عام (857م)، وتبعه (حنين ابن إسحاق) بكتابه (عشر مقالات في العين)، وهو يعتبر أقدم كتاب نُظم بطريقه علمية سليمة، وذكر (الرازي) في كتاب (الحاوي) بعضاً مما قاله (حنين ابن إسحاق) لكنه أضاف من تجاربه العملية آراء تنتقد آراء (جالينوس) عندما ذكر أنه من الممكن استخراج الماء الأبيض (الكتاركت) من العين بعد قصّ قسم من قزحية العين(1)، وتحدث (ابن رشد) المتوفى عام (1198م) عن شبكية العين وتشريحها في كتابه (الكليات).(2)

يعتبر كتاب (تذكرة الكحالين) (لعلي بن عيسى) ولُقب (بعيسى الكحال) الذي كتبه حوالي عام (1010م) أفضل ماقدم في كتب طب العيون، وبلغ مجموع ما ألفه ذلك الفذ من كتب في طب العيون (32) كتاباً، وقد ظل كتابه (تذكرة الكحالين) المرجع الذي لا يرقى إليه كتاب آخر حتى بعد أن توفي بأكثر من سبعة قرون، يقول (الصفدي): «كان مشهوراً بالحذق في صناعة الكحل، وبكلامه يُقْتَدَى في أمراض العين ومداواتها»، وترجع أهمية الكتاب إلى النظرية التي حاول أن يفسر بها الإبصار. إن عيسى الكحال يعتبر أول من ذكر «أن الروح الباصر يخرج من العين ليقيس المنظورات، ثم يعود إلى العين ويدخلها ليطبع صورها على الدماغ وهو ما صَحّحه فيما بَعْدُ (الحسن بن الهيثم)؛ وقال بأن حقيقة الرؤية هي «أنها بوقوع صور المرئيات على الجهاز البصري في العين، أي ليس هناك روح باصر يشارك في عملية الإبصار»(3)، وقسم الكحال كتابه إلى ثلاث مقالات، الأولى عن تشريح طبقات العين، والأعصاب، والعضلات، والأربطة، وكيفية حدوث الرؤية، ثم ذكر في المقالة الثانية الكثير عن

(1) ماكس مايرهوف: العشر مقالات في العين (لحنين بن إسحاق)، ص7.

(2) جورج سارتون: تاريخ العلم ج1، ص 305، 306.

(3) أمين أسعد خير الله: الطب العربي، ص 180.

أمراض الجفن كالجرب والتحُجر، والحكّة، واسترخاء الجفن وانقلابه، والقروح والدمعة واللحم الزائد عليها وبثور القرنية ودبيلاتها وسرطاناتها وتغير لونها، وأمراض الحدقة وضيقها وانخراقها، أما المقالة الثالثة فضمنها أمراض الروح الباصر، ومَنْ يرى من بعيد ولا يرى من قريب أي «بُعد النظر»، ويبحث في العشى الليلي، وكذلك في أمراض الطبقة الشبكية وأمراض العصب البصري، وهزال العين، وأمراض المشيمية والعضلات التي تحرك مقلة العين، والأدوية المفردة المستعملة لها.

وصف (علي بن عيسى الكحال) التهاب الشريان الصدغي والقحفي، وذكر العلاقة بين هذين الالتهابين واضطراب الرؤية في مرض الصداع النصفي وبلغ ما وصفه من أمراض العيون في كتابه (تذكرة الكحالين) حوالي (130) مرض، وظهر من بعده كتاب (المنتخب في علم العين وعللها ومداواتها بالأدوية والحديد) (لأبي القاسم عمار بن علي الموصلي) وهو يشابه (تذكرة الكحالين)، إلا أنه قصير، وقد احتوى على ذكر جراحات الماء الأبيض أو الساد، ويتكوّن هذا الكتاب من واحد وعشرين فصلاً في تشريح العين وعلم وظائف الأعضاء للعين، وذَكَرَ من أمراضها واحداً وخمسين صنفاً، مع وصف علامات كل منها، وتداويها بالطرق الطبية والجراحية، وقد اشتهر طبيب للعيون آخر يدعى (الموصلي) بالقاهرة في عصر الخليفة الفاطمي (الحاكم بأمر الله) عام (996 – 1020م)، وهو من أكثر أطباء العيون ابتكاراً، ويقول عنه (ابن أبي أصيبعه): «كان كحّالاً مشهوراً، ومعالجاً مذكوراً، له خبرة بمداواة أمراض العين».

ومن كتب الكحالة كذلك كتاب (نهاية الأفكار ونزهة الأبصار) (لعبد الله بن قاسم العاني الحريري) المتوفى عام (1248م)، وكتاب (الكافي في الكحل) (لخليفة بن أبي المحاسن) الذي احتوى على وصف لعملية الساد (الكاتاراكت)[1]، وتضمن كذلك رسوماً لآلات جراحة العيون ويعتبر كتاب (نور العيون ومجمع الفنون) (لصلاح الدين بن يوسف الكحال) أكبر مؤلف مصور لأمراض العين، وقد ألف القاضي (فتح الدين أبو العباس القيسي) الذي توفي عام (1258م) والملقب برئيس الأطباء المصريين كتاباً في الكحالة يحتوي على (15) فصلاً في علم الرمد.

ومن إسهامات العرب والمسلمين في مجال علم الكحالة وأنهم قسموا أمراض العيون إلى قسمين، قسم يدرك بالحس، وهي أمراض تصيب الملتحمة كالظفرة والرمد والحكة، وأخرى تصيب إما ظاهر الجفون كالشرناق، وأخرى تصيب باطنها كالجرب والبرد والتحجر والالتصاق، أما أمراض المآق فتشمل الغرب والغدة والسيلان، وأخرى تصيب القرنية كالقروح والأثر والبثرة ونتوء القرنية والعنبة، أما أمراض العنبية أو القزحية فتشمل اتساع الحدقة وضيقها، والقسم الآخر لآلام العين الخفية مثل الأمراض التى تصيب الأعصاب والعضلات المحركة للعين والجفون مثل الاسترخاء وذهاب الحركة، وفقد الحس أو كلاهما وأمراض عصب الإبصار وتشمل الأورام والسدد والضغط.[2]

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 300.
(2) فرات فائق خطاب: علم الكحالة عند العرب، ص 54-55.

وهناك العديد من المصطلحات العربية في علم أمراض العيون قد ترجمت إلى الإنجليزية بتطابق، وفيما يلي أمثلة على بعض تلك المصطلحات: شبكية العين: باللغة العربية تسمى «الردينة» وبالإنجليزية «Retina»، والقرنية: باللغة العربية «القرنية» وبالإنجليزية «Cornea»، وكان العرب أول من استخدم عبارة «شبكية العين» و«الساد».

وقد أجرى الكحالون العرب العديد من العمليات الجراحية كعملية قدح الساد أو الكاتاركت، فقد بدأوا كما فعل اليونان بدفع العدسة بواسطة إبرة إلى داخل تجويف العين ثم ذكر (الرازي) تطويراً في تلك العملية بقص القزحية لتوسيع بؤبؤ العين، ثم أدخل (عمار بن علي الموصلي) تجديداً باستعمال أنبوب زجاجي في تفتيت العدسة ثم مصه خارج العين[1] وقاموا بإجراء عمليات لإزالة الظفرة والشعر الزائد والمنقلب في الأجفان والتصاق الجفن والشترة والثآليل واستخراج الأجسام الغريبة من مقلة العين.

الأمراض النفسية والعقلية:

هي مجموعة من الأمراضُ التي تَظهر باضطراباتٍ في النّفس والسُّلوك، ومنها اختلالُ العقل أو الجنون وفصام الشخصية والهَذَيان والاكتئاب والهَوَس والسّوداوية أو المالنخوليا والوَسواس والمخاوف وغيرها، هناك من الكشوف الأثرية ما توحي بأن المرض العقلي والنفسي كان يصيب الإنسان في عصور ما قبل التاريخ، ربما نتيجة وقوعه تحت طائلة أنواع كثيرة من الضغوط المتعلقة بصراعه من أجل البقاء، وتلك الاكتشافات قد أبانت وجود ثقوب دائرية في الجماجم ويغلب على الظن أن سبب ذلك كان لإخراج الأرواح الشريرة التي تسكن المريض من خلال تلك الفجوة في الجمجمة، ومع تقدم التطور المادي للإنسان أخذت التفسيرات للمرض تتجه بشكل واضح نحو مسبب آخر، وهو مس الشيطان وأعوانه من الأرواح الخبيثة أو ربما تحدث نتيجة لسحر ساحر، أي أن الاعتقاد كان سائداً بأن هناك أسباباً من خارج الجسم هي المسؤولة عن الظواهر العقلية والنفسية، وكثيراً ما كانت المحاولات العلاجية كالضرب المبرح لطرد الروح الشريرة تزيد من شقاء المريض.[2]

كان العلاج النفسي يتكون من إعطاء المريض بعض الأعشاب أو ربطه بالسلاسل، وانتشرت أهمية مياه بعض الآبار في علاج هذه الأمراض بدعوى أن بها ماءً مباركاً، وقد اكتشف حديثاً أن مثل هذه المياه قد تحوي أملاحاً لعناصر معدنية، مثل عنصر الليثيوم الذي أثبت فاعليته في علاج الهوس ومنع الاكتئاب، ولعل أول كتابة سجلت في وصف المرض النفسي تمت قبل أكثر من ألف وخمسمائة عام قبل الميلاد على أوراق البردي عندما تكلم المصريون القدماء عن المرض العقلي ووصفوا كذلك الحالة النفسية المصاحبة للشيخوخة والهستيريا والصرع.

(1) عبد المنعم عبد الحميد: مجلة جامعة الموصل، العدد: 15، السنة الثانية ص67.
(2) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص217.

وقد أحدث أبقراط (357 – 460 ق.م) تغيراً كبيراً في مفهوم المرض النفسي والعقلي فقد كان مهتماً بقيمة الملاحظة المنهجية، وقد استبعد فرضية الأرواح الشريرة كسبب للمرض النفسي عندما كتب يقول: «هكذا يبدو لي أن هذا المرض ليس أكثر قداسة أو أكثر أُلوهية من سائر الأمراض الأخرى، وأن له سبيلاً طبيعياً ينشأ عنه، ولو فتحت الدماغ لوجدت المخ رطباً مليئاً بالعرق ذا رائحة كريهة، وبذلك نرى أنه ليس إلهاً ذلك الذي يؤذي الجسم وإنما هو مرض»، وقد قام كذلك بوصف دقيق للمالنخوليا (السوداوية) وكذلك للجنون الذي يحدث بعد الوضع، وللعديد من المخاوف المرضية، ولحالات الهذيان المرتبطة بتناول بعض أنواع السموم، وقد تمكن من خلال عمله الإكلينيكي من التعرف على الهيستيريا والهوس والصرع والتدهور العقلي، وقد عالج حالات الإدمان على الخمر باستخدام التنفير أي بالتسبب في حدوث حالة من النفور لدى المريض ليبتعد عن الكحول، وذلك بإعطائه جرعات من مواد لها طعم مر ومقزز، أو عن طريق فصد دمه وهو سكران حتى يرى منظر الدم يسيل أمامه فيرتبط في عقله منظر دمه بما يتناوله من مسكر، وبهذه الطريقة يكره المادة المسكرة التي كانت السبب في الإدمان، وكان كذلك يقترح تغيير أماكن إقامة المرضى العقليين والنفسيين في محاولة منه لإزالة الذكريات المؤلمة، فينسى المريض الكثير من آلامه وهمومه.

قبل أن نتكلم عن نظرة الأطباء العرب للأمراض النفسية والعقلية وطرق تشخيصها وعلاجها يجب أن نذكر نبذة عما عرفوه عن علم النفس، فمثلاً (ابن سينا) قد بحث في مجال الإدراك الحسي وأوضح كيفية إدراك العقل للكليات، كما أنه قد حاول أن يثبت أن للإدراك العام مرتبات أقلها الإدراك الحسي، ولقد عرفه بأنه انتقال لصورة الشيء من خارج الجسد إلى الذهن عن طريق الحواس المعروفة، وقد ذكر أيضاً كل من (الفارابي) و(ابن سينا) أن بعض الأحلام تحدث نتيجة لتأثير بعض المؤثرات الحسية التي تقع على النائم، سواء أكانت هذه المؤثرات الحسية صادرة من الخارج أو من داخل البدن ولقد قدم (ابن سينا) أول إشارة للجهاز العصبى اللاإرادي عندما تكلم عن التبول في الفراش، وتحدث أيضاً عن طبيعة الانفعالات البشرية مدركاً العلاقة بين الأمراض الجسمية والحالة النفسية، وهذا مانعرفه اليوم تحت مسمى الطب النفسي الجسمي، وطبق تلك المعارف عندما أزال التوهم عند بعض المرضى الذي كان السبب المباشر في نشوء الحالة المرضية لديهم كحالة المريض الذي كان يظن نفسه بقرة، وقد سبقه (الرازي) في تطبيق تلك المفاهيم عندما عالج الأمير (ابن نوح الساماني) الذي كان مقعداً، وعندما نجح في إثارته كللت محاولته بالنجاح وشفي الأمير[1]، وكذلك عندما عالج الطبيب (أبو البركات) مريضاً كان يعتقد أنه يحمل فوق رأسه دنا، وهو وعاء ضخم للخمر ونحوها، وكان يتحاشى الأماكن المزدحمة والسقوف الواطئة على رأسه، فأمر الطبيب أحد مساعديه بإيهام المريض بأنه قد ضرب ذلك الدنا وأمر مساعداً آخر له برمي دن في نفس الوقت ليقتنع المريض أن مايحمله فوق رأسه قد انكسر وتم شفاء المريض.[2]

(1) العروضي السمرقندي: جهار مقالة، ص79.

(2) أمين أسعد خير الله: الطب العربي، ص121.

قد أدرك (ابن مسكويه) أيضاً علاقة النفس بالجسد عندما تكلم عن حالة الحزن والاكتئاب التي تصيب المريض بعد فقد عزيز مثلاً، كما ذكر طرق وقاية النفس من تلك الأمراض(1)، أما (أبو نصر الفارابي) المتوفى سنة (950م) فقد تناول في كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) فرعاً آخر من فروع علم النفس، ألا هو علم النفس الاجتماعي عندما قال بوجود أساس فطري للحياة الاجتماعية لكل من الفرد والمجتمع، وقد ذكر ذلك في كتابه (الأسس النفسية لتماسك الجماعة)، وجاء من بعدهم (أبو حامد بن محمد الغزالي) المتوفى سنة (1111م)، وتحدث عن العديد من الانفعالات النفسية مثل الخوف والغضب وآثارها في السلوك الإنساني وتكلم عن العاطفة بنوعيها الحب والكره وعلاقتها بالسلوك البشري، وتناول الدوافع الأولية والدوافع الثانوية المكتسبة، ولم ينس أن يذكر آراءه عن الذاكرة والحواس والإدراك والخيال.

وكان (ابن خلدون) المتوفى سنة (1406م) من أوائل من تحدثوا عن علم النفس الفارق عندما قارن بين تأثير حياة البداوة والحضارة في سمات الشخصية المتعددة التي منها الشجاعة والخير(2)، وقد ذكر أيضاً بعض الآراء حول الصلة بين سمات الشخصية وبين احتمالات النجاح أو الفشل في مهنة معينة، وبذلك يكون قد أسس لعلم التوجيه المهني الذي يعتبر فرعاً من فروع علم النفس الحديث، وحتى بالنسبة لعلم نفس الأطفال نجد أن الأطباء العرب قد ألفوا المصنفات الكثيرة لإرشاد الآباء والمربين عن كيفية تنشئة الأولاد بطرق سليمة، منها (رسالة في علم الأخلاق) (لابن سينا)، و(تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف) (لابن مسكويه)، و(الذريعة إلى أحكام الشريعة) (للأصفهاني)، و(تهذيب الأخلاق) (لابن عربي).(3)

يعتبر كتاب (الجمهورية) (لأفلاطون)، أول مرجع في حسن معاملة المريض العقلي، كان حيث حتم فيه على أهل المريض بمرض عقلي أن يراعوه في المنزل وأن يحسنوا معاملته، كما طالب بتوقيع غرامة عليهم إن هم أهملوا في ذلك، وقد صحّح الأطبّاء العرب المفاهيمَ القديمة التي تقول إن المرض العقلي والنفسي هو عقاب إلهي، أو نتيجة لمس شيطاني، وعَدُّوها اضطراباتٍ عضويةً تطرأ على الدِّماغ، مثلها مثل باقي الأمراض التي تحدث لباقي أعضاء الجسم وقد أسسوا لها الأقسام الخاصة الملحقة بالبيمارستانات المختلفة في طول البلاد وعرضها، وذلك منذ القرن الأول الهجري على اعتبار أن المرضى العقليين قد فقدوا الأهلية، ومن واجب الدولة رعايتهم كمواطنين، ولذا فإنهم عالجوا الأمراض النفسية بالمهدّئات والراحة التامة والمعاملة الإنسانيّة الرّحيمة، بل وبالموسيقا والغناء، حيث نجد أمكنة داخل البيمارستانات تعزف بها فرق موسيقية لتهدئ من روع المرضى، كما قد خصّصوا غرفاً خاصة للمرضى المتهيجين تتوفّر فيها أسبابُ الهدوء والطُّمأنينة، ويشرف عليها أطبّاء وممرّضون وخدم متدرّبون، وفي مدينة سَرَقُسطَة الأندلسية تم إنشاءُ مِصحّة للأمراض العقليّة، وكانت تتّبع أسلوبَ المعالجة

(1) ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ص157،158.

(2) ابن خلدون: العبر وديوان الخبر ـ مجلد1، ص 38، 39.

(3) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص223.

بواسطة العَمَل الزّراعي، ولم تكن وحيدة في نوعها إذ كانت مثلُ هذه المصحّات منتشرةً في أنحاء عديدة من الأندلس، و(للرازي) رأي في العلاج حيث يرى أن عزل المرضى العقليين أو وضعهم مع نظرائهم قد يجعل حالتهم العقلية والنفسية تتدهور، وأن الأجدى جلوس أسوياء معهم يحدثونهم بالصواب من الأمور.

وقد اهتم الأطباء العرب بوضع المصنفات التي تتكلم عن الأمراض العقلية والنفسية (كابن عمران) الذي كتب مقالته عن المالنخوليا الذي وصف فيها حالات الاكتئاب المختلفة وابتعد عن ذكر الأسباب الخرافية، وقد كتب (ابن الهيثم) عن تأثير الموسيقى في الإنسان ونجد كذلك أن (ابن ميمون) قد ألف كتاب (الإرشاد بمصالح الأنفاس والأجساد)، وتحدث فيها عن حالة دعاها الهبوط أو الانهيار النفسي، وقد وصف (الرازي) الكثير من الأمراض النفسية والعقلية كالمالنخوليا والمرقية والشراسفية، وقد أفاض معاصره (أبو حامد السمرقندي) في وصف تسعة أصناف من الاضطرابات العقلية والنفسية لتشمل حوالي ثلاثين حالة، مثل حالة القلق الاجتراري المصحوب بالوسواس القهري، والشكوك، ووصف نوعاً آخر من المرض النفسي المصحوب بأفكار اضطهادية، وذكر حالات أخرى من الاكتئاب المصاحبة بقلق بالغ.

وفي مجال الوقاية من الأمراض النفسية نجد أن (ابن مسكويه) قد ذكر آراءاً معتبرة في مجال حفظ صحة النفس، كما كان يسميها بمعاشرة من هم على شاكلة الفرد ويحذر من مخالطة أهل الشر والمجون، وذلك لخلق بيئة مهيئة للنمو النفسي السوي، وكذلك الاستماع إلى الحديث العذب والفكاهة المحببة، وأخيراً بأن يستقصي عيوب نفسه بغية إصلاحها.

كان المرضى العقليون والنفسيون يعاملون منذ أقدم العصور بأقسى أنواع المعاملة من ضرب وسجن وغيره، لكن الطب العربي قد نحا نحواً مختلفاً في البعد عن المفاهيم الخرافية وكذلك عن استخدام الدجل والشعوذة لعلاج المرضى، حيث قام على أساس راسخ من تفهم وإدراك الطبيب لحالة المرضى الذي حاول كسب ثقتهم، بل ويؤثر في نفسياتهم باستخدام الإقناع بل وإيهامهم أيضاً بالشفاء، كقول (الرازي) بأن الطبيب ينبغي عليه أن يوهم المريض بأنه صحيح حتى في حالة عدم ثقته بذلك لأن مزاج الجسد في رأيه يتبع النفس[1]، ولا ننسى في هذا المجال من أن البيمارستان كان لديه وقف يصرف كراتب لموظفين يعملون على إيهام المرضى بالشفاء، وتذكر المصادر التاريخية بعض حالات العلاج النفسي التي قام بها الأطباء العرب، ومنها العلاج بالإيهام كحالة المريض الذي اعتقد أنه بقرة وصار يخور ويرفض الطعام بل وطلب الجزار ليذبحه، فجاء (ابن سينا) وصدقه فيما قال، ولم يكذبه لكنه تحسسه وذكر له بأنه نحيف لايصلح للذبح وأن عليه أن يأكل ليسمن والغريب أن المريض عندما أكل تحسنت قواه ونسي وهمه الكبير.

(1) علي كمال: مآثر العرب في الطب النفسي ـ مجلة المهن الطبية العراقية، ص 351.

يمكن أن تؤدي أمراض الهستيريا إلى حالة من الشلل الوظيفي، وقد قام (ابن بختيشوع) بعلاج جارية مشلولة اليد بمحاولة كشف ثوبها فمدت يدها لتستر نفسها[1]، وفي حالة أخرى لزوجة أمير كان تعاني من فقد النطق مع شلل وظيفي، نجد أن الطبيب بعث ابنته متنكرة في زي مساعد له وعندما قامت تلك الابنة بلمس المريضة بشكل يدعو إلى الارتياب نسيت مابها من علة، ولطمت وجه الابنة وشفيت، وقد استخدم (ابن سينا) عرضاً كالنبض في تحليله النفسي لمريض شاب هو ابن أخت (شمس المعالي قابوس) كان مصاباً بالاكتئاب عندما قارن (ابن سينا) تسارع النبض، وذلك عندما يذكر مكان الفتاة التي كان المريض يعشقها أيقن أن سبب المرض نفسي وطالب أهله بتزويجه إياها كعلاج ناجع.

وقد عالج (الرازي) حالة من حالات الوسواس بإقناعه بأن وساوسه تجاه الخالق تجول أيضاً في ذهن العقلاء من الناس، ولم يكتف الأطباء العرب بتلك الأنواع من العلاج النفسي بل دعوا إلى استخدام العقاقير، وذكر (ابن عمران) أدوية لكل نوع من أنواع المالنخوليا المختلفة من أفيون وسرسام، وقد أدرك الأطباء العرب مدى قوة تأثير البيئة المحيطة بالمريض العقلي والنفسي، لذا فقد نصحوا بنقل المريض إلى مكان آخر، ربما للتخلص من الذكريات المؤلمة التي يمكن أن تكون عاملاً في حدوث التدهور النفسي، وقالوا يفضل أن يكون المكان له جو يميل إلى الحرارة بعيد عن العفونة، وقد قالوا بأهمية الترفيه عن المرضى بالاستماع إلى الفكاهة والتنزه كما قال بذلك (ابن بطلان) ولم يهملوا دور الموسيقى في العلاج النفسي، وقد حدد بعض الأطباء اللحن والإيقاع حتى الوقت المحدد الذي تعزف فيه، وبلغ بهم التخصص الدقيق في هذا المجال لدرجة أن طبيب بلاط (الحافظ لدين الله) المتوفى عام (1149م) قد اخترع طبلاً خاصاً قال إن نغماته تشفي المريض[2]، ولم يهمل الأطباء العرب دور التغذية السليمة والحمية، واستخدام الدهون المختلفة كدهن الكتان وزيت اللوز بعد الاستحمام كنوع من العلاج للأمراض النفسية والعصبية.

طب النساء والولادة:

هو أحد أفرع الطب الحديث والمتخصصة بأمراض الجهاز التناسلي للأنثى، وكذلك بعملية الولادة والعقم، وتعتبر (بردية كاهون) المتخصصة[3] في أمراض النساء أقدم نص طبي معروف في ذلك التخصص التي يرجع تاريخها إلى عام (1800ق.م)، وهي تتعامل مع الأمراض المتعلقة بأمراض النساء والخصوبة والحمل، ووسائل منع الحمل، وينقسم النص إلى أربعة وثلاثين قسماً، كل قسم يتعامل مع مشكلة معينة وهي تحتوي على التشخيص وكذلك العلاج الذي يضم أنواع الأدوية المختلفة.

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج1، ص127.

(2) سامي حمارنة: تاريخ تراث العلوم الطبية والمسلمين، ص11.

(3) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية، ص17.

كانت الولادة تؤديها القابلات وذوات الخبرة من الأقارب، وكان هناك قانون صدر في القرن السابع قبل الميلاد في روما، وذكر أن جميع النساء الحوامل اللاتي يتوفين أثناء عملية الولادة يجب أن تجرى لهن عملية شق البطن لإخراج الطفل، أو إجراء العملية القيصرية التي استعملت لتوليد أم (يوليوس قيصر) نفسه، وكان (لأبقراط) كتابات تحتوي على العديد من أمراض النساء والولادة تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وقد أشار إلى استخدامه لأوراق نبات الصفصاف بوضعه تحت لسان المرأة التي تضع من أجل تخفيف آلام الوضع، وربما تكون هذه أول إشارة إلى تأثير الساليسيلات التي تعتبر المكون الرئيسي للأسبرين، وهناك أطروحة أمراض النساء التي وضعت بواسطة (سورانوس) من مدينة (إفسس) في القرن الثاني، والذي وصف مراحل الولادة الثلاث، وفي هذا العصر كان هناك اعتقاد بأن الرحم عضو حرّ الحركة[1] كما وصف ذلك (أفلاطون)، وأن حركة الرحم تسبب الضغط على الأعصاب والشرايين وغيرها من الأعضاء، والتي بدورها تخلق أعراضاً مرضية. وأنه بالممارسة المنتظمة للجنس وبالحمل يمكن تثبيته في مكانه، ولهذا نصح (سورانوس) بالزواج سريعاً بعد البلوغ أو حدوث الطمث وإلا فإن الرحم سوف يتجول داخل الجسد مسبباً آلاماً وأمراضاً للمرأة، ويمكن كذلك في زعمهم لأن الإرهاق قد يسبب هبوطاً في الرحم الذي يفرّ من الجسد الحار إلى البرودة، وقد نُظر للحيض كتدفق للدم الزائد في جسم المرأة، بينما تحتاج إليه الحوامل والمرضعات لتغذية الطفل، فيما عدا ذلك فدم المرأة قد يسبب لها الأمراض.

كانت أول طبيبة من النساء تكتب في علم أمراض النساء في ذلك العصر هي (مترودورا) عام (200–400م)، وفي العصر البيزنطي نجد أن (ايتيوس الأميدي) طبيب البلاط في عهد الإمبراطور (جستنيان) في القرن السادس الميلادي[2] قد أشار لبعض وسائل منع الحمل، وهناك طبيب بيزنطي آخر هو (بولس الإجيني) عام (625–690م)، وهو قريب عهد بالحضارة العربية الباكرة وترجم معظم أعماله (حنين بن اسحق) في القرن التاسع الميلادي إلى العربية أو السريانية ومنها (كناش الثريا)، وهو موسوعة ضخمة في الجراحة العامة وفي جراحة الأمراض النسوية معاً[3].

وفي عصر ما قبل الإسلام نجد أن كتب الأدب ومعاجم اللغة قد ذكرت أن العرب قد مارست الجراحة لاستخراج الأجنة في حال موتهم داخل الرحم على الأغنام والإبل، وقد طبقوها على المرأة الحامل وأسموها السطو، وذكرت المصادر التاريخية أن القابلة الأعرابية قد عرفت علامات موت الجنين في بطن أمه التي سميت (بالحش)، والولد

(1) Gilman, Sander L and others. Hysteria Beyond Freud, p118.

(2) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص41،155.

(3) نفس المصدر، ص 42.

(الجنين) إذا سقط يابساً فهو الحشيش، وقد عرفوا أيضاً شق بطن الحامل لإنقاذ الجنين بعد وفاة أمه وأطلقوا عليها (الخشعة)، ومن الذين جاءوا إلى الدنيا في الجاهلية بتلك الطريقة (بكير بن عبد العزيز)، و(خارجة بن سنان) وكان يسمى (البقير) لأنه بقر عنه بطن أمه التي كانت تسمى (البقيرة)، وهو الذي تزوج ابنته مليكة الصحابي (عبد الرحمن بن عوف).

لقد مارس العرب قبل عصر النبوة عملية ختان الإناث، وكانت أم عطية الأنصارية من أشهر من قام بتلك العملية واستمرت تؤديها بعد الإسلام، وقد أسدى النبي الكريم لها بعض النصائح وبديهياً فإن جل من قام بعملية التوليد والقبالة وتدبير بعض الولادات العسرة من النساء، وأصبح شيئاً تقليداً إن لم يكن لزاماً أن تكون القابلة (أي التي تتلقى الولد عند الولادة) عالمة بشؤون وأحوال المرأة، وكانت المرأة من الأعراب حين تقترب ساعة ولادتها تنعزل في ركن يطلق عليه اسم (المثبر)، فإذا جاءها المخاض جلست القرفصاء ودفعت بظهرها إلى الأمام واسندت راحتيها وركبتيها على الأرض والقابلة تجلس من خلفها أي وراءها لتستقبل بيديها الطفل، ولم تتغير الصورة في زمن الحضارة العربية الباكر بالنسبة للمرأة فبحكم أنوثتها، والقيود العرفية والشرعية المسلطة عليها أدت إلى صعوبة دارسة طب النساء والتوليد.

بسبب العلاقة الوثيقة بين الطب العربي في عهده الأول والطب اليوناني فقد ظلت مؤلفات (أبقراط)، و(سورانس)، و(جالينوس) و(ايتيوس الأميدي)، و(بولس الإجيني) التي ترجمت في القرن التاسع الميلادي طليعة ما نقله العرب من علوم اليونان في طب النساء والولادة، وبقيت تلك الكتب يرجع إليها أطباء العرب، بالنسبة إلى علم أمراض النساء لقد تناول الأطباء في عصر الحضارة الإسلامية تشريح الجهاز التناسلي للمرأة بالتفصيل مما يدل على سعة اطِّلاعهم وتراكم الخبرات الناجمة عن التشريح المقارن لبعض الحيوانات، وكذلك أثناء إجرائهم للعمليات الجراحية نجد ذلك فيما ذكره (علي بن العباس المجوسي)، حيث تكلم عن تشريح الرحم، وأربطته وكذلك عنق الرحم، وختم كلامه بوصف دقيق للمبيضين وقارن بينهما وبين الخصيتين من حيث الحجم والشكل والملمس[(1)].

ذكر (ابن سينا) في الفصل الأول بالمقالة الأولى من كتاب (القانون) وصفاً تشريحيًّاً دقيقاً للرحم، ووصفه بأنه «آلة التوليد التي للإناث»، وحدد موضعه وراء مثانة البول وكذلك حدد طوله التقريبي، وتكلم أيضاً عن عنق الرحم وبين أنه قناة تستقبل المني وتخرج الحيض ويمر عبرها الوليد واستتبع هذا الوصف التشريحي بأن يكونوا على علم بوظيفة الرحم، فنجد تبعاً لذلك وضع شرحاً وافياً لعملية الحيض أو الدورة الشهرية التي كان يطلق عليها في

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 168.

مؤلفاتهم لفظ الطمث، وقد حدد (علي بن العباس المجوسي) وقت بدئه وانتهائه، وكذلك مدته التقريبية والوقت الكائن بين كل حيضتين، وعقب (ابن سينا) بذكره عن الفرق بين دم الحيض العادي وبين النزف لأسباب أخرى، منها رقة الدم ووجود التقرحات أو الأكلة أو البواسير، وذكر في كل حالة الفرق في كمية الدم ولونه[1].

تكلم (الزهراوي) باستفاضة عن أسباب انقطاع الحيض[2] وقسمه إلى أسباب طبيعية نتيجة صغر أو كبر سن المرأة، أو بسبب الحمل أو الرضاعة، أو أسباب عرضية نتيجة لوجود سبب عضوي في الرحم، ونجد في مؤلفات أطباء ذلك العصر الكثير عن أمراض الجهاز التناسلي منها رتق المهبل وعنق الرحم، وتحدث (الرازي) عن أسبابها إما نتيجة عيب خلقي أو كمضاعفات لعلاج القرحة ويصف الفرق بين كل حالة، وقد تكلم أيضاً عن البواسير الرحمية وأتى من بعده (الزهراوي) ليقدم وصفاً شافياً لذلك الداء، ويعالجها بالكي إلا إذا كانت في عمق التجويف الرحمي[3] ولقد وصف (ابن سينا) ناسور الرحم في كتابه القيّم (القانون)، ويذكر أعراضه بالتفصيل، وقد فرق أيضاً مابين سقوط الرحم وانقلابه، ووصف (الزهراوي) التهابات عنق الرحم وعلاجها بالكي وحتى الخراج داخل تجويف الحوض فنجد له شرحاً دقيقاً في كتاب (الحاوي) (للرازي)، ويقال إن (ابن سينا) هو من تكلم عن أورام الرحم الليفية، وكان يطلق عليها مسامير الرحم، أما بالنسبة لأورام الرحم السرطانية فقد وصفها الرازي وصفاً مجملاً وذكر وجود الألم وحدد مكانه في أسفل البطن والمنطقة الأربية والعانة، وقسمها أوراماً في الرحم أو في عنق الرحم[4]، وإذا تم لمس الورم فإنه يكون مؤلماً وربما يسيل منه صديد ولا شفاء منه، ويضيف (الزهراوي) بتحذير الأطباء عندئذ من إجراء أي تدخل جراحي ويضيف علي بن العباس مصاحبة القرّح مع السرطان من عدمها.

أما بالنسبة للحمل والولادة فقد ذكر (أحمد بن محمد البلدي) في كتابه (تدبير الحبالي والأطفال والصبيان)[5] أعراضاً تفصيلية للحمل، وحددها بانقطاع دم الحيض والقيء وحدوث آلام المعدة وخفقان القلب وربما الإغماء، وتكلم أيضاً عن الوحم وهو اشتهاء الغريب من الطعام وربما الرديء كالطين، وأسهب أيضاً في ذكر علامات قرب الولادة، وقد ذكر (علي بن العباس) أن الجنين لا يخرج وحده بل بفضل انقباضات عضلات الرحم، ولقد تكلم (ابن سينا) في رعاية الحامل وضرورة علاج الإمساك بالملينات لا المسهلات وحذر من

(1) ابن سينا: القانون في الطب ج. ص586.
(2) ابو القاسم الزهراوي: التصريف لمن عجز عن التأليف ج1، ص90.
(3) نفس المصدر ج2. ص114.
(4) الرازي: الحاوي في الطب ج9، ص37-38.
(5) أحمد بن محمد البلدي: تدبير الحبالي والأطفال والصبيان، ص98.

فصد الحوامل، وذكر (البلدي) في كتابه (تدبير الحبالى) أنواع الأطعمة المختلفة التي ينبغي أن تتناولها الحامل والمقدار الذي يجب على الحامل تناوله منها، وأوصى أيضاً بضرورة ممارسة الرياضة متمثلة في المشي دون إفراط، واجتناب الحركة الكثيرة والوثب وحمل الشيء الثقيل، ومراعاة الجانب النفسي لديهن وتجنب حتى الصوت الشديد، وبالنسبة إلى الحمام فقد نصح (البلدي) الحامل بعدم إطالة الجلوس فيه وبأن يستعملن الماء الفاتر ويستحب وجود البخور والطيب في الحمام.

وقد تحدث الأطباء العرب عن الحمل الكاذب الذي أسموه (بالرحا) وقاموا بوصف الأعراض المصاحبة له من انقطاع دم الحيض وتغيير في اللون وكبر حجم الثدي، وكذلك البطن، وربما أحست المرأة بحركة تشبه حركة الجنين وأحست بآلام المخاض والوضع، وتكلموا عن مآله وعدم وجود جنين في نهاية المطاف، أما سببه فقد ذكره (ابن سينا) بكتابه (القانون في الطب)، وحتى عسر الولادة فقد ذكرها (البلدي) بالتفصيل وقال بأنها ربما تأتي من المرأة نفسها كالسمنة المفرطة، أو الهزال الشديد أو لوجود أورام سواء في الرحم أو خارجه، أو للولادة التي تأتي قبل الميعاد أو لمرض آخر، وذكر أسباباً تحدث للوليد من حيث حجمه، أو وجود تشوه خلقي وخاصة في الرأس أو لتعدد المواليد أو ربما لموت الطفل داخل الرحم، أو تكون القدمان هي الجزء المتقدم من الجنين، وقد ذكر (الزهراوي) كيفية التعامل مع تلك الحالات بتدوير الجنين داخل الرحم[1].

وقد كتب العديد من الأطباء العرب عن العقم، وذكروا بأن أسبابه تعود إلى كلٍّ من الرجل والمرأة، وعزاه (ابن سينا) إمّا لسببٍ في مني الرجل أو مني المرأة، وإما في أعضاء الرحم، وإما في القضيب أو لأسباب نفسية، كالهم أو الخوف أو الفزع، وقال أيضاً إن من أسباب العقم ما يعود إلى عوائق عضوية في عنق الرحم من تشنج أو ضيق أو بسبب حدوث ندوب، أو انسداد، أو انقلاب رحمي، أو وجود أمراض في الرحم من أوارم أو قروح أو زوائد لحمية، أما السبب عند الرجل فقد أرجعوه إلى ضعف أوعية المني أو ضعف قوتها المولدة للمني، أو بسبب قصر القضيب نفسه، أو لاعوجاجه فلا يستطيع أن يضع المني في فم الرحم.

أما وسائل منع الحمل فقد أوصى (ابن ماسويه) باستخدام تحاميل مهبلية من الفلفل بعد عملية الجماع، ولمنع الحمل بصورة نهائية فقد قال باستعمال تحاميل للمهبل مكونة من روث الفيل[2]، وذكر (ابن سينا) وسائل أخرى منها مسح القضيب قبل وبعد الاتصال الجنسي بالقطران ودهن الخل وشحم الرمان أو اللبلاب وغيرها، ويصف (ابن الجزار)

(1) كمال السامرائي: مقال الأمراض النسائية في الطب العربي القديم.
(2) الرازي: الحاوي في الطب ج9، ص151.

ثمانية عشر مستحضراً دوائياً لنفس الغرض(1) في كتابه (زاد المسافر) ذلك لقتل النطفة أو إسقاط الحمل. واشترط (علي بن العباس) استخدام تلك الأدوية في بعض حالات صغر الرحم التي يمكن أن تؤدي إلى وفاة الحامل، وأخيراً فقد تكلم (علي بن العباس) عن الإسقاط (الإجهاض) وأسبابه الداخلية في الرحم نفسه أو من أسباب خارجه كالتعرض للضرب والوثب واستخدام الدواء المسهل أو حتى إجراء فصد دموي، ويضيف (ابن سينا) أسباباً أخرى كموت الجنين داخل الرحم أو قروح في الرحم أو الإصابة بالسرطان الرحمي.

وقد اهتم كل من (تياذوق)، و(ماسجويه البصري)، و(مسيح بن الحكم الدمشقي) بعلم القبالة والتوليد، وقد انتقى (تياذوق) عندما كتب في القبالة، أخطر ما في تلك الممارسة، وتحدث عن انحباس المشيمة وتأخر خروجها ونصح بعدم السحب على الحبل السري، وذلك خوفاً من اندلاق الرحم إلى الخارج ويمكن أن يتسبب في موت المرأة وقد أوصى (الرازي) بذلك أيضاً بالنسبة للولادة والقبالة، وربما يكون كتاب (الحاوي) في الطب (للرازي) وخاصة جزأه التاسع هو أول ماكتب في أمراض النساء والتوليد (الطب النسوي)، وقد مارس (الرازي) القبالة بنفسه أو عن طريق إرشاده القابلة، وقد نصح بشق أغشية الرحم الأمامية لإخراج قسم من المياه الأمينوسية (السلوية) حول الجنين لكي يسرع بعملية الولادة، وهو تقليد عمل به الأطباء في منتصف القرن العشرين، ويوصي (الرازي) أيضاً بتقطيع الجنين إذا كانت الولادة متعسرة، أو قطع رقبته في حالة ضخامة رأسه نظراً لإصابته بالاستسقاء الدماغي(2)، وقد كان (للرازي) فضل السبق في فحص المريضات بالإصبع عن طريق فتحة الشرج، وذلك لجس محتويات الحوض وقد أشار أيضاً إلى حالات تقدم المشيمة، وذكر عملية تدوير الجنين داخل الرحم، ليجيء مقدم الطفل بالرأس، أما (ابن سينا) فقد ضمّن أمراض النساء والولادة في الجزء الثالث من كتابه (القانون) ووصف الولادة القيصرية بخروج رجلي الطفل أولاً.

وظهر في نفس العصر (أبو القاسم الزهراوي) في قرطبة بالأندلس الذي وضع كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) في ثلاثين جزءاً، وخصص الجزء الأخير منه للجراحة العامة، وجراحات النساء، وقد زوده برسوم تفصيلية للآلات التي كان يستعملها في أداء عملياته الجراحية المختلفة، واشتكى (الزهراوي) من عدم توفر قابلات ماهرات أو طبيبات على مستوى المسؤولية في ممارسة جراحة النساء والتوليد، ووصف أيضاً وضعية خاصة للولادة تستلقي فيها المرأة على ظهرها وتضع فخذها على كرسي وتدع رجليها تتدليان، وقد ذكر (الزهراوي) حالات الحمل خارج الرحم، وكذلك موضوع المشيمة المتقدمة بصورة أوضح مما قال به (الرازي)، و(الزهراوي) هو الذي اخترع المقص الجراحي النموذجي الذي

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص167.

(2) كمال السامرائي: مقال الجراحة النسوية في العصور الإسلامية نقلاً عن Spink and Lewis .Albucasis:Surgical instruments, p.492

ترتبط قطعتاه بمفصل بين فكيه القاطعين ومقبضيهما عند الطرف الآخر، وكان أبرز ما أنتجته قريحة (الزهراوي) من آلات للجراحة النسوية والولادة هو المشداخ[1]، وهي آلة لفدغ رأس الجنين إذا كان مروره في الحوض أثناء الولادة مستحيلاً، وهي ذات فكين مزودين بمسامير لتثبت على رأس الجنين، وقد استعملها على الأجنة الميتة في الرحم، وتحدث الأطباء المسلمون كذلك عن عسر الولادة، وبينوا أن ذلك يعود إلى عدة أسباب وهي إما الحامل، أو الجنين أو الرحم أو عدم كفاءة القابلة أو حتى وجود أسباب أخرى.

طب الأطفال:

هو فرع من فروع الطب يهتم برعاية الأطفال، ولذلك فهو يشمل مختلف أوجه التطور والصحة البدنية والنفسية للطفل، بما في ذلك معالجة الأمراض، والإعاقات والأمراض المختلفة وكثيراً ما يمتد ليشمل الرعاية الصحية الوقائية، والطفل في اللغة هو الرَّخْصُ النَّاعِمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، كما ذكره (الزبيدي) في تاج العروس، ويقول (ابن منظور) في لسان العرب إن الصبي يدعى طفلاً حين يسقط من بطن أمه إلى أن يحتلم[2] ويقول (ابن العربي) إن الطفل هو ما يسقط من السماء من ندا غدوة وعشية.

لا نجد في أطباء المسلمين من تخصص في طب الأطفال، إلا أنهم قد اكتسبوا الكثير من المعارف المتعلقة بهذا المجال من باقي التخصصات كالأمراض الباطنية والجراحة وطب النساء والتوليد، وقد وضعوا في مؤلفاتهم مواضيع تتعلق بخلق الإنسان وتطور الجنين في بطن أمه كما فعل (البلدي) في كتابه (تدبير الحبالى والأطفال)، حيث تكلم عن تكون الجنين باشتراك مني الرجل وبويضة المرأة واجتماعهما في الرحم، وقد أفاض في وصف تطور الجنين وذكر أوقات ظهور الأعضاء المختلفة كعظام الفقرات والمخ والأعصاب وغيرها، وكذلك بداية تحرك الجنين في تمام سبعين يوماً، وقال باختلاف الأجنة في ذلك، فمنهم من يبدأ الحركة عند ثمانين يوماً وآخرين عند تسعين يوماً، وتكلم أيضاً عن الظواهر لدى الأم الحامل التي يمكن أن تُنبئ عن ضعف الجنين، كضمور الثدي ونزول دم الطمث أثناء الحمل[3]، وبالنسبة للمولود فقد وضعوا علامات ظاهرية وصفوا بها صفات الطفل الطبيعي من الحجم والبكاء ساعة الولادة، وأضاف (الرازي) التبول والعطاس كعلامة من علامات الحياة، وقد تكلم الأطباء العرب عن الأطفال ناقصي النمو أو الخدَّج كما يقول، (عريب بن سعد القرطبي) أن المولودين لسبعة أشهر يكونون قصافاً مهازيل.[4]

ذكر الأطباء العرب الكثير من حالات التشوهات الخلقية التي تعرض لهم أثناء القبالة وعسر الولادة كعظم حجم الرأس، وقال (الرازي) عن تلك الحالة بأن السبب يكمن إما في

(1) كمال السامرائي: مقال الجراحة النسوية في العصور الإسلامية نقلاً عن Spink and Lewis Albucasis:Surgical instruments, p.488.

(2) ابن منظور: لسان العرب ج11، ص401.

(3) البلدي: تدبير الحبالى والأطفال والصبيان، ص133،114،130.

(4) ابن عريب بن سعد القرطبي: خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين، ص36.

كبر عظم الرأس أو تجمع ماء داخلها أو كحالة الذي يولد برأسين أو رأساً بوجهين، كما أخبر (الرازي)(1) وذكر عريب بن سعد في كتابه (خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين) التوائم السيامية الملتصقة بالبطن، وكذلك ذكر (القزويني) عن شخص طويل القامة طوله تسعة أذرع قوي البنيان إلا أنه ضعيف العقل، ونقل عن (الشافعي) قوله برؤيته في اليمن مسخ له من فوق وسطه جسمين وأربعة أذرع(2) وأفاض الأطباء والكتاب (كالجاحظ) في ذكر التشوهات الخلقية البسيطة مثل شق الشفة والشترة وتشوهات الأصابع وسدة الأذن وانسداد مجرى البول والكثير من حالات الخنوثة المتعددة، وكبر حجم الرأس لتجمع الماء داخلها والحول، ولم يكتف الأطباء بوصف تلك الحالات بل تعدوا ذلك على محاولة معرفة الأسباب المختلفة لذلك فقد قسموها إلى أسباب وراثية، كما قال بذلك ابن سينا عندما أشار إلى التغيرات في مني الرجل وخاصة إذا كان الشخص مصاباً بمرض في أعضائه، وذكر الجاحظ كثرة حالات العرج في عائلات بعينها كبنو الحداء وظهور الصلع بكثرة عند بنو كابية(3)، ويضيف البغدادي عاملاً آخر بحدوث عدم تناسب الأعضاء بحدوث البلوغ بدليل ظهور شعر اللحية، وذلك يمكن أن يشير إلى تغير هرموني يؤدي إلى تشوه وعدم تناسب في الأعضاء مكتسب(4)، وأضاف ابن سينا التغيير في غذاء الحامل لتجنب الإصابات أثناء الولادة، كما بحثوا في عملية الإرضاع والاهتمام بالمرضعات.

يعتبر كتاب (المعالجات الأبقراطية) (لأبي الحسن أحمد بن محمد الطبري) الذي توفي عام (976م)، وكتاب (عريب بن سعد القرطبي) (خلق الجنين) من أقدم ماكتب في طب الأطفال، وجاء من بعدهما (ابن الجزار القيرواني)، فكتب كتاب (سياسة الصبيان وتدبيرهم)، ثم تبعه (أحمد بن محمد البلدي)، ووضع كتاباً شاملاً في طب الأطفال أسماه (تدبير الحبالى والأطفال والصبيان)، ونجد كتابات كثيرة في ذلك الفرع من الطب كتب للكثير من الأطباء العرب منهم (الرازي) الذي وضع رسالة مهمة في أمراض الأطفال، والعناية بهم إلا أن النسخة العربية مفقودة وموجود لها ترجمات بلغات شتى منها العبرية واللاتينية والإيطالية والإنجليزية، وكذلك (ابن سينا) في كتابه (القانون في الطب)، ثم وضع من بعده (ابن القيم الجوزية) كتابه (تحفة المودود في أحكام المولود).

لقد اهتم الأطباء أيضاً بمراحل حياة الطفل منذ مولده، كما ذكر (ابن الجزار) في كتابه (سياسة الصبيان وتدبيرهم) رد الفعل الانعكاسي للمواليد عندما يعصرون حلمات الثدي عند وضعها في أفواههم(5)، وذكر أيضاً طول مدة نومهم في تلك الفترة الباكرة وبالنسبة

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج2، ص343.
(2) الدميري: حياة الحيوان الكبرى «حاشية»، ص389-383.
(3) أبو عثمان الجاحظ: البرصان والعرجان والعميان والحولان، ص276,272.
(4) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص271.
(5) ابن الجزار القيرواني: سياسة الصبيان وتدبيرهم، ص62.

لكيفية العناية بهم بعد الولادة فقد ذكر (ابن سينا) في كتابه (القانون في الطب) شروط غرفة المولود من حيث درجة حرارة الغرفة، ووجود هواء معتدل بها وشدد على أن يكون رأس المولود في مستوى أعلى من باقي جسده وحذر من التواء عنق الطفل أو ظهره أو أطرافه، ويكمل (البلدي) في كتاب (تدبير الحبالى) بذكر الاهتمام وتنظيف مداخل الطفل كالفم والأنف وكذلك بمخرج البول والبراز لكي تظل مفتوحة بدون وجود أية فضلات قد تسدها، وأما رعاية الجلد فلم ينساها (ابن سينا) حيث نصح بتمليح جسد الطفل بماء الملح الرقيق بدون التعرض لأنفه، وإذا اتسخ الجلد وجب الغسل بماء فاتر وحتى طريقة استحمام الوليد فقد أولاها (ابن الجزار) عنايته، ونصح الحاضنة أن تغسله بماء حار عذب في ثلاثة أوقات وهي الغداة ونصف النهار وعند العشاء ويجب كذلك أن تمسكه بيدها اليسرى برفق وإحكام[1]، أما العناية بسرة المولود لئلا تكون مصدراً لالتهاب أو عدوى فيقول (ابن الجزار) بوجوب ربطها بعد قطع الحبل السري، ووضع عليها خرقة مغموسة بالزيت ووضع الرماد المحترق سواء من ودع أو عرقوب عجل أو حتى رصاص محرق قد تم سحقه بواسطة الشراب وذلك بعد وقوع السرة.

كما حظي موضوع إرضاع الأطفال بنصيب وافر من العناية، فقد كتب الأطباء العرب والمسلمون الكثير في الشروط التي ينبغي أن تكون متوفرة في المرضع من حيث السن والأخلاق وحجم الجسم، وأن تكون قد وضعت من حوالي شهر ونصف أو شهرين، وكذلك قد شددوا على الحمية الغذائية التي يجب تتبعها حتى يكون لبنها مغذياً وصحيًّا للمولود، بحيث يكون ما تتناوله له قيمة غذائية متوازنة، وكذلك يجب أن تتناول الطعام المدرّ للبن بأن يكون محتوياً على الحنطة ولحم الخراف والأسماك، كما نصحوا المرضع بالتوقف عن إرضاع الطفل في حال تعرضها لمرض مُعد، أو إسهال شديد، أو حتى احتباس بولي أو إمساك وكذلك يجب عليها أن تتوقف أيضاً إذا تناولت دواء حتى لا يتأثر الطفل بذلك[2]، وقد ذكر (ابن سينا) إعطاء العسل للوليد لتفريغ مادة العقي من أمعاء الطفل لحين بدء إفراز اللبن من الأم بصورة طبيعية، وذكر (الأنطاكي) في (تذكرة داود) أنه يفرز من غدد إسفنجية رخوة في الثدي ويحدد كذلك عدد مرات الإرضاع بمرتين أو ثلاث في اليوم، وقال بأن أقل ما يرضعه الطفل مائة وخمسين درهم أي ما يوازي 450 جرام من الحليب يومياً، وأكثره خمسمائة درهم أي حوالي 1500 جرام في اليوم[3]، ونصح (ابن الجزار) بعدم الإرضاع بعد الحمام مباشرة، وقد نصح جميع الأطباء بوجوب إرضاع الطفل بلبن أمه كما ذكر (البلدي) بقوله إن لبن الأم هو أوفق الألبان للأطفال، وذكر كذلك بأن الإرضاع يحوي فائدة لصحة الأم نفسها وهذا يتوافق مع مكتشفات الطب الحديثة في أن الرضاعة الطبيعية تقي من سرطان الثدي عند المرضع.[4]

(1) ابن الجزار القيرواني: سياسة الصبيان وتدبيرهم، ص61-60.

(2) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص254.

(3) أبو داود الأنطاكي: تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب والعجاب، ص 13.

(4) البلدي: تدبير الحبالى والأطفال والصبيان، ص 186.

وتكلم (الرازي)[1] و(ابن سينا) عن قلة إفراز لبن الأم، وأشارا بالرجوع إلى سبب ذلك لوجود علة ما في تركيب الدم، وعقب (علي بن العباس المجوسي) بإرضاع الطفل من غير الأم إذا دعت الضرورة لذلك في حالة قلة لبنها، أو مرض لحقها، وإذا لم يتوفر اللبن الآدمي يمكن إعطاء الوليد ألبان الحيوان، وقال بذلك (ثابت بن قرة) في كتاب (الذخيرة)، وقسم تلك الألبان إلى ثلاثة، لطيف كلبن أنثى الحمار، ومتوسط كلبن الماعز، وغليظ كلبن البقرة. وقد وصى (الأنطاكي) بتسخين الحليب الذي طال مكثه[2]، وأشار إلى عدم أخذ اللبن من الحيوانات التي يمكن أن تأكل الجيف لأنها يمكن أن تنقل الأمراض، وهذا ما يوصي به الطب الحديث لتقليل انتقال عدوى الجراثيم للطفل من البقرة، وقد حدّدوا مدة الرضاعة بعامين، ولعلهم رجعوا في ذلك إلى ماورد في القرآن الكريم بسورة البقرة ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ (آية 233)، واشترطوا بأن يكون فطام الوليد عند اعتدال الطقس، وبأن يكون تدريجياً كما ذكر (ابن سينا)، وبألا يكون في حر الصيف ولا برد الشتاء إذ أن ذلك يجنِّب الطفل الإصابة بالنزلات المعوية، حيث تقل كفاءة الجهاز الهضمي للطفل نتيجة تغير درجات الحرارة، كما يقول به الآن الطب المعاصر، ويبدأ الفطام كما أوصى (ابن سينا) بتناول الحساء واللحوم الخفيفة أو بلاليط من خبز وسكر.[3] وحتى بكاء المواليد فقد ذكر لها (ابن القيم) تفسيراً دقيقاً[4]، حيث قال بأنه يروض أعضاءه ويفسح من سعة صدره، ونصح (ابن الجزار) بحمله حملاً رقيقاً وإسماعه أصوات ذات نغم يستلذها الأطفال، ويمنع عنهم الأصوات العالية والوجوه المفزعة كالمغطاة بالبراقع، ويذكر (الطبري) في (المعالجات الأبقراطية) أسباباً لبكاء الطفل، وهي نتيجة آلام في جسمه أو احتباس اللبن في معدته، أو جوع نتيجة قلة التغذية، أو حتى وجود ما يؤذيه في مضجعه، كما أشار (ابن سينا) إلى أنه ينبغي عند تدرّيب الطفل على المشي الحذر من الحركات العنيفة بقوله: «ولا يجوز أن يحمل على المشي والقعود قبل انبعاثه إليه بالطبع؛ فيصيب ساقيه وصلبه آفة».

وقد شملت مؤلفات الأطباء العرب والمسلمين الكثير عن أمراض الأطفال فتكلموا عن أمراض الجهاز التنفسي، وذكروا أعراضها بالتفصيل من زكام وصعوبة في التنفس وسعال وحتى وجود البصاق المدمم، وقد وصف (ابن عريب) مرض الدرن[5] وصفاً دقيقاً من تتابع الأنفاس وأصوات في الرئة والشعب الهوائية التي يسميها بالأنابيب، وقد عرف (الرازي) أنواعاً مختلفة من السعال منها العادي، والمصاحب للبرد وكذلك المصاحب لحالات الإسهال وكعرض لالتهاب الرئة ووصف العلاج لكل نوع منها، ويقسم (البلدي) أنواع السعال ويصف

(1) الرازي: الحاوي في الطب ج7، ص 8.

(2) أبو داود الأنطاكي: تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، ص 255.

(3) ابن سينا: القانون في الطب ج1، ص153.

(4) ابن القيم الجوزية: تحفة المودود في أحكام المولود، ص183.

(5) ابن عريب القرطبي: خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين، ص75.

العسل والاستحمام بالماء الحار كعلاج له، وقد ذكر (الطبري) نفث الدم وقال بأن مصدره إما من الرأس فيخرج من الأنف، وإما من الرئة، ويصاحبه سعال ونحنحة،وتحدثوا عن أمراض الأنف، وذكروا أعراضاً مثل، انتفاخ فتحتي الأنف وحكتهما والزوائد اللحمية فيهما وكذلك سدة الأنف، أما عن أمراض الحنجرة فقد تكلم (البلدي) عن التهابها وأسماها الخرخرة[1] وذكر سببها في وجود رطوبة بالرئة، وقد تكلم الأطباء أيضاً عن ورم الحلق والخوانيق والتهاب اللوز وتورم الغدد اللمفاوية التي أسموها بالضفادع. وذكر الأطباء عن ما يعرض من أمراض للجهاز الهضمي فتكلموا عن أمراض الفم، ومنها قروح الفم وأورام اللثة عند ظهور الأسنان وكذلك عن جفاف اللسان، وتكلم (البلدي) عن القيء كأهم عرض عند الأطفال وذكر السبب في رداءة اللبن وفساده، أو ربما لضعف معدتهم، وهو بذلك يماثل قول الطب الحديث في حدوث ضيق في عضلة البواب بالمعدة أو ربما حدوث ترهل وضعف لعضلات المعدة، ويوصي (ابن هبل البغدادي) بشراب التفاح والرمان[2]، أما الإسهال الذي أسموه استطلاق البطن، فقد ذكر (الرازي) بعضاً من أسبابه كالبرد أو ظهور الأسنان وعالجه بتناول عصير الفاكهة والنعناع وشراب الورد، وقد أوصى (ابن سينا) بقطع الرضاعة في اليوم الحادث فيه المرض.

وبخصوص الأمراض الجلدية فقد كان (أحمد بن محمد الطبري) أفضل من كتب فيها، وتكلم (الرازي) عن الحكة التي نصح بعدم علاجها بالمراهم، بل بالاستحمام ببعض محاليل الأدوية، والجرب والسعفة التي تظهر في الرأس والوجه، وينضح منها ماء ويصاحبها حكة، مما يؤدي إلى خدوش في الجلد، وقام (الرازي) بالتفريق بين الحصبة والجدري، وهو أول من استخدم عنصر الزئبق في تركيب مراهم الجلد بعد أن قام بتجريب تأثيره على القرود[3].

لقد اهتم الأطباء العرب بأمراض الجهاز العصبي عند الأطفال وشملت مؤلفاتهم الكثير من الأمراض كالتشنج وشلل الأطفال الذي يذكر (الرازي) أعراضه بدقة سواء حدوثه بطرف واحد أو الجسم كله، مما يمنعه من المشي، ويعالج (الرازي) ذلك الشلل بوضع الطفل في حمام ثم تدهن مفاصل الطفل، وقد وصفوا مرض الاسترخاء الذي يتحدث (الطبري) عنه ويقسمه إلى نوع وراثي اكتسبه من أحد الأبوين[4]، وليس له علاج، أو ربما يكون نتيجة رداءة الغذاء في رأيه، وربما يقصد بذلك التسمم بعنصر الرصاص الذي يضعف الأعصاب.

أما التشنج أو الصرع فقد أطلقوا عليه الكثير من الأسماء منها أم الصبيان وإبليسيا وعلة الصبيان، وقسموه إلى أنواع متعددة منها ما هو طبيعي يولد الطفل به ولاحظوا أنه يشفى بتقدم السن، وإذا لم يتم الشفاء فإن مآله الموت، ومنها ما هو عرضي وزمن حدوثه

(1) أحمد بن محمد الطبري: المعالجات الأبقراطية، ص 27.

(2) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 257.

(3) ويل ديورانت: قصة الحضارة ج4.

(4) أحمد بن محمد الطبري: المعالجات الأبقراطية، ص 14.

يكون بعد الميلاد نتيجة أسباب كثيرة منها ارتفاع درجة حرارة الطفل أو فساد اللبن، أو نتيجة نوبة من الفزع أو شدة بكاء الوليد، أو حتى بسبب الإسهال الشديد، ويذكر (الأنطاكي) علاجاً بالتشريط ومداوة الطفل بغلي الخشخاش(1) وإعطائه كمهدئ وقد تحدث (الطبري) و(ابن سينا) عن مرض الكزاز ووصف أعراضه، ويضيف الرازي في وصفه لحالة صبي أصابته نخسة في عضده بأن السبب ربما يكون التقيح الحادث في عمق الجرح وكذلك لضيق فم الجرح ويوصي بتوسيعه.

وبالنسبة لعلاج الأطفال نجد أن (الطبري) قد أشار مبدئياً إلى اختلاف طبيعة الأطفال عن الكبار، وكذلك الأدوية التي تعطى لهم مقارنة بمثيلتها عند البالغين نظراً لضعف بنيتهم(2) وحتى الأطفال أنفسهم فقد قسموهم إلى أقسام مختلفة تبعاً للسن وقوة الجسد، فالدواء الذي يصلح للرضيع ربما لا ينبغي إعطاؤه للفطيم، وهكذا، وقد قال (البلدي) باختلاف تأثير الدواء الواحد على الأشخاص المختلفين مع الرغم من وحدة المرض بينهما، وذلك لاختلاف الطبائع واستخدم الأطباء أوزان تختلف عن التي تستعمل للبالغين لتحديد جرعات الأدوية والعلاج للأطفال، كالحبة والقيراط والدرهم وحرصوا على جعل مذاقها محبباً وعذباً حتى لايكرهها الطفل كما وصى بذلك (ابن الجزار) في كتابه (سياسة الصبيان). وأخيراً، فقد أشار (ابن سينا) إلى انتقال الدواء من المرضع للطفل عن طريق الحليب ونصح بمنعها مؤقتاً من إرضاعه عند تعاطيها لبعض أنواع الأدوية.(3)

إسهامات العرب في علم البيطرة وعلم الحيوان:

غلب على علم الحيوان في التراث العربي اعتماده بصورة أكبر على المعرفة الشعبية السائدة أكثر من اعتماده على منهج علمي أكاديمي، ولذا فقد ظلت المؤلفات القديمة هي السائدة لفترة طويلة كمصدر رئيسي للمعرفة في ذلك المجال دون أن تطرأ عليها تغيرات تُذكر، وقد دخل الكثير من الأساطير عن حيوانات عجيبة وغريبة ملأت أسفار الرحالة الذين زاروا البلاد البعيدة ورجعوا بحكايات تقترب من الخرافات عن تلك الحيوانات والطيور المجهولة، أما علم البيطرة فقد نال حظاً أوفر من اهتمام العلماء واللغويين العرب(4)، وذلك عند مقارنتها بعلم الحيوان العام يتضح هذا بصورة جلية عند الكلام عن تشخيص الأمراض وعلاجها، وكذلك الوقاية منها، وانعكس هذا على اهتمام العرب بالجواد وعلله الذي ربما قد نشأ عند العرب منذ بدايتهم لتدجين الخيول واستخدامها للتنقلات وفي المعارك، ولهذا فليس من المستغرب وجود مصنفات كثيرة تتناول علم البيطرة في الحضارة العربية.

(1) أبو داود الأنطاكي: تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب، ص13.
(2) مهذب الدين البغدادي: المختارات في الطب، ص196.
(3) ابن سينا: القانون في الطب ج1، ص153.
(4) علي عبد الله الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان، ص30-42.

أهم أعلام البيطرة وعلم الحيوان عند العرب:

كتب في علم الحيوان (الجاحظ) و(أبو عبيده معمر المثنى)، و(الدميري) و(القزويني) وكتب في علم الطير (الحجاج بن حثيثة)، و(أبو عبيد بن القاسم الهروي)، وفي علم الطيور الجارحة التي أسموها البيزرة (أبو عبد الله بن الحسين)، و(عبد الرحمن بن البلدي)(1)، كما كتب في الإبل (أبو زيد سعيد الأنصاري)، وكتب (سهل بن هارون) و(أبو عبيد القاسم) و(الأصمعي) في الوحوش، مثل النمر والثعلب والذئاب. لكن اهتمام العرب كان منصباً على الخيول فنجد عشرات المؤلفين الذين كتبوا في ذلك العلم، (كالنفر بن شميل) و(قطرب) و(أبو عمرو الستياني) و(محمد بن المثنى) و(أبو عبيدة معمر بن الحسني)، و(عبد الملك الأصمعي) و(أبو عبد الرحمن)، و(محمد بن معاوية) و(ابن الأعراب) و(أبو نصر أحمد بن هاشم) و(عمرو أمين أبي عمرو الشيعاني) و(التوزي).

يعتبر (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري) الذي عاش بين عامي (776 – 868م) أول من تكلم عن علم الحيوان وأفرد لذلك الموضوع كتاباً خاصاً، ويعد كتاب (الحيوان) أول كتاب وُضِعَ بالعربية في ذلك العلم، وهنالك الكثير من الكتاب من تناولوه قبل (الجاحظ) مثل (الأصمعي) و(أبو عبيدة وابن الكلبي) و(ابن الأعرابي) و(السجستاني)، وغيرهم لكنهم كانوا يتناولون بالشرح حيواناً واحداً كالإبل أو الطير أو النحل، وكان اهتمامهم الأول لغوياً وليس علمياً، ولكن (الجاحظ) كما اهتم بالأصل اللغوي، وذكر الكثير من الشعر المتعلق بكل حيوان، وتكلم في طبائع الحيوان وغرائزه وأحواله وعاداته كمثل كلامه عن مأكل السباع والأمثال التي قيلت فيها(2)، واشتمل كتابه الموسوعي على آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وكذلك مقتبسات من التوراة والإنجيل وأقوال الحكماء والشعراء وعلوم الأقدمين من الفرس واليونانيين وهنود، بالإضافة إلى تجاربه العلمية ومشاهداته وملاحظاته الخاصة وكذلك على مسائل فقهية ونوادر وفكاهات.

عاش العالِم (أبو يوسف يعقوب بن أخي خزام) في القرن التاسع الميلادي، وله الكثير من المصنفات في مجال تربية الحيوان وخاصةً الخيل، ومن مؤلفاته الشهيرة في هذا المجال كتاب (الخيال والبيطرة)، وفي مقدمة الكتاب يذكر (ابن أخي خزام) أن الحصان هو حيوان قيم، ثم يشير إلى تغذية وتطمير الحصان، ومعالجة العرج عنده ومن أقواله: «كنت قد جربت في عيوب ومناقص الحصان الخلقية والمكتسبة ووجدت أن البغال والحمير والجمال حيواناتٌ مفيدة في الحروب، ولذلك فإني كتبت في معالجتهما ومشكلاتها، كما أنني تطرقت في البحث عن الأغنام والأبقار، ومن المؤلفات الهامة له أيضاً كتاب (الفروسية)، وهو أول كتاب باللغة العربية في موضوع العلاج البيطري، وقد ذكر معالجة الاستسقاء (الحبن)، وتكلم عن بعض الأفكار الجديدة لمداواة أمراض الحافر والقوائم، كما بين ضرورة عزل الحيوانات المصابة بخناق الخيل والأغنام المصابة بالتهاب الظلف خوفاً من انتقال العدوى إلى الحيوانات السليمة.

---

(1) راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ص 140 - 145.
(2) الجاحظ: الحيوان ـ المجلد الأول، ص 228 - 229.

ومن علماء البيطرة العرب (أبو زكريا يحي بن الأشبيلي) المعروف (بابن العوام) الذي توفي عام (1158م)، وكان مشهوراً في مجالي الزراعة والبيطرة، ولم يصلنا عن حياته إلا القليل ولم يتبق من مؤلفاته إلا هذا الكتاب «الفلاحة»، وذلك بسبب الحروب التي أضاعت إنتاجه العلمي، كتب (ابن العوام) كتابه الشهير (الفلاحة) في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وتُرجم هذا الكتاب إلى اللغة التركية واللغة الفرنسية، ويتكون الكتاب من (34) باباً، خصصت الثلاثة الأولى في علم الزراعة، أما الأبواب الأربعة الأخيرة فقد خُصصت للبحث في علم الطبابة البيطرية. وقد تكلم (ابن العوام) في الانتخاب وتحسين النوع عند الأبقار والأغنام[1] والماعز كما تعرض لمدد الحمل، ولبعض الأمراض التي يمكن أن تصيب مثل هذه الحيوانات، وقد أعطى (ابن العوام) نصائح حول معاملة الحيوانات، وتطبيعها بالطباع الجيدة، وقد تكلم عن أمراض البقر وذكر منها مرضاً يشبه مرض النقرس وآخر يشبه مرض الملاريا عند الإنسان، وقد أشار المؤرخ البيطري (سميث) إلى أن المرض الأول يحتمل أن يكون الحمى القلاعية والثاني التهاب الرئة الساري.

وقد تعرض (ابن العوام) لانتخاب الأغنام وتحسين أنواعها وقال بأن مدة الحمل عند الأغنام خمسة أشهر، وأشار إلى أن بعض الأغنام الجيدة يمكنها أن تلد مرتين في السنة وذكر أن الخصي عند الأغنام يسبب السمنة، وقد بحث (ابن العوام) في الشروط الصحية التي يجب توافرها في حظائر الحيوانات، وذكر أيضاً بعضاً من أمراض الخيول مثل التهاب الملتحمة وجرب الجفون، وأمراض الأنف والبلعوم والشفاه والآذان والتهاب اللثة وأمراض الأسنان وشلل العصب الوجهي، ويشير (ابن العوام) إلى أنه استقى معارفه من مؤلفات (ابن أخي خزام)، وخصوصاً كتاب (الفلاحة)، فيما يتعلق بأمراض الحافر التي ضلع بها (ابن أخي خزام)، لكنه لم يعتمد على المراجع البيزنطية كما أعطى معلوماتٍ صحيحةً في علم تربية الدواجن.

يعتبر (زكريا بن محمد بن محمود القزويني) (1203–1283م) من العلماء البارزين في مجال علم الحيوان، وقد ألف (القزويني) كتاباً أسماه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) وذكر فيه الكثير في علم الحيوان، وفي علوم متنوعة أخرى كالفلك والبحار والبيئة والنباتات والجغرافيا، وعلى الرغم من أن الكتاب لم يكن متخصصاً في علم الحيوان بالبحث في الحيوان إلا أنه ذكر مجموعة من المعلومات الهامة عن خصائص الحيوانات وعاداتها وطباعها.

وفي مصر عاش (عبد المؤمن الدمياطي) الذي ولد عام (1217م)، حيث عمل أستاذاً في المدرسة المنصورية التي أسسها (المنصور قلاوون) (1279 ـ 1290م)، ومن أهم مصنفاته في علم الحيوان كتاب (فضل الخيل)، وقد كتب فيه الكثير عن الخيول ويشير فيه إلى منع خصي

(1) ابن العوام: الفلاحة الأندلسية الباب الحادي والثلاثون.

الخيل، ثم يذكر أهمية انتخاب الخيول ويصف العلامات التي تدل على الشؤم عند الخيل، ثم يتكلم عن ضرورة منع السباق من أجل المكافآت بين الحيوانات ما عدا الخيول والإبل وفي نهاية الكتاب يذكر أسماء خيول الرسول الكريم ﷺ.

ومن العلماء العرب في علم الحيوان (الأشرف عمر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول)، ثالث سلاطين الدولة الرسولية في اليمن، وفي كتابه (المغني في البيطرة) اعتمد المؤلف فيه على تجاربه الشخصية في علاج أمراض الخيل، ويضم الكتاب تسعين باباً وقد ذكر فيه الخيل وعدد أسمائها وصفاتها، ثم تحدث عن أمراضها وعلاجاتها وأدويتها، وتكلم بعد ذلك عن البغال والحمير والإبل والجمال والأبقار والضأن والماعز، وتبعه في هذا العلم ابن أخيه السلطان الخامس لنفس الأسرة، (علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول) (1321 – 1362م)، وقد كان شاعراً وعالماً ومحباً للعلم، وقد وضع كتاب (الأحوال الكافية والفصول في علم البيطرة)، وقد تحدث بالتفصيل عن حيوان الفيل وله كتاب آخر أسماه (الخيل وصفاتها وأنواعها وبيطرتها).

يعتبر (أبو بكر بن بدر الدين بن المندحر البيطار) (1293 – 1341م) الذي ألف كتاب (كامل الصناعتين البيطرة والزردقة) من أفضل الأطباء البيطريين العرب، وقد اشتهر ذلك الكتاب باسم (الناصري) بسبب إهدائه للملك (الناصر قلاوون)، وقد أوضح المؤلف أنه استفاد من علماء عربٍ وبعض العلماء اليونانيين من أمثال (أرسطو) و(أبقراط)، و(ابن أخي خزام) وغيرهم.

وتذكر المصادر التاريخية عالماً آخر من علماء الحيوان وهو (كمال الدين الدميري)، مصري المولد (1344 – 1405م)، وقد ألَّف كتاباً ضخماً أسماه (حياة الحيوان الكبرى) في عام (1372م)، وذكر في الكتاب حوالي (1098) نوع مختلف من الحيوانات بيَّن أسماءها وفصائلها وطبائعها مع ذكر الوصفِ العام لها، والكتاب يعتبر موسوعةً في عالم الحيوان، وقد تكلم (الدميري) عن مختلف أنواع الحيوان وقسمها حسب بيئتها التي تعيش فيها كالحيوانات البرية التي تعيش على اليابسة سواءً كانت من ذوات القوائم أم من الزواحف، ومن الفقاريات أو الحشرات والرخويات، وذكر بعض الأحياء المائية وبعض البرمائيات التي تعيش على اليابسة وفي الماء معاً، ثم ذكر الطيور على اختلاف أصنافها. والكتاب يشتمل كذلك على أقوال مأثورة في الأدب والفقه والحديث الشريف والتاريخ والأمثال التي تُروى على ألسنة الحيوانات، ويُعدُّ الكتاب بمثابة مرجع لغوي لأسماء الحيوانات والطيور والأسماك، حيث يذكر الكاتب اسم الحيوان في أول الأمر وما يُعرف به من أسماء أخرى ومرادفاتٍ أخرى لاسمه، والمفرد والجمع، والمذكر والمؤنث منه وكذلك أسماء مختلف أنواع صغار الحيوانات.

رواد علم الطب في الحضارة العربية:

في ظل الحضارة العربية الزاهرة نبغ العديد من العلماء العرب في شتى صنوف المعرفة ومنها الطب، بالقطع نذكر بعضهم على سبيل المثال لا الحصر.

أبو بكر الرازي:

هو (أبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا الرازي)، عالم وطبيب فارسي حوالي عام (864 – 923م)، وهو واحد من كبار الأطباء العرب، وقد ألف أكثر من (200 كتاب)، ومقال في مختلف جوانب العلوم ومنها الكثير من المؤلفات الطبية، ومن أشهرها كتاب (الحاوي في الطب) الذي ضم كل المعارف الطبية منذ أيام اليونان القدماء حتى عام وفاة الرازي، وظل المرجع الطبي الأساسي في جامعات أوروبا ومدراسها الطبية لمده تزيد عن أربعة قرون، وقد تعلم (الرازي) معظم معارف عصره التي شملت الطب والرياضيات والفلسفة والفلك والكيمياء وحتى علوم الكلام والمنطق والأدب، وبدأت شهرته في مسقط رأسه (الري)، وجاب البلاد، وانتهى به المطاف كرئيس لبيمارستان بغداد، وله الكثير من الرسائل في شتى صنوف العلل والأمراض، وكتب في كل فروع الطب المعروفة في ذلك الزمن، وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى اللاتينية لتستمر كمراجع رئيسية للطب حتى القرن السابع عشر الميلادي، ومن أعظم كتبه (تاريخ الطب)، وكتاب (المنصوري) في الطب، وكتاب (الأدوية المفردة) الذي يتضمن الوصف الدقيق لتشريح أعضاء جسم الإنسان، وفي مجال الجراحة يعتبر (الرازي) أول من اخترع خيوط الجراحة من أمعاء القطط، وصنع كذلك العديد من المراهم والأدوية.

حياته ونشأته:

تميز (أبو بكر الرازي) منذ نعومة أظفاره بأصالة البحث وسلامة التفكير، وكان مولده في مدينة الري بالقرب من مدينة طهران الحديثة، وعلى الأرجح أنه ولد في عام (865م) وهداه رأيه الثاقب أن الطبيب الحاذق لابد أن يتعلم فنون المهنة الطبية في مدن كبيرة، حيث يزدحم الناس ويكثر المرضى ويتعلم على يد أمهر الأطباء، وقد قرر الارتحال إلى بغداد عاصمة الخلافة التي كانت تعج بالعلماء في مختلف الفروع ومن بينها الطب، فدرس الطب في تلك المدينة الزاهرة، وكان أستاذه الأول في المجال الطبي هو (علي بن ربن الطبري)، الذي ألف أول موسوعة طبية عالمية باسم (فردوس الحكمة)، ثم عاد الرازي بعد ذلك إلى مسقط رأسه مدينة الري بدعوة من حاكمها، (أمير بني سامان أبي صالح بن منصور بن إسحاق)، ليتولى إدارة بيمارستان الري، وقد ألّف الرازي مصنفه الشهير (المنصوري في الطب) عام (903م) وجعله مختصاً بأمراض الجسم، وأهداه إلى ذلك الحاكم، ثم وضع كتاب (الطب الروحاني) في أمراض النفس، وجعله متتماً لكتابه (المنصوري) واشتهر أمر

(الرازي) في الري، وسبقته شهرته إلى مدينة بغداد التي انتقل إليها من جديد بعد أن عين رئيساً للبيمارستان المعتضدي الجديد الذي أنشأه الخليفة (المعتضد بالله) (892 – 902م)، وكان بمثابة مدرسة طبية كبرى، حيث كان يعمل بها حوالي خمسون طبيباً، وفي آخر أيام (الرازي) أصابه الماء الأزرق في عينيه، ثم فقد بصره نتيجة لذلك، وتوفي في مسقط رأسه الري في سنة (923م).

كان الرازي طوال عمره يؤكد على أفضلية العقل ويحث دائماً على الرجوع لأحكامه والاعتبار بها بل والاعتماد عليها، ظهر ذلك الاتجاه جلياً في كتابه (الطب الروحاني) عندما أسهب في فضل العقل ومدحه وكان شغوفاً بعلم الفلسفة ورائدها الكبير (سقراط) اليوناني وكان أول من تعلم على يديه الفلسفة هو (أحمد بن سهل أبو زيد البلخي)[1] (849 – 934م) الملقب بالجاحظ الثاني، وهو أحد حكماء الإسلام وعلمائهم البارزين في الأدب والفقه والفلسفة، واتخذ الرازي العقل والفلسفة ميزاناً يزن بها جميع أمور حياته، لذا يظهر جلياً اعتماده على منهج علمي واضح وميل كبير إلى التجريب لاستنباط الحقائق، وقد علم أن فنون الطب لايمكن إدراكها بواسطة المجهود الفردي بل عليه أن يدرس ما يستطيع الوصول إليه من كتب الأقدمين حتى تصير إليه خبراتهم المتراكمة، وقد ذكر ذلك الاتجاه العلمي في كتابه (المنصوري)، فإذا اقتدى المقتدي أثرهم صار إدراكهم كلهم له في زمان قصير وصار كمن عمر تلك السنين.

في عصر (الرازي) كانت ترجمة العلوم من مختلف اللغات قائمة على قدم وساق، وأصبحت المصنفات والكتب اليونانية واسعة الانتشار بين دارسي الطب، وكانت آراء (أبقراط) و(جالينوس) في ذلك الزمان تعتبر من مسلمات الطب، فالطب اليوناني كان يقوم أساساً على النظريات لكن (الرازي) الذي اتخذ من المنهج التجريبي نبراساً لحياته العلمية عندما ذكر أنه: «عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة مع النظرية السائدة يجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظرية تأييداً لمشاهير العلماء»، وهو بذلك يضع المقياس الحقيقي لقبول المعرفة وهو خضوعها للمشاهدة الفعلية والتجربة الحقيقية وليس لمجرد ذكرها من قبل عالم أو طبيب شهير، وهو بذلك يُبْنَي أسس الاستنتاج على الحقائق لا الافتراضات أو الجدل، ويعتبر هذا هو أساس التفكير العلمي السليم، يتضح ذلك الأسلوب بصورة جلية في كتابه (الشكوك على جالينوس)، وقد ذكر في هذا المصنف جملة من الأخطاء التي وقع فيها (جالينوس)، وذكر (الرازي) أيضاً تصوبياته لتلك الأخطاء، ولم يكتف بذلك بل وصف كيفية وصوله إلى تلك النتائج السليمة دون التأثر بما كتبه الطبيب الروماني الأشهر.

وقد دون (الرازي) أسماء مؤلفاته في «فهرست»، يذكر ذلك كلٌّ من (محمد بن إسحاق ابن النديم) الذي توفي عام (995م)، وكذلك (أبو الحسن علي بن يوسف القفطي) (1172 – 1248م)، و(ابن أبي أصيبعه) في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)، وكذلك

---

(1) راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ص140-145.

كتاب (طبقات الأطباء والحكماء) (لابن جلجل)، ومن المعروف أن تلك المخطوطة قد ضاعت مع الكثير من مؤلفات (الرازي) التي فقدت، وجدير بالذكر أن الرازي قد ألف أكثر من مائتي كتاب في شتى صنوف المعارف في زمانه، منها الطب والفلسفة والكيمياء بعضها عبارة عن مقالات قصيرة، وبعضها الآخر جاء في صورة موسوعات ضخمة ككتاب (الحاوي) مثلاً.[(1)]

إسهاماته في المجال الطبي:

يعتبر تشخيص المرض هو الخطوة الأولى الأساسية للعلاج، لكن (الرازي) لم يكتفِ بمعرفة العديد من علامات المرض الظاهرة على جسد المريض، بل كان شديد الاهتمام بأن يسأله عن كل ما يتعلق بالمرض من كافة الأوجه منها معرفة تاريخ المرض، والأمور المحتملة التي قد تكون سبّبت المرض، يتضح ذلك جلياً عندما يقول: «إن الطبيب ينبغي ألا يدع مساءلة المريض عن كل ما يمكن أن يقوله عن علته»،[(2)] ثم يقوم بالكشف على المريض وقياس حرارته وكذلك النبض، وإذا رأى بأن يدخل المريض البيمارستان فإنه يضعه تحت عنايته وملاحظته الدقيقة المستمرة ويسجل كل ما يمكن في سبيل كشف سبب المرض، أو في وصفه للعلاج ونتيجة لخبرة (الرازي) الكبيرة فقد توصل إلى درجة عالية من الدقة في تعليقاته على الحالات المرضية التي رآها وشخصها، وهو أول من اعتبر الحمّى عرضاً لا مرضاً، وقد اهتم بالنواحي النفسية للمريض ورفع معنوياته وإزالة مخاوفه، حيث يقول: «ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبداً بالصحة ويرجيه بها وإن كان غير واثق بذلك فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس».

وكان للطب التجريبي نصيب كبير في ممارسات (الرازي) الطبية، إذ كان يجرب بعض الأدوية الجديدة على القرود، فإذا كان تأثيرها فعالاً وآمناً جربها على الإنسان، فهو بذلك يعتبر من أوائل من أرسى دعائم المنهج العلمي التجريبي، مما مكنه من تحقيق سبقاً في الكثير من العلوم الطبية، وقد كان من آرائه الرائدة تجنب الأدوية المصنوعة من مواد كيميائية، وخاصة إذا كان المرض يمكن علاجه باستخدام الغذاء والأعشاب.

كانت (للرازي) رؤية متميزة في نشوء المرض، فبالرغم من عدم علمه بوجود المكروبات كمسبب للأمراض إلا أنه كان مدركاً لأهمية نظافة البيئة، وعلاقة ذلك بصحة المرضى خاصة في البيمارستان، ويتجلى ذلك عندما أمره أحد الخلفاء ببناء مستشفى في أفضل مكان في بغداد نجده قد فكر ملياً، ثم أمر أتباعه بوضع قطع لحم متماثلة في أماكن كثيرة في أرجاء المدينة وكان يمر عليها لكي يتفحص فساد القطع، وعندما رأى آخر قطعة أنتنت أمر ببناء المستشفي في هذا المكان لأنه أدرك بملاحظته الدقيقة أن ذلك المكان ذو هواء نقي وخال من الملوثات وبالتالي صالح لبقاء المرضى للاستشفاء[(3)].

(1) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ص 510-511.

(2) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج1، ص77.

(3) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج3، ص13

كان (الرازي) ككل رواد علم الطب مهتماً بنقل الخبرة الطبية المهنية ونشر العلم، فنراه يلقي دروسه الطبية على طلبة الطب في المستشفى العضدي ببغداد، وكانت له طريقة متميزة في التدريس تعتمد على منهج نظري قائم على إلقاء المحاضرات وتدريس مختلف الكتب الطبية، وكذلك على منهج علمي إكلينيكي، إذ كان يمر مع طلبته على أسِرّة المرضى في أجنحة المستشفى، ويشرح لهم أعراض المرض ودلالاته، وكان شديد الاهتمام بفحص البول ووصفه وصفاً دقيقاً، ويحثهم على تسجيل ملاحظتهم[1] وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات، ويبدأ بالأمور النظرية ثم العملية، وفي نهاية الأعوام الثلاثة كان الرازي يعقد امتحاناً لتلامذته وهو مكونٌ من جزأين: الأول في التشريح، والثاني في الجانب العملي، ومن كان يفشل من الطلاب الجدد في اختبار علم التشريح لا يسمح له بدخول الامتحان الثاني العملي.

لم يقتصر إبداع (الرازي) على فرع واحد من فروع الطب المختلفة، بل نراه قد وضع شرحاً تفصيلياً لمختلف الأمراض الباطنية، وطب الأطفال والنساء والولادة، وكذلك الأمراض التناسلية والعيون، وقد قال بأن الإبصار يتم بخروج شعاع من الجسم ليسقط على العين مخالفاً بذلك النظرية القديمة للإبصار، وهو أول من صنع مراهم الزئبق، وهو أول من استخدم الأفيون في علاج حالات السعال الجاف، وكذلك فقد أدخل المليّنات في علاج الأمراض، أما في علم الجراحة فإن (الرازي) يعتبر أول مبتكر لخيوط الجراحة، وقد صنعها من أمعاء القطة[2]، وظلت تلك الخيوط مستعملة بعد وفاته لمئات من السنين، وهو أول من فرق بين أنواع النزيف الوريدي والشرياني منها، وقد استخدم الضغط بالأصابع لإيقاف النزيف الوريدي، واستخدم الربط لإيقاف النوع الشرياني، وكذلك فهو أول من وصف عملية استخراج الساد من العيون.

إسهاماته في علمي الفيزياء والكيمياء:

لم تقتصر إسهامات (الرازي) في المجال الطبي بل تعداه إلى علم الفيزياء، حيث قام بتقدير الكثافات النوعية للسوائل، ووضع لقياسها ميزاناً خاصاً أطلق عليه اسم الميزان الطبيعي، إذ توصل لطريقة يتم بها تمييز المعادن كالذهب والفضة عن طريق الثقل النوعي من خلال تعيين ثقل حجم معين من المادة إلى نفس الحجم من الماء، أما في علم الكيمياء فقد قسم المواد المعروفة إلى أربعة أقسام هي: المواد المعدنية والمواد النباتية والمواد الحيوانية، وأخيراً المواد المشتقة، ولقد قسّم المعادن إلى أنواع مختلفة كل على حسب طبائعها وصفاتها المختلفة، وأدت تجاربه الكثيرة إلى تحضّير بعض الأحماض، ويعتبر (الرازي) أول من ذكر حامض الكبريتيك الذي أطلق عليه اسم زيت الزاج أو الزاج الأخضر، وقد استخلص

(1) راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ص199، ومحمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين، ص 72.

(2) محمود الحاج قاسم: الموجز لما أضافه العرب في الطب، ص43.

مادة الكحول بتقطير المواد النشوية والسكرية التي تعرضت للتخمر، وكان يستعمله في استنباط الأدوية المتنوعة، ويعتبر أهم ما كتبه (الرازي) في علم الكيمياء هو مصنف (سر الأسرار) الذي أنكر التفسيرات الخفيّة والرمزية للظواهر الطبيعية، ووصف فيها التجارب الكيميائية بدقة، وقد وضع (الرازي) كتابه بأسلوب موضوعي وعلمي واضح يخالف طريقة الكيميائي الشهير (جابر بن حيان) الذي كان يغطي مقاصده بمصطلحات مستترة، بينما كان منهج (الرازي) في هذا العلم تجريبياً واضحاً.

مؤلفاته الطبية:

كان (الرازي) متميزاً في وضع وتصنيف الكتب والمؤلفات وكذلك تدوين المعلومات، وقد ذكر له (ابن النديم) في كتابه «الفهرست» حوالي (113) كتاب وكذلك (28) رسالة، وقد كتبت معظمها في المجال الطبي، ومن أفضل ما كتبه (الرازي) هو (الحاوي في علم التداوي) الذي يعتبر بمثابة موسوعة طبية شاملة تحوي العديد من المعلومات الطبية، وقد جمع في ذلك الكتاب كل ما أمكنه من خبرات نظرية وعملية، وهو يحتوي على ملخصات عديدة لمؤلفين إغريق وهنود، وكذلك وصف فيه الحالات التي عالجها، ويمكن للقارئ ملاحظة مهارة (الرازي) في دقة الملاحظات وسعة العلم بل وقوة الاستنتاج نتيجة لاتباعه المنهج التجريبي، ويكاد يجمع المؤرخون على أن (الرازي) لم يتم الكتاب بنفسه، ولكن تلاميذه هم الذين أكملوه من بعده، ومن مصنفاته الطبية أيضاً كتاب (المنصوري) الذي قد سماه بهذا الاسم نسبة إلى (المنصور بن إسحاق) حاكم خراسان، وقد تناول فيه العديد من الموضوعات الطبية المتعددة في مختلف الأمراض، ومنها الباطنية والجراحية وأمراض العيون، وقد عمل (الرازي) على إخراج هذا الكتاب في صورة مختصرة، فكتبه في عشرة أجزاء.

ومن أهم كتب (الرازي) في الحميات كتاب (الجدري والحصبة)، وهو أول من فرق بين أعراض كلٍّ من مرضى الجدري والحصبة، وقد ذكر ملاحظاته فجاءت دقيقة ونافذة ومن كتبه الهامة كذلك كتاب متخصص في (الطب الروحاني)، الذي قال فيه إن هدفه من الكتاب هو محاولة جادة لإصلاح أخلاق النفس، ونراه قد حث على تكريم العقل، وعلى كبت الأهواء، ومخالفة الطباع السيئة، بل وتدريب النفس على تلك الأمور كلها، وقد ظهر جلياً في مصنفات (الرازي) تمسكه الشديد بالأمانة العلمية المتمثلة عندما يشير إلى اسم المكتشف الأصلي لأي تشخيص مبتكر أو علاج ناجع وجدها في مصنفات من سبقوه من كبار الأطباء، (كجالينوس) و(أبقراط) و(أرمانسوس) وغيرهم الكثير، بل وتعدى ذلك إلى ذكر المعاصرين له المحدثين من الأطباء (كيحيى بن ماسويه) و(حنين بن إسحاق)، وكان (الرازي) كثيراً ما ينتقد آراء الأطباء السابقين لعصره ذلك نتيجة لتجاربه المتعددة، بل إنه ألّف كتاباً خصّيصاً للرد على (جالينوس) وسمّاه (الشكوك على جالينوس)، ولم يكتف (الرازي) بالتأليف بل كان يحض طلابه على اتباع نفس النهج في الكتابة والتصنيف، فنراه يقول لهم: «إذا جمع الطالب أكبر قدر من الكتب وفهم ما فيها، فإن عليه أن يجعل لنفسه كتاباً يضمنه ما غفلت

عنه الكتب التي قرأها»، فهو بذلك ينصح كل تلامذته بأن يسجلوا البيانات والملاحظات الطبية أثناء فترة الدراسة، وكذلك مدة علاج المرضى وقد بلغ من اهتمام (الرازي) بمرضاه وكان جلهم من الفقراء المحتاجين أنه ألف كتاباً خاصاً سماه (طب الفقراء)(1)، وصف فيه الأمراض المختلفة وأعراضها، ثم أسهب في وصف الطرق العلاجية لها عن طريق ما يتوفر من الأغذية والأعشاب الرخيصة بدلاً من استخدام الأدوية غالية الثمن أو التراكيب التي تتسم بالندرة، ودفعه إشفاقه على مرضاه المساكين أن أنفق عليهم من ماله الخاص(2)، بل وأجرى عليهم الرواتب التي تضمن لهم عيشة كريمة، وكانت وصيته لطلبته أن يقصروا هدفهم على علاج المرضى أكثر من طلب الأجور منهم، ويوصيهم كذلك بأن يكون اهتمامهم موزعاً بالسوية ما بين علاج الفقراء من الناس، وعلاج الأغنياء منهم، ومن مؤلفات (الرازي) الأخرى كتاب (في الفصد والحجامة الملوكي)وأهداه إلى (علي بن ويهسوان) صاحب طبرستان، و(الفصول في الطب) ويسمى (المرشد) و(برء الساعة)، و(الكافي) و(الطب الملوكي) ومقالة في الحصى والكلى والمثانة والأقرباذين، وتقسيم العلل والمدخل إلى الطب وخواص الأشياء والفاخر في علم الطب والباه ومنافعه ومضاره ومداواته، وسر الصناعة، وأسئلة من الطب، وتلخيص كتاب جالينوس في حيلة البرء ومنافع الأغذية، ودفع مضارها والفقراء والمساكين وجراب المجربات وخزانة الأطباء والخواص ومقالة في النقرس والقولنج، وكتاب من لا يحضره الطبيب وعلل المفاصل والنقرس وعرق النسا.

الاهتمام الغربي بمؤلفات الرازي:

يعتبر (الرازي) واحداً من أحد أعظم أطباء الإنسانية على الإطلاق كما وصفته زجريد هونكه في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب)، ولقد ترجمت العديد من كتب الرازي الطبية إلى اللغة اللاتينة، وغيرها من اللغات الأوروبية، منها (الحاوي) الذي ترجمه إلى اللاتينية الطبيب اليهودي «فرج بن سالم» بأمر من (شارل الأول) ملك صقلية في عام (1279م)، وطُبع لأول مرة في بريشيا بشمال إيطاليا سنة (1486م)، وهو أضخم كتاب طُبع بعد اختراع المطبعة مباشرة، وكان مطبوعاً في (25) مجلداً، وقد أعيدت طباعته مراراً في البندقية بإيطاليا في القرن السادس عشر الميلادي، ويذكر المؤرخ (ماكس مايرهوف) أنه في عام (1500م) كانت هناك خمس طبعات لكتاب (الحاوي)، مع عشرات الطبعات لأجزاء منه، وتذكر المصادر التاريخية أن ملك فرنسا (لويس الحادي عشر) (1461 – 1483م) قد دفع مبلغاً كبيراً من المال لينسخ له أطباؤه نسخة خاصة من كتاب «الحاوي» كي يكون مرجعاً لهم إذا أصابه مرض ما(3)، ومن كتبه أيضاً (المنصوري) الذي تمت ترجمته عدة مرات إلى لغات مختلفة منها اللاتينية والإنجليزية والألمانية والعبرية، وقد تم نشره لأول مرة في ميلانو سنة

(1) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، ص 115 ـ 116.

(2) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج3، ص 13.

(3) راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ص 200.

(1481م)، وظل مرجعاً لأطباء أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي. وكتاب (الجدري والحصبة) الذي قد أعيدت طباعته في أوروبا أربع مرات بين عامي (1498 و1869م)، وجدير بالذكر أن الشاعر الإنجليزي «جوفري تشوسر» قد مدحه في إحدى قصائده في كتابه (حكايات كانتربري)، وحتى جامعة بريستون الأمريكية نجدها قد أطلقت اسمه على جناح من أكبر أجنحتها[1]، كما نصبت كلية الطب بجامعة باريس نصباً تذكارياً (للرازي) اعترافاً بفضله على تطور العلوم الطبية.

ابن سينا:

هو (أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا)، وجالينوس الإسلام، هو عالم موسوعي، وطبيب نابغة سبق عصره، ولد بالقرب من بخارى، وتوفي في همدان بإيران الحالية (980-1037م)[2] غلب عليه اسم الشيخ الرئيس، وأطلق عليه المؤرخون في العالم الغربي أمير الأطباء، ويعتبر من مؤسسي الطب الحديث في العصور الوسطى، ألف العديد من الكتب والمصنفات في مختلف العلوم المعروفة في عصره منها الطب والفلسفة والرياضيات وحتى الموسيقى، يعتبر كتابه (القانون في الطب) أكبر موسوعة طبية ترجمة إلى لغات مختلفة، وصار المرجع الرئيسي في العديد من المعاهد والمدارس الطبية في مختلف المدن الأوروبية حتى القرن السابع عشر الميلادي، يعد (ابن سينا) رائداً في علم الطب، وله العديد من الإسهامات، إذ أنه أول من وصف أسباب اليرقان، كذلك أول من ذكر أعراض الالتهاب السحائي بصورة دقيقة، وفي مجال أمراض الجهاز البولي وصف أعراض حصوات المثانة البولية، وله باع كبير في لفت انتباه المعالجين إلى تأثير الحالة النفسية على المرض الجسماني، حيث قال بأن الوهم نصف الداء، والاطمئنان نصف الدواء، والصبر أول خطوات الشفاء.

حياته ونشأته:

ولد (ابن سينا) لرجل يعمل في وظيفة إدارية تقابل وظيفة الوالي أو مدير الناحية أو عامل الإقليم، في قرية يقال لها (خرمثين) من ضياع بخارى من أعمال مدينة بخارى من بلاد ماوراء النهر الواقعة في أوزبكستان الحالية[3]، وهي من أمهات القرى، وبقربها قرية يقال لها (أفشنة) ولد بها (ابن سينا) الذي انتقل مع أبيه إلى بخارى التي كان يحكمها الأمير (نوح بن منصور الساماني) (976-997م)، وهو من سلالة تركية حكمت في بلاد ما

(1) أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، ص 138.
(2) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 79.
(3) راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ص 180.

وراء النهر وأجزاء من فارس، وأفغانستان وكان أبوه مهتماً بتعليمه فأحضر له معلماً يدرسه القرآن وآخر يعلمه الأدب، وبلغ من ذكاء (ابن سينا) المتوقد أنه قد أتم حفظ القرآن وهو ابن عشر سنوات، ثم اتجه إلى علوم الحساب والرياضيات، ثم إلى العلوم الفقهية ليتعلم على يد (إسماعيل الزاهد) ودرس على يد عالم في مدينة بُخارى متخصص بعلوم الفلسفة والمنطق اسمه (أبو عبد الله النائلي)، ثم جذبه علم الطب فأقبل عليه في شغف، ثم أخذ يعالج المرضى فأكسبه ذلك خبرة كبيرة نتيجة لغزارة التجارب التي مر بها، نرى ذلك جلياً في كتابات (ابن سينا) عندما يقول: «ثم رغبت في علم الطب، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه، وعلم الطب ليس من الأمور الصعبة، فلا جرم أني برّزت فيه في أقل مدة... وتعهدت المرضى، فانفتح علي من أبواب المعالجات من التجربة ما لا يوصف»، وقد ذكر عنه (ابن خلِّكان) في كتابه (وفيات الأعيان)، وأصبح فيه عديم القرين، فقيد المثل، وقد اختلف إليه فضلاء هذا الفنِّ وكبراؤه؛ يقرأون عليه أنواعه والمعالجات المقتبسة من التجربة.

ذاع صيت الطبيب الشاب في أرجاء المدينة وواتته فرصة نادرة عندما قام وهو لم يتجاوز الثامنة عشر بعلاج حاكم بخارى (نوح بن منصور الساماني)، وأدى نجاحه في علاجه بعد فشل مشاهير الأطباء إلى التحاقه ببلاط الأمير الذي انبهر بعلمه حتى أنه وضع مكتبته الخاصة التي كانت تحوي مئات الكتب النادرة تحت تصرف (ابن سينا)، لكن طبيبنا وبعد إتمامه العشرين من عمره انصرف إلى التأليف والكتابة والاشتغال بالفلسفة والطب، ومن أقواله المأثورة: «احذروا البطنة، فإن أكثر العلل إنما تتولد من فضول الطعام لكنه كان محباً أيضاً للترحال لطلب العلم»، فنراه قد رحل إلى خوارزم، وهناك استقر لمدة عشر سنوات، تنقل بين البلاد ثم رحل إلى همدان، وهناك لبث مدة تسع سنوات في خدمة أميرها (شمس الدولة)، لكن ذلك الهناء لم يدم ففي عام (1022م) توفي راعيه (شمس الدولة)، ليجد (ابن سينا) نفسه في سلسلة من المصاعب التي بلغت ذروتها بسجنه. وقد استطاع ابن سينا أن يهرب إلى أصفهان ـ 250 ميل جنوب طهران ـ مصحوباً بمجموعة من أعوانه الخلصاء وقرر أن يستقر في تلك المدينة وفعلاً فقد قضى بها 14 عاماً في طمأنينة نسبية. وفيها أنهى كتابه (القانون في الطب)، كما أنهى أيضاً كتابه الشهير الآخر (الشفاء)، ثم توفي هناك بعد أن أصاب جسده المرض حتى ذكر أنه كان يمرض أسبوعاً ويشفى أسبوعاً، وأكثر من تناول الأدوية، ولكنّ علته تفاقمت وأدرك أن أنه لا فائدة من الأدوية فأهمل نفسه واغتسل وتاب، وتصدق بكل ما لديه من نقود للفقراء، وأعتق كذلك عبيده طلباً للمغفرة. وبدأ يختم القرآن كل ثلاثة أيام ووافته المنية في شهر يونيو عام (1037م)، في سن الثامنة والخمسين من عمره بعد أن أسدى لعلم الطب من الاكتشافات التي سبق بها عصره، وظلت مؤلفاته مراجع أساسية في مختلف الجامعات الأوروبية لعدة قرون.

إسهاماته في علم الطب:

أدى تعلم (ابن سينا) علم المنطق إلى اكتسابه منهجاً مميزاً في التفكير واتجه بالتالي إلى الاستقلال في الرأي، وحاول أن يتحرر من تأثير أي آراء أو أفكار ليس لها سند عقلي أو خبرة تنبع من تجربة، لذا فنراه لم يتقيد بنظرة من سبقوه بل أخذ يشحذ فكره المنهجي ويدرس ويعمل فكره ومنطقه الذي تعلمه، نراه يقول في تلك المناسبة: «فكل حُجّة كنتُ أنظر فيها أُثبت مقدّمات قياسية، وأُرَتِّبُها في تلك الظهور ثم نظرتُ فيما عساها تُنْتِج، وراعيتُ شروط مقدِّماته، حتى تحقّق لي حقيقة الحقّ في تلك المسألة»، وقد قال بأن العقل البشري قوة من قوى النفس لا يستهان بها وأدت كل هذه العوامل المختلفة مع غزارة التجارب التي مر بها أثناء معالجتها للعديد من المرضى إلى توصله لمجموعة من الملاحظات الدقيقة والنتائج الجديدة المبتكرة في تشخيص الأمراض واكتشاف العلاج وتحضير الأدوية التي تعد كشفاً في علوم الطب والتداوي، ونراه يقول في إحدى كتاباته: «الفلاسفة يخطئون ويصيبون كسائر الناس، وهم ليسوا معصومين من الخطأ والزلل».(1)

اتبع (ابن سينا) طرقاً جديدة في فحص المرضى وتشخيص العلل وتحديد العلاجات والأدوية، وذلك عندما أدخل جس النبض والقرع بالإصبع فوق جسد المريض، وهو نفس الأسلوب المتبع حالياً في تشخيص الأمراض الباطنية، وكذلك فقد كان مهتماً باستقراء المعلومات المتعلقة بالمرض من خلال الاستدلال بالبول والبراز، ويعتبر (ابن سينا) أول من ذكر أعراض التهاب السحايا وهي الأغشية المحيطة بالدماغ ووصفها وصفاً صحيحاً، وقد وضع شرحاً وافياً للتفرقة ما بين أسباب الفالج أو الشلل الناتج عن أسباب داخلية في جسد المريض أو أسباب خارجية، بل ونراه قد ذكر حدوث السكتة الدماغية الناشئة من كثرة الدم، وفي مجال الجهاز البولي نجده أول من فرق ما بين المغص الكلوي والمغص المعوي الذي يمكن أن تختلط أعراضهما وتتشابه، وقد ذكر في بعض كتاباته عن أعراض حصاة المثانة، وفرق بينها وبين الحصاة الكلوية، وفي مجال أمراض النساء والولادة نجده قد وصف بدقة الكثير من أمراض النساء كانسداد المهبل والسقوط الرحمي، وكذلك الأورام الليفية، وذكر العديد من الأمراض التي يمكن أن تصيب المرأة النفساء، كالنزيف الدموي، واحتباس الدم، وما قد يسببه ذلك من أورام وحميات حادة، وأشار بذكاء إلى حدوث تعفن الرحم، وأنه قد ينشأ من عدة أسباب ذكر منها عسر الولادة، أو حتى موت الجنين داخل الرحم، وتعرض أيضاً للذكورة والأنوثة في الجنين وعزاها إلى الرجل دون المرأة، وهو الأمر الذي أثبتته كشوف العلم المعاصر مؤخراً.

لاحظ (ابن سينا) أن الكثير من الأمراض تنتقل عن طريق شرب الماء أو عن طريق الهواء فأعمل التفكير حتى هداه عقله ذو المنهج العلمي أن لابد من وجود بعض الكائنات المرضة، فذكر أن تلك الأمراض ربما تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحية الدقيقة في الماء والجو،

(1) قدري حافظ طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة، ص 160.

وقال: «إن الماء ربما يحتوي على حيوانات صغيرة جداً لا تُرى بالعين المجردة»، وهكذا يمكن القول بأن (ابن سينا) قد وضع أسس علم المكروبيولوجي، وقد ذكر أن المستعد للشيء تكفيه أضعف أسبابه، وبذلك فقد وضع أول خطوات علم المناعة.(1)

إسهاماته في علم الجراحة:

تظهر كتابات (ابن سينا) الطبية وخاصة كتابه (القانون) براعة كبيرة ومقدرة في أسس علم الجراحة، إذ كان النزيف أثناء الجراحة واحداً من أهم أسباب وفاة المريض، كما يتسبب في نشوء العديد من المضاعفات كالصدمة وغيرها، لذا نراه قد ذكر عدة طرق لإيقاف ذلك النزيف، سواء بربط الوعاء الدموي الذي تسبب بالنزف أو باستخدام بعض الأدوية الكاوية أو إدخال الفتائل(2) أو حتى باستخدام بالكي بالنار، أو بمجرد ضغط اللحم فوق العرق وكان لانتشار الحروب في عصره أن كثرت أنواع الإصابات في مختلف أنحاء الجسد نتيجة لضربات السيوف والرماح والسهام، وقد تحدث (ابن سينا) عن طرق التعامل مع السهام واستخراجها من الجروح، واشتد في التنبيه إلى ضرورة معرفة المعالج بفنون تشريح الجسم البشري قبل البدء في إجراء الجراحات المختلفة، وقد حذر (ابن سينا) الجراحين من خطورة إصابة الأوعية الدموية أو الأعصاب عند إخراج السهام من الجروح، وذكر الأورام السرطانية في مراحلها الأولى، ووصف عمليات جراحية لإزالتها، وقد قام بعلاج حالات صعوبة التنفس بشق الحنجرة والقصبة الهوائية، وقد أجرى عملية إزالة الخراج من الغشاء البلوري (الجنبة) للرئة، ووصف ببراعة عملية علاج البواسير بواسطة الربط، وشرح كيفية نشوء وعلاج الناسور الشرجي، أما القثطرة البولية فقد دلت كتاباته أنه على علم وافر بالحالات التي يتم استخدامها فيها، وكذلك بالمحاذير التي يجب وضعها في الاعتبار عند استعمالها، وفي مجال الكحالة أو علم أمراض العيون يعتبر (ابن سينا) أول من اكتشف ووصف عضلات العين الداخلية المختلفة، وكذلك تذكر المصادر أنه أول من قال إن مركز الإبصار هو العصب البصري وليس الجسم البلوري كما كان يعتقد من كان قبله من الأطباء، وكان (ابن سينا) صاحب الفضل في علاج القناة الدمعية بإدخال مسبار معقّم فيها.

إسهاماته في علم الطفيليات:

يعتبر (ابن سينا) رائداً في وضع أساس علم الطفيليات، وقد أشار إلى الكثير من الأمراض التي تنشأ عن طريق الإصابة بها مثل الديدان المستديرة التي يطلق عليها الآن دودة الإنكلستوما، وقد أعطت مؤسسة روكفلر الطبية(3) السبق (لابن سينا) في اكتشاف مصدر المرض قبل أن يعرف (دوبيني الإيطالي) الذي ينسب إليه بطريق الخطأ، وقد تطرّق (ابن سينا)

---

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 282.

(2) نفس المصدر، ص 118.

(3) قدري حافظ طوقان: العلوم عند العرب، ص 18.

إلى بعض أنواع الديدان الطفيلية التي تعيش في العين وسماها ديدان العين، وقد كان أول من ذكر الجمرة الخبيثة، ووصفها في كتابه (القانون)، وسماها بهذا الاسم، لأن المرض يؤدي إلى إضفاء لون أسود على مكان الإصابة، وأما داء الفيل أو داء ديدان الفيلاريا فقد وصفه (ابن سينا)، وقال عنه إنه ازدياد في حجم القدم والرجل، ويؤدي إلى أن يغلظ القدم وتكلم عن علاجه فذكر أن شفاءه نادر ويجب أن يترك لحاله لكن إذا تطور المرض ونتج عنه تقرح فلابد من البتر.

كتب ابن سينا في علم الطب:

وضع (ابن سينا) (276) مصنف منها (43) مؤلفاً في الطب، كلها كتبت بالعربية باستثناء بضع مؤلفات صغيرة كتبها بلغته الأم الفارسية، إلا أنه وللأسف قد فقدت أكثر هذه الكتب ولم تصل إلينا، ويوجد حالياً حوالي (68) مؤلفاً، ويعتبر أشهر كتب (ابن سينا) هو كتاب (القانون في الطب) الذي ينقسم إلى خمسة أجزاء، وبه عدد كبير من المقالات والفصول في مختلف فروع الطب، وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية وتمت طباعته في العديد من الدول الأوروبية والهند ودول أخرى، وظل يدرس في أوروبا حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي[1]، و(ابن سينا) له أيضاً كتاب الأدوية القلبية، وكتاب دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية، وكتاب القولنج، ورسالة في سياسة البدن وفضائل الشراب، ورسالة في تشريح الأعضاء، وكذلك رسالة في الفصد، ورسالة في الأغذية والأدوية، و(ابن سينا) له أرجوزة في التشريح[2]، وأرجوزة المجربات في الطب، وكذلك الألفية الطبية.

أقوال مأثورة لبعض المشاهير عن عبقرية ابن سينا:

يقول البروفيسور (جورج سارتون) (1884-1956م)، وهو صيدلي ومؤرخ بلجيكي، يعتبر (ابن سينا) مؤسس علم تاريخ العلوم أعظم علماء الإسلام، ومن أشهر مشاهير العالمين، ويقول أيضاً «إن فكر ابن سينا يمثل المثل الأعلى للفلسفة في القرون الوسطى»، ويقول (دي بور) (توفي عام 1942م)، وهو مستشرق هولندي درس الآداب العربية، وتخصص في الفلسفة الإسلامية، وأرخ لها في كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام): «كان تأثير ابن سينا في الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى عظيم الشأن، واعتبر في المقام كأرسطو»، ويقول (أوبرفيل): «إن ابن سينا اشتهر في العصور الوسطى، وتردد اسمه على كل شفة ولسان، ولقد كانت قيمته قيمة مفكر ملأ عصره.. وكان من كبار عظماء الإنسانية على الإطلاق». ويصفه (آرك جون هولميارد) (1891-1959م)، وهو عالم ومستشرق بريطاني، وقد عُنى بالعلوم عند العرب بقوله: «إن علماء أوروبا يصفون (أبا علي) بأنه أرسطو طاليس العرب»، ويقول (وليم أوسلر) عن كتابه (القانون): «إنه كان بمثابة الإنجيل في الطب لمدة تزيد عن سبعة قرون».[3]

---

(1) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عن العرب، ص 403 ـ 404

(2) ابن سينا أبو علي الحسين بن عبد الله: الأرجوزة في الطب.

(3) قدري حافظ طوقان: العلوم عند العرب، ص 164.

أبو القاسم الزهراوي:

حياته ونشأته:

هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (936 – 1013م)، عالِم وطبيب أندلسي، ولد في عام تسعمائة وست وثلاثين ميلادية بضاحية الزهراء بالقرب من قرطبة عاصمة دولة الخلافة الأموية في الأندلس، التي كانت تفخر باحتوائها على خمسين مستشفى، وسبعين مكتبة تذخر بمختلف الكتب في شتى العلوم ويرجع نسبه إلى الأنصار ـ فأصله من المدينة المنورة، ولذلك كان يلقب بالأنصاري ولكنه نسب فيما بعد لمكان ولادته فقيل له (الزهراوي)، ويعتبر أشهر جرّاح عربي مسلم في العصور الوسطى، وهو يسمى في المصادر الأوروبية (أبولكاسس) و(البلكاسس)، و(السروي)، و(أكاراني)، و(الزهراوي)، و(زاهرفيوس)، و(الكارافي)، وقد حوت كتبه ومؤلفاته خبرات الحضارة العربية الإسلامية والحضارات السابقة لها كالحضارة الإغريقية، والرومانية والفارسية من قبله، وعن أخلاقه يقول (الحميدي) الأديب والمؤرخ في كتابه (جذوة المقتبس في أخبار علماء الأندلس) إن (الزهراوي) كان من أهل الفضل والدين والعلم كما ذكر آخرون، أنه كان يخصص نصف نهاره لمعالجة المرضى مجاناً قربة لله عز وجل، وقال عنه (ابن أصيبعه) في شحةٍ بالغة في كتابه (طبقات الأطباء)، فقد ذكر عنه مجرد ثلاثة أسطر بأنه كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة[1]، ووضع قوانين وأُسُس علم الجراحة، وكان من أوائل من استخدموا خيوط الجراحة من أمعاء القطط، ووصف عملية تفتيت الحصاة في المثانة، وكذلك كان أوّل مَنْ وصف عملية القثطرة البولية، وصاحب فكرتها والمبتكر لأدواتها، وبحث في التهاب المفاصل والسل[2]، وهو الذي أجرى عمليات لشقّ القصبة الهوائية، وكذلك لإزالة الغدة الدرقية، ولم يكتف بذلك بل اخترع آلة لصنع الأقراص الدوائية، وسبق (جوتنبرج) باختراعه آلة أخرى لطبع اسم الدواء على الأقراص لمنع اختلاطها، ومن نصائحه العظيمة لتلامذته أن يتمهلوا قبل إجراء أية جراحة، وألاّ يقوموا بها ما لم يكونوا ملمِّين بصغائر الأمور وكبائرها في التشريح واستعمال الأدوات الجراحية، فيقول (الزهراوي) في كتابه (التصريف): «ينبغي لكم أن تعلموا أن العمل باليد (الجراحة) ينقسم قسمين: عمل تصحبه السلامة، وعمل يكون معه العطب في أكثر الحالات، وقد نبهت في كل مكان يأتي من هذا الكتاب على العمل الذي فيه ضرر وخوف، فينبغي أن ترفضوه وتحذروه؛ لئلاّ يجد الجاهل إلى القول والطعن، فخذوا لأنفسكم بالحزم والحيطة، ولمرضاكم بالرفق والتنبيه، واستعملوا الطريق الأفضل المؤدي إلى السلامة والعاقبة المحمودة، وتنكبوا الأمراض الخطرة عسرة البراء، ونزّهُوا أنفسكم عما تخافون أن يدخل عليكم الشبهة في دينكم ودنياكم؛ فهو أبقى لجاهكم وأرفع في الدنيا والآخرة لأقداركم.[3]

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج3، ص246.
(2) راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ص 202.
(3) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية، ص 276.

اشتغاله بالطب:

عندما أصبح الزهراوي يافعاً نهل من العلوم، واستقر به الرأي ليتجه إلى تعلم مهنة الطب، وسرعان ماحصل على إجازته الطبية ليعمل في مستشفى قرطبة الكبير الذي أنشأه (عبد الرحمن الناصر). كان (للزهراوي) نظرة العالم الثاقبة فنجده لايقبل الطرق والوسائل المستخدمة في علاج المرضى على علاتها، بل كان يُعمِل النظر فيها وكان كذلك كثير الاطلاع على علوم من سبقوه من جهابذة الطب في مختلف العصور ومع القراءة المتفرسة وتلك المتابعة الجادة الدؤوبة تكونت شخصيته العلمية، وترسخت آراؤه في المجال الطبي.

تأسيسه لعلم الجراحة:

كان (الزهراوي) شغوفاً بالاشتغال بالجراحة التي كان يسميها «صناعة اليد» إذ كانت من قبل توكل إلى الحلاقين والحجامين، أو «أصحاب الصنعة» كما كانوا يسمون في ذلك العصر الغابر، وينظر إليها الأطباء في ذلك العصر على أنها حرفة لاتليق بهم(1) إذ يتحتم عند الاشتغال بتلك المهنة أن تتلوث أيديهم وملابسهم بما يخرج من الجروح والتقيحات من دم وصديد. وبعد تفكير مضن نجد أن عالمنا الجليل الزهراوي قد استقر عنده بأن يغير هذه النظرة المتعالية تجاه فن جليل من فنون الطب، ويمارس صنوف وأنواع الجراحات ويبرع فيها، بل ويتحمل الانتقادات العنيفة والمتكررة التي وجهت إليه وإلى فكرته العبقرية من قبل زملائه الأطباء. وفي النهاية نجح (الزهراوي) في تثبيت دعائم علم الجراحة، وهو يعد أول من اعتبرها فرعاً من فروع الطب. يقول الدكتور (عبد الرحمن الديب): «إن عظمة الزهراوي تكمن في أنه أول من عني بالجراحة وجعلها فرعاً مستقلاً»، بالإضافة إلى أنه كان يؤيد أيضاً مبدأ التخصص في المجالات الطبية نرى ذلك بوضوح في تقسيمه لكتابه الشهير «التصريف لمن عجز عن التأليف» إلى ثلاثين مقالة أو فصل في مختلف التخصصات الطبية كالجراحة وعلم النساء والتوليد والعيون والأسنان وغيرها. وبلغ من فضله على علم الجراحة أنه لقب بـ«أبي الجراحة».

التعقيم الجراحي:

كان (الزهراوي) يزداد خبرة في عمله كجراح ماهر، لكن العدوى التي كانت تحدث بعد إجراء الجراحة كانت مشكلة ضخمة تؤرق كل العاملين بفن الجراحة، وهنا تتجلى عبقرية (الزهراوي) إذ نجده يعقم آلاته الجراحية بمادة الصفراء، للتأكد من تطهيرها قبل إجراء العملية.

---

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 105، وجلال مظهر :حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، ص 336.

الخيوط الجراحية:

في عصرنا الحديث يعتبر استخدام الخيوط الجراحية من المسلمات، لكن منذ ألف عام خلت كان ذلك يشكل معضلة كبرى فبلاشك كان الجراحون القدامى يفكرون في حل ناجع يساعدهم في رتق الجروح الناشئة عن الإصابات في السلم والحرب، وكذلك بعد الانتهاء من إجراء العمليات الجراحية لابد للجرّاح من أن يغلق مكان القطع ببراعة واقتدار حتى يمنع نفاذ العدوى إلى داخل الجسم، هنا تتجدد إسهامات الجرّاح النابغة من جديد، فنجد أن (الزهراوي) يعتبر من أوَائِلَ من استخدمَ الخيوطَ التي كان يصنعها من أمعاء القطط في خياطة الجروح لايسبقه في ذلك إلا (الرازي)، وقد أتى طبيبنا ذائع الصيت بإسهام آخر لا يقل إبداعاً، فقد كانت الجراحات ولاتزال تترك ندوباً قد تشوه الجسد فتفتق ذهنه اللماع عن فكرة تعتبر سابقة لعصره، فهو أول من مارس التخييط الداخلي بإبرتين وبخيط واحد مُثبّت فيهما؛ كي لا تترك أثراً مرئيًّا للجِرَاح، وقد أطلق على هذا العمل اسم «إلمام الجروح تحت الأدمة». والأدمة هنا تعني السطح الخارجي للجلد.(1)

الآلات الجراحية:

لايتصور الإنسان العمليات الجراحية دون وجود آلات خاصة تقوم بشتى الوظائف من قطع للجلد ونشر للعظام وكي للأوعية الدموية وغيرها، وهنا يأتي دور عالمنا (الزهراوي)، حيث سبق عصره مرة أخرى وترك للبشرية من بعده عدداً كبيراً من الآلات والأدوات الجراحية التي لم يسبقه فيها أحد من قبله، وكانت كل أداة جراحية اخترعها مرفقة بإيضاحات مكتوبة عن طريقة استعمالها. ويفصل هذا الدكتور (محمد مصطفى السمري) في مقال له بقوله «وضمّن كتابه التصريف صوراً عديدة للآلات والأدوات الجراحية التي اخترعها بنفسه، والبالغ عددها مائتي آلة، مثل: جفت الولادة، المنظار المهبلي، المحقن أو الحقنة العادية، مقصلة اللوزتين، الجفت وكلاليب خلع الأسنان، مناشير العظام، آلات الكي على اختلاف أنواعها، ناهيك عن عشرات من المبارد، والجبائر، والمجارد، والمشارط، والمجسات، والقثاطر».

النزيف الجراحي:

كانت المشكلة الرئيسية أثناء العمليات الجراحية هي النزيف، والتي كثيراً ما أدت إلى وفاة المريض لعدم توافر نقل للدم في ذلك العصر، وهنا نجد حلاً عبقرياً يقدمه (الزهراوي) فهو أول من توصل إلى طريقة ناجحة لوقفه بكي الأوعية الدموية، لكن مما يدعو للأسف أنك لو سألت طالب طب عن مبتدع أول طريقة ناجحة لكبح النزف عن الشرايين لرد عليك في الحال إنه الجراح الفرنسي (أمبرواز باريه) كما تذكر ذلك المستشرقة الألمانية الدكتورة زيجريد هونكة في كتابها المتميز «شمس العرب تسطع على الغرب».

(1) شوقي أبو خليل: علماء الأندلس وإبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوروبية، ص35، وزيجريد هونكة (شمس العرب تسطع على الغرب)، ص278.

الزهراوي الجراح:

كانت الجراحة هي الميدان الذي برزت فيه عبقرية (الزهراوي)، لذا نجده قد أسهم باكتشافات هامة ومتنوعة في ذلك المجال نذكر بعضاً منها إذ كان هو أول من وصف عملية استلال (نزع) العروق المنتفخة بالدم من الساق لعلاج دوالي الساق، وعالج أيضاً دوالي الخصية، وكذلك الفتوق وأول من أجرى عملية شق القصبة الهوائية إذ أجراها على خادمه كما وصف تفتيت الحصى بتكسيرها وتفتيتها بطريقة فريدة لم يسبقه أحد إلى معرفتها، وكذلك فإنه تكلم بتفصيل عن الناسور الشرجي وكيفية إجراء الجراحة لاستئصاله(1)، وقام بإجراء تلك العملية الخطرة لإزالة الغدة الدرقية التي كان يسميها قيلة الحلقوم.

أقبل الزهراوي على ممارسة العمليات الجراحية في مختلف الفروع كالمسالك البولية وطب النساء والتوليد، وقد وصفَ علاج الجروح النّاجمة عن قطع سيف أو سِكّين أو طعنة رمح. وتَحدّث عن جراحات الرأس وما يرافقها من كُسور في العظم وتَهتُّك في الأعصاب، وعن جراحات العنق والصّدر والبطن والأمعاء وتكلّم أيضاً عن قطع الأطراف، ونشر العظام، وبتر الأعضاء.

وجدير بالذكر أن (الزهراوي) قد وصف وسيلة تمنع المثقاب من أن يخترق تجويف الجمجمة. وكذلك آلة خاصة لاستئصال الزوائد اللحمية من الأنف، وهو الذي اكتشف الحقنة الشرجية أيضاً واستعملها لحقن الأطفال. وابتكر كذلك آلة خافضة للسان، حيث تستعمل لكبس اللسان أثناء إجراء عملية إزالة اللوزتين(2)، وعن طريق هذه الآلات أجرى (الزهراوي) عمليات جراحية أحجم غيره عن إجرائها، وأبدع منهجاً علميًّا صارماً لممارسة العمل الجراحي، يقوم على التشريح والاطلاع على منجزات من سبقه من الأطباء والاستفادة من خبراتهم، والاعتماد على التجربة والمشاهدة الحسية، والممارسة العملية التي تكسب الجرّاح مهارة وبراعة في العمل باليد ـ أي الجراحة.

إسهاماته في علم الصيدلة:

أدرك (أبو القاسم الزهراوي) أن الطبيب الماهر لابد وأن يكون على دراية وافية ومستفيضة بعلم الصيدلة والأدوية ومركباتها، وكذلك بالأعشاب الطبيعية وخصائصها النافع منها والضار، وفي هذا الصدد يذكر (ابن أبي أصيبعه) عنه في كتابه الفريد ـ (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) ـ «كان الزهراوي طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج وله تصانيف مشهورة»، ويؤكد ذلك أيضاً الدكتور (علي عبد الله الدّفّاع) في كتابه

---

(1) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص 130.

(2) محمود الحاج قاسم: الموجز لما أضافه العرب في الطب، ص 107.

القيم ـ (أعلام العرب والمسلمين في الطب) ـ بقوله: «وقد قضى الزهراوي معظم حياته يمارس مهنة الطب والصيدلة في مدينة الزهراء، ونال شهرة عظيمة في هذا المجال، وقد بحث أيضاً في تحضير بعض العقاقير المعدنية والنباتية والحيوانية».

إسهاماته في صناعة الأدوية:

كان الدواء ومازال يشكل جزءاً هاماً من علاج الأمراض، لكن في ذلك العصر نجد أنه كان من الصعوبة بمكان منع اختلاط الأدوية وسهولة تناول أحد العقاقير بطريق الخطأ التي كانت متشابهة في كونها مساحيق، وأشربة لايُدْرِك الفارق بينها إلا الحاذق من الأطباء والصيادلة، وهنا يأتي دور (الزهراوي) مرة أخرى، فقد ابتكر ولأول مرة في تاريخ الطب والصيدلة وسيلة فعالة في صناعة قوالب للأدوية من الأبنوس أو العاج. في المقالة الثامنة والعشرين من كتابه (التصريف) في الباب الثالث، يصف الزهراوي كيفية صنع الحبوب أو أقراص الدواء، وكذلك طريقة لصنع القالب الذي تُصَبُّ فيه هذه الأقراص أو تُحَضَّر، مع طبع أسمائها عليها في الوقت نفسه باستخدام لوح من الأبنوس أو العاج مشقوق نصفين طولاً وينقش على قعر أحد الوجهين اسم القرص المراد صنعه، مطبوعاً بشكل معكوس، فيكون النقش صحيحاً عند خروج الأقراص من قالبها؛ وذلك منعًا للغش في الأدوية، وإخضاعها للرقابة الطبية، وفي ذلك الصدد يذكر (شوقي أبو خليل): «ولا ريب أن ذلك يعطي الزهراوي حقًّا حضاريًّا لكي يكون المؤسِّس والرائد الأول لصناعة الطباعة، وصناعة أقراص الدواء؛ حيث اسم الدواء على كل قرص منها، هاتان الصناعتان اللتان لا غنى عنهما في كل المؤسسات الدوائية العالمية، ومع هذا فقد اغتُصِب هذا الحق وغفل عنه كثير»(1).

إسهاماته في علم التشريح:

اليوم نجد أن الطبيب لابد وأن يكون قد درس علم التشريح حتى يكون على دراية بأجهزة الجسم البشري وأعضائه المختلفة، لكن في زمن (الزهراوي) كان ذلك العلم يعتبر من المحرمات لأسباب اجتماعية متوارثة، وكذلك لفهم خاطئ لبعض النصوص الدينية التي تتعلق بحرمة جسد الميت، وهنا يبرز دور (الزهراوي) حيث نجده قد ألحّ على مباشرة التّشريح على أنّه ضَرورةٌ لتعلُّم فنون الجراحة، وأشارَ إلى أهمّية دراسته، ونصحَ بمزاولته لمن يرغب في التّعامُل مع الجراحة في هذا الصدد وخاصة عندما تكلم عن حصاة المثانة، يذكر (الدكتور أمين خير الله) في كتابه الطبّ العربي: «ومن يطالع كتابَه التصريف لا يتمالك نفسَه عن الاعتقاد بأنّه قد شرّح الجثثَ هو بنفسه، لأنّ وصفَه الدّقيق لإجراء العمليات المختلفة لا يمكن أن يكونَ نتيجة للعمليّات فقط»(2).

(1) شوقي أبو خليل: علماء الأندلس وإبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوروبية، ص 32 ـ 33.
(2) أمين خير الله: الطب العربي، ص 174.

إسهاماته الطبية المتعددة:

لم يهتم العلامة (الزهراوي) بعلم الجراحة فقط بل امتد هذا الاهتمام فشمل صنوفاً كثيرة من فنون الطب في عصره منها على سبيل المثال لا الحصر طب النساء والولادة والمسالك البولية، وطب العظام والتجبير وعلاج الكسور وأمراض الأسنان وتقويمها، واللثة، واللسان وعلم الأورام حيث شخص وعالج أنواعاً من السرطانات المختلفة، وأيضاً أمراض الدم، حيث إنه أول من شخص الهيموفيليا أو الناعور، وهو ذلك المرض الوراثي الذي تزداد فيه القابلية للنزف، وقدم وصفاً واضحاً للعلاقة بين استعداد بعض الأجسام للنزيف وبين الوراثة، وكذلك عالج بعض حالات الشلل واهتم بأمراض العين، والأذن، والحنجرة وسوف يتم تفصيل ذلك كل في حينه.

إسهاماته في طب المسالك البولية:

كان لعلم المسالك البولية اهتمام خاص لدى (الزهراوي)، فإنه يعدّ أول من وصف عملية القثطرة. وابتكر الزهراوي أيضاً آلة دقيقة جداً لمعالجة انسداد فتحة البول الخارجية عند الأطفال حديثي الولادة؛ لتسهيل مرور البول. وهو أول من وصف طريقة تفتيت حصيات مجرى البول وابتكر طريقة استخراج حصى المثانة عبر المهبل عند النساء.

إسهاماته في طب النساء والتوليد:

أما في علم النساء والتوليد نجد أن (للزهرواي) صولات وجولات، ويعتبر ما كتبه في التوليد والجراحة النسائية كنزاً ثميناً في علم الطب، حيث يصف طرق التوليد، وطرق تدبير الولادات العسيرة، وكيفية إخراج المشيمة الملتصقة والحمل خارج الرحم وطرق علاج الإجهاض، وابتكر آلة خاصة لاستخراج الجنين الميت، وسبق (د/ فالشر) بنحو 900 سنة في وصف ومعالجة الولادة الحوضية، وهو أول من استعمل آلات خاصة لتوسيع عنق الرحم، وقد ابتكر كذلك منظاراً خاصًّا لفحص المهبل سماه لولباً لا يزال يستعمل إلى يومنا هذا[(1)] ويُروى أنّ الزّهراوي كان يقفَ خلفَ ستارٍ خفيف، ويُعطي إرشاداتِه المناسبةَ للقابلات في تدبير حالات الولادة العَسيرة.

تكلّم (الزّهراويُّ) عن الأوجاع التي تحدثُ قبلَ حُدوث الطّمث بيومين أو ثلاثة: «وقد تَعتَري بعضُ النِّساء قبل مَجيء الطّمث أوجاعٌ في السرّة وكسلٌ وثِقَل في البدن، ويقلُّ الوجع

(1) أمين أسعد: الطب العربي، ص 157.

حتّى ينطلق الطمثُ ويذهب الوَجع»[1]، كما كان يدرس للقابلات عملية التّوليد وأول من وصف وضع (د/فالشر) للولادة، وذكر أيضاً الولادة الطبيعية بنزول رأس الوليد أولاً وغيرها من الولادات غير الطبيعية في قوله: «ينبغّي للقابلة أن تعرفَ أوّلاً شكلَ الولادة الطبيعية ... فاعلمْ أنّ هذه الولادةَ تكون على الشّكل الطّبيعي، ويكون خروجُه على رأسه والمشيمةُ معه أو معلّقةً من سرته ... وما خلا هذه الولادة فهي غيرُ طبيعيّة مذمومة، لأنّه قد يخرج الجنينُ على رجليه ويُخرِجِ يَديه قبلَ رأسه ورجلَيه، ويدَه الواحدة أو رجلَه الواحدة، أو يُخرِج رأسَه ويده أو يَخرُجِ منطوياً وربّما انقلبَ على قفاه، ونحو ذلك من الأشكال المذمومة، فينبغي للقابلة أن تكونَ حاذقةً لطيفةً بهذه الأشياء كلّها، وتحذر الزّلَل والخطأَ، وأنا مُبيِّنٌ كلّ شكل منها وكيف الحيلة فيه لتستدلّ بذلك وتقفَ عليه».

إسهاماته في طب الفم والأسنان:

لم ينس (الزهراوي) علم جراحة الفم والأسنان فقد نجح في علاج تشوهات الفكين وفي تقويم الأسنان باستخدام آلات جراحية ابتكرها خصيصاً، وهو أول من استخدم جسور الأسنان الذهبية والفضية[2] وأدوات ضغط الأسنان وتكلم كذلك في المقالة الحادية والثلاثين عن قلع ضروس الأسنان وإخراج عظام الفك المكسورة.

إسهاماته في علم الأعصاب:

أما إسهام الزهراوي في علم الأعصاب فكان مميزاً، إذ يقول عن السكتة المخية أو الفالجُ (الشلل) العَظيم كما كان يسميه: «وتكون على ثلاثة ضُروب: إمّا أن تكونَ قويةً مزمنة فلا يُبرأ منها، وإمّا أن تكونَ ضعيفةً فيُبرأ منها وذلك في النّدرة، وإمّا أن تكونَ قويةً جداً فتَقتل سريعاً؛ وعلامةُ السّكتة القوية هو أن تنقطع فيها الأفعالُ المدبّرة الثّلاثة: التخيُّل والفكر، والذكر، والحسُّ، والحركة من جميع الأعضاء، وجفون النّفس، والزّبد. ومقدّماتُ السكتةِ الصُّداعُ الشديد الذي يعرض بغتةً، وانتفاخ الأوداج، ودُوار وشعاعات بتخيُّل للبصر، وبردُ الأطراف من غير برد الهواء، واختلاج في البدن، وعُسر في الحركة، واصطكاك الأسنان في النوم، والنسيان والبلادة».

إسهاماته في علاج مرض السرطان:

السرطان مرض خبيث يدمر الجسم عن طريق التكاثر السريع للخلايا كان ولا يزال لغزاً بالنسبة للأطباء والعلماء في مختلف العصور، والذي اعتقد الناس بأن اكتشافه حديث العهد، فنجد أن القراءة المتأنية لما ماكتبه (الزّهراوي) عن السّرطان في المقالة الأولى من كتاب

(1) أبو القاسم الزهراوي: التصريف لمن عجز عن التأليف ج1، ص 90.
(2) محمد كامل: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص 205.

(التصريف) تدحض ذلك الاعتقاد[1] إذ يتحدّث فيقول: «السّرطان إنّما سُمّيَ سرطاناً لشَبهه بالسرطان البحري، وهو على ضربين: مبتدئ من ذاته، أو ناشئ عقب أورام، وهو إذا تكامل فلا علاجَ له ولا بُرءَ منه بدواء البتّة إلاّ بعمل اليد «الجراحة أو الكي»، وإذا كان في عضو يمكن استئصالُه فيه كله بالقطع... والسّرطان يبتدئ مثل الباقّلاء، ثمّ يتزايد مع الأيام حتّى يعظمَ وتشتدُّ صلابته، ويصير له في الجسد أصلٌ كبير مستديرٌ كَمَدُ (متغيّر) اللون، تَضرب فيه عروقٌ خُضر وسُود إلى جهةٍ منه، وتكون فيه حرارة يسيرة عندَ اللّمس». وأيضاً يقول (الزهراوي): «متى كان السرطان في موضع يمكن استئصاله كله كالسرطان الذي يكون في الثدي أو في الفخذ ونحوهما من الأعضاء المتمكنة لإخراجه بجملته، إذا كان مبتدءاً صغيراً فافعل. أما متى تقدم فلا ينبغي أن تقربه فإني ما استطعت أن أبرئ منه أحداً. ولا رأيت قبلي غيري وصل إلى ذلك».

مؤلفاته:

كانت إنجازات الزهراوي المتميزة سبباً لأن يختاره الأمير (عبد الرحمن الثّالث) المعروف بالنّاصر كي يكون طبيبه الخاص، ثمّ أصبح بعد ذلك طبيب ابنِه (الحكم الثاني المستنصِر). اهتم (أبو القاسم الزهراوي) بنقل خبرته الواسعة إلى زملائه من الأطباء فنجده قد حرص على إدراج كل قام به من إنجازات واختراعات في كتب أصبحت مراجع للعديد من الأطباء في مختلف الدول وعبر خمسة قرون متتالية، ولم تطمس السنون ولا الأيام آثار هذا العالم الفذّ؛ حيث ترك مفخرته الطبية الضخمة «التصريف»، التي كان من بينها مبحثه في المقالة الثلاثين التي أرسى فيها أسس علم الجراحة، بما فيه من أدوات وآلات الجراحة العجيبة بمقياس عصره، وهي موسوعة كثيرة الفائدة، تامة في معناها، لم يؤلّف في الطب أجمع منها ولا أحسن للقول والعمل، وتعتبر من أعظم مؤلفات المسلمين الطبية، وقد وصفها البعض بأنها دائرة معارف، ووصفها آخرون بأنها ملحمة كاملة وليس من الغريب أن تصبح هذه الموسوعة المصدر الأساسي لجراحي الغرب حتى القرن السابع عشر، وتظل المرجع الكبير لدارسي الطب في جامعات أوروبا، مثل جامعة (سالرنو ومونبليه) في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ولم يكتف (الزهراوي) بذلك بل قام بتأليف العديد من الكتب الأخرى نذكر منها: (المقالة في عمل اليد)، و(مختصر المفردات وخواصها)، وكتاب (تفسير الأكيال والأوزان) وأيضاً كتابه الكبير المسمى (بالزهراوي). وقد أورد ذكره (ابن أبي أصيبعه)، وقال: «وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوي».[2]

---

(1) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية، ص 246.

(2) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج3، ص246.

وفاته:

وتمر الأعوام ولايزال هذا الطبيب العلامة يعطي لتلامذته ومرضاه الكثير حتى وافته المنية في مدينة الزهراء في عام (1013م) وقيل (1036م)[1] بعد أن قدم إسهامات لا مثيل لها في مختلف التخصصات الطبية، وسبق عصره في تشخيص وعلاج الكثير من معضلات الطب والجراحة وقام باختراع العديد من الآلات الطبية التي لاتزال تستعمل حتى اليوم.

ابن أبي أصيبعه:

هو أحمد بن سديد الدين أبو العباس بن أبي أصيبعه، الذي أخذ اسمه من جده الذي كان يعمل ببلاط صلاح الدين الأيوبي، وقد اشتهر بالطب، ولد بدمشق سنة (1200م)، وتوفي سنة (1270م) في صرخد في جنوب سورية[2] وهو فرد في عائلة اشتهرت بممارسة مهنة الطب والعلاج، وقد تعلم الطب عن والده الذي كان طبيباً يعالج الرمد في دمشق، وقد اشتهر ابن أبي أصيبعه بكتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) الذي يعتبر من أمهات المصادر لدراسة تاريخ الطب عند العرب[3]، وقد وضع (ابن أبي أصيبعه) هذا المؤلف بناء على طلب الوزير (أبي الحسن أمين الدولة بن غزال السامري) وزير الملك (الصالح بن الملك العادل)، وانتهى منه قبل وفاته بسنة واحدة.

وقد قسم (ابن أبي أصيبعه) كتابه إلى عدة أقسام بدأ فيها بالحديث عن مكانة الطب بين العلوم والصناعات المختلفة، ثم ذكر تاريخ نشأة صناعة الطب وأول حدوثها، ثم عن طبقات الأطباء القدامى الذين كانت لهم مصنفات في علم الطب، فتحدّث فيها عن أطباء اليونان، ثم ذكر الأطباء في البلاد الإسلامية، وقسمهم حسب أقاليم الدولة الإسلامية الشرقية والغربية. وله كذلك كتاب (حكايات الأطباء في علاجات الأدواء)، وكتاب (إصابات المنجمين)، وأيضاً كتاب (التجارب والفوائد) الذي ذكر فقط في كتاباته، وقد درس العلوم والطب في دمشق من الناحيتين الأكاديمية والإكلينيكية، وطبق ماتعلمه في البيمارستان النوري، وكان من أساتذته الطبيب الدمشقي (ابن الدخوار) توفي عام (1230م)، وكذلك استقى معلوماته عن الأدوية من (ابن البيطار)، ومؤلف كتاب (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية)، وقد عمل أيضاً في البيمارستان الناصري بالقاهرة فاشتغل بأعمال الكحالة أو طب العيون، وفيه تعلم على يد (السديد بن أبي البيان)، الطبيب الكحال، ومؤلف كتاب الأقراباذين المعروف باسم (الدستور البيمارستاني)، والتقى فيه بزميله (أبي الحسن بن النفيس) عام (1288م)، مكتشف الدورة الدموية الصغرى وانتظم في خدمة الدولة الأيوبية، وقد ارتحل إلى العديد من المدن والبلاد

(1) خير الدين الزركلي: الأعلام ج2، ص 310.

(2) نفس المصدر ج1، ص 197.

(3) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية، ص 435.

حتى استقر به الحال في (صرخد) إحدى مدن جبل حوران بعد أن دعاه إليها أميرها (عز الدين أيدمر)، وعاش هناك حتى توفي سنة (1270م).

ابن رضوان المصري:

هو أبو الحسن بن رضوان بن علي بن جعفر، وقد وُلِدَ بالجيزة في مصر، وبها تعلم حتى برز نبوغه وقد عمل كرئيس الأطباء في مصر[1] إلى أن توفي في عام (453هـ/1061م)، وقد امتهن عدّة مهن كالطب والتدريس ليعول نفسه، وقد نبغ في الطب في عمر مبكر حتى أصبح دخله من الطب يكفيه. وقد عاصر (ابن رضوان) حكم الدولة (الفاطمية)، وبلغت شهرته البلاط حتى عينه الحاكم بأمر الله رئيساً للأطباء، وقد صنف كتاباً قال فيه: إن التعلم من الكتب أفضل من التعلم من الشيوخ، وقد كانت (لابن رضوان) طريقة مميزة في الكشف الإكلينيكي على المريض لا تختلف كثيراً عن الطريقة المعاصرة، وقد ترك العديد من المؤلفات والمصنفات الطبية منها شروح لكتب (جالينوس) الطبيب الروماني، وهي شرح كتاب (النبض الصغير) وشرح كتاب (الفرق) وشرح كتاب (الصناعة الصغيرة)، وشرح كتاب (الأسطقسات) وشرح بعض من كتاب (المزاج)، وكذلك شرح كتاب جالينوس إلى أغلوقن في التأني لشفاء الأمراض، وله كتاب (الأصول في الطب)، وكلام في الأدوية المسهلة، وكتاب لعمل الأشربة والمعالجين، وقد فسر ناموس الطب لأبقراط، ووصيته المعروفة بترتيب الطب، يقول عن نفسه: «أتصرّف في كل يوم في صناعتي بمقدار ما يُغني، ومن الرياضة التي تحفظ صحة البدن، وأغتذي بعد الاستراحة من الرياضة غذاء أقصد به حفظ الصحة، وأجتهد في التواضع والمداراة وغياث الملهوف، وأنفق على صحة بدني، وعمارة منزلي نفقة لا تبلغ التبذير، ولا تنحط إلى التقتير، وأتفقد آلات منزلي فما يحتاج إلى إصلاح أصلحته، وأُعِدُّ في منزلي ما يحتاج إليه من الطعام والشراب والثياب، فما فضل بعد ذلك له أنفقته في وجوه الخير، وأُنَظِّف وأُزَيِّن ثيابي، وأَلْزَم الصمت وكفّ اللسان عن معايب الناس».[2]

قال عنه (ابن تغري بردي): «كان من كبار الفلاسفة في الإسلام...كان إماماً في الطب والحكمة، كثير الردِّ على أرباب فَنّه»، وشهد ابنِ أبي أصيبعه (لابن رضوان) بالتفوق عندما ذكر: «وكان ابن بطلان أعذب ألفاظا، وأكثر ظرفاً، وأميز في الأدب... وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها، وذكر (الذهبي): «أنه صاحب المصنّفات، من كبار الفلاسفة الإسلاميين الفيلسوف الباهر.... واشتغل في الطب، ففاق فيه، وأحكم الفلسفة ومذهب الأوائل وضلالهم...»، صنّف كتاباً في تحصيل الصناعة من الكتب، وأنها أوفق من المعلمين أما ابن العماد الحنبلي فيقول: «الفيلسوف صاحب التصانيف كان رأساً في الطب».

---

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج3، ص411.
(2) نفس المصدر، ص 403.

ابن زُهر الأندلسي:

هو (أبو مروان عبد الملك بن زهر بن عبد الملك بن مروان)، ويعرف (بابن زهر الإشبيلي الإيادي) (1072–1162م)، وهو سليل مروان أسرة أندلسية شهيرة قد أسهمت في العديد من ميادين المعرفة كالطب والعلوم الطبيعية والكيميائية وحتى العلوم الشرعية الإسلامية؛ وكان جدُّه محمد بن مروان بن زهر توفي عام (1031م) الذي تخصص في علوم الفقه، وتبعه أبو مروان عبد الملك بن محمد بن زهر، الذي أصبح أول فرد في تلك العائلة الطبية التي استمرت لأجيال يخصص وقته للطب[1]، وقد سافر إلى القيروان في طلب العلم، ثم إلى القاهرة فنال شهرة واسعة هناك في مجال الطب، وأخيراً عاد إلى إشبيلية حتى توفي سنة (1078م)، وجاء من بعده ابنه واسمه (زهر بن عبد الملك بن محمد بن زهر)، الملقب (بأبي العلاء)، وقد اشتهر في الطب مثل أبيه ونتيجة لنبوغه فقد طلبه الأمير (يوسف بن تاشفين) أمير المرابطين، ليشرف على صحته، وقد استقر في بلاد الأندلس، توفي سنة (1131م)، وكان من كتبه: كتاب (الخواص)، وكتاب (مجريات الطب)، وكتاب (التذكرة)، وكتاب (الأدوية المفردة)، وكتاب (النكت)، ثم جاء إن ابنه (مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر) لم يكتف بما حصل عليه من علوم طبية في المغرب الإسلامي فرحل إلى الشرق، وتعاطى علم الطب ثم عاد إلى الأندلس واتجه إلى مدينة «دانية»، وقد اشتهر (ابن زهر) بإتقانه صناعة الطب، فشاع صيته إلى كل بلاد الأندلس. حيث انتقل من مدينة دانية إلى إشبيلية، وظل فيها حتى وافته المنية، ويعتبر من أوائل الأطباء الذين بينوا قيمة العسل في الدواء والغذاء وهو أول من استعمل الحقن للتغذية الصناعية.

و(ابن زهر) من أوائل الأطباء الذين اهتموا بدراسة الأمراض الموجودة في بيئة معينة[2] وقد وضع كذلك العديد من المؤلفات الطبية منها كتاب (التيسير في المداواة والتدبير)، وهو بمثابة موسوعة طبية كاملة، وكذلك كتاب (الأغذية) وكتاب (الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد) وتذكرة في أمر الدواء المسهل وكيفية أخذه، ومقالة في علل الكلى، وأخيراً رسالة في علتي البرص والبهق، وقد اعتمد (ابن زهر) على التجربة والتدقيق العلمي، مما أدى إلى نبوغه وقد وصف (ابن زهر) مختلف الأمراض الباطنية والجلدية، بالإضافة إلى أمراض الجراحة وقد ذكر قروح الرأس وأمراضه، وأمراض الأنف والأذن، وكذلك الفم، والشفتين، والأسنان، والعيون، وأمراض الرقبة، والرئة، والقلب، وقد وصف بعض أنواع الحمى، وكذلك الأمراض الوبائية، وأسهب في ذكر الفرق بين التهاب غشاء القلب والتهاب الرئة.

الكندي:

هو (أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي)، الطبيب الفلكي، فيلسوف العرب[3] له العديد من المؤلفات في الطب، والحساب والنجوم والفلك، ولد في مدينة الكوفة سنة (805م)،

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 278 - 291.
(2) راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ص 240.
(3) ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، ص73 - 74.

وتوفي في بغداد سنة (873م)، ونشأ بالبصرة، ثم انتقل إلى عاصمة الخلافة العباسية مدينة بغداد،[1] وقد تلقى تعليمه في كلٍّ من المدينتين، وفي بغداد ظهر نبوغه واتصل بخلفاء بني العباس (المأمون) و(المعتصم وابنه أحمد المتوكل)، وقد قام بعمل الطبيب وكذلك ديوان الخراج في قصر الخلافة، وللكندي باع طويل في علم الترجمة؛ حيث ترجم كلاً من كتاب (المجسطي) لبطليموس، وكتاب (الأدوية المفردة) لجالينوس، ولم يكتفِ الكندي بالترجمة، بل اتجه إلى وضع المؤلفات الطبية التي بلغت أكثر من عشرين مؤلفاً أهمها كتاب (الطب البقراطي)، ورسالة في الغذاء والدواء المهلك، ورسالة في الأبخرة المصلحة للجو من الأوبئة، ورسالة في الأدوية المشفية من الروائح المؤذية، ورسالة في كيفية إسهال الأدوية وانجذاب الأخلاط، ورسالة في علم نفث الدم، وفي تدبير الأصحاء، وفي كيفية الدماغ، وفي علة الجذام وأشفيته، وفي وجع المعدة والنقرس، وفي علاج الطحال، وفي الحيلة لدفع الأحزان، ورسالة في الإبانة عن منفعة الطب، وقد ذكره (ابن أبي أصيبعه) في كتابه (طبقات الأطباء)، ونقلت عنه بعض وصاياه لتلامذته: «وليتق الله تعالى المتطبب ولا يخاطر، فليس عن الأنفس عوض». وقد قال أيضاً عن الطبيب: «إنه يحب أن يقال له كان سبب عافية العليل، لكن فليحذر أن يقال إنه كان سبب تلفه وموته». وقال كذلك: «العاقل يظن أن فوق علمه علماً، فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة؛ والجاهل يظن أنه قد تناهى، فتمقته النفوس لذلك»، ومن أقوال الكندي المأثورة عنه: «اعتزل الشرّ؛ فإن الشرّ للشرير خلق واعص الهوى، وأطع من شئت، ولا تغتر بمال وإن كثر ولا تطلب حاجة إلى الكذوب؛ فإنه يبعدها وهي قريبة».[2]

ابن النفيس:

هو (أبو الحسن علاء الدين علي بن أبي الحزم القَرشي الدمشقي) (1213 - 1288م)[3] هو طبيب عربي مسلم له العديد من الإسهامات في علوم الطب، ولد بمدينة دمشق، وفيها درس الطب، تعلم في البيمارستان النوري بها، وقد كان معاصراً (لابن أبي أصيبعه) صاحب كتاب (طبقات الأطباء)، وقد درس العلوم الطبية على يد (ابن الدخوار) (1170–1230م)، والذي كان رئيساً للبيمارستان النوري وله (مختصر الحاوي) في الطب للرازي، وعندما بلغ (ابن النفيس) العشرينيات من عمره سافر إلى القاهرة، وتعلم هناك وعمل في المستشفى الناصري، ثم البيمارستان المنصوري، وقد أصبح طبيب (الظاهر بيبرس) الخاص ما بين عام (1260 و1270م)، ثم أصبح رئيساً لأطباء مصر نتيجة لنبوغه العلمي، وأقام بها حتى وافته المنية، ويعتبر أوّل من وصف وشرح دورةَ الدّمِ بين القلب والرئتين، وكذلك الشريان التاجي[4] ذلك

(1) ابن النديم: الفهرست ج1، ص 255 - 261.
(2) راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية في الإسلام، ص 243.
(3) خير الدين الزركلي: الأعلام ج4، ص271.
(4)علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية، ص451.

من خلال شرحه لجزء التشريح من كتاب (القانون) (لابن سينا) في عام (1242م)، ثم وصف الدورة الدموية كاملةً في ثنايا مؤلفاته الأخرى، ومنها كتاب (الشامل في الصناعة الطبية) الذي أخرج منها (80) جزءاً فقط من (300) مجلد، ويعتبر أضخم موسوعة طبية وضعها طبيب واحد في التاريخ الإنساني، وهي تعتبر الصياغة النهائية والمكتملة للطب والصيدلة في الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، وقد حل في النهاية محل كتاب (القانون)، مما دعا بعض المؤرخين يصفونه (بابن سينا الثاني)، و(لابن النفيس) نظرياتٌ في مجال البصريات وعلم الأدوية، وآراءٌ غير مسبوقة في ميدان اللغة والنحو، من أهم مؤلفاته كتاب (الموجز في الطبّ) و(المهذب في الكحل) و(تفسير العلل) و(أسباب الأمراض وشرح الهداية في الطب)، وكذلك شرح (مسائل حنين ابن إسحاق)، وكتاب (شرح فصول أبقراط) حيث نقد بشجاعة بعض آراء ذلك العالم اليوناني.

شهادات غير العرب على عظمة الأطباء العرب:

جذبت أنوار الحضارة العربية أنظار العديد من المستشرقين والعلماء من عدة دول غربية درسوا تأثير الطب العربي على نظيره في العالم الغربي، ونجد أن العديد منهم قد أسهب في وصف ذلك الأثر، نذكر بعضاً من أقوالهم المنصفة بعد ما قضوا سنوات طويلة في الفحص والدراسة العميقة القائمة على منهج علمي صحيح.

(لوي بيير أوجين سيديو)، هو مستشرق فرنسي ومؤرخ للعلوم والرياضيات وقد كان يعمل كأستاذ للتاريخ في كلية (سان لويس) ولد في باريس عام (1808م)، وتوفي عام (1875م) وله كتاب (تاريخ العرب) ألفه عام (1854م)، الذي ترجمه عادل زعيتر عام (1948م)، يقول (سيديو) «كان أطباء العرب من الرجال الممتازين على الدوام[1].... وذاع صيت عدد من الأطباء ومن هؤلاء نذكر بختيشوع بن جبرائيل الذي اشتهر بمداواته العجيبة، غير أنه لا أحد يعدل الرازي وابن سينا اللذين سيطرا بكتبهما على مدارسنا زمنًا طويلاً»، أما (ماكس مايرهوف) (1874 – 1945م)، وهو طبيب ومستشرق ألماني، ولد في مدينة هلدسهيم الألمانية، وتوفي بالقاهرة، ومن آثاره نشر «الأسماء الطبية» لجالينوس بالعربية، يقول مايرهوف: «راحت العلوم ولا سيما الطب، تنتقل بسرعة من أيدي النصارى والصابئة إلى أيدي المسلمين ومعظمهم من سكنة بلاد فارس، ففي الطب صرنا نجد عوضاً عن المجموعات المأخوذة من المصادر العتيقة، موسوعات منتظمة صنفت فيها معارف الأجيال السابقة تصنيفاً دقيقاً ووضعت مقابل المعلومات الجديدة».[2]

وهناك أيضاً (دومينيك سورديل)، وهو مستشرق فرنسي تخصص في الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى، له كتاب (الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي)، وهو يذكر في كتابه: «وفي الطب اشتهر العلماء العرب بمراقبتهم الإكلينيكية وبعلمهم المنهجي،

(1) إيميل سيديو: تاريخ العرب العام، ص 384 – 385.

(2) راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ص 200.

وكان (الرازي) وهو من أكبر الأطباء المسلمين والمقيم في الري، ثم في بغداد أحد المتمرسين النابهين ودقيقي الملاحظة، وقد ترك نوعين من الأعمال: أبحاثاً علمية أشهرها يدور حول الجدري، وموسوعة كبرى حول المعارف الطبية هي كتاب (الحاوي)، الذي حل محله (القانون) لابن سينا، وعرف العرب الجراح الشهير (الزهراوي)، وعلماء مثل (ابن زهر) و(ابن رشد) و(ابن ميمون اليهودي) الذين أفادت المسيحية من مصنفاتهم وعلومهم»، ومنهم أيضاً (وليام مونتغمري واط) (1909 - 2006م)، وهو مستشرق بريطاني، وعمل أستاذاً للغة العربية والدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامي بجامعة إدنبرة بأدنبرة وأسكتلندا، ومن أشهر كتبه كتاب (محمد في مكة) عام (1953م)، وكتاب (محمد في المدينة) عام (1956م)، وكذلك (فضل الإسلام على الحضارة الغربية)، فنجده يقول: «لم يكن غريباً أن نجد رجالاً عظيمي الكفاءة في أكثر من ميدان واحد، (فابن سينا) الذي ربما كان أعظم فلاسفة المسلمين، كان أيضاً طبيباً عظيماً، وأن (ابن رشد)، وهو في مصاف (ابن سينا) في الفلسفة، كان يعمل في نفس الوقت قاضياً، ويكتب عدداً من الكتب في الطب».

كانت أفضل من مدح الحضارة العربية وعلومها الطبية زيجريد هونكة، وهي مستشرقة ألمانية (1913-1999م)، حصلت على شهادة الدكتوراه عام (1941م) معروفة بكتاباتها في مجال الدراسات الدينية، وأشهر كتبها انتشاراً (شمس العرب تسطع على الغرب)، وتتحدث (زيجريد هونكة) عن (الرازي) قائلة: «هذا الطبيب العظيم بنظرته الفاحصة كان إنساناً كبير القلب وطبيباً إنسانياً إلى أقصى الدرجات. وقد كان سباقاً في إنسانيته القصوى تلك، كما كان سباقاً في كثير من الاكتشافات العلمية، وتعدى الآفاق الخلقية التي وصل إليها الطب لدى الإغريق»[1]. وشاركهم في معرفة فضل حضارة العرب المستشرق الفرنسي (جوستاف لوبون) (1841-1931)، هو طبيب ومؤرخ فرنسي[2] الذي عني بالحضارة الشرقية، ومن أشهر آثاره: (حضارة العرب وحضارات الهند) و(حضارة العرب في الأندلس)، ونجده يقول: «يعد الطب أهم العلوم التي عُني بها العرب، وأتم العرب أعظم اكتشافاتهم في هذه العلوم، وترجمت مؤلفات العرب الطبية في جميع أوروبا، ولم يتلف قسم كبير منها كما أصاب كتبهم الأخرى»، ويقول (ألفريد جيوم) وهو مستشرق بريطاني (1888 - 1966م)، شارك في تأليف كتاب (تراث الإسلام)، و(أثر اليهودية في الإسلام)، ويذكر جيوم: «أن سالرنو بوصفها جامعة طبية، فيها نفوذ عظيم للطب العربي، إن لم يكن تأثير ابتداعي خلاق فهو على أقل تقدير تغذية وإدامة». أما السير (ويليام أوسلر) (1849-1919م)، وهو طبيب كندي[3] يعتبر واحداً من أعظم رموز الطب في العصر الحديث، ولقد وُصف بأنه أبو الطب الحديث، وكان

(1) زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص 253.

(2) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص 488.

(3) راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ص 104.

(أوسلر) ـ بجانب كونه طبيب اختصاصي علم الأمراض ـ معلم ومُشخص أمراض ومثقف ومؤرخ وكاتب، ومحاور، ونراه يتكلم عن (ابن سينا)، وكتابه (القانون) مايثلج الصدور يقول «لقد عاش كتاب (القانون) مدة أطول من أي كتاب آخر كمرجع أوحد في الطب، ولقد وصل عدد طبعاته إلى 15 طبعة في السنوات الثلاثين الأخيرة من القرن الخامس عشر. إن (ابن سينا) مكن علماء الغرب من الشروع بالثورة العلميّة في مجال الطب التي بدأت فعلاً في القرن الثالث عشر، وبلغت مرحلتها الأساسية في القرن السابع عشر».

أما المستشرق الألماني (بيتر بورمان) فيقول: «إن إنجازات العرب المسلمين في العالم واضحة جليّة في كل شؤون العلوم والثقافة، بل إن إنجازاتهم في مجال الطب لا يستطيع أحد إنكارها، وهذا هو ما دفعني إلى تأليف كتاب بعنوان (الطب الإسلامي في القرون الوسطى). وقال: «دفعني لتأليف هذا الكتاب أنني كمسيحي ألماني أدين بالفضل في جزء من ثقافتي للثقافة الإسلامية، وهذا ما أحاول توضيحه وتأكيده رغم محاولات البعض طمس الدور المهم الذي لعبه المسلمون في أوروبا والعالم، ولقد عكفت أنا وزميلتي الباحثة (إيميلي سافاج سميث) على رصد إنجازات المسلمين في مجال الطب في القرون الوسطى. إن المستشفيات الإسلامية كانت عبارة عن أوقاف إسلامية، وكانت تقدم الخدمة الطبية لكل الناس بصرف النظر عن ديانتهم، فهناك اليهود والمسيحيون والصابئة والزرادشتيون وغيرهم، فكان المستشفى الإسلامي يعالج الجميع، وهذا يعني تسامحًا إسلاميًا كبيراً مع غير المسلمين».. وعن أهم الأمراض التي أسهم فيها المسلمون بعلم جديد، قال: «الكثير من الأمراض، إلا أن أخطرها هو مرض المالنخوليا»، ويقول أخيراً المستشرق (هوارد، تيرنر)، وهو أستاذ بجامعة تكساس الأمريكية الذي وضع كتاب (العلوم عند المسلمين)[1] ـ مقدمة مصورة ـ يقول «استخدم المسلمون عبقريتهم التنظيمية إلى جانب مهاراتهم الخاصة في مجال العلاج والجراحة بنجاح متميز في إنشاء مستشفيات عظمى في المدن الكبرى في العالم الإسلامي في العصور الوسطى. وقد تفوقت هذه المؤسسات الطبية سواء في حجمها أو في خبرتها المهنية على كل المؤسسات الطبية المعروفة في الأزمنة القديمة، وكذلك الموجودة خارج البلاد الإسلامية بشكل هائل».

(1) هوارد تيرنر: العلوم عند المسلمين، ص 167.

الفصل الثالث

البيمارستانات أو المستشفيات

أماكن العلاج في الحضارات القديمة:

في الثقافات القديمة، كانت ممارسة المهنة الطبية والعلاج مرتبطة بالدين، وكذلك بالسحر، لذا فإن الباحث عن تاريخ أماكن العلاج هذه لابد من أن يوجه بصره نحو المعابد القديمة التي كان الكهان في تلك العصور القديمة يقومون بمهام الأطباء، ولم تشذ حضارة من الحضارات البشرية عن ذلك المفهوم، وكانت أول المؤسسات الموثقة التي تهدف إلى توفير العلاج للمرضى هي المعابد المصرية التي برع فيها العديد من الأطباء الكهنة[1] الذين مارسوا فيها فنون العلاج لمختلف أنواع الأمراض المعروفة في ذلك الزمن الباكر، وخاصة في معبدي (ايمحوتب) الذي عبده المصريون القدماء كإله للطب وإيزيس التي كانت راعية الأطباء في ذلك العصر، والمعروف عن أطباء مصر كما ذكر (هيرودوت) أنهم كانوا متخصصين، حيث كان الطبيب يتعاطى فرعاً واحداً من الطب ليس أكثر[2]، ولم تكن المعابد مجرد أماكن للعلاج بل كان الأطباء الكهنة يقومون بتعليم الطب للأطباء الجدد خلال سنوات من التدريب العملي، وكان الممارسون المصريون القدماء للطب على قدر كبير من المعرفة بالجسد البشري نتيجة معرفتهم بعلمي التشريح والتحنيط ومعالجة العقم، لذا فقد قاموا أيضاً بإجراء عدد من العمليات الجراحية، وهو ما تؤكده الشواهد في بعض الهياكل العظمية للمومياوات المكتشفة حيث نجد كسوراً ملتئمة في عظم الساق وحتى في العمود الفقري[3].

وقد عُرف عن أطباء مصر القديمة دقة الملاحظة، وعرفوا بقوة الملاحظة وتسجيلها، وقدروا أهمية الإصغاء بانتباه إلى مرضاهم وكان بإمكانهم إحصاء معدل ضربات القلب مستخدمين الساعة المائية، وبوجه عام فإن أكثر مجالات ممارسة الطب في المعابد أهمية كانت تتمثل في العناية بالنساء والأطفال ومعالجة العقم، وهناك استخدم الأطباء وسائل عديدة لتيسير الوضع في الحالات المتعسرة، وقد سجلت مخطوطات طبية يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد إحدى عشرة وسيلة للتوليد، وقد أجريت الاختبارات في المعابد على النساء للكشف عن مقدرتهم على الحمل لمعرفة إذا كانت المرأة حاملاً أم لا، أو ما إذا

---

(1) Nunn, Ancient Egyptian Medicine, pp. 78–80.

(2) حسن كمال: الطب المصري القديم، ص 39.

(3) Nunn, Ancient Egyptian Medicine, pp. 94.

كانت عاقراً أم لا، بوضع عصير البطيخ في لبن امرأة حملت ولداً، وتقوم المرأة الراغبة في معرفة أنها ستحمل أم لا بتناول هذا العصير فإذا انتفخت بطنها من المشروب فمعنى ذلك أنها لم تحمل، أما إذا تقيأت فإنها ستحمل، وهناك طريقة أخرى للكشف عن الحمل أن بول المرأة الحامل ينبت نبات البرسيم في حين أن البول العادي يميته، حتى تحديد نوع الجنين كان عن طريق تبول المرأة في وعاءين يحتويان على قليل من حبات الشعير والقمح، فإذا نما الشعير تكون المرأة حاملاً في ولد، وإذا نما القمح يكون نوع الجنين بنتاً، أما إذا لم ينبت أحدهما فيكون الحمل كاذباً، لذا يمكننا القول إن المعابد المصرية كان بها أول مختبر طبي في التاريخ.

وقد حوت المعابد المصرية على الوصفات العلاجية للأمراض، والجروح التي كانت تعتمد غالبيتها على مواد طبيعية[1]، ولكنها كانت تضم أيضاً تعاويذ سحرية، وذلك لاختلاط مفهوم الطب والسحر، وتذكر البرديات أن الأطباء في المعابد كانوا يستخدمون عدداً من العصي ويلوحون بها أثناء ترديدهم للتعاويذ المستخدمة في طرد القوى الشريرة، وإضافة إلى ذلك فإنهم استخدموا أيضاً آنية سحرية غمرت فيها الأدوية الموصوفة، وقد كتبت عليها عبارات بالهيروغليفية القديمة.

وفي اليونان القديمة كانت المعابد المكرسة (لأسكليبيوس)، والمعروفة باسم (اسكليبيا) بمثابة مراكز للمشورة الطبية، والتشخيص، وكذلك العلاج، حيث كان يتم إدخال المرضى في حالة تشبه الحلم الناجم عن النوم ولا تختلف عن التخدير، وأثناء تلك الفترة كان يتم تلقي التوجيهات من (أسكليبيوس) نفسه في المنام أو يتم شفاؤهم[2] عن طريق استخدام الوسائل الجراحية المتوفرة في ذلك العصر التي تعتمد على مهارة الطبيب، وقد حوت المعابد العلاجية أيضاً لوحات رخامية كبيرة، وتم ذكر أسماء المرضى وماعانوا منه من مشكلات صحية، مثل فتح خراج في البطن، وغيره وذكر (ابن أبي أصيبعه) في (طبقات الأطباء) أن (أبقراط) أول من أنشأ المستشفيات في اليونان القديمة[3]، وذلك بإقامته في حديقة بالقرب من داره مأوى للغرباء وأسماها «إكسنودوقيون»[4]، وقد سار الرومان على نفس النهج اليوناني، ونجد أنه قد تم إنشاء معبد لأسكليبوس على جزيرة نهر التيبر في روما، حيث أجريت طقوس علاجية مماثلة، وقد انتشرت عبادة إيزيس آلهة الشفاء المصرية في أنحاء الأمبراطورية الرومانية، وقد تم إنشاء العديد من المعابد المكرسة لعبادتها التي كان يعمل بها أطباء مصريون مهرة ويمارسون فيها صنوفاً مختلفة من العلاج، وكذلك تخبرنا الكشوف الأثرية بوجود أماكن لعلاج الجنود والعبيد والمصارعين تدعى «فاليتوديناريا»، وقد وجد فيها العديد من الآلات الطبية التي كانت تستخدم في إجراء الجراحات.[5]

---

(1) حسن كمال: الطب المصري القديم، ص 145 – 146.

(2) نفس المصدر ص17.

(3) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج1، ص97.

(4) م.ت هوتسما؛ ت.و.أرنولد؛ ر. هارتمان، موجز دائرة المعارف الإسلامية ج7، ص 2064.

(5) Baker, Patricia Annehe: Roman military Valetudinaria- fact or fiction.

أما في الهند فإننا نجد أن هناك العديد من المؤسسات التي أنشئت خصيصاً لرعاية المرضى بواسطة أسر أرستقراطية من كبار التجار، وكانت عبارة عن منازل للمعونات الخيرية وممارسة فنون الطب، وذلك لجميع الفقراء والمعوزين في البلاد، والأيتام والأرامل، والناس المشوهين والمشلولين، وقد انتقل المرضى إليها وهناك حصلوا على الغذاء والأدوية التي تتطلبها حالاتهم المرضية، وبعد الشفاء كان المرضى يغادرون أماكن الاستشفاء من تلقاء أنفسهم، وقد أمدتنا الموسوعة الطبية (كاركاسامهيتا) المكتوبة باللغة الهندية بخلاصة وافية عن وصف بناء المستشفى والكيفية التي ينبغي أن تكون عليها من تجهيزات طبية، ووجود عيادات وبهذا يمكننا القول بأن حضارة الهند القديمة قد تكون أول من طور نظام مؤسسي منظم لتوفير الخدمات الطبية للأفراد العاديين، ويذكر أن الملك (أشوكا) قد بنى أول مستشفى في الهند حوالي عام (230 قبل الميلاد) واستمر اهتمام الحكام بتوفير الرعاية الصحية عن طريق بناء منازل الاستشفاء[1]، فقد جاء في (الماهافامسا) وهي الحوليات الملكية للملوك السنهاليين في سريلانكا بأن الملك (باندوكابهايا) في القرن السادس الميلادي قد بنى العديد من أماكن العلاج في طول مملكته وعرضها، ويعتبر هذا أول وثيقة تاريخية تذكر إنشاء مؤسسة طبية في التاريخ، ويعتبر مستشفى (مهينتالي) هي أول مستشفى في تاريخ الحضارات.

وبعد إعلان المسيحية كديانة للإمبراطورية الرومانية بدأ التوسع في توفير الرعاية الصحية بعد عام (325م)، وقد تم بناء مستشفى في كل كاتدرائية كبرى، ومنها تلك التي بنيت من قبل الطبيب (سانت سامبسون) في القسطنطينية، و(باسيليوس) أسقف قيصرية، وبعدهما في مدينة تسالونيكي، وقد شملت سكن للأطباء والممرضين، ومبان منفصلة لفئات مختلفة من المرضى، وكان فيها قسم منفصل لمرضى الجذام، وقد احتوت بعض المستشفيات على المكتبات التي حوت بدورها الكثير مما كتبه الأطباء اليونان والرومان، وكذلك أماكن لتدريب الأطباء بالمستشفي، وشمل العاملين في المستشفى البيزنطية الطبيب الرئيس والممرضات والإداريين وبمرور الوقت كان يوجد في القسطنطينية مستشفيات منظمة تنظيماً جيداً يعمل بها أطباء مهرة من الذكور والإناث، وقد اشتملت كذلك على مرافق للعلاج وأجنحة متخصصة للأمراض المختلفة.

لم تتخلف الحضارة الفارسية القديمة عن إنشاء الأماكن العلاجية فتذكر المصادر التاريخية وجود مستشفى ومركز للتدريب الطبي في مدينة جنديسابور، التي تأسست في عام (271م) من قبل الملك الساساني (شابور الأول)[2]، وكانت واحدة من المدن الرئيسية في محافظة خوزستان من الإمبراطورية الفارسية، وقد كان يعيش فيها نسبة كبيرة من السكان السريان، معظمهم من المسيحيين وشاركهم العديد من العلماء الذين رحلوا بعد

(1) Legge, James, A Record of Buddhistic Kingdoms: Being an Account by the Chinese Monk Fâ-Hien of his Travels in India and Ceylon.

(2) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص 61 - 62.

إغلاق أكاديمية أثينا على يد الإمبراطور (جستنيان) (529م)، وقد ساهموا في تأسيس مركز ضخم للعلوم الطبية وشرعوا في ترجمة النصوص الطبية من اليونانية، وقد مثل وصول هؤلاء الممارسين الطبيين من مدينة الرها بداية المستشفى والمركز الطبي في جنديسابور، والذي شمل كلية للطب لتدريب الأطباء ومستشفى لمعالجة المرضى ومختبر الصيدلة، ومكتبة ومرصداً فلكياً، وتشكل مدرسة جنديسابور رافداً أساسياً للمعارف الطبية نهل منه العرب المسلمون، وشكل أساساً لتقدمهم المرموق، وغير المسبوق في العلوم الطبية نتيجة استقدام الخلفاء للعديد من أساتذة الطب من جنديسابور الذين قاموا أيضاً بترجمة ما لديهم من كتب ومراجع طبية من السيريانية واليونانية حتى الهندية إلى اللغة العربية التي أصبحت لغة العلم السائدة في ذلك العصر وبذلك ساهموا في إنقاذ تلك المعارف الطبية من السقوط في بئر النسيان وغياهب التاريخ.

أماكن العلاج في الحضارة العربية الإسلامية:

لم يعرف عن العرب قبل الإسلام وجود أماكن عامة للاستشفاء إذ كانوا قوماً رحل ليس لديهم من المعرفة الطبية ما يكفي لإنشاء تلك المشافي، وقد ساعد الهواء النقي وحرارة الصحراء على تقليل حدوث الأمراض، وكان لديهم القليل من الأطباء الذين تعلموا في مدرسة جنديسابور الطبية، مثل (الحارث بن كلدة) وابنه (النضر بن الحارث)[1] والعديد من الكهان مثل (الشمردل بن قباب الكعبي النجراني)، و(ضماد بن ثعلبة الأزدي) الذين خلطوا الممارسة الطبية بفنون السحر، والشعوذة من استخدام نباتات وأعشاب تواترت فائدتها الطبية وتمائم لطرد القوى الشريرة التي كانت تسبب حدوث المرض في زعمهم.

جاء الإسلام فأحدث نقلة حضارية لدى القبائل العربية، وذلك عن طريق إرساء مفاهيم الصحة العامة من وضوء واغتسال واستعمال للسواك، وكذلك النهي عن تلويث البيئة بتحريم قضاء الحاجة في الطرق العامة ومصادر المياه وتحت الأشجار، مما ساهم في تقليل حدوث الأوبئة والأمراض. وقد أشار النبي الكريم إلى عدم الخروج أو الدخول في المناطق التي بها أمراض خطيرة كالطاعون، كما جاء في سنن الترمذي عن الرسول ﷺ أنه ذكر الطاعون فقال (بقية رجز أو عذاب أرسل على طائفة من بني إسرائيل فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تهبطوا عليها) حديث حسن صحيح، وكذلك البعد عن مرضى الحالات المستعصية كالجذام مثلاً، وذلك تحاشياً لانتشارها بين الناس ويعتبر هذا من أساسيات الطب الوقائي.

ويذكر كتاب السيرة النبوية أن أول مستشفى في الإسلام كان خيمة (رفيدة الأنصارية)[2] والتي أمر الرسول الكريم بنقل (سعد بن معاذ) إليها لتطبيبه بعد إصابته في ميدان المعركة يوم الخندق بعد أن رماه رجل من قريش يدعى (ابن العرقة)، وهذه الواقعة تشير أيضاً إلى وجود

(1) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص 63.

(2) نفس المصدر، ص11، ابن هشام: السيرة النبوية ج1، ص 688.

أول مستشفى ميداني كذلك تديره النساء، وبهذا لا تكون (فلورانس نايتنجيل) أول من قامت بذلك العمل الجليل، بل هي (رفيدة) ولم تنفرد (رفيدة) بذلك الشرف بل شاركتها (أم عطية الأنصارية)[1] التي غزت مع النبي سبع غزوات وكانت تداوي الجرحي ومصابي الحروب، وتقوم أيضاً على خدمة المرضى. تلك هي تاريخ المشافي في باكورة العصر الإسلامي، أما البيمارستانات فنتحدث عنها باستفاضة لاحقاً.

البيمارستان:

المنشأ والمآل:

البيمارستان هي كلمة من أصول فارسية، وهي مشتقة لمزيج من كلمتين إحداهما «بيمار» أي مريض أو عليل أو سقيم، والأخرى «ستان»[2] بمعنى مكان أو دار، إذاً فمعنى تلك الكلمة المركبة هو مكان الاستشفاء أو دار المرضى، وكانت تلك البيمارستانات يمارس فيها الأطباء النطاسيون فنون الطب الشافية وتتمتع بصنوف من الرعاية والاهتمام من الحكام والأمراء الخلفاء، ورجال الدولة وأهل الخير من المنفقين، وكانت ملاذاً للمرضى المعوزين من مختلف الأمراض بما فيها الأمراض العقلية، وظل المسلمون يستخدمون لفظة البيمارستان فقط للدلالة على المستشفى حتى نهاية العصر العباسي، ولم يثبت أنهم قد استعملوا أي لفظ آخر، ولكن بتعاقب الأيام وحوادث الدهر تفككت أواصر الدولة الإسلامية وفقدت البيمارستانات الدعم الحكومي لها ونضبت الموارد المالية بالتالي، فاضطر القائمون عليها أن يقللوا من الرعاية الصحية المقدمة للمرضى شيئاً فشيئاً حتى أوشكت على الإغلاق، لكن المسؤولين عن تلك البيمارستانات لم يجدوا أي مكان آخر يأوي أصحاب الأمراض العقلية فتحولت البيمارستانات إلى ملاجئ للمجانين وأشباههم من المرضى العقليين والنفسيين، ونسى العامة الاسم القديم الذي تحول إلى مرستان وأصبح علامة فيما بعد على مستشفى الأمراض العقلية.

تاريخ البيمارستان:

عندما حاصر (الحجاج الثقفي) (عبد الله بن الزبير) في مكة حوالي عام (692م) كثر القتل والإصابة بين أصحابه فأمر (بن الزبير) بضرب خيمة عند المسجد الحرام لمعالجة جروحهم، ويعرف هذا بالبيمارستان العربي، وهناك من يعتبر أن الخليفة الأول (معاوية بن أبي سفيان) من أوائل من اهتم بإنشاء أماكن للعلاج في عاصمة الدولة دمشق الفيحاء،

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص428.
(2) نفس المصدر، ص 4.

فوضع أساس بيمارستان تحت المئذنة الغربية من المسجد الأموي الشهير، ذلك في عام (679م)، وقد اهتم أيضاً بالبيمارستانات المتعلقة بحجيج البيت العتيق[1] وعين الأطباء لخدمتهم في تلك البيمارستانات المتنقلة.

ويذكر التاريخ أن أول مستشفى عام قد تم إنشاؤه للعلاج في الحضارة العربية الإسلامية كان المشفى الخاص بمرضى الجذام الذي أمر ببنائه الخليفة الأموي (الوليد بن عبد الملك) عام (706م)، وأمر بحبس المجذومين لئلا يخرجوا إلى الطرقات العامة، ولم يكتف بذلك بل أجرى عليهم الأرزاق[2]، وكذلك على العميان وخصص لهم من يقودهم في الطرق، بل وأعطى كل مقعد مشلول خادم يقوم بأمره، ويمكننا القول إن هذا هو أول حصر لعدد العميان والمقعدين في الدولة العربية الإسلامية، وكذلك عثر على بيمارستان من العصر الأموي في منطقة زقاق القناديل بمصر، وقد استعمل لمرضى الجذام والبرص وقد عرف عن الخليفة (عمر بن العزيز) اهتمامه بصحة رعاياه، فنجده قد أخرج لهم كتاب (الكناش الطبي) من خزائنه، وأمر بنشره بين الناس لفائدته واستجلب أطباء مهرة من مدرسة الإسكندرية الطبية وصادقهم، بل وبنى كذلك ملجأ للفقراء وزوده بما يحتاجونه من طعام، ويعتبر هذا الملجأ مكاناً للعلاج، حيث وجد فيه أدوية وعقاقير وجاء بعد بني أمية الخلفاء العباسيون الذين استمروا على نفس المنهاج في الاهتمام بصحة العامة وكذلك العلوم الطبية فزادوا في وتيرة إنشاء المراكز الطبية في مختلف المدن والأقطار الإسلامية، واستجلبوا لها الأطباء المهرة من كل حدب وصوب كجنديسابور، والإسكندرية وحتى الهند وأوقفوا عليها الأوقاف، فانتشرت البيمارستانات من بغداد شرقاً وحتى الأندلس غرباً، وبلغ بعضها شأناً عظيماً في إتقان فنون ممارسة المهنة الطبية.

إن تلك البيمارستانات (المشافي) قد كانت منذ القدم حصوناً لعلم الطب وطرق العلاج المختلفة، وبهذا تعتبر من باكورة الكليات الطبية المتخصصة في العالم المتمدن، والبيمارستان هو منشأة كان لها الفضل الأول في اجتذاب الأطباء المهرة من غير المسلمين كأطباء مدرستي جنديسابور الفارسية ومدرسة الإسكندرية الطبية، الذين قاموا بنقل وترجمة التراث الطبي السابق من مختلف الحضارات، وشعوب كالفرس والهنود واليونان والرومان، وبذلك أثروا المعارف الطبية للعرب المسلمين، وحفزوهم لتصحيح ماجاء في تلك الكتب، وتنقيحها من الأخطاء والإضافة السخية لها، وبذلك أصبح البيمارستان مكاناً لتدريب الأطباء الجدد وبلغ من اهتمام الخلفاء والحكام بالمهنة الطبية أن دعوا إلى عقد ما يشبه المؤتمر الطبي الذي يحضر فيه أطباء كافة الأقاليم التابعة للدولة العباسية[3]، وما أكثرها واحتوى البيمارستان

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 175.

(2) ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج2، ص 1271.

(3) القفطي: تاريخ الحكماء، ص 164، ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 183.

كذلك على مكتبة عامرة بصنوف المراجع الطبية، وكان من ثمار انتشار البيمارستانات أن تطور الطب العربي الإسلامي ليوفر في النهاية الخدمة الطبية لكل من عاش في ظل هذه الحضارة الزاهرة وثمة كتب ألفت في البيمارستانات مثل (البيمارستاني الأمثل)[1]، ومؤلف (الرازي) (كتاب في صفات البيمارستان)[2]، و(المقالة الأمينية في الأدوية البيمارستانية) (لابن التلميذ)، و(الدستور البيمارستاني) (لابن أبي البيان).

كانت تلك المستشفيات أو البيمارستانات من أول عهدها تعالج العامة ولا تفرق في توفير الرعاية الصحية بسبب اختلاف الدين أو الجنس أو العرق، وكانت بها أقسام متنوعة تعالج الأمراض والعلل من باطنية وجراحية ورمدية وحتى عقلية، ويهتم بها الحكام ومن ثم يغدقون عليها من الأموال والرعاية ما يمكنها من القيام بوظيفتها الجليلة من شفاء للأمراض وتوفير الرعاية الصحية للناس من مختلف الأعمار والطبقات الاجتماعية. تذكر كتب التاريخ أن الخليفة العباسي (المنصور) كان ممن شجعوا على بناء البيمارستانات، عندما أمر ببناء واحد للعميان، وكذلك بيت للأيتام والقواعد من النساء، وخصص فيه قسماً للمرضى العقليين وكذلك أمر باستقدام كبير أطباء جنديسابور (جرجريوس) الشهير، وذلك للاستعانة بعلمه الغزير في العلوم الطبية وقتئذ. وجاء من بعده (هارون) الملقب بالرشيد، واهتم ببناء أماكن العلاج تلك فأمر بإنشاء بيمارستان ضخم في بغداد[3]، وكانت له مكتبة عامرة بصنوف الكتب الطبية واختار لإدارة المشفى (ماسويه الخوزي) من أطباء بيمارستان جنديسابور، أما الطبيب الذي كان عليه مهمة متابعة أحوال المرضى فقد استقر رأي (الرشيد) على الطبيب الأشهر (جبرائيل بن بختشيوع)، وفي نفس الوقت استقدم إلى بغداد (يوحنا بن ماسويه)الذي كان صيدلانياً بارعاً في جنديسابور، وتولى رئاسة البيمارستان فيما بعد[4]، وكذلك أنشأ وزراؤه البرامكة بيمارستان أطلقوا عليه اسمهم، وولوا عليه طبيباً هندياً اسمه (ابن دهن).[5]

بلغت الدولة العربية الإسلامية أوجها في عهد الخليفة العباسي (المعتصم بالله بن الرشيد) الذي اهتم كما فعل أبوه من قبل بإنشاء البيمارستانات، ففي عهده تم بناء بيمارستان ضخم في بغداد أسماه (الصاعدي) أو (العتيق)[6]، وقد أشرف عليه بنفسه حتى اكتمل ولم يكتف الخليفة بهذا بل تكفل بأجور الأطباء والكحالين، وكذلك أجور الخدم والذين يخدمون المجانين ومؤنتهم من مطعم ومشرب.

(1) القفطي: تاريخ الحكماء، ص 272.
(2) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 310.
(3) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 313.
(4) القفطي: تاريخ الحكماء، ص 383 - 284.
(5) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 475.
(6) ابن كثير، البداية والنهاية ج 10، ص 222.

وفي عهد الخليفة (المقتدر) أنشأ البيمارستان المقتدري[1] في منطقة باب الشام، وأجرى عليه من الأرزاق مايبلغ 200 دينار شهرياً في عام (918م)، وذلك بناءً على توصية من كبير أطباء ذلك العصر (سنان بن ثابت بن قرة) الذي تم في عهده أيضاً إقرار أول امتحان للأطباء كي يسمح لهم بمزاولة المهنة، وشجع ذلك أم الخليفة (المقتدر بالله) (908–932م) السيدة (شغب) بافتتاح بيمارستان آخر في نفس العام بمنطقة سوق يحيى الواقعة على نهر دجلة وافتتحه (سنان بن ثابت بن قرة) بنفسه عام (918م).

وواصل الخليفة (المستنصر بالله) إنشاء البيمارستانات فأصدر أمره بإقامة واحد في مكة بشمال البيت الحرام عام (1229م)، وكذلك بناء بيمارستان خاص بالمدرسة المستنصرية الشهيرة، وقام بتوفير مايلزمه من أطباء مهرة وأدوية وعقاقير، وسماه البيمارستان المستنصري ذلك في عام (1240م)، وقد قام أيضاً ببناء بيمارستان آخر على نهر دجلة به مطبخ كبير يطعم الفقهاء، وزاد عدد البيمارستانات تباعاً حتى وصل عددها في بغداد ما يزيد على عشرة، وفي سائر الأقطار الإسلامية أكثر من مائة لتصبح أكثر انتشاراً في أنطاكية ودمشق وحلب والقاهرة والقدس، وعرف منها البيمارستان العضدي والبويهي في بغداد وأنشأ (معز الدولة بن بويه) في بغداد بيمارستاناً عام (966م)[2] في موقع قصر الخلد الذي كان قد تهدم منذ زمن واكتمل بناؤه في عام (982م)، وقد عمل به أربعة وعشرون من أمهر الأطباء، وقد قام الخليفة (القائم بأمر الله) بتجديد هذا البيمارستان، وقد جدد (عضد الدولة البويهي) البيمارستان الذي أقامه الأمير (بجكم) التركي، وزوده بالأطباء والخدم والحرس، وعمل به الطبيب الشهير (سنان بن ثابت) في عام (978م)، وفي عصر الخليفة (القادر بالله) أنشأ الوزير (محمد علي بن خلف) بيمارستاناً في بغداد. وقد استمر إنشاء البيمارستانات في مختلف أقاليم الدولة العباسية. وفي مصر تم إنشاء بيمارستان في عهد (أحمد بن طولون) في مدينة العسكر[3] عام (872م) وأضيف إليه مكتبة عامرة تزيد عن (100 ألف) مجلد وقد أنفق عليه أكثر من (60000 دينار) وقد شهدت دولة الإخشيد في مصر تزايد الاهتمام بأماكن الاستشفاء، ومنها البيمارستان الأسفل في مدينة الفسطاط العريقة الذي أمر ببنائه هو الأستاذ كافور الأخشيدي في عام (957م)[4]، وهناك بيمارستان القشاشين والسقطين في القاهرة أيضاً، ومع دخول السلاجقة إلى بغداد عام (1055م)، فقد اهتموا بما أنشأ في بغداد من بيمارستانات، وخاصة في عصر (طغرل بك)، وفي أواخر عهد الدولة العباسية قام السلطان (نور الدين زنكي) ببناء بيمارستان ضخم في دمشق عام

(1) القفطي: تاريخ الحكماء، ج1، ص 86، 102، ابن أبي أصيبعه، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 302.
(2) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات، ص 122.
(3) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج3، ص 337.
(4) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج3، ص 99.

(1154م) يقام فيه تدريس الطب وعقد الاجتماعات الطبية مابين الأطباء مرتين في الأسبوع، وقد استحدث في ذلك البيمارستان وظيفة جديدة خاصة وهي صرف العلاجات والعقاقير للمرضى، وكذلك تم إنشاء العيادات الخارجية لأول مرة وكذلك أماكن خاصة بحفظ سجلات المرضى، وقد أنشأ بيمارستان آخر في حلب عام (1173م)، وقد قام صلاح الدين الأيوبي بإنشاء البيمارستان الصلاحي في مدينة القاهرة عام (1181)[1]، وقد عين به العديد من الأطباء والجراحين والكثير من الخدم، وجعل في هذا البيمارستان مكاناً خاصاً للدواب لنقل المرضى من منازلهم إلى البيمارستان، ووفر كذلك وسيلة لإرجاعهم لبيوتهم بعد انتهاء فترة العلاج، ولم يكتف (صلاح الدين) بذلك بل أمر ببناء بيمارستان في الإسكندرية عام (1181م) وعكا ومدينة القدس، وقد قسم إلى قسمين إحداهما لعلاج النساء وآخر للرجال وخصص مكاناً لعلاج المجانين.

ولم يقتصر بناء البيمارستانات على جهود الخلفاء بل امتدت تلك الهمة المحمودة إلى الوزراء والأمراء وأهل الصلاح، ففي تونس نجد أن أحد أمراء دولة الأغالبة الأمير (زيادة الله) قد أمر بإنشاء مكان للاستشفاء ولم يطلق عليه بيمارستان، بل سماه (دمنة) نسبة إلى حارة دمنة العتيقة، وقد استلهم تصميمه من البيمارستانات العباسية المعاصرة لزمانه وقام الأمير (أبو إبراهيم أحمد الأغلبي) من بعده ببناء بيمارستان آخر على شاطىء البحر في مدينة تونس، وامتد ذلك الاهتمام إلى مصر، ففي عصر الخليفة (المتوكل) تم في عهده بناء بيمارستان بمدينة الفسطاط، وذلك تحت إشراف وزيره (الفتح بن خاقان) في عام (861م)، وقد عرف ذلك البيمارستان بالمعافر.

أما في بغداد فقد أمر الوزير (علي بن عيسى بن الجراح) ببناء بيمارستاناً في بغداد بمنطقة يطلق عليها الحربية، وذلك في عام (914م)، وجعل الإشراف عليه وسائر بيمارستانات بغداد ومكة والمدينة (لأبي عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي) المترجم[2]، وقام (بجكم) التركي (أبو الخير) أمير الأمراء، بعمارة البيمارستان بالجانب الغربي من بغداد، ولم يتم بناؤه فجدده (عضد الدولة بن بويه)، كذلك بنى الوزير مؤيد الملك في عهد الخليفة (القادر) بيمارستاناً في مدينة واسط بالعراق عام (1022م)، وجعل المعاملات الخاصة به تأتي من قبله مباشرة، وفي عهد (القائم) أنشأ (نصير الدولة بن مروان الدوستكي) بيمارستاناً ضخماً عام (1075م)، وقد أوكل إلى زاهد العلماء الطبيب (أبي سعيد بن منصور) مهمة الطبابة فيه، وقد عمل الأمير (بكتكين الناصر) بيمارستاناً له في البصرة عام (1152م) وأجرى عليه من الأموال والوقف الشيء الكثير، ومن بعده قام (مظفر الدين كوكبري) الذي توفي عام (1232م) ببناء دور للمرضى يعالجون فيها، وكان يزور البيمارستان مرتين أسبوعياً يتفقد احتياجاته من

(1) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج3، ص 40.
(2) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج1، ص 234.

طعام وأدوية، بل كان يسأل بنفسه المرضى المقيمين فيه عن جودة الرعاية الصحية، ولا ينسى قبل أن يغادر المشفى أن يعطي كل واحد منهم ديناراً أو اثنين حسب الحاجة، وفي دمشق أنشأ الأمير (سيف الدين القميري) الذي توفي عام (1255م) بيمارستاناً[1] عند سفح جبل قاسيون، وقد قام الملك (الكامل) ببناء بيمارستان في حمص بعد ما لحق به الخراب وقام بتوصيل المياه إلى البيمارستان.

وحتى الخدم والعبيد المحررون وخصوصاً بعدما صاروا أثرياء كان لهم دور في إنشاء بيمارستانات، مثال ذلك الخادم (خمارتكين) الذي كان مملوكاً (لتتش بن أرسلان السلجوقي)، قام ذلك الخادم ببناء بيمارستان في بغداد عام (1113م)، وزوده بما يحتاج من مؤونة وأطباء وعقاقير وشاركه في ذلك الصنيع (أبو المنجم بدر المعتضدي) غلام (المعتضد بالله) من خلفاء بني العباس بإنشائه بيمارستان في حي المخرم شرق بغداد[2]، وكذلك أنشأ (مجاهد الدين قايمان) الذي كان مملوكاً لزين الدين والي مدينة أربيل ونائب قلعة الموصل بيمارستان في الموصل.

ولا تتخلف مصر كثيراً عن تلك الجهود، فقد قام ناظر الجيوش المصرية (فخر الدين) مولى أم الخليفة (الناصر) ببناء بيمارستان في الرملة وآخر في مدينة نابلس، وكذلك بيمارستان في مدينة الموصل، وكذلك (بدر الدين المظفر القاضي) الذي خدم (مودود بن الملك العادل) أخي (صلاح الدين) الذي ولاه رئاسة الأطباء فاهتم بالبيمارستان الذي أنشأه الملك العادل وزاد في بنيانه وعمرانه من ماله الخاص.

وكانت الأندلس الزاهرة تحوي العديد من البيمارستانات الراقية التي كان يمارس فيها أطباء من ذوي الشهرة (كأبي القاسم الزهراوي) في بيمارستان قرطبة فنون العلاج، وقد خصص حياً برمته في قرطبة باسم «ربض المرضى»[3]، وكان بيمارستان غرناطة الذي بناه السلطان (محمد الخامس) عام (767-768) من الهجرة[4]، يتميز بفخامة في التصميم وسعة للساحة وتوافر مصادر للمياه الجارية ووقف الأموال للإنفاق على مستلزمات البيمارستان من أجرة أطباء وحرس، وخدم وكذلك مايكفي لإطعام المرضى وتوفير العقاقير والأدوية التي يحتاجون إليها.

ويجدر بنا أن نذكر أن هذا الكتاب لايذكر الجهود التي قام بها الخلفاء الفاطميون في إنشاء البيمارستانات وتعميرها وإجراء الأرزاق عليها، وتوفير الأطباء المهرة للعمل فيها، وذلك لأنهم لم ينضووا تحت الدولة العباسية بل ظلوا على خلاف معها، ولم يدينوا لها بالولاء

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، حوادث عام 654.

(2) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج1، ص221,224.

(3) Lévi-Provençal: Histoire de l'Espagne musulmane Part3, PP. 381- 382, 434.

(4) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ج2، ص 29.

وأقاموا خلافة خاصة بهم في مصر وبلاد المغرب العربي. وماذكرته هنا من تاريخ إنشاء بيمارستانات في عصر الدولة الأموية بالشام والأندلس وكذلك في عصر الدولة العباسية ببغداد ومادان لها من دويلات وممالك في مختلف أرض الإسلام من العراق ومصر والشام.

أنواع البيمارستانات:

للبيمارستان وظيفة رئيسية، وهي توفير الرعاية الصحية، والعلاج للمرضى ولتحقيق تلك المهمة ينبغي أن يكون هناك مكان ثابت يرتاده المرضى، لذا يمكن أن نميز البيمارستانات إلى نوعين رئيسيين ثابت ومتنقل[1]، وكان النوع الأول يمثل الغالبية العظمى من أنواع البيمارستانات، ولا سيما في عواصم الدول والمدن الكبرى في أرجاء الدولة الإسلامية، ونوع آخر متنقل يخدم المرضى في الأماكن القصية التي كانت لا تصل إليها الرعاية الصحية لبعدها عن مراكز الحضارة التي كانت تحوي المنشآت الهامة ومن ضمنها البيمارستانات.

والبيمارستان الثابت كان يتكون من قسمين كبيرين خصص إحداهما لعلاج الذكور والآخر كان لمداواة النساء، وقد تم تجهيز كلٍّ من القسمين بما يحتاجه من أدوات طبية، وكذلك بعدد كاف من الخدم من كلا الجنسين للرعاية بالمرضى، وتوفير الخدمات لهم من اغتسال ومأكل ومشرب، وكان كل قسم ينقسم بالتالي إلى أجزاء أو قاعات متخصصة يتم فيها علاج الأمراض المختلفة، كالأمراض الباطنية والجراحية وأمراض العيون أو الكحالة وطب العظام أو التجبير. والبيمارستان يتطلب وجود مصدر للمياه لأغراض عديدة كالتنظيف وإزالة الحمى وإعداد الأدوية والعقاقير وغيرها من مهام، يتجلى هذا في وجود العديد من البيمارستانات بجوار مجاري الأنهار، وكان لكل قسم من أقسام البيمارستان طبيب أو اثنان أو ثلاثة أطباء بحسب السعة وكثرة المرضى، وكان إذا دعا الحال يدعى طبيب من قسم آخر غير القسم الذي فيه المريض للاستشارة، وكان الأطباء يشتغلون في البيمارستان بالنوبة (فجبريل بن بختيشوع) كانت نوبته في الأسبوع يومين وليلتين.[2]

أما النوع الثاني فكان يدعى البيمارستان المتنقل أو المحمول[3]، وقد ذكر لأول مرة في المراجع التاريخية في عصر الدولة العباسية، وبالتحديد في زمن الخليفة (المقتدر بالله) الذي حكم في الفترة الممتدة من (907 وحتى 932م)، وقد أسس بطبيعة الحال إيصال الخدمات الطبية إلى المناطق الريفية والمعزولة البعيدة عن العمران، ويعتبر هذا أول توثيق للخدمة الطبية لأهل الأرياف وقد ابتكرت العبقرية الطبية العربية ذلك النوع من الرعاية الصحية

(1) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات، ص 10.
(2) القفطي: تاريخ الحكماء، ص 148.
(3) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات، ص 11.

لمنع انتشار الأمراض وكذلك الأوبئة من الانتقال من القرى للمدن الكبرى وحواضر الدولة، وبالطبع قد تم تجهيزه بما يحتاج من هيئة طبية من أطباء وكحالين وصيادلة وكذلك مايحتاجه من آلات وأدوات جراحية وملابس وعقاقير وأدوية مركبة ومفردة، وكان البيمارستان يحمل على الدواب وينتقل في رفقة الخلفاء والأمراء من مكان إلى مكان، وكان يعرف في ذلك الزمان بالمستوصفات السيارة، وكانت مهام ذلك البيمارستان المتحرك ليست مقصورة على التشخيص وصرف الأدوية بل كان الجراحون يقومون بإجراء الجراحات في تلك الأماكن القاصية التي لم تر مثل هذه العناية الطبية الفائقة من قبل. وقد أخذ الوزير (علي بن عيسى) وزير (المقتدر) على عاتقه إيصال الخدمات الطبية إلى سواد العراق، فطلب من (سنان بن ثابت) توفير ما يلزم لإنفاذ البيمارستان المحمول وما يحتاج من مؤن ونفقات، وهناك نوع آخر من المشافي المتحركة التي كانت تقام بجوار المساجد في أيام الجمع لمعالجة من يصابون بالأمراض، وبها طبيب معالج وصيدلية متنقلة تحوي الكثير من العقاقير الطبية. وهناك نوع ثالث من البيمارستانات المتنقلة، وهي البعثات الطبية المرافقة لحجاج البيت المعمور وهي مزودة بالأدوية والعقاقير والكثير من الأدوات الطبية ويرافقها الأطباء بمختلف تخصصاتهم وأول من يعرف عنه إرساله لتلك القوافل الطبية في وقت الحج هو الخليفة (معاوية بن أبي سفيان) وولى الطبيب (أبا الحكم الدمشقي) توفير مهام الخدمات الطبية للحجيج.

البيمارستانات المتخصصة:

لم تكن جميع البيمارستانات مجرد مشافي عامة تهتم بعلاج الأمراض المتنوعة مثل، الأمراض الباطنية والجراحية، وكذلك أمراض العيون والكسور، بل إن البيمارستانات التخصصية قد بدأت في الظهور منذ أوائل الدولة الأموية، حيث أمر الخليفة الأموي (الوليد بن عبد الملك) عام (706م) ببناء أول مستشفى للجذام[1] لمنع اختلاطهم بالعامة والحد من انتشار ذلك المرض الخطير، ووفر له الأطباء للإشراف على البيمارستان ومن فيه، وأجرى الأرزاق للمرضى من طعام ولباس ودواء وسار على دربه الخليفة (المأمون) الذي بنى بيوتاً لمرضى الجذام وجعلها في أماكن نائية عن أماكن سكنى الأصحاء، ثم تبعه الكثير من الخلفاء وحكام دولة بني العباس في تأسيس العديد من مصحات علاج الجذام في مختلف مدن الدولة. وجدير بالذكر أن بعض البيمارستانات العادية كانت تحوي قسماً للمجذومين وتفصله بعيداً عن باقي أقسام المشفى، وذلك لخطورة المرض والعمل على وقف انتشاره للمرضى الآخرين. ولم ينفرد مرض الجذام بوجود بيمارستان خاص به بل شاركه بيمارستان الأمراض العقلية[2] في التخصص الدقيق بدأ الأمر بإنشاء غرف وأماكن خاصة بهم في البيمارستانات العامة كالبيمارستان العضدي في بغداد الذي احتوى على غرف

(1) ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ص 127.

(2) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات، ص 73.

تأوي أصحاب الأمراض العقلية، ولكي يتم منعهم من الخروج ارتأى القائمون على إدارة البيمارستان وضع قضبان من حديد على نوافذ تلك الغرف، وكذلك احتوت الغرف على سلاسل حديدية تستخدم في حالات الهياج العقلي للمرضى، ثم تطور الأمر خلال فترة حكم خلفاء بني العباس فتم تأسيس بيمارستانات متخصصة في علاج المجانين، وفاقدي العقول بها قسم خاص بالرجال وآخر بالنساء، وتم توفير الملابس وحتى العطور، نرى ذلك جلياً في ما كتبه الوزير (علي بن عيسى الجراح) الذي أمر المسؤولين عن المرضى بالعمل على تدفئتهم بالغطاء المناسب وتكليف من يخلعون ثيابهم كل صباح وغسلهم بالماء البارد وإلباسهم أنظف الثياب، وكذلك إيصال الغذاء الكافي والأدوية والعقاقير، ولم يكتف بالعناية الجسدية بل نراه يهتم بصحة المريض النفسية فيأمر بتواجد من يقرأ له القرآن ويأخذه في نزهة بين الورود والرياحين وحتى العلاج بالموسيقى نجده قد عرف كنوع من التطبيب للمجانين في ذلك العصر الزاهر.

وفي دمشق أمر (نور الدين زنكي) بإنشاء بيمارستان للمجانين ووفر لهم المعالجين، وقد قام الوزير (الظاهر لدين الله) عام (1024م) بزيارة بيمارستان للمجانين وهو متنكر ليتفقد حال المشفى عن قرب، وقد وهب المرضى في آخر زيارته الأموال وأوصى القائمين على رعايتهم بالترفق بهم وكذلك توفير الأدوية لعلاجهم.

كان المعاقبون بالسجن لفترة طويلة يعانون من تدهور في صحتهم العامة نتيجة لكثرة عدد المحبوسين في الزنازين، وكذلك لقلة التهوية وانعدام النظافة وكثرة الفئران والحشرات في تلك الأماكن وصعوبة، وصول الخدمة الصحية إليهم، وكانت كل هذه العوامل من أهم الأسباب التي دعت مسؤولاً كبير في الدولة العباسية كالوزير (علي بن عيسى الجراح) إلى مخاطبة كبير الأطباء في عصره (سنان بن ثابت)[1] بضروره توفير سبل الرعاية الصحية للمساجين وأهل الحبوس من أدوية وأشربة، وكذلك أن يزور الأطباء المهرة المساجين يومياً لعلاجهم من الأمراض. وكان يسمح للسيدات بالزيارة أيضاً ومن الواضح أن زيارتهن كانت تتم بوصفهن ممرضات.[2]

كانت الدولة الإسلامية مترامية الأطراف فنشأ عن ذلك وجود أبناء للسبيل والكثير من الغرباء الذين انقطعت بهم السبل، وكان لابد من أن يتعرضوا لصنوف من الأمراض المختلفة فكان لزاماً على حكام الدولة أن يبنوا بيمارستانات خاصة بأولئك المغتربين، وكان أول من أقام مثل هذا النوع من البيمارستانات هو (نور الدين محمود) في مدينة دمشق وأوقف عليه الأوقاف.

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج1، ص321.
(2) نفس المصدر ج1، ص 221.

كانت توجد في بعض المدن الإسلامية الكبرى أحياء طبية متكاملة؛ فقد حدّث (ابن جبير) في رحلته التي قام بها في سنة (1184م)، أنه رأى في بغداد عاصمة خلافة (بنى العباس) حيًّا كاملاً من أحيائها يشبه المدينة الصغيرة، يتوسطه قصر فخم جميل، تحيط به الحدائق والبيوت المتعددة، وكان كل ذلك وقفًا على المرضى، وكان يؤمّه الأطباء من مختلف التخصصات، فضلاً عن الصيادلة وطلبة الطب، وكانت النفقة جارية عليهم من الدولة ومن الأوقاف التي يجعلها الأغنياء من الأمة لعلاج الفقراء وغيرهم.[1]

أماكن البيمارستانات:

انتشرت البيمارستانات والمشافي في جميع أرجاء الدولة نجدها قد تركزت في العواصم كدمشق، وبغداد والفسطاط وغيرها من المدن الكبرى في الشرق الإسلامي كواسط والري الذي ترأس عليه (الرازي) قبل قدومه إلى بغداد[2]، وميافارقين والعسكر والقطائع والقدس والرملة وحماة حران ونصيبين، وخوارزم والري وأصفهان والموصل وأنطاكية ونيسابور وقيسارية ومرو، وكذلك في مدن المغرب الإسلامي المختلفة كتونس ومراكش على يد السلطان (يعقوب المنصور الموحدي) (1184-1199م)، وقد اجتذب ذلك السلطان أشهر أطباء زمانه (كابن الطفيل) و(ابن رشد)، وبالطبع في مدن الأندلس الزاهرة كان يوجد العديد من البيمارستانات في قرطبة وغرناطة وإشبيلية وغيرها مما يخطئه العد والحصر.

وقد تم اختيار أماكن البيمارستانات بدقة بالغة لتكون بعيدة عن أماكن التلوث، وفي نفس الوقت كانت قريبة من مصادر المياه كالأنهار، لذا نجد أن البيمارستانات قد تركزت في بغداد حول نهر دجلة كالبيمارستان العضدي، ولما زار (ابن جبير) بغداد عام (1184م) كان موقع البيمارستان شبيهاً بالحصن العظيم، له مورد ماء يأخذ من دجلة وله جميع الملحقات التي تزود بها القصور الملكية[3]، وبنى بيمارستان (أم المقتدر) بالقرب من سوق يحيى على نهر دجلة وبنى (مجاهد الدين قميان) مشفاه على مصاطب نهر دجلة.[4]

وبنيت بعض البيمارستانات بالقرب من وسط المدينة كبيمارستان كمشتكين في بغداد وبيمارستان (أحمد بن طولون) في قلب القطائع المصرية، وبنى الأخشيد بيمارستانه في قلب الفسطاط، وبني البيمارستان الدقاقي في مركز مدينة دمشق بالقرب من المسجد الأموي، وأنشأ بعضها بالقرب من المساجد الكبرى مثل بيمارستان بني أمية بجوار المسجد الأموي في عصر معاوية بن أبي سفيان، وبيمارستان مدينة حمص الذي بني بجوار المسجد الجامع

(1) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص 101.

(2) القفطي: تاريخ الحكماء، ص 272.

(3) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص 225 - 226.

(4) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج1، ص 222.

ومسجد خلاط بالقرب من مسجد (محيي الدين بن عربي)، وبيمارستان (أحمد بن طولون) ملاصقاً لمسجده الشهير، وكذلك بني بيمارستان باب البريد بالقرب من جامع دمشق وفي حالات أخرى، يتم إنشاء البيمارستان بجوار المدارس كما هو الحال عندما بنى صلاح الدين مدرسة بجانب بيمارستانه في مدينة القدس الشريف بعد تحريرها من الصليبيين.

القواعد الصحية لاختيار مكان البيمارستان:

كان لابد من بناء البيمارستان في مكان مناسب متجدد الهواء وبعيد عن مصادر التلوث البيئي، وهناك واقعة شهيرة توضح مدى اهتمام الأطباء العرب بموقع البيمارستان وصلاحيته لمداواة المرضى عندما طلب الخليفة (المعتضد) العباسي من (أبي بكر الرازي) اختيار موقع البيمارستان الذي يحمل اسمه في بغداد وقال له: «أريدك أن تبحث لي عن المكان المناسب في بغداد لبناء البيمارستان»، فذهب عالمنا الفذ إلى داره وأخذ يقدح زناد فكره إلى أن بدت له فكرة عبقرية تنم عن ذكاء مفرط وحسن تفكير فتمخض ذهنه عن تلك الحيلة العبقرية التي بقيت تستخدم بعد موته لسنوات، وهي أن يأتي بقطع من اللحم متساوية في الحجم ويقوم بتقطيعها إلى قطع ثم يعطي لكل صبي من صبيانه قطعة ويأمره بوضعها في شتى أحياء بغداد، وينتظر يوماً ويرى ماذا سوف يطرأ على قطعة اللحم ثم بدأ العالم (أبو بكر الرازي) يتابع ما يحدث لقطعة اللحم من تغيرات وفساد، وقام بكتابة الملاحظات من حيث سرعة التعفن ودرجته، وانتهى بعد ملاحظته الدقيقة للقطع المختلفة أن هنالك قطعة منها كانت بطيئة التعفن قليلة الخراب في منطقة ما من المدينة فأمر (الرازي) ببناء البيمارستان في ذلك المكان[1] الذي اعتقد فيه طبيبنا بأنه جيد الهواء قليل التلوث، وجاء من بعد (الرازي) من حذا حذوه في الإتيان بالأفكار الرائدة لاختيار مكان البيمارستان، فقد فكر الأطباء في زمن (نور الدين محمود) أين المكان المناسب لتأسيس بيمارستان حلب فقطعوا شاة صغيرة وقطعوها إلى أربع قطع، ثم قاموا بوضعها في أركان المدينة الأربعة وعند الصباح اختاروا أفضلها رائحة وبنوا في نفس المكان البيمارستان المنشود، وكذلك قام نفس السلطان ببناء بيمارستانه بمدينة أنطاكية بجوار سوق الهواء، ومن المعروف أن البيمارستان يحتاج الماء، بشدة لذا فقد قام المسؤولون عند إنشاء البيمارستانات بتوفير الماء سواء من البرك كبيمارستان (ابن طولون) الذي اعتمد على مياه بركة قارون المجاورة له، أو قنوات المياه كبيمارستان بغداد الذي أخذ مياهه عن طريق قناة كرخايا.

البناء الداخلي للبيمارستان:

البيمارستان كأية منشأة عمرانية يتألف من أجزاء محددة تبدأ بالمدخل المؤدي إلى داخل البناء الذي يتألف من قسمين كبيرين يهتم الأول بمعالجة الرجال، والثاني بمداواة

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج3، ص 13.

النساء[1] وكل قسم ينقسم إلى قاعات بحسب التخصص، فنجد قاعة للأمراض الباطنية وأخرى للجراحات وثالثة لأمراض العيون أو الكحالة ورابعة للتجبير وأمراض العظام من كسور وخلع وغيره، وفي بعض البيمارستانات كانت هناك قاعة للمجانين والمعتوهين، وقاعات البيمارستان عبارة عن مكان واسع وفسيح وبها مقاصير[2]، أي غرف تحتوي على أسرة لها كسوة ينام عليها المرضى، وهناك مايسمى بالدهليز أي الممر الذي يوصل ما بين غرف المرضى، وأماكن تواجد الأطباء والعاملين على خدمة المرضى، وفي بعض البيمارستانات كالنوري في حلب كانت غرف المرضى توجد في أجنحة مكونة من طابقين بهما سبع غرف ولها أبواب تفتح على باحة الجناح، وهناك بركة مائية نجمية الشكل في أرضية الجناح، ولزيادة راحة المرضى وتقليل التوتر النفسي لهم كان هناك إيوان مخصص للفرقة الموسيقية التي تعزف لإدخال البهجة والسرور على قلوب المرضى ربما للإسراع من عملية الشفاء.

وكان البيمارستان يحتوي أيضاً على عيادات خارجية وصيدلية تسمى شرابخانة[3] يقوم الطبيب فيها بفحص المرضى، وتصرف لهم العقاقير اللازمة وكان يجلس على دكة ويكتب ملاحظاته[4]، ويصف الأدوية المطلوبة لعلاج المرضى على رقاع، وأحياناً يجري الجراح بعض العمليات الصغيرة في نفس المكان، أو يقوم المجبر بإصلاح الكسور والخلع، وبالطبع احتوى البيمارستان على حديقة غناء بها من الأشجار والرياحين ما يروح عن المرضى، وكذلك تتم فيها زراعة النباتات والأعشاب الطبية المستخدمة في صنع الأدوية المفردة والمركبة وأحياناً كان البيمارستان يقام داخل حديقة كبرى، وكان يوجد داخل البيمارستان أو بجواره مسجد تقام فيه الصلوات ويصلى فيه على الموتى من المرضى، وكان يعمل داخل المسجد مؤذن ينبه المرضى لمواقيت الصلاة، وفي بعض البيمارستانات تم إنشاء كنيسة صغيرة للمرضى من غير المسلمين، وذلك لمساعدتهم في الشفاء بتوفير العامل الديني الذي كان يدعم حالتهم النفسية ويعجل بالعلاج.

وكان الموتى من المرضى يغسلون في مغسلة خاصة داخل البيمارستان الذي كان به أكفان مجانية ثم يصلى عليهم بعد ذلك، وكان بعضهم يدفن داخل البيمارستان نفسه كالبيمارستان العضدي في بغداد، والقميري بالصالحية بمدينة دمشق، وقد عين القائمون على البيمارستان من يقوم بتغسيل الموتى وصرف الأموال اللازمة لذلك.

التعليم الطبي المستمر:

كان للبيمارستان وظيفة جليلة أخرى لا تقل أهمية عن عملية علاج المرضى، ألا وهي التعليم الطبي حيث يقوم الطبيب المسؤول بالجلوس في ما يسمى بالإيوان أو ما يمكن أن

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج1، ص 310.
(2) نفس المصدر: ج2، ص 260.
(3) نفس المصدر: ج1، ص 309.
(4) نفس المصدر: ج2، ص 142.

نطلق عليه قاعة المحاضرات كما كان في البيمارستان العضدي[1] وكان مكسو بالسجاد والحصير، والإيوان بناء كثيراً ماكان يدهن بلون أحمر وسقفه عبارة عن قبة ونوافذ ذات زخارف جميلة وله فتحة تطل على بهو واسع وفسيح وكان يحتوي على العديد من الأقواس.

مكتبة البيمارستان:

كان ذلك البناء يحتوي على مكتبة عامرة بصنوف الكتب والمراجع الطبية التي توسع المدارك وتطلع الطالب على مختلف الآراء الطبية، وكان يستخدمها طلبة الطب في الدراسة والمناقشات العلمية فيما بينهم، وقد تواترت الأخبار عن احتواء مكتبة بيمارستان (أحمد بن طولون) بمدينة القطائع بمصر على أكثر من مائة ألف مجلد[2] في مختلف العلوم، وبالتدريج أصبحت تلك المكتبات أماكن للدراسة وإجراء الأبحاث الطبية، إذ كان للطبيب الحرية التامة في العمل، والتجريب واستنباط الأساليب المناسبة للعلاج، وكانت تلك التجارب تدون في كتب خاصة يقرأها غيره من الأطباء، وكان الخلفاء يهتمون بتوفير الكتب الطبية للبيمارستان ويوكلون تلك المهمة لرجال معروف عنهم حبهم لاقتناء تلك المراجع، وهناك شاهد على ذلك حينما وكل الخليفة (المعتضد ابن حمدون أبا مسعد بن محمد) بتوفير مايحتاجه بيمارستانه الشهير في بغداد بمختلف صنوف المراجع الطبية في ذلك العصر.

قاعات المحاضرات:

كان الطلبة بعد الكشف على المرضى يأتون إلى الإيوان لتلقي الدروس على يد كبير الأطباء في البيمارستان، حيث يجلسون أمامه بينما يقوم بالشرح ويتباحث معهم في شتى مجالات الطب، كما كان يفعل (أبو المجد بن أبي الحكم) في البيمارستان النوري بدمشق[3] وكذلك (أبو الفرج بن الطيب)، و(إبراهيم بن بكس) اللذان كانا يدرسان صناعة الطب في البيمارستان العضدي ببغداد، و(مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد) المعروف (بالدخوار) شيخ الأطباء في المدرسة الدخوارية ـ شرقي سوق المناخليين عند الصاغة العتيقة قبلي الجامع الأموي ـ وعندما مات خلفه في تدريس العلوم الطبية الحكيم (شرف الدين علي بن الرحبي).

ديوان الأطباء:

كان البيمارستان يحتوي أيضاً على الديوان، وهو مكان كان يجلس فيه كبير الأطباء أو ناظر البيمارستان ويقوم فيه بمراجعة شؤون المرضى وما يحتاجونه، ويصف (ابن جبير)

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج1، ص 239 ـ 244.
(2) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص 472.
(3) نفس المصدر، ج2، ص 155.

كيف أن هيئة المستشفى تحتفظ بقوائم بأسماء المرضى، وكمية الأدوية والأغذية اللازمة لكل منهم[1]، وأحياناً كان يجتمع فيه أطباء البيمارستان لمناقشة أحوال المرضى الذين كان يصل عددهم في بعض الأماكن إلى 24 طبيباً[2]، وكانت مهام يوم عادي في حياة طبيب البيمارستان كالنوري، مثلاً تشتمل على جولات لعيادة المرضى وكتابة وصفات من الدواء، والعلاج وزيارة المرضى الخصوصيين، ثم العودة إلى البيمارستان مساء للمحاضرة ثلاث ساعات في موضوعات طبية[3]، وأحياناً كان يجلس بعض كتاب البيمارستان، فيجري بينهم وبين الطبيب المسؤول المناقشات عن سجلات المرضى وأحوالهم الصحية ومايتعلق بزيارات أهليهم، وكذلك مايصرف لهم من أغذية وكسوة وعقاقير وأدوية، ونذكر هنا بعض كتاب البيمارستانات (كأبي سعد بن حمدون) الذي عمل في البيمارستان العضدي، و(عبد الله الجويني) في البيمارستان النوري بدمشق الفيحاء، وأخيراً كان لبعض البيمارستانات أسواق يذهب إليها الأطباء لشراء مستلزمات المرضى من غذاء وعقاقير طبية. وقد عين القائمون على البيمارستان من يسمى شيخ سوق البيمارستان، ويقوم ناظر البيمارستان بمحاسبته.

التنظيم الإداري للبيمارستان:

ساعور البيمارستان:

كان لكل بيمارستان ناظر ينظر في أحوال مرضاه ويشرف على إدارته يسمى (ساعور البيمارستان)، أو متفقد المرضى بالسريانية[4]، وكانت تلك الوظيفة تعد من الوظائف الجليلة في الدولة إذ كان يتم توليته من قبل دار الخلافة مباشرة، وكان يذهب إلى البيمارستان بعد الخلع عليه من الحاكم في موكب حافل[5]، وكان الناظر إما طبيباً أو من غير ذلك من المهن إلا أنه كان من الواجب توفر حسن الخلق لديه، وأن يكون من أعيان المدينة وكان مختصاً بإدارة ما أوقفه الحاكم على البيمارستان وتوفير الأموال اللازمة لقضاء حوائج الأطباء وكذلك المرضى، وكان هو الذي يقدر رواتب الأطباء، وباقي الموظفين العاملين في البيمارستان وحتى مراقبة المبنى واحتياجاته من ترميم وأثاث وطعام وكسوة، وغير ذلك وكان يتلقى الشكاوى من المرضى وأهليهم إذا ما حدث تقصير في أداء الخدمة الطبية أو إهمال من قبل العاملين في المكان، وإذا مات المريض فنجد أن الناظر يصرف ما يكفي لتجهيزه وتكفينه وحتى حمله إلى قبره، و(الرازي) يعد من أشهر النظار في بيمارستان بغداد والبيمارستان النوري بدمشق (تقي الدين الدمشقي)، و(جمال الدين اليزوري) و(ابن النحاس) و(الصدر نجم الدين بن عمر)

(1) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص 283.
(2) زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص 189.
(3) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج2، ص 155.
(4) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج4، ص 184.
(5) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ج2، ص 192.

و(بدر الدين الحنبلي)، وقد تولى القاضي (ابن فضلان) نظارة البيمارستان المستنصري عام (1233م)، وفي بغداد دار السلام نجد (علي البسطامي) الذي تولى نظارة البيمارستان العضدي، وكذلك (ابن البيمارستانية) و(ابن أبي الحسن القاضي) و(ابن الربيع) و(ابن النظروني)، وأمين الدولة (ابن التلميذ النصراني)، و(أبو الحسن الصابئي) الذين تولوا نظارة نفس البيمارستان، وأخيراً (علي بن رضوان) ساعور بيمارستان القيروان.

رئيس أطباء البيمارستان:

كان يعمل في البيمارستان ما يمكن تسميته برئيس الأطباء[1] وهي وظيفة رفيعة، حيث كان يحكم على من هو دونه من الأطباء، ويعقد لهم الامتحانات، ويذكر (القلقشندي) في (صبح الأعشى) أن تلك الوظيفة تعادل الوزارة، وكان ذلك الطبيب الكبير يشرف على البيمارستانات العامة أيضاً، ومن أشهر من تولى تلك الوظيفة (ماسويه الخوزي) في عهد (الرشيد)، و(ثابت بن قرة) في عهد عدد من خلفاء بني العباس، وهم (المقتدي) و(المستكفي) و(المطيع بالله)، وفي دمشق تولى (مهذب الدين الدخوار) تلك الوظيفة في البيمارستان النوري، وكذلك (أمين الدين النوري) و(جمال الدين الكحال) بمصر و(بدر الدين البعلبكي) في الرقة.

التخصصات الطبية المتنوعة:

كان يعمل في البيمارستان عدد من الأطباء في مختلف الفروع كالجراحين، وكان لديهم رئيس يدعى رئيس الجراحين، مثل (ابن مطران الجرائحي) في البيمارستان النوري بدمشق و(أبو الخير الجرائحي) و(أبو الحسين بن تفاح الجرائحي) في البيمارستان العضدي[2]، وكذلك (ابن البيمارستانية)، ولم يقتصر احتواء البيمارستان على الجراحين بل تعداه إلى الكحالين والمجبرين[3]، وأشهر الأطباء الكحالين في الدولة العربية الإسلامية هو (علي بن عيسى)[4] صاحب كتاب (تذكرة الكحالين)، و(أبو الحجاج يوسف الكحال) في بيمارستان السقطيين بمصر، و(أبو الخير الجرجراني) و(ابن السديد في البيمارستان العضدي، وكان يساعدهم (خازن الرمدي) الذي كان يخرج لهم الأكحال ويقوم بتفريق أدوية العيون على المرضى كل حسب مرضه وكذلك كان يعمل داخل البيمارستان طائفة من أطباء العظام، وكان يطلق عليهم في ذلك العهد المجبرين الذين كانت لهم وظيفة محددة، وهي جبر الكسور ومداواة خلع المفاصل والكتف والأوراك وضربات العنق وربط الشريان المقطوع وإيصاله مع الجزء الآخر.

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج5، ص 467.
(2) القفطي: تاريخ الحكماء، ص 172.
(3) القلقشندي: صبح الأعشى ج5، ص 467.
(4) القفطي: تاريخ الحكماء، ص 147.

التنقل بين البيمارستانات:

لم يكن الأطباء يستمرون بالعمل في بيمارستان واحد بل عرف عنهم التنقل بين البيمارستانات طلباً للخبرة الطبية، ولكي يتعرفوا على أمراض جديدة وطرق متنوعة للعلاج، بل وأحياناً للتزود من الكتب والموسوعات الطبية التي كانت تحفل بها البيمارستانات في ذلك الزمان، كما فعل (جبرائيل بن بختشيوع) عندما ترك العمل في بيمارستان جنديسابور وذهب للعمل في بيمارستان بغداد، وكذلك عندما ترك (علي بن محمد القيسي القرطبي) بيمارستان قرطبة الكبير وذهب للتدريب في بيمارستان نور الجبل في حلب، ومثله (ابن عبدون العذري) الذي ترك الأندلس ليعمل في بيمارستان القاهرة عام (958م)، وكذلك قام (الفخر الرازي) كبير أطباء زمانه بالتنقل بين البيمارستانات المختلفة في الري وبغداد.

شروط مزاولة المهنة الطبية:

كانت هناك عدة شروط للسماح للأطباء بمزاولة المهنة التي كانت في أول العهد مجرد قراءة الطب على طبيب نابه في عصره، ثم اشترط القائمون على رقابة المهنة الطبية اجتيازهم لامتحان الأطباء الذي يستدعي معرفتهم بفنون العلاج، وصناعة العقاقير وأن يكون خبيراً في أنواع الأدوية والأشربة، وأن يعمل بخفة وسرعة وبلا ارتعاش أو ذهول، وينبغي أن يكون له مايحتاجه من آلات طبية وجراحية طبقاً لتخصصه، وبالطبع يكون على خلق وسمعة طيبة وكتوماً للأسرار طبقاً للقسم الطبي الذي حلفه أمام المحتسب، وقد عرف عن الأطباء أنهم كانوا يزورون مرضاهم في بيوتهم ويهنئوهم بالشفاء من الأمراض، وكذلك كان يساعدهم صيدلي يهتم بالنباتات الطبية والأعشاب الموجودة في حديقة البيمارستان ويكون له علم واسع بالأدوية المركبة والمفردة كل على حدة.

مهنيو الرعاية الصحية وموظفو البيمارستان:

وقد عمل فصادون في البيمارستان لفصد العروق[1]، وقد أجروا عملية الفصد تلك لمرضى الصرع، وقد نجحت هذه الممارسة في تخفيف النوبات ومن أشهر الفصادين (ابن المرخم) في بيمارستان بغداد، و(صابر بن بشر بن عبدوس)[2] الذي أصبح فيما بعد رئيساً للبيمارستان العضدي الشهير ببغداد، وكذلك قام الحجامون بامتصاص الدم الفاسد أو الزائد وعملوا أيضاً بالختان، وكان لزاماً على الحجام أن يقتني مقصاً وشفرة قاطعة لذلك، ومحجم لإجراء الحجامة، وقد عرف وجود كتاب داخل البيماستان مثل (عبد الرحمن السيرحمي) و(شمس الدين القرشي) في البيمارستان النوري، وقد كانوا يسجلون أسماء المرضى وأمراضهم والعقاقير المصروفة لهم وحتى مواعيد زيارة أقربائهم في البيمارستان.

(1) الرازي: الحاوي في الطب ج2، ص 96.
(2) ابن سينا: القانون في الطب ج6، ص 284.

وكان يعمل في البيمارستان أيضاً طائفة من الفراشين والخدم، وكان الواحد يسمى حرملة منهم (عثمان الظاهري) في البيمارستان العضدي، وكذلك الحلاقون الطباخون والخياطون والنجارين من الرجال والنساء لخدمة المرضى والقيام على شؤونهم الصحية من اغتسال وغيره، بل وكان هناك من العمال من يختص بسقي الأدوية للمرضى كما يحددها الأطباء في الوقت المعين لذلك، ومنهم (أبو المعالي الغزال) في البيمارستان العضدي ببغداد[1]، وكان يعمل في البيمارستان شخص يطلق عليه المهتار، وهو المسؤول عن خزانة الشراب أو الصيدلية في ذلك العصر التي كانت تحتوي على الأدوية المختلفة والآلات الطبية والآنية الصيني من الزبادي والبراني والأزبار، وكان يحضر للبيمارستان في الصباح والمساء، ويتولى صرف الأدوية للمرضى حسب وصف الأطباء[2]، وأخيراً كان هناك مؤذن لمسجد البيمارستان ومن يقوم على تجهيز الموتى من المرضى، وإعلان وفاتهم كالشيخ (راشد التكروري)[3]، وكذلك الشيخ (عبد الرحمن)، و(محمد بن سالم البلدي) شيخ بيمارستان مكة، وكذلك طائفة من الحرس والنواطير من الرجال والنساء، وأفراد الفرقة الموسيقية، وقد أضيف إليهم فيما بعد شيخ سوق البيمارستان وكان تحت إشراف ناظر البيمارستان شخصياً.

وكانت هناك أيضاً وظيفة في البيمارستان تسمى خازن الطعام، وخاصة التمور التي كانت تعتبر طعاماً أساسياً وحيوياً للمرضى، ومن أولئك نذكر (أبا بكر البغدادي) في البيمارستان العضدي، و(عبد الله الأصبهاني) في بيمارستان أصبهان، وهناك وظيفة أخرى لشخص يدعى أمين البيمارستان الذي كان يحفظ أموال المرضى عند دخولهم المشفى حتى موعد خروجهم منه، مثل (صواب الطوائفي) في البيمارستان النوري، و(أبو إسحق الداني) في بيمارستان مراكش، ومن العجائب التي تروى عن البيمارستانات في عصر النهضة العربية الإسلامية أن هناك من كان يعمل لإيهام المريض بالشفاء، فقد خصص وقفاً يعطى لاثنين من موظفي البيمارستان يمران كل يوم بجانب المرضى، ويتكلمان بصوت خفيض ويوحيان إلى هؤلاء المرضى بأنهم قد استجابوا للعلاج، وتماثلوا للشفاء وذلك من أجل أن تتحسن نفسية المرضى وترتفع معنوياتهم.

وقد عين الخلفاء قاضياً للبيمارستان، وكان يتولى نظر الأوقاف وكذلك البيمارستانات والجوامع مثل (علي بن محمد بن الحسين البسطامي) قاضي البيمارستان العضدي الذي توفي عام (1065م)، وإذا ما احتاج ذلك القاضي مشورة غيره من القضاة في بعض قضايا البيمارستان استدعاهم، وشاورهم مثل القاضي (الباعوني) قاضي البيمارستان النوري بدمشق عندما استعان بالقاضي (المريني) المغربي.

---

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام ج36، ص 344.
(2) ابن سينا: القانون في الطب ج6، ص 272.
(3) الذهبي: تاريخ الإسلام ج37، ص 391.

موارد البيمارستان الاقتصادية:

أجور الأطباء:

كان الخلفاء والملوك والأمراء يغدقون على الأطباء من الأرزاق والمنح السخية الشيء الكثير حتى علف للدابة التي يركبونها كان يتم توفيرها لهم اعترافاً بفضلهم وللمهمة الجليلة التي كانوا يقومون بها من مداواة المرضى، وكان يصرف لهم مرتب شهري من الدولة يدعى (الجامكية) (كجبرائيل الكحال) بمقدار ألف درهم في كل شهر، وكان (الماسويه) نفقة من (الفضل البرمكي) في بغداد في كل شهر ستمائة درهم وعلف الدابة الخاصة به[1]، ثم زادت إلى ألفي درهم، ومعونة في السنة عشرة آلاف درهم، وعلف للدابة وبيت، ولم يكن الأطباء يحصلون على مرتب واحد بل أحياناً كان يصرف لهم مرتبين مثل (جبريل بن بختيشوع)، فكان يأخذ برسم الخاص ثلاثمائة درهم شجاعية، وبرسم البيمارستان ثلاثمائة درهم شجاعية، وبعض الأخبار تذكر بحصوله على مكرمة من (هارون الرشيد) تقدر بأربعة ملايين درهم سنوياً، وكان (لعز الدين بن السويدي) مرتب شهري من أربع جهات وكان يعمل بالبيمارستان النوري وبيمارستان باب البريد في دمشق، ولكونه يتردد على قلعة دمشق ولتدريسه في مدرسة الدخوارية[2]، ومثله (عيسى النفيس) الطبيب الذي يأخذ ثلاثة مرتبات إحداهما نتيجة عمله كمترجم للكتب الطبية من السريانية للغة العربية، ولكننا نجد أن بعض الأطباء قد ترفع عن أخذ مرتباتهم الشهرية وفضل بدلاً من ذلك العمل مجاناً احتساباً للأجر من الله عز وجل[3]، مثل الطبيب (كمال الدين الحمصي) الذي كان يعالج المرضى في البيمارستان الكبير النوري بدمشق، و(أبو عبد الله القطيعي) الذي كان يؤوي المرضى المحتاجين ويطعمهم ويعالجهم بل ويعطيهم من المال مايكفيهم، وقد كان بعض المرضى يدفعون بسخاء وطيب نفس لأطبائهم ويضعون الأجر في قرطاس ورقي، أو قطعة من قماش حتى لا يعرف أحد من المتواجدين في الغرفة ما أعطوا، لكن بعضهم كان يساوم الطبيب في أجرته، وتذكر بعض الأخبار أن (الكحال) كان يتقاضى أجراً لقدح العين حوالي دينارين.

نفقات البيمارستان:

كانت البيمارستانات تتحصل على مستلزماتها المالية لشراء الأسرة، والفرش والمأكل والأدوية وأجور العمال والخدم التي كانت تسجل في سجلات خاصة وحتى العطور كانت تشترى من الأوقاف المتعددة التي قدمها الأغنياء لمداواة المرضى ابتغاء للثواب من الله عز

(1) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 152.
(2) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج2، ص 216.
(3) نفس المصدر، ج2، ص 282.

وجل فقد وهب (نور الدين محمود) فدية أمير أفرنجي لبناء بيمارستانه الشهير في دمشق، وبلغ ما أوقفه بعض الحكام على البيمارستانات الشيء الكثير، فمثلاً كان إيراد بيمارستان (ابن الفرات) مايقرب من 200 دينار في الشهر، ونال بيمارستان (معز الدين البويهي) أكثر من 5000 دينار سنوياً، وقد أوقفت (أم المقتدر) 600 دينار شهرياً على بيمارستانها العامر ببغداد، وكان للبيمارستان (القميري) بدمشق خراج عدة قرى كاملة، وكذلك سفح جبل قاسيون، وقد بلغ إنفاق (ابن طولون) على بيمارستانه الشهير بمدينة القطائع المصرية الشيء الكثير والمذهل، حيث أنفق عليه مايقارب 60000 دينار ذهباً، وقد أوقف عليه سوق الرقيق وحمامين، وكذلك مكتبة عظيمة، لكن (ابن أبي أصيبعه) يشير في (طبقات الأطباء) أن بعض نظار البيمارستانات لم يكونوا دائماً حريصين على النهوض بمسؤوليتهم.[1]

خدمات البيمارستان العلاجية:

حرص الحكام طوال فترة بقاء الحضارة العربية الإسلامية على توفير الخدمة الطبية للمرضى بالمجان ودون تمييز بناءً على الاختلاف في العرق أو الجنس أو الدين، فقد كان المريض يتسلم ورقة تحمل اسمه، ويسجل فيها طبيبه شكوى المريض وعلامات المرض، وكذلك طريقة العلاج التي تتضمن الأدوية والعقاقير الخاصة بحالته[2]، وكان البيمارستان يتكفل بالمريض من يوم دخوله إلى يوم خروجه من طعام ولباس ودواء، وكان الخلفاء والأمراء والوزراء يعودون المرضى في البيمارستانات ويهبونهم في آخر الزيارة بعض المال، وإذا خرج شافياً كان يُعطى المال للإنفاق على نفسه لحين استطاعته الرجوع إلى عمله من جديد وحتى عند الوفاة تقوم إدارة البيمارستان بتجهيزه وتكفينه ودفنه دون أن يطلبوا من أهله أية نفقات أو أموال لذلك.

وكانت مدة إقامة المريض غير محددة بل كان يستطيع البقاء فيه والحصول على كل الخدمات بالمجان لمدة طويلة قد تبلغ شهوراً، أو حتى سنة وكان بعض الأطباء يعالج المرضى ويدفع لهم الأموال (كصلاح الدين بن يوسف الكحال)، وبعضهم مثل (دينار المعزى) كان يعد الغذاء والدواء مجاناً ويقدمه للمرضى احتساباً للأجر من الله عز وجل.

كان المريض يفحص في العيادة الخارجية فإذا كان مرضه بسيطاً كتب له الطبيب الدواء على بطاقته ويطلب منه الذهاب إلى خزانة الأدوية ليصرفه ثم يعود إلى بيته وإذا كان المرض شديداً، ويتطلب بقاء المريض في البيمارستان، فبعد أن يقيد اسمه في سجلات البيمارستان كان يدخل الحمام للاغتسال وتبديل ملابسه بثياب أخرى نظيفة مجانية لمنع انتقال العدوى عن طريق ملابسه التي كان يرتديها حين مرض، ويذهب إلى أمين البيمارستان الذي كان

(1) ابن جبير: رحلة ابن جبير ج1، ص 198.
(2) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج1، ص 221.

يحفظ أمواله وثيابه حتى موعد خروجه منه، ولا يُسمح له بدخول القاعات الأخرى لمنع انتقال العدوى أيضاً.

في بداية مرحلة العلاج تذكر المراجع التاريخية أنه كان يشترك أكثر من طبيب في البيمارستان لمناقشة الحالة المرضية، حيث يتبادلون الخبرة والمعرفة الطبية لضمان دقة التشخيص وكفاءة العقاقير المستخدمة للمريض، وكذلك كان الأطباء وتلامذتهم يمرون كل صباح على قاعات المرضى للاطلاع على تطور الحالة المرضية، واستجابة المريض للعلاج المقرر لحالته، ويبدأ الطبيب بسؤال المريض عن اسمه، ومكان بيته وطبيعة عمله وحالته الاجتماعية إذا كان متزوجاً أو عزباً، وهذا ما يسمى بالتاريخ الشخصي، ثم تنتقل الأسئلة إلى مايسمى بالتاريخ المرضي لشكواه، ومدتها وموضع الألم في جسده وشدته، وكذلك عن شهيته لتناول الطعام، ثم يفحص مكان الشكوى، وبعد ذلك يقيس نبضه ويطوف ببصره إلى وجهه وبياض مقلتيه وسائر جسده، وتكون تلك الجلسة فرصة لتعليم الطلبة فنون العلاج وكذلك لاختبار معلوماتهم الطبية وقدرتهم على التشخيص والمداواة.

كان المرضى يوزعون حسب حالاتهم المرضية على قاعات البيمارستان المختلفة ويخصص لكل واحد منهم سرير عليه كسوة نظيفة، ويؤمر له بغذاء وشراب ويعطى دواءه في الأوقات المخصصة لذلك، وكان الأطباء يمرون على المرضى ليتأكدوا من حصول المرضى على أدويتهم، أما إن كان المرض مزمناً ويتطلب علاجاً طويلاً فقد كان يسمح له بمغادرة البيمارستان ويكتب اسمه ليكون له الحق في التردد على الطبيب المعالج في العيادة الخارجية[1] بعد ذلك حتى يتم الله له الشفاء، وكان الأطباء يقومون بتوفير الزيارات المنزلية لمرضاهم بالمجان في بيوتهم، وذلك بعد خروجهم من البيمارستان ونرى بعضهم وقد اصطحب تلامذته للاطلاع على تطور حالة المريض. كان المريض يفحص جيداً في سريره[2]، ويتحقق الطبيب المعالج من لون بياض العينين وحركة المقلتين ويسأله عن مواضع الألم في جسده، ويحس النبض ويتحقق من التورم في القدمين إن وجد ويتحسس بطن المريض للتأكد من وجود أي ورم به، ثم يطلب أن يرى إفرازات المريض المختلفة كالبول الذي يجب أن يكون متجمعاً عند الاستيقاظ في أول النهار أو ربما بعد فترة نوم طويلة، وكذلك يفحص البراز وربما البصاق، ويعلق عليها في ملاحظاته ويسجل التغيرات في سجل المريض.

كان الاهتمام بالبول كبيراً في تلك الفترة[3]، فقد كان الأطباء يرون أنه يساعدهم في تشخيص الحالة المرضية فكانوا يسجلون خصائصه المتعددة، ومنها الكمية واللون والرائحة ودرجة الصفاء وحدوث عكارة أو اصفرار شديد، وكذلك ملاحظة أي ترسبات فيه ووجود أي زبد فوق سطحه.

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 732.
(2) ابن سينا: القانون في الطب ج 6، ص 350.
(3) زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص240.

وقد قام الجراحون في البيمارستان بإجراء العديد من العمليات الجراحية فيه مثل علاج الناسور والبواسير وجراحات الأنف وإزالة الأورام، وقد قام الطبيب النابغة (أبو القاسم الزهراوي) بعملية إزالة حصيات المجاري البولية وشق القصبة الهوائية، بل وعالج تضخم الغدة الدرقية بالجراحة واستخدم الكي لإيقاف النزيف أثناء العمليات الجراحية.

أما المرضى النفسيون والعقليون فقد كان لهم نصيب وافر من خدمات البيمارستان المجانية، فقد أدرك القائمون على أمر البيمارستان أهمية العامل الديني في إتمام الشفاء من الأمراض النفسية فوكلوا بالمرضى من يقرأ لهم القرآن ثم يصطحبهم داخل حديقة البيمارستان، وكذلك وفروا لهم الفرق الموسيقية التي كانت تعزف داخل البيمارستان لتقليل التوتر العصبي لديهم[1]، واستخدم الأطباء أسلوب تلاوة القصص والروايات المضحكة للترويح عنهم.

نهاية البيمارستانات:

وكما هو معروف فإن دوام الحال من المحال فقد تعرضت تلك الأماكن العلاجية إلى الكثير من الكوارث والمحن وعاديات الدهر، مما أدى في النهاية إلى ضعف دورها في العناية بصحة الناس وعلاج المرضى، نذكر من ذلك الكوارث الطبيعية من هزات أرضية وزلازل قوية اجتاحت العالم الإسلامي فأدت إلى تصدع تلك المنشآت الجليلة كالزلزلة العظيمة التي حدثت عام (1097م) في بلاد الشام[2] ودمرت الكثير من المباني ومنها بالطبع البيمارستانات، وكذلك الزلزال الذي اجتاح مدينة القدس عام (1105م) وهي يومئذ ترزح تحت الحكم الصليبي، وتكررت الواقعة في نفس المدينة عام (1166م)، وأطاح ببيمارستان القدس ولم ينج البيمارستان العضدي من دمار إذ أزاله من الوجود الزلزال الكبير الذي اجتاح بغداد عام (1067م)[3]، ولم تتخلف بيمارستانات دمشق عن ذلك المصير المفزع فلحق به البيمارستان النوري الشهير عندما خربته زلزلة عظمى حدثت عام (1200م)، وتعرضت مصر إلى زلزال عنيف امتد إلى بلاد الشام ودمر البيمارستان النوري للمرة الثانية بعد ترميمه.[4]

ولم يكن الزلزال هو السبب الطبيعي الوحيد في خراب البيمارستانات بل شاركته الفيضانات العاتية ذلك عندما خرب فيضان ضخم البيمارستان العضدي في عهد الخليفة (القائم بالله)، ثم عاد الفيضان مرة أخرى ليدمر الترميم الذي أحدثه (القائم)، وحدث ذلك في عام (1173م) أيام حكم (طغرلبك السلجوقي) الذي أمر بإعادة ترميمه.[5]

---

(1) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص 73.

(2) غوانمة: الزلازل في بلاد الشام، ص 25.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 381.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج6، ص 174.

(5) الذهبي: تاريخ الإسلام ج31، ص 24.

كما شكل غزو التتار على البلاد الإسلامية سبباً إضافياً لخراب البيمارستانات فقد قاموا بالهجوم على مدينة ديار بكر[1] وهدموا بيمارستانها العامر بالكامل، وكذلك اجتاحوا مدينة خوارزم وقتلوا أطباء البيمارستان، ثم هدموه تماماً في عام (1219م) وكذلك فعلوا ببيمارستان الري، وأخيراً كرر التتار فعلتهم النكراء عندما خربوا بغداد (دار السلام) ودمروا البيمارستان العضدي الشهير عام (1258م)[2]، وفي نفس السنة لم يكتفوا بذلك بل امتدت أيديهم بالخراب، إلى بيمارستان الصالحية (القميري) فدمروه تدميراً تاماً، وتكرر نفس السيناريو لبيمارستانات عديدة نذكر منها بيمارستان الجبل الدمشقي، وبيمارستان حصن الأكراد وأخيراً البيمارستان المقتدري في بغداد.

وامتدت يد الإهمال والنسيان إلى تلك المباني الرائعة فأكملت مافعله الغزاة فها هو بيمارستان حلب قد تخرب بالكلية، وأصبح مجرد مأوى للغرباء والمارة، وكذلك البيمارستان الأسفل الذي أنشأه الأستاذ (كافور الأخشيد) في مدينة العسكر بمصر نجده قد أصبح خالياً من الأطباء والمرضى، وأصبح أثراً بعد عين، وكذلك بيمارستان (نور الدين محمود زنكي) وبيمارستان زقاق القناديل بمصر قد اختفي بفعل عوامل التعرية[3] من أمطار واختلاف في درجات الحرارة من برد ورطوبة، وأكمل قطاع الطرق واللصوص مافعلته الأيام كما حدث لبيمارستان بغداد الواقع في منطقة الحلبة الذي نهبه اللصوص وسرقوا مابه من آلات وأدوات طبية، لكن تلك النهاية المأساوية للبيمارستانات لا تستطيع أن تنفي أو حتى تقلل من قيمة الدور الجليل الذي بذله أطباؤها والقائمون عليها من توفير ماستطاعوا من خدمة طبية لاتقارن بمثيلاتها في الحضارات المعاصرة لهم أو حتى السابقة.

وخلاصة القول يجدر بنا أن نذكر أن العرب المسلمين قد نجحوا نجاحاً منقطع النظير في بناء أماكن للاستشفاء، أو البيمارستانات لتوفير الرعاية الصحية للمرضى من جميع الملل والنحل، وقد حرص الحكام ومن شابههم في الإنفاق بسخاء على تلك المنشآت العلاجية مدفوعين إلى ذلك بقيم حضارية سامية قل أن يوجد مثلها في تاريخ البشرية، وقد حققوا مبدأ تحقيق التكافل الاجتماعي حين جعلوا الخدمات الطبية والعلاجية، وحتى توفير الغذاء للمرضى بالمجّان، بل كانوا يهبون الفقير في مرحلة النقاهة مبلغاً من المال لينفق به على نفسه لحين استرداد قدرته على مواصلة عمله، تلك النزعة الإنسانية مكنتهم من أن يحملوا لواء الحضارة والمعرفة قروناً عديدة.

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج2، ص 494.
(2) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص 72.
(3) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج1، ص99.

الفصل الرابع

الصيدلة العربية وعلم الأدوية

مقدمة:

الصَّيْدَلَةُ هي علم أصيل يبحث فيه العلماء عن مختلف أنواع العقاقير والأدوية وكيفية الحصول عليها من مختلف المصادر المعدنية والنباتية والحيوانية، وكذلك التعرف على خصائصها وتركيباتها المختلفة وطرق تعاطيها وتجهيزها في مختلف الأشكال، بل وما يتعلق بها من مشتقات تستعمل في شتى الاستعمالات كعلم السموم ومواد الزينة وهي مهنة طبية تربط العلوم الصحية مع العلوم الكيميائية، وتكون مسؤولة عن ضمان الاستخدام الآمن وفعالية المستحضرات الدوائية، وما تصير إليه في جسم الكائن الحي، وكيفية تأثيرها فيه في كل من حالتي الصحة والمرض، وترتبط مهنة الصيدلة بالعديد من المهن كعلم اقتصاد الدواء وإدارة الصيدليات والإحصاء الحيوي والصحة العامة والطب الإكلينيكي.

منشأ العقار والأقراباذين ورمز الصيدلة:

العقاقير جمع عقار وهو لفظ عام يشمل كل ما يستخدم في صنع الأدوية سواءً مفرداً أم مركباً وهو كلمة ربما ترجع لأصل سرياني أو حبشي بمعنى أصل أو دواء وبعض الآراء ترجعها إلى أصل عربي بمعنى مادة سامة قاتلة من عقر أي ذبح أو قتل، أما لفظة أقراباذين فهي فارسية الأصل ربما أتت من كربدن، أو لعلها أتت من أصول يونانية (اكربيا ديايتيا) التي تعني نظاماً غذائياً، أو ربما من كلمة جرافيديون التي تعني رسالة صغيرة، وقد وجدت تلك اللفظة طريقها إلى السريانية وأصبحت أجرافاذين، واستعمل العرب تلك اللفظة للدلالة على الأدوية المركبة وأضافوا إليها كلمة أخرى هي دستور لها نفس المعنى.[1]

أما رمز الصيدلة الشهير وهو رمز العصا الذي يلتف حولها ثعبانان ربما جاء من أصول بابلية تصويراً لإله الطب نينازوا، وابنه نينجيشزيدا، وكانت الثعابين مقدسة عند العديد من الشعوب كالمصريين والبابليين والإغريق، وقد أصبحت رمزاً للحياة والشفاء والحكمة وقد رمز اليونان القدماء إلى الإله (اسكليبوس) إله الطب بصورة رجل يحمل بيمينه عصاً يلتف

(1) محمد كامل حسين وآخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلية عند العرب ج2، ص273.

حولها ثعبان، والعصا شعار المسافر الذي لا يقر له قرار والثعبان دليل المعرفة، فهو الذي عرف (اسكليبوس) بنبتة الحياة، إذ أن (اسكليبوس) كان مسافراً وفي أحد الأيام برز له ثعبان ميت، وبينما هو ينظر إليه إذ خرج ثعبان آخر يحمل في فمه نبتة حتى وضعها في فم الثعبان الميت، وما هي إلا لحظات حتى عادت الحياة إلى الثعبان الأول فعلم (اسكليبوس) بسر هذه النبتة.

أصل ألفاظ الصيدلة والفارماكوبيا والصيدلة:

كلمة الصيدلة أو الفارماكوبيا مشتقة من اللغة اليونانية فارماكون، بمعنى الدواء أو العقار وربما تكون متعلقة بلفظة فارماجيا، أو الفن الذي ينبع منه فنون السحر وبعض المؤرخين أمثال (كريمر) و(أوردنج) و(جيمس جرير) يرجعونها إلى كلمة مصرية قديمة هي (فارماكي) التي تعني ضد المرض، لكن لفظ الصيدلة معرب، وهو من أصول هندية ارتحل إلى الحضارة الفارسية من قديم، ثم ظهر في المؤلفات العربية نتيجة عمليات الترجمة للكتب الطبية الفارسية، وربما تعني جندل وحرف فصار صندل أو صندن، وهو اسم لخشب الصندل ذي الرائحة العطرية المستورد من بقاع الهند[1]، وانتقل الاسم من العامل في مهنة العطارة التي يتبعها الصندل إلى الشخص الذي يمتهن معرفة الأدوية والعقاقير وجلها من مصادر عشبية، إذ كان أساس الأدوية الأعشاب وأطلق على من اشتغل بصناعة الأدوية الشجّارون والعشابون والعطّارون، إلا أن مدلول الكلمة اتسع ليشمل كل الأدوية بما فيها من أصول حيوانية ومعدنية.

لذا فإن (أبا الريحان محمد بن أحمد البَيْرُوني) (973 – 1048م) الذي كان رحّالة وفيلسوفاً وفلكياً وجغرافياً، وصيدلياً ومؤرخاً يذكر بأن لفظتي الصيدلاني أو الصيدناني معربتان من جندلاني أو جندناني، وقد ألف كتاباً أسماه الصيدنة في الطب، وجدير بالذكر أن أول من لقب بالصيدلاني هو (أبو قريش الصيدلاني) كما ذكر (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي) (1172 – 1248م)، وهو مؤرخ وطبيب عربي له العديد من المؤلفات أهمها (إخبار العلماء بأخبار الحكماء)، وجدير بالذكر أن أول دواء يحمل علامة تجارية وهو عبارة عن أقراص طمي ظهرت في جزيرة ليمنوس حوالي عام (500ق.م) كان يتم تصنيعه عن طريق تحضير عجينة ذات سمك ووزن معين، ويتم كبسها ثم تجفف في الشمس. وأخيراً فإن الصيدلية هي المكان المختار الذي توجد به المادة الطبية ويتم فيها تركيب الدواء وتداوله وبيعه للجمهور، والصيدلي فيها يسدي النصائح الطبية والصحية للجمهور، وربما تكون الكلمة مأخوذة من أبوتيكا، وهي لفظة يونانية بمعنى مخزن أو تكون قد نشأت كما يذكر جيمس جربر من أصول مصرية قديمة مأخوذة من اسم بلدة أبوتيج في محافظة أسيوط في صعيد مصر.

(1) محمد كامل حسين وآخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلية عند العرب ج2، ص 271.

تاريخ الصيدلة:

ربما يكون فن المداواة بالأعشاب قد بدأ مع ملاحظة الحيوانات، مثل الكلاب التي كانت تمرض فتبحث عن أعشاب بعينها لتأكلها وتشفى، وكانت القطط كذلك عندما تشعر بآلام في المعدة تبحث عن أوراق النعناع لتأكلها، ذلك أنها وجدت بالتجربة أنه يساعدها في طرد الغازات التي تنفخ بطونها وتسبب نوبات المغص، وهناك من يذكر أن بعض القبائل في الكاميرون وجدت أن العديد من الحيوانات تذهب لتأكل بعض الطين في مكان معين، وبتقدم البحث العلمي وجد العلماء أن ذلك الطين يحتوي على عنصر المولبيدنيوم النادر وغير الموجود في بيئتها الأولى، وقد لاحظ أيضاً الخيول التي تحفر الأرض بحثاً عن عنصر الكالسيوم تحت التربة، وهناك بعض الآبار التي تحتوي على عنصر الليثيوم الذي يفيد في بعض حالات الهياج العصبي وقد استخدمت من قديم كعلاج للمجانين وبنيت بجانبها المعابد.

هكذا بدأ البشر في اختيار الأدوية من مختلف أنواع الأعشاب والنباتات العلاجية وعبر السنين تراكمت لديهم الخبرة العلاجية مستعينين بما يحيط بهم في بيئتهم القريبة، وبدأت ممارسة مهنة الصيدلة عندما كان الإنسان في العصور الأولى يضع عصير أوراق النباتات فوق الجروح المختلفة في محاولة منه لعلاجها، وأصبحت من ثم مهمة الصيدلة هي ممارسة تركيب الأدوية والعقاقير وصناعتها عبر العصور والأزمان وارتبطت بالتدريج بالحفاظ على صحة وحياة كل من الإنسان والحيوان.

الصيدلة في عصر ما قبل التاريخ:

منذ فجر التاريخ الإنساني وممارسة فنون الطب والصيدلة المتعلقة بها تمارس في المعابد عن خلال الكهنة والعرافين، لذا فإن علاج المرضى كان يتم بمزيج من استخدام الدواء وكذلك التعاويذ الدينية. كان الأطباء الكهنة يحضرون الدواء ويصفونه للمرضى، وكانت الأدوية تتكون إما من مصدر أو عنصر واحد سواء أكان معدنياً أو نباتياً أو حيوانياً أو من أدوية مركبة تصنع من خلط ومزج عدة عناصر من نتاج الطبيعة، ولم يقتصر على الأعشاب والنباتات بل تعداها إلى استعمال الماء البارد والطمي والمواد الملطفة الأخرى، لقد كان تفكيراً بدائياً بالطبع، ولكن بتكرار المحاولات تعلم الإنسان ما هو نافع فيأخذه وما هو ضار فيتحاشاه ويتجنبه، وقد قدست الشعوب علوم الطب والصيدلة وجعلوا لهما آلهة تعبد ومزارات مقدسة ففي مصر نجد كلاً من إيمحوتب وتحوت وفي بابل نينازو، وفي فارس أهورامازدا والصين نونج وشانج شونج شينج أما في الحضارة اليونانية نجد اسكليبوس.

الصيدلة والأدوية عند المصريين القدماء:

في مصر القديمة قام كهنة المعابد القديمة باحتكار المعرفة المتعلقة بالطب والدواء، وقد كانت تلك المعارف تدرس في العديد من المعابد التي كانت تزخر بها أرض مصر، وكذلك

بيوت الحياة المتعلقة بها أو بير عنخ[1]، وخاصة في أون (عين شمس) وطيبة، وسايس، وفي تلك الأماكن كانت تدرس العلوم الطبية والأدوية والنباتات الطبية من كيفية زراعتها في أنسب أوقاتها، وكيفية استخلاص العناصر الفعالة منها وتحضير الأدوية في مختلف الأشكال المستعملة في ذلك الزمان كحبوب ومنقوعات ولبخات وغسولات ومراهم وحقن شرجية، وحتى الدش المهبلي وقطرات للعين وكانوا يضعون بعض السوائل على سطوح أحجار تم تسخينها من قبل حتى تتطاير على هيئة مستنشقات يتنفسها المريض على صورة أبخرة لتشفي أمراض الحلق والصدر، ومن الطريف أن الزكام مثلاً يعالج بمثل هذه العبارات السحرية: «اخرج أيها البرد يا ابن البرد يا من تهشم العظام وتتلف الجمجمة وتمرض مخارج الرأس السبعة أخرج على الأرض».

كان الأطباء العشابون هم أقدم صنوف الأطباء كما يذكر (بدج) في كتابه (العشابين) (1928م)، وكان يقوم بتحضير الأدوية في أماكن معينة من المعابد تدعى (أست) اختصاصيون من رجال الكهنة أسموهم (سنو)، ومساعدين للكهنة أطلقوا عليهم لفظة (أروما) وكان الأطباء يتقاضون رسوماً باهظة من المرضى، ويقال إنه في حالة شفاء المريض كان عليه أن يحلق شعر رأسه ويزنه ويدفع مقابل وزنه ذهباً أو فضة للطبيب الذي عالجه، ومن المعروف أن الطب في مصر القديم اعتمد على خليط من السحر والشعوذة والطلاسم.

وأشهر من مارس الطب في مصر القديمة كان الكاهن (أمحوتب)، وهو يعتبر أول طبيب في العالم، وكان مشهوراً أيضاً بعلوم الهندسة، وعمل كحكيم في بلاط الملك (زوسر) صاحب الهرم المدرج بسقارة، وذلك في عصر بناة الأهرام، ويعتقد أنه كاتب بردية (أدوين سميث) (3000-2500 ق.م)[2]، وهي تعتبر أول مرجع جراحي في تاريخ البشرية يشرح كيفية معالجة الكسور والجروح، ويشمل كذلك استخدام الأعشاب والنباتات الطبية، وقد قدمت تلك البردية أول دليل على وجود طب منطقي عقلي أساسه الخبرة والملاحظة وعلم تشريح سليم. وقد اعتمدت أساليب علمية تقترب من الأساليب العصرية واستندت على معلومات جراحية وعلى فحص دقيق يدل على معرفة بالتشريح والتشريح السطحي، بالإضافة إلى وظائف الأعضاء وعرفت الأجهزة المختلفة وعلاقة أجزائها ببعضها وربطت بين ظواهر متلازمة في أجزاء متباعدة من الجسم. وبعد تتبع مراحل المرض والتشخيص والعلاج لكل مرحلة، وهناك الكثير من البرديات الطبية أما بردية (كاهون) التي ترجع إلى عام (1950 ق.م)، فتتكون من قسم طبي وقسم بيطري وقسم خاص بحل المسائل الحسابية، أما القسم الطبي فيقع في ثلاث صفحات ولم تتضمن أشياء جراحية بل وصفاً للأدوية وصفحة منها للنساء وتشخيص العقيمات والتكهن بجنس الجنين.

---

(1) محمد كامل حسين وآخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلية عند العرب ج2، ص 274.
(2) حسن كمال: الطب المصري القديم، ص 463-498.

لكن أشهر البرديات قاطبة هي التي اكتشفها العالم الألماني (ايبرس) في الأقصر[1] وتحتوي على (811) وصفة طبية طولها حوالي سبعة أمتار وعرضها 30 سنتي متر، وتتكون من (2289) سطر، وتشتمل كذلك على الأدوية الخاصة بكل عضو من أعضاء الجسم بالإضافة إلي وصف تشريحي دقيق لجسم الإنسان، وتعود إلى عام (1550 ق.م) وفيها تشخيص دقيق للفتق الأربي ويميزه من الورم الشرياني، ويذكر في نهاية الفقرة أنه سيعالج الفتق ولكنه لايذكر كيف، كما تذكر البردية الأمراض الباطنية وعلاجها ووصفات لأمراض العيون وأمراض الجلد وأمراض الأطراف والنبض وأهميته في التشخيص، وهناك بردية (برلين) التي ترجع إلى الأسرة التاسعة عشرة (1300 ق.م) وفيها تكرار ما جاء في برديات أخرى سابقة وبها شرح طبي لمرض الروماتزم وفصل عن الأوعية الدموية. وهناك بردية أخرى اكتشفت في (دير البلاص)، وتحتوي على (260) وصفة طبية، ويعود تاريخها إلى حوالي (1550 ق.م)، وتوجد هذه البردية في متحف لندن منذ عام (1860م)، ويبلغ طولها 2.1 متراً وتحتوي على (63) وصفة سحرية لمعالجة أمراض العيون، والحروق وأمراض النساء، وهناك بردية أخرى تم العثور عليها قرب أهرام سقارة وهي الآن في متحف برلين منذ عام (1886م) وتحتوي على (170) وصفة طبية وهناك بردية محفوظة في كاليفورنيا تدعى بردية (هرست).

كان لفن التحنيط الذي اهتم به المصريون القدماء عاملاً أساسياً في البحث عن أنواع مختلفة من النباتات العطرية والأعشاب للمساعدة في تحنيط الموتى وحفظها من البلى كالحنة والبصل والصمغ وخيار شمبر والمر، وكذلك اللبان ونشارة الخشب والكتان ونبيذ البلح والنطرون.

وقد سجل الكهنة تلك المعارف الدوائية على جدران المعابد والقبور، وفي العديد من البرديات يرجع بعضها إلى القرن العشرين قبل الميلاد، وقد بلغ عدد الأدوية إلى (2000) مستحضر دوائي من مصادر معدنية ونباتية وحيوانية مختلفة، وكانت التعليمات والإرشادات الخاصة بكل مستحضر تذكر بعناية موضحة كيفية تجهيزها بالكميات المطلوبة، وكذلك صفات كل مركب، ومن العجيب أنهم قد أضافوا عسل النحل لتحسين مذاق بعض الأدوية لجعلها مقبولة ومستساغة عند المستخدم.

وتحدثت تلك البرديات عن أنواع متعددة من النباتات الطبية كانت تنمو في بقاع مصر، أو ربما كانت تجلب من بلاد بعيدة كالصومال أو بلاد بونت كما ذكرت جدران المعابد في عصر الملكة (حتشبسوت) في الأسرة الثامنة عشرة أو السودان أو الشام أو حتى بلاد الحبشة وجاء في البرديات، أنهم استعملوا عقاقير من أصل نباتي كالحنظل والزعتر والزعفران والزيزفون والثوم والبصل والترمس والحلبة والجميز، وزيت الزيتون والسمسم والعرعر والخشخاش والرمان وحبة البركة واليانسون والكمون والصفصاف والبابونج

(1) حسن كمال: الطب المصري القديم، ص377–384.

والنعناع والقرنفل وزيت الخروع، وغير ذلك واهتم قدماء المصريين بشجرة الخروع، واعتقدوا أن لها فائدة كبرى في شفاء صداع الرأس، وذلك عن طريق دق الفروع ثم مزجها بالماء لوضعها من ثم على الرأس، وكانت بذور الخروع تستعمل لعلاج الإمساك بمضغها وكمراهم للجروح، ووسيلة ناجعة للحفاظ على جودة شعر النساء، للجروح يضعونها عليها لعدة أيام فتشفيها، وكذلك أدوية من أصل حيواني كغدد الثور ومرارته والجراد والكبد وعسل النحل وقرون الحيوانات، ورحم الكلبة ولبن الحمار، وحتى العقاقير ذات الأصل المعدني كالحديد وحجر الجير وحجر الأثمد وكبريتات النحاس وغيرها الكثير.(1)

الصيدلة والأدوية عند البابليين القدماء:

قام البابليون بتوثيق وتسجيل فن الصيدلة والمدواة، وذلك في العديد من المخطوطات الطبية التي كانت تحتوي على الأعراض المرضية والتركيبات الدوائية كما أنها تحتوي على العديد من الابتهالات إلى الآلهة من أجل الشفاء، وكان إله الطب يدعى (نينازوا)، وفي قانون (حمورابي) العديد من النصوص التي تميز الطبيب الصيدلي من الكاهن، وقد ذكرت أيضاً الرسوم التي يجب أن يدفعها المرضى نتيجة استشارتهم للأطباء وكذلك للغرامات التي يجب أن يدفعها الأطباء عن وفاة المريض نتيجة سوء العلاج. وكانت تلك الوثائق تشمل قوائم الأعشاب والنباتات الطبية المكونة من ثلاثة أعمدة أولها يتم فيها ذكر اسم العشب والثاني طريقة تحضير المستحضر الدوائي، والثالث اسم المرض الذي يعالج بهذا العشب، وأحياناً يضاف عدد مرات الاستعمال وأوقاتها، وكذلك كانت هناك وصفات علاجية لكل عضو مصاب لكنها كانت ممزوجة بالتعاويذ السحرية التي كانت تطلب من الشياطين المسببة للمرض الخروج. وقد استطاع بعض الباحثين التعرف على أكثر من (250) دواء نباتي منها، الزعفران، والزعتر، والخروع، والنعناع و(120) عنصر معدني مثل الكبريت والنحاس والحديد، وأنهم استخدموا أشربة بها كحول وعسل النحل واللبن، واستخدموا الأدوية في عدة أشكال كاللبخات والأشربة والمنقوعات والحقن المهبلية.(2)

الصيدلة والأدوية عند الصينيين القدماء:

بدأ علم الصيدلة في الظهور عند الصينيين القدامى، وقامت في أول أمرها على السحر والشعوذة، ثم تطورت إلى فن للعلاج شعبي قائم على التجربة، ومعرفة تأثيرات العقاقير النباتية، واعتقد الصينيون القدماء أن العقاقير بها قوى حيوية، وأنها تحمل أرواحاً طيبة وأخرى شريرة وعلى الطبيب أن يعمل على معادلة تأثير كل منها، وقد رأوا أن الإنسان يجب

(1) حسن كمال: الطب المصري القديم، ص 145 - 151.

(2) محمد كامل حسين وآخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ج2، ص 278.

أن يعالج بنباتات تشابه لشكل أعضائه في محاولة منهم لتقوية العضو المريض، وقد كان الإمبراطور والعالم الصيني (شين ننج) حوالي (2200 ق.م) أول من قام باختبار التأثير الطبي للعديد من الأعشاب على نفسه، وقام أيضاً بتسجيل أكثر من (365) نوع من الأدوية العشبية والنباتية بعدد أيام السنة في كتاب سماه (بن تساو)، واكتشف تأثير نبات (شانج شانج الأفدرا) المنشط والمعرق، ومنه يستخلص حالياً مادة الإفدرين التي تستعمل في الربو، وقد جرب أيضاً (الدارسين والراوند)، وذكر فوائدهما، وقد كانت له منزلة خاصة عند الصينيين لدرجة أنهم عبدوه ومازال حتى الآن يتخذه الصيادلة رمزاً لهم.(1)

ويعتبر (بيان شوياي) هو أول من ذكره التاريخ من الأطباء الصينيين في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد وجدت وصفات معينة لبعض الأمراض، في مخطوطة بها وصفات لـ 52 مرضاً، وجدت في مقبرة ماوانجدوي، وكانت مغلقة بإحكام في عام (168 قبل الميلاد)، ثم ظهر الطبيب (شانج شونج شنج) الذي عالج الحمى بعقاقير تخفض الحرارة، وتذكر المصادر التاريخية جراحاً صينياً يدعى (هاتو) عاش في القرن الثالث الميلادي، وهو أول طبيب يستخدم الأدوية المخدرة في العالم، ويعتبر أول كتيب صيني للعلاج كان بعنوان (شينونج بينكاو جينج)، وهو يعود إلى القرن الأول الميلادي وقد تمت ترجمته في عصر أسرة هان ومن كتب الصينيين القدماء أيضاً كتاب (الموكنج) (حوالي القرن الثالث الميلادي)(2) به وصفة لحبة الخلود في زعمهم والمكونة من الذهب والزئبق والجاد والكبريت مع خليط من الأعشاب الطبية، وهناك أيضاً كتاب (أدوية الخزانة الذهبية)، وكتاب (الوصفات العلاجية) الذي أكمل فيما بعد بكتاب آخر يدعى (المائة وصفة)، وكان الصينيون ينقعون الأعشاب الطبية في الماء أو يخمرونها، واستعملوا منها المراهم والضِّمَادات الطبية، وقسموا العقاقير النباتية إلى حلو لتغذية العضلات، ومالح لتغذية الأوعية الدموية، ومر لتغذية الجسم وأعطوا أهمية كبيرة للأدوية المفردة، وتجنبوا الأدوية المركبة.

الصيدلة والأدوية في اليابان القديمة:

في اليابان، في نهاية فترة (أسوكا) (538 – 710م)، وبداية فترة (نارا) (710– 794م)، كان للعاملين الذين أدوا أدواراً مشابهة لأدوار الصيادلة احترام كبير، ومكانتهم في المجتمع اليابانى القديم قد تم تحديدها من خلال قانون (تايهو) (701م)، وأعيد صياغتها في قانون يورو (718م)، وقد تم إنشاء وظائف مرتبة لهم في فترة ما قبل حكم (هيان الإمبراطوري)؛ وقد ظل هذا الهيكل التنظيمي حتى استيلاء (ميجي) على الحكم (1868م)، وقد نشأ نوع من التسلسل الهرمي المستقر للصيادلة يتبعهم مساعدون وحتى في القصر الإمبراطوري نجد أن الصيادلة قد صنفوا في مرتبة أعلى من الأطباء الشخصيين للإمبراطور نفسه.(3)

(1) محمد كامل حسين وآخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلية عند العرب ج2، ص 307.

(2) Harper: Early Chinese Medical Literature: The Mawangdui Medical Manuscripts.

(3) Titsingh: Annales des empereurs du japon, p. 434.

الصيدلة والأدوية عند الهنود القدماء:

قام الهنود القدماء بدراسة العديد من النباتات الطبية التي تنمو بكثرة في بلادهم مترامية الأطراف وعرفوا تأثيراتها المختلفة، واستخدموها في علاج الكثير من الأمراض حتى أن (ديسقوريدس) في كتابه الشهير الأعشاب ذكر الكثير من الأعشاب التي كانت تأتي من الهند، وأول مصدر طبي دوائي يمكن الرجوع إليه هو كتاب (ايوزافيدا)، أو علم الحياة وهو يحتوي على صيغ سحرية لطرد الشياطين، لكننا نجد أن أول مصنف معروف للمواد الطبية كان كتاب (سوشروتا سامهيتا) حوالي (القرن السادس قبل الميلاد)، ومع ذلك يعتبر أول نص محفوظ له مكتوب في (القرن الثالث أو الرابع للميلاد)، ترجع أهميته في أنه يحتوي على أكثر من (700) عقار نباتي، كالزعفران، والحشيش، والكركم، وغيرها والعديد من المستحضرات الدوائية ذات الأصل المعدني كالزرنيخ والشب وكبريتيد الزئبق، وكذلك على أدوية من أصول حيوانية كالمسك ولحم الحية والدهون، وقد قسمت تلك الأدوية إلى خمس مجموعات، الغسولات والحقن الشرجية والمقيئات والمسهلات والمعطسات التي كانوا يعتقدون أنها تنقي الدماغ.

وقد كان لعلوم الطب والصيدلة الهندية أثر بالغ على نشوء المعرفة الطبية عند العرب، حيث قام الأطباء الذين أتى بهم خلفاء بني العباس من الهند مثل (كنكة) و(حنجهل) و(تاناق) بتأليف وترجمة أصول الكتب الطبية الهندية، ومن المصادر العربية التي نقلت معارفها من الهند كتاب (فردوس الحكمة) (لابن ربن الطبري) حوالي (850م) الذي أخذ معارفه من أربعة مصادر هندية هي (سوسروتا وشاراكا ونيداما وشتانجا هريدايا)، وقد ذكر (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) العديد من الكتب الهندية التي ترجمت إلى العربية، ومنها كتاب (سسرد)، وكتاب (أسماء عقاقير الهند) (لمنكه الهندي)، وكتاب (استانكر أو الجامع)، وكذلك (سند ستاق)، وتفسير (ابن دهن) وكتاب (سيرك) وكتاب (توقشتل) الذي فيه ذكر لمائة دواء، وكتاب (روسا) الهندية في أدوية وعلاجات أمراض النساء.[1]

الصيدلة والأدوية عند الفرس القدماء:

لقد تأثرت الحضارة الفارسية القديمة بنظيرتها البابلية القديمة، وتعتبر أول إشارة لعلوم الطب والصيدلة في النصوص الفارسية القديمة قد ظهرت في الفصل السادس (فانديداه) من كتابهم المقدس المعروف (بالزند افستا)، وهو يدعو إلى التطهر من الشيطان (اهريمن) الذي يعتبر السبب الرئيسي لنشوء العلل والأمراض في جسد الإنسان، وقد كان للثقافة الطبية الفارسية أثر بالغ في تكوين العلوم الطبية والدوائية عند العرب فقد كان للأطباء والصيادلة المنحدرين من أصول فارسية أثر بالغ في ازدهار العلوم العربية.[2]

(1) محمد كامل حسين وآخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلية عند العرب ج2، ص 301 - 305.
(2) نفس المصدر ج2، ص 301.

الصيدلة والأدوية عند اليونانيين القدماء:

يعد اليونانيون القدماء أصحاب حضارة أثرت في تاريخ الطب، ولقد استفاد الإغريق كذلك من تراث من سبقوهم من شعوب العالم القديم في التداوي بالأدوية، كالمصريين، والبابليين وغيرهم، ويؤكد هذا الكثير من المؤرخين[1] منهم (هيرودوت) أبو التاريخ و(ديودور الصقلي) اللذان ذكرا بأن كثيراً من علماء اليونان ودارسيهم كانوا يزورون المدن المصرية، ويمكثون السنوات الطوال في معابدها في محاولة منهم للتعلم من علوم مصر الطبية ومعارفها، (كأفلاطون) الذي درس في أون (عين شمس) مدة تقارب ثلاث عشرة سنة، وقد لاحظ المؤرخون مثل (وارن داوسون) وجود ألفاظ مصرية قديمة في مؤلفات (أبقراط) و(ديسقوريدس) الذي ذكر في كتابه (المادة الطبية) أكثر من (80) عقاراً ذاكراً أصلها المصري، وقد ذكر أيضاً (جيمس جرير) في كتابه (تاريخ الصيدلة) أن اليونان القدماء قد استقوا الكثير من علوم المصريين الطبية، وأنهم ليسوا إلا شارحين لها، ويؤمن (دي لاسي أوليري) على ذلك القول في كتابه علوم اليونان، وسبل انتقالها على العرب أنه يمكن أن نرجع الكثير من مظاهر الحياة والفكر اليوناني إلى أصول مصرية وأيضاً بابلية، وتعتبر العلوم والمعارف اليونانية في الطب والصيدلة أهم المصادر التي استقى منها العرب معلوماتهم عن الطب والدواء، وقد استمرت مؤلفاتهم لفترة طويلة مرجعاً أساسياً لاغنى عنها لكل دارس أو صيدلاني يهتم بالعقاقير والعلاجات من مصادرها المختلفة.[2]

في بلاد اليونان القديمة يعتبر (أبقراط) (حوالي 460 –377 ق.م) الذي ولد في جزيرة كوس اليونانية أفضل علماء الطب من اليونان القدماء، وقد أطلق عليه العرب (أبو الطب)، ولقد تعلم المهنة على يد أبيه وجده، ويعتبر أول من دون الطب وكان اعتماده على نوع الغذاء والصوم والحمامات المعدنية والتمارين الرياضية والهواء النقي أكبر من اعتماده على الأدوية التي لم يهملها مطلقاً، فقد كان يستخدم أنواعاً من المقيئات والحقن الشرجية والحجامة والكمادات والمراهم والتدليك، ولم يلجأ كثيراً إلى الاستدماء.

وقد ظهر في عهد (أبقراط) ومن بعده العديد من الخبراء بالنباتات الطبية والعقاقير المشتقة منها، وكان العشابون يجمعون أكثر العقاقير الطبية في الظلام، وفي أول الشهر القمري، وفقاً لقواعد خاصة ويعتبر أولهم هو (ثيوفارستس) (371–287 ق.م)، وهو من مواليد جزيرة ليسبوس أتى إلى أثينا، وتتلمذ على يد أرسطو وأصبح خليفته في مدرسة اللسيوم ومن أقواله: «إن الحياة تحكمها الحكمة لا المال»، وهو يعد واحداً من أعظم الفلاسفة الإغريق وعلماء الطبيعة، وقد لقب (بأبي النبات) فهو مؤسس علم النبات وكانت ملاحظاته التي تخص الجودة، والتأثير الطبي للأعشاب الطبية دقيقة إلى حد ما، وله عدة كتب في علم

(1) حسن كامل: الطب المصري القديم، ص 17.
(2) محمد كامل حسين وآخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ج2، ص 280.

النبات أهمها (الاستعلام عن النباتات) وهو في الأصل عشرة كتب، بقيت منها تسعة، يتناول الكتاب السابع الأعشاب، ويتناول الكتاب الثامن النباتات التي تنتج البذور الصالحة للأكل وأتى من بعده (ديوكليس) من (كاريستوس) الذي ظهر في القرن (الرابع قبل الميلاد)، وولد بعد فترة ليست طويلة بعد وفاة (أبقراط)، وكما يقول (بليني) المؤرخ الروماني إنه كان يليه في الشهرة لا يعرف الكثير عن حياته، وقد عاش وعمل في أثينا، حيث كتب ما قد يكون أول أطروحة طبية وأعظم مآثره في الطب العملي، وخصوصاً النظام الغذائي والتغذية وتعتبر كتاباته في الوصفات العلاجية مرجعاً هاماً لمن بعده وقد كتب أيضاً أول كتاب منهجي على تشريح الحيوان.(1)

وتعتبر المصادر التاريخية أن أشهر علماء اليونان في النباتات والأدوية هو (ديوسقوريدس فيدانيوس)، ولد في عَيْن زَرْبَة في قيليقية وجنوب شرق تركيا حالياً سنة (40 ميلادي) وقد درس الطب في الإسكندرية ثم في أثينا، ثم ذهب إلى روما ليصبح طبيباً عسكرياً في الفرقة الأجنبية في عهد الإمبراطور (نيرون) وتجول ما بين عامي (54 و68م) في القارة الأوروبية وفادته تلك الرحلات في تعميق معارفه الطبية والنباتية، ولقد استمد منها عناصر كتاب يعتبر أول وصف للأدوية وتحضيرها باستخدام الأعشاب الطبية يسمى (ماتيريا ميدكا) أو المواد الطبية بين فيه الفاعلية العلاجية للعقاقير النباتية والحيوانية والمعدنية، ولقد نقل ذلك المرجع (اصْطَفن بن بَاسِيل) إلى اللغة العربية في عهد (جعفر المتوكل) (847-861م)، ثم راجعه أستاذه (حنين بن إسحاق). يُعرف في المصادر العربية بعنوان كتاب (الحشائش) أو كتاب (الحشائش والأدوية) أو (كتاب الخمس مقالات) أو (المقالات الخمس) أو (هيولي الطب) أو كتاب (ديسقوريدوس في الأدوية المفردة)، وقد جمع فيه كل ماورد في مؤلفات من سبقه من الأطباء، وظل المرجع الأساسي على مر الأجيال وله شأن كبير في تاريخ تصوير النباتات والأعشاب وعلق عليه كل من (جالينوس)، و(ابن سينا)، و(البيروني) في كتاب (الصيدنة في الطب) وداود الأنطاكي.(2)

وتذكر المصادر التاريخية أن كتاب (ديسقوريدس) كان من جملة الهدايا التي بعثها مَلِك الروم إلى (عبدالرحمن الناصر) سنة (340هـ/951م)، وأن الراهب (نيقولا) الذي كان من ضمن وفد البعثة ساعد في تحديد أنواع النباتات التي وردت أسماؤها في الكتاب ولقد توفي (ديسقوريدوس) عام (90م). وجاء من بعده جالينوس (131-200م) الذي ولد في برجامون، وتعلم بها ثم رحل إلى الإسكندرية مدينة العلوم، وقد عين جراحاً للمصارعين عند عودته لمسقط رأسه ثم عالج الإمبراطور (أورليان) في روما، وقد اهتم بالتجارب العملية لمعرفة كيفية عمل الكلى، ويعتبر أول من توصل إلى العلاقة بين الكسر في العمود الفقري وانقطاع الحبل الشوكي والشلل، كما يعتقد أنه أول من استخدم أسلوب قياس النبض في تشخيص

(1) Kremers and Urdang's History of pharmacy, p17.

(2) محمد كامل حسين وآخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ج2، ص 292 - 293.

الحالات. وضع العديد من النظريات المهمة في مجالات عمل العضلات وتكون الدم. وقد قسم الأدوية إلى ثلاثة أقسام حار ويابس وبارد، ومن ناحية تأثيرها إما بسيطة لو كان لها تأثير واحد أو مركبة لو كانت لها تأثيرات إضافية، والقسم الثالث يبحث في المقيئات والمسهلات والسموم، وكان (جالينوس) يحضر الأدوية والعقاقير بنفسه له غرفة لتحضيرها أسماها (اياتيرون) وأخرى للتخزين أطلق عليها (أبوتيكا)، وبلغ عدد الوصفات الدوائية التي قام بصناعتها (473) وصفة من مختلف المصادر المعدنية والنباتية والحيوانية، ويعتبر أشهرها هو الترياق ضد سموم الأفاعي، واستمر الصيادلة يصنعونه حتى أواخر القرن الثامن عشر، ولقد ترك العديد من الكتب أكثر من (400) مؤلف لم يتبق منها إلا القليل، منها ما كتب في علم الصيدلة وهي كتاب في (قوى الأدوية المسهلة)، وكتاب (الأدوية المفردة)، وكتاب (قوى الأغذية)، وكتاب (الأدوية التي يسهل وجودها)، وكتاب (الأدوية المقابلة للأدواء)، وكتاب (الترياق إلى ميجالينوس)، وكتاب (الترياق إلى قيصر)، وكذلك كتاب (تركيب الأدوية) الذي أشار إليه (ابن أبي أصيبعه) أنه منقسم إلى كتابين كتاب (قاطاجنس)، وكتاب (الميامر أو الطرق)، وهناك من العلماء الرومان (أندروماك) طبيب الإمبراطور (نيرون) الذي كان يستعمل تركيبة تدخل فيها عشرات الأعشاب كترياق لعلاج حالات التسمم.(1)

الصيدلة والأدوية في عهد البطالمة ومدرسة الإسكندرية القديمة:

يبدأ عصر البطالمة بوفاة الإسكندر الأكبر عام (323 ق.م)، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مدينة الإسكندرية قبلة للدارسين والباحثين عن المعرفة في شتى صورها، وانتقلت إليها بفضل جهود حكامها ورعايتهم للعلماء والدراسات الطبية المختلفة من جميع المدن اليونانية، ولقد سعى (بطليموس الأول) إلى نقل العلماء من جامعة عين شمس القديمة ودعى أيضاً علماء اليونان من مدرستي (الأكاديمية والسيوم اليونانيتين) وسرعان ماتكونت جامعة تزخر بالعلماء والباحثين منهم الطبيب الشاعر (نياكاندر) الذي ألف قصيدتين الأولى (ثيرياكا) مكونة من (958 سطر) عن العقاقير الطبية النباتية والحيوانية والمعدنية وعن السموم، والثانية باسم (الكسي فارماكا) مكونة من (630 سطر) عن مضادات السموم، وأصبحت بالتدريج لمكتبة تلك الجامعة شهرة عالمية فقد حوت مئات الألوف من البرديات والمخطوطات في شتى صنوف العلم والمعرفة.(2)

الصيدلة والأدوية عند السريان:

كان لظهور المسيحية وانتشارها كدين رسمي للدولة البيزنطية في القرن الرابع الميلادي أثر سلبي على علوم اليونان، وخاصة عندما أمر الإمبراطور (جوستنيان) بإغلاق مدرسة

---

(1) محمد كامل حسين وآخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلية عند العرب ج2، ص296.
(2) Sandys: A History of Classical Scholarship, p116.

أثينا (538م) فرحل منها العلماء إلى الإمبراطورية الفارسية المجاورة، حيث استقبلهم كسرى الفرس وأنشأ لهم في مدينة جنديسابور معهداً علمياً ضخماً ألتقت فيه المؤثرات المختلفة من عدة ثقافات، وهي السريانية والفارسية واليونانية وحتى الهندية، وازدهر في تلك المدينة الطب والصيدلة، وكان لبيمارستانها المشهور أكبر الأثر في نقل تلك المعارف الطبية إلى الحضارة العربية، حيث تعلم هناك علوم الطب بعض العرب منهم (الحارث بن كلدة) الذي كان في عصر الرسول الكريم، وبالتدريج انتقل أطباء ذلك البيمارستان إلى عواصم الخلافة في دمشق، وبغداد وهناك ساهموا بالكثير في إثراء حركة النهضة الطبية والعلمية بترجمتهم أمهات الكتب الطبية، نذكر منهم (آل بختيشوع) و(يوحنا بن ماسويه) و(حنين بن إسحاق) و(جبريل بن عبد الله).

الصيدلة والأدوية عند العرب:

تعد الصيدلة وهي علم يبحث في العقاقير وخصائصها وتركيب الأدوية من العلوم التي اهتم بها العرب أشد الاهتمام، حيث جعلوها علماً يقوم على التجربة والملاحظة والدراسة المتعمقة، وقد أدى تقدم الحضارة العربية في عدد من العلوم المتصلة بالصيدلة اتصالاً وثيقاً كعلمي النبات والحيوان إلى إثراء المفهوم الحضاري العربي للأدوية والعقاقير؛ إذ أن معظم الأدوية ذات أصل نباتي أو حيواني، وتنبه علماء العرب ودارسوهم إلى ارتباط الصيدلة بعلم الكيمياء، لأن صناعة العقاقير تحتاج إلى معالجة ودراية بمختلف القوانين الكيميائية، فنجد أن (الرازي) الطبيب يكتشف العديد من المواد الكيميائية المهمة كحامض الكبريتيك، ونجح في استخلاص الكحول من تقطيره للنشا، وقد أدرك كغيره من أفذاذ الأطباء العرب أن الصيدلة تعتبر توأماً لعلم الطب الذي يُشخص أسباب المرض، ويصف العلاج له ويحتاج إلى من يصنع الدواء الناجع لذلك المرض، وقد مر علم الصيدلة والعقاقير مثله كباقي العلوم بثلاث مراحل[1] متميزة كانت أولاها هي الترجمة، ثم مرحلة من التلخيص والشرح، والثالثة وهي مرحلة الكشف والابتكار، وبهذا الأسلوب العلمي استطاع علماء العرب والمسلمين أن يجعلوا حضارتهم متميزة فيما يتعلق بالمركبات الدوائية بصورة علمية وفعالة، فعلى الرغم من استعمال الحضارات السابقة للحضارة العربية في العديد من عقاقير الأدوية إلا أن معظم تلك العلاجات كانت مختلطة بالخرافات، والتعاويذ السحرية، وجاء دور العلماء العرب فأولوا صحة الإنسان والتداوي اهتماماً كبيراً فنظروا فيما حولهم من الأمم والحضارات وسعوا إلى ترجمة كل ماستطاعوا إيجاده من كتب ومؤلفات في علم الطب والصيدلة المرتبطة به وكان للمؤلفات اليونانية نصيب الأسد في عملية الترجمة تلك.

وكان أشهر الكتب تلك المادة الطبية في كتاب (الحشائش والأدوية المفردة) التي ألفها ديسقوريدس عام (80م)، ووضعوا له أكثر من ترجمة عدة مرات، أشهرها ترجمة (حنين بن

(1) أحمد فريد رفاعي: عصر المأمون المجلد الأول، ص 48.

إسحاق) في بغداد عاصمة الخلافة، وكذلك ترجمة (أبي عبدالله الصقلّي) في مدينة قرطبة بالأندلس، لكنهم لم يكتفوا بعملية النقل المجردة بل أضافوا إليه ماستطاعوا من أدوية جديدة وعقاقير لم تكن موجودة من قبلهم إلى طريقة غلفوا بها بعض الأدوية التي تؤخذ عن طريق الفم وذلك بغلاف من السكر أو عصير الفاكهة، وبذا قللوا من معاناة المرضى في تذوق مرارة طعمها أو نكهتها غير المستساغة، وقد لجأوا إلى تغليف الأدوية المرة لكي يستسيغها المرضى كما فعل (الرازي)، أو حتى تغليفها بالذهب والفضة المفيدين للقلب كما فعل (ابن سينا)، وتوصلوا إلى تحضير المبنج أو المخدر الذي يزيل الآلام أو يقللها، كما صنعوا وركبوا الترياق المقاوم للسموم.

ويذكر أنه لما نقل المترجمون أسماء الأدوية المفردة من أصول نباتية من كتب اليونان والهند وفارس لم يستطيعوا أن يتعرفوا على كثير منها، وحتى التي تعرفوا عليها لم يعرفوا من خصائصها إلا القليل؛ لذلك فقد بحثوا عن بدائل محلية؛ فنجدهم قد سعوا إلى التأليف فيما أطلقوا عليه أبدال الأدوية، ووضعوا مؤلفات وكتب خاصة بتلك النباتات والأدوية التي لم يشر إليها كبار علماء النبات والأطباء أمثال (ديسقوريدس) و(جالينوس)، وغيرهم من أجل هذا توصل الصيادلة العرب إلى وضع صيغ معدلة للأدوية المعقدة الشهيرة، وبذا اختفت مع مرور الأيام الأعداد الكبيرة من الأدوية المعقدة في التركيب، وازداد بالتالي عدد العقاقير البسيطة من الأشربة والأدوية الغذائية والمسهلات وأدوية تخفيض الوزن والزينة، وما إليها، وبتوالي السنين تراكم لدى العلماء العرب كماً هائلاً من المعرفة في علم العقاقير وأدى ذلك إلى بدء عملية ضخمة ومستمرة من التأليف، والتصنيف كان من أهمها كتاب (الفلاحة النبطية) (لابن وحشية) (ولد عام 800م)، وكتاب (معجم النبات) (لأبي حنيفة الدينوري) (828 – 896م)، كذلك كتاب (الفلاحة الأندلسية) (لابن العوام الأشبيلي) (توفي عام 1158م). تراكمت كل هذه العوامل من الاستفادة من العقاقير المحلية واستبدالها بما كان يستورد من نباتات أجنبية، ووضع معياراً للجودة تكتشف من خلاله الأدوية المغشوشة، وكذلك العمل على توحيد المكاييل حتى تصبح متماشية مع نظام المقاييس الموجودة في البلاد الإسلامية والاستغناء عن المقاييس غير الموحدة المستوردة من مختلف البلدان إلى جعل الصيدلة العربية علماً متميزاً وأصيلاً ترك أثراً لايستهان به في تطور العلوم وانتقالها إلى الغرب الأوروبي ليشكل لبنة أساسية في الحضارة الإنسانية.

بداية حركة الترجمة:

بدأت حركة الترجمة على يد غير العرب، حيث يذكر (ابن النديم) كان الراهب (ماريانوس) الذي كان يتبع مدرسة الإسكندرية الطبية الذي استقدمه (خالد بن يزيد بن معاوية) ليعلمه علم الكيمياء، وقد جلب أيضاً (اسطفان) وهو أول من ترجم المؤلفات اليونانية إلى اللغة العربية ثم انتعشت حركة الترجمة في عصر العباسيين، حيث نجد أن ذلك العهد قد بدأ بعدد من

التراجمة أمثال (يحيى بن البطريق) و(يوحنا بن ماسويه) و(جورجيوس بن بختيشوع)، وكان عهد (المأمون) الذي اهتم بعملية الترجمة زاخراً بالعلوم مليء بعدد من كبار التراجمة، أمثال (حنين بن إسحاق) وولده (إسحاق بن حنين)، و(قسطا بن لوقا البعلبكي)، و(ثابت بن قرة) وكذلك (عيسى بن يحيى) ثم أتى من بعدهم (سنان بن ثابت بن قرة)، وولداه (إبراهيم وسنان) وحفيداه (ثابت وإبراهيم) و(ابن يونس المصري).[1]

بدايات علم الصيدلة عند العرب:

على الرغم من اهتمام المسلمين بعلم الصيدلة، إلا أن هذا العلم ـ في أول ابتدائه ـ متعلقاً بعلمي النَّبات والأعشاب وغير مستقل عن الطب؛ إذ كان على الطبيب أن يقوم على مرضاه ويتعرف على أمراضهم، ثم يعمد بنفسه إلى تركيب الأدويةِ الخاصة للعلاج من الأعشاب والنباتات ذات الخصائص العلاجية المناسبة لأمراضهم، وقد استمر الحال على هذا المنوال، رغم عظم معرفة العلماء العرب بكثير من الأدوية والعقاقير، خاصة بعد فتح إمبراطورية الفرس، ووصول طلائع العرب إلى الهند الذين امتاز أهلها بمعرفة الحشائش والنباتات التي تنمو بكثرة في بقاع الهند الشاسعة، وبرعوا كذلك في استخراج خواصها، واشتهروا بمعرفة آثارها العلاجية في الجسم، فلقد كان لكثير من الهنود معرفةٌ جيدة بالعقاقير، حتى قلَّ أن يكون صيدلانيٌّ بالعراق إلا وعنده غلامٌ سندي لتحضير الأدوية وتركيب العلاجات، وبذلك دخلت في اللغة العربية ألفاظ هندية كثيرة في مفردات الأدوية، مثل: زنجبيل وكافور وأبينوس وفُلفل وإهليلج، وأدى ذلك إلى كثرة العقاقير، وتشعَّبت طرق تركيبها وطالت؛ فدعت الحاجة إلى وجود من يتفرغ لذلك العلم ويبحث عن الأعشاب والنباتات الطبيعية في كل جهة.

كان الدواء ينتقل من يدي الطبيب إلى فم المريض مباشرة، وللطبيب أعوان يساعدونه على جمع الأعشاب، ثم يتولى بنفسه صنع الدواء وتركيبه، وقبض ثمنه من المريض، وقد زاد إحساس بعض الأطباء بالحطة وشعورهم بالأنفةُ عند تناولِهم ثمن العقاقير من المرضى، وأدى ذلك إلى بداية انفصال علم الصيدلة، وكان العالم العربي (الرازي) أول من نادى بانفصال الصيدلة عن الطب، بل إنه رأى أن جهل الطبيب بمعرفة الأدوية، العقاقير لا يمنعه دون ممارسته مهنة الطب.

وبالتدريج تم إنشاء العديد من المدارسُ لتعليم فن الصيدلة في حواضر الدولة العربية كبغداد والبصرة ودمشق ثم القاهرة، وكذلك في قرطبة وطليطلة في الأندلس، وبالتدريج

(1) محمد كامل حسين وآخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ج2، ص 312.

أصبحت الصيدلة في تلك المعاهد والمدارس مهنةً علميَّة تختص بتحضير الأدوية والعقاقير من أصولها المختلفة المعدنية والنباتية والحيوانية. وقد صنِّفت الكتبُ أولاً للغرض اللغوي، فقد ذهب اللغويون إلى البادية يسألون أهلها عن الأسماء الأصلية ثم سرعان ماتبدل الاهتمام من أسماء النباتات والأعشاب إلى خصائصها العلاجية وصفاتها، وكيفية الحصول علي مختلف الأدوية والعلاجات منها، وكذلك طرق الحفاظ عليها، فزرعت النباتات والأعشاب الطبية بشكل منتظم وفق شروط خاصة في مزارع رعاها الحكام، وجلبوا لها البذور اللازمة من كل مكان يطلبه الصيادلة، وذلك ما فعله (عبد الرحمن الأول) في قرطبة، و(ابن طولون) في القطائع المصرية الذي أوقف (40) فداناً لبيمارستانه الكبير تزرع فيه كل مايحتاجه المرضى من نباتات وأعشاب طبية.

إلا أن ذلك المجهود لم يكن كافياً يظهر هذا في ما كتبه (البيروني) في عتابه للصيادلة بقوله: «لو كان منهم ديسقوريدس في نواحينا لصرف جهده في التعرف على ما في جبالنا وبوادينا، ولكانت تصير حشائشها كلها أدوية»، واستجابة لتلك الدعوات جرت بعض محاولات للاستفادة من الأعشاب المحلية؛ كان من بينها في أول الأمر تأليف ما يشبه المعاجم على هيئة جداول تحتوي على أسماء النباتات والأعشاب المختلفة باللغات العربية واليونانية والسريانية والفارسية والبربرية، ثم يتم شرح أسماء الأدوية المفردة ومن المحاولات التطبيقية ما فعله رشيد الدين الصوري (1177-1241م) الذي كان يخرج إلى أماكن النباتات يصحبه رسام، فيشاهد النبات، أو العشب ويسجله ثم يريه للرسام وهو في طور الإنبات أو لا يزال غضاً، ثم بعد اكتماله وظهور بذره، وأخيراً بعد نضجه ويبسه، ليقوم ذلك الرسام بتصوير النبات في أطوار نموه، لذا فإن كتابه الأدوية المفردة مزيناً برسوم النباتات والأعشاب وذكر فيه (585) عقار منها ما هو نباتي بلغ عددها (466) و(44) من أصل حيواني، وأخيراً (75) صنفاً من المعادن.

ولابد لنا أن نذكر أن الصيادلة العرب المسلمين بعد أن بلغوا شأوا عالياً في هذه المهنة قاموا بالاستغناء عن الكثير من الأدوية التي تستخلص من محرمات كالدم، والخمر ولحم الخنزير، وقام بعض الأطباء باختبار مدى فاعلية الأدوية على الحيوانات قبل وصفها للإنسان؛ وكانت أشهر تجربة في ذلك المضمار كما تذكره المصادر التاريخية هي تجربة مستحضر من الزئبق على القرود التي قام بها العالم (الرازي)، وكان (ابن سينا) يذكر مع كل دواء خصائصه وأوصافه، يذكر هذا بصورة جلية (كوهين العطار) في كتابه (منهاج الدكان)، والذي جمع فيه ماقام به (ابن سينا) من عمل في هذا الصدد، وذلك في فصل أسماه (امتحان الأدوية المفردة والمركبة) وذكر ما يستعمل منها، وما لا يستعمل ولم يكتف (كوهين العطار) بذلك بل نجده قد تطرق إلى ذكر الأساليب المستعملة في ضبط معايير جودة الأدوية، وكتب فصلاً عن الفترة الزمنية التي لا تعود صالحة للاستعمال الآدمي بعدها، وكتب كذلك أوصاف كل عقار يستخدم للعلاج مع ذكر تفصيلي لنوعه والمواد التي يمكن غشه بها وكيفية اكتشاف هذا التدليس عن طريق الأوصاف المختلفة للدواء.

والملاحظ أنه عندما تم الفصل بين مهنتي الصيدلة والطب، أن ارتقت كلتا المهنتين؛ وتفرغ الطبيب إلى تشخيص العلل والأمراض، وتفرغ الصيدلاني إلى البحث لتحسين مستوى الأدوية والعقاقير، وإنشاء حوانيت أو محل عطارات لبيعها وتصريفها، ثم توسعت تلك العطارات وتحسن أداؤها المهني، مما نتج عن إنشاء أول صيدلية في التاريخ في بغداد عام (754م)، وقد أنشأت في كل بيمارستان صيدلية يقوم على أمرها صيدلي يجهز الأدوية والأشربة ويضعها في الأواني الصينية، وكانت تلك العقاقير تصرف للمرضى بالمجان كما يروي (ابن أبي أصيبعه) في كتابه الكبير (طبقات الأطباء).

من أهم مآثر المسلمين في تلك الفترة إدخالهم لنظام الحسبة ومراقبة الأدوية، وتحولت تلك المهنة من نشاط تجاري حر يمتهنه من يشاء إلى مهنة خاضعة بالكامل لمراقبة الدول. حدث ذلك في عهد الخليفة العباسي (المأمون)، وقد دعاه إلى ذلك التصرف أن بعضاً من ممارسي مهنة الصيدلة كانوا غير أمناء، بل نجد أن منهم من ادّعى أن لديه كل أصناف العقاقير، وبالتالي يصرفون للمرضى أدوية غير مناسبة؛ منتهزين جهل المرضى بأنواع الدواء المناسب لحالتهم، وكان لذلك قصة طريفة عندما دخل (يوسف الكيميائي) عليه، واشتكى من الصيادلة وحيلهم وطلب منه أن يكتب اسماً غريباً في ورقة ويدفعها إلى عدة صيدليات، وبالفعل دون اسم ضيعة له بالقرب من بغداد تدعى (سقطيتا)، ووجه عبيده كي يسألوا الصيادلة عن هذا الدواء فذكر كل هؤلاء الصيادلة أن الدواء الغريب لديهم، ولم ينكروه بل وقبضوا ثمنه بعدما أعطى كل واحد منهم شيئاً مختلفاً، فمنهم من أعطى بذوراً والآخر أعطى أحجاراً بل، ومنهم أتى بوبر على أنه ذلك الدواء، لذا أمر (المأمون) بعقد امتحان أمانة للصيادلة[1]. ثم جاء أخوه (المعتصم) من بعده (835م) الذي أقر امتحان الصيادلة وكرر التجربة بعد نصيحة من (الأفشين) قائد جيوشه الذي دعا صيادلة جيشة وسألهم عن عشرين اسماً غريباً فمنهم من أنكر تلك الأسماء، ومنهم من أتى بمختلف العقاقير فقام (الأفشين) بتثبيت من أنكر الأسماء الغريبة، وطرد الباقي وأحل دمهم أن بقوا في معسكره ولم يكتف بذلك بل بعث إلى الخليفة (المعتصم) الذي استحسن مافعل ثم صار العرف أن يختبر الصيدلي، ويمنح الذي تثبت أمانته ومهارته العلاجية شهادة تجيز له العمل، وبذلك دخلت الصيدلة تحت نظام الحسبة، ومن العرب انتقل هذا النظام إلى أنحاء أوروبا في عهد (فريدريك الثاني) (1210 ـ 1250م)، ولا تزال كلمة مُحْتَسِب مستخدمة في الأسبانية بلفظها العربي حتى الوقت الراهن.

كان نظام الحسبة يهدف أساساً لمراقبة مصالح الناس، وقد نشأت من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكان لزاماً على الحاكم أن يعين من يراه كفؤاً لمراقبة كل ما من شأنه الإضرار بالناس ومصالحهم، واستتبع أن يراقب ما يتعلق بالغش والتدليس على

(1) ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء ج1، ص 157.

الناس في أرزاقهم والمكاييل والموازين، وانسحب بالتدريج ذلك النظام الرقابي على الأدوية والعقاقير وتركيبها وبمرور الأيام احتاج المحتسب إلى وجود مصادر معتمدة تحدد له نطاق عمله، وكذلك المهام الخاضعة لرقابته نذكر منها (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) (لابن نصر الشيزري) و(رسالة الجرسيفي في الحسبة)، و(رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة)، و(معالم القرية في أحكام الحسبة) (لضياء الدين بن الأخوة)، وأخيراً رسالة (أحمد بن عبد الرؤوف في القضاء والحسبة).

اهتمت كتب الحسبة بالإشراف على مهنة الصيدلة اهتماماً بالغاً لأنها أضر على الخلق من غيرها، لأن العقاقير مختلفة الطبائع فإذا أضيف إليها غيرها أخرجها عن مزاجها وأضرت بالمريض[1]، وأمرت تلك الكتب (المحتسب) بأن يخوف الصيادلة ويشرف على عقاقيرهم مرة كل أسبوع، وحفلت كتب الحسبة بأنواع كثيرة من غش وتدليس بعض الصيادلة خربي الذمة، مثل غش الأفيون بعصارة ورق الخس البري والصمغ والراوند براوند الدواب والطباشير بالعظام المحروقة والتمر الهندي بلحم الأجاص، ولم تكتف الكتب بذكر أنواع الغش بل تعدتها إلى ذكر الأساليب التي يجب على المحتسب فعلها لكشف غش كل نوع.

وكان (المحتسب) في ذلك العهد يقوم بجعل الأطباء والصيادلة يقومون بالقسم، وهو تعديل لقسم (أبقراط) بألا يعطوا أحداً من الناس دواء مراً ولا يركبوا له سماً ولا يصنعوا التمائم والسحر لأحد من العامة، ولا يذكروا للنساء اللاتي يريدن الإجهاض الدواء الذي يسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل، وكذلك يأمرهم بالغض عن المحارم، وكذلك عدم إفشاء الأسرار والتوفر على جميع الآلات المطلوبة سواء للكشف الطبي أو تحضير وتركيب العقاقير.

وكان لزاماً أن يضع الصيادلة العرب ما أطلقوا عليه اسم (الأقرباذين): أي الدستور المتبع في تحضير الأدوية، وتم وضع للصيادلة دستور يلتزمون به، وأصبح في كل مدينة كبيرة عميد للصيادلة يقوم باختبارهم كما كان يفعل (ابن البيطار) في القاهرة وكان من نصوص هذا الدستور التفريق بين مهنة الطب وعلم الصيدلة، فتم منع الصيدلي بالتدخل في أمور الطب، كما حظر على الطبيب امتلاك صيدلية، أو أن يستفيد من بيع الأدوية، وبذلك لا يحق ممارسة مهنة الصيدلة إلا من لديه ترخيص رسمي من الدولة، ولا يحق ذلك أيضاً إلا لمن وضعت أسماؤهم في جداول الصيادلة، كما ذكر (القفطي) وجود أشخاص قد نالوا حظاً وافراً من التعليم ووثق في كفايتهم المهنية قد حصلوا على تراخيص تجيز لهم العمل.

وقد فرض الدستور أيضاً على الأطباء أن يكتبوا ما يصفون من أدوية وعقاقير للمريض على ورقة أطلق عليها العراف الوصفة وسماها أهل الشام بالدستور، أما أهل بلاد المغرب

(1) الشيزري: نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة، ص 42 – 47.

فعرفوها باسم (النسخة) وكانت هناك وظيفة تتبع الدولة حينئذ ويقوم المسؤول عنها بالتفتيش في كل مدينة بالإشراف على الصيادلة وكيفية تحضيرهم للأدوية والعقاقير ووفق تنظيم مهنة الصيدلة، وعند تولي (سنان بن ثابت) أمر الحسبة تحوّل ذلك النظام إلى امتحان ومحاسبة ومراقبة دورية لكل من الأوزان والمكاييل بل وتفتيش الصيدليات مرة كل أسبوع. ومن بين الطرق المتعددة التي استعملها رجال الحسبة لمعرفة الأدوية المفردة وفاعليتها، الإحراق بالنار أو السحق، وكذلك فحص الرائحة واللون والطعم.

كان اختلاف المقاييس والمكاييل، ومن ثم أوزان المركبات الدوائية والعقاقير إحدى أهم المشكلات التي واجهت الصيدلاني العربي المسلم نتيجة لتكون المعارف العربية في الصيدلة من مصادر مختلفة، فقد كان لكل شعب تعلم العرب على أيديهم كاليونان والفرس والهنود أوزانهم الخاصة، فأدى ذلك إلى صعوبة بالغة عند تحضير الوصفات الأجنبية التي تستلزم معرفة الأوزان والمكاييل المستخدمة فيها، وحتى إن عُرف بعضها فقلّما يُضبط، لذا كان من الواجب توحيد العمل بمقاييس ومكاييل ثابتة وفي النهاية نجح الصيادلة العرب بعد تجارب عديدة أن عبروا تلك العقبة عن طريق حلول مبتكرة أهمها، تجاهل بعض الأوزان والمكاييل المستوردة، وإدخال أوزان ومكاييل بديلة، وتبسيط النسب الموجودة بين المكاييل والموازين وأدخلوا نظاماً فريداً في استخدام البذور كوحدات للقياس، وكذلك بعض الحبوب التي تمثل الواحدة منها وزناً معروفاً كحبة الحمص والخروب ونواة التمر، وجعلوا حبة القمح الوحدة الصغرى للأوزان.[1]

كتب الصيدلة العربية:

تلقّف العرب ما وصل إلى أيديهم من علم النباتات الطبية والحشائش والعقاقير واعتنوا بكل المصادر والكتب التي تعنى بعلم الصيدلية وترجموها وأضافوا إليها، واستدركوا مانقص منها، وفي وقت لاحق قام الصيادلة المسلمون بفضل ما تراكمت لديهم من خبرتهم، وكذلك من الممارسات المنهجية أن بدأوا في التأليف والتصنيف بغزارة في كل من علمي الصيدلة وعلم النبات، منها على سبيل الذكر لا الحصر مرتبة ترتيباً زمنياً بحسب الصدور كل من (فردوس الحكمة)، و(منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير) و(تدبير الأغذية) (لأبي الحسن علي بن سهل الطبري)، وكتب (الأدوية المسهلة والسموم والسواك والسنونات) (ليوحنا بن ماسويه الخوزي)، وكتاب (الأقرباذين الكبير) (لسابور بن سهل الكوسج) الذي يعتبر أول كتاب صيدلاني متكامل باللغة العربية، وكل من كتب (الأدوية المفردة وأسرار الأدوية المركبة) (لحنين بن إسحاق)، وكذلك (الأدوية الشافية)، و(الطب الأبقراطي والغذاء والدواء المهلك) (ليعقوب بن إسحاق الكندي)، وألف (الرازي) العديد من الكتب في ذلك العلم نذكر منها[2] (الحاوي) (والمنصوري) (والأقرباذين الكبير) و(منافع الأغذية ومضارها)، و(سر الأسرار) و(الأدوية

(1) محمد كامل حسين وآخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ج2، ص 315 - 318
(2) نفس المصدر، ج2، ص 324.

المسهلة الموجودة في كل مكان)، وكتاب (أسماء الأدوية المفردة) (لأبي داوود سليمان بن جلجل الأندلسي)، و(كامل الصناعة) (لعلي بن عباس المجوسي)، وكلٌ من (الأدوية المفردة والأقرباذين) (لأبي بكر بن سمجون)، و(زاد المسافر) و(إبدال الأدوية) و(البغية في الأدوية المركبة) (لأحمد بن إبراهيم) المعروف (بابن الجزار) كان (لأبي علي الحسين بن عبد الله - ابن سينا) دور كبير في هذا الصدد فكتابه (القانون في الطب) يمثل مرجعاً مهماً في كلٍ من علمي الطب والصيدلة، وله أيضاً كتاب (الأدوية الفلسفية)، ومن كتب الصيدلة أيضاً كتاب (الصيدنة في الطب) (لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني)، و(الأدوية المفردة) (لأبي المطرف اللخمي)، وكلٌ من (تقويم الأبدان ومنهاج البيان فيما يستعمله الإنسان) (لابن جزلة أبو علي يحيى)، وكتاب (الأدوية المفردة) (لأبي الصلت بن أبي الصلت)، وكتاب (التجربتين على أدوية ابن وافد)، وكذلك شرح كتاب (الأدوية لجالينوس) (لابن باجة أبوبكر الصايغ) وكتاب (الليمون وشرابه ومنافعه) (لأبي العشائر بن جميع الإسرائيلي)، وكتاب (التيسير في المداواة والتدبير) وكتاب (الأغذية) (لأبي مروان بن زهر) وكتابي (الموجز البيمارستاني) (والمقالة الأمينية) في الأدوية البيمارستانية (لأمين الدولة بن التلميذ البغدادي) و(الأدوية المفردة)، وكذلك كتاب (الأدوية) (لأبي جعفر أحمد بن محمد الغافقي).

ومن الكتب التي وضعت في علم العقاقير (الجامع لصفات أشتات النبات) (لمحمد بن أحمد الشريف الإدريسي)، وكتاب (الترياق) (لأبي محمد عبد الله بن رشد)، وشرح أسماء العقاقير (لموسى بن ميمون القرطبي)، و(رسالة في ترتيب الأغذية اللطيفة والكثيفة) (لأبي الحجاج الإسرائيلي)، وكلٌ من (أغذية المرضى والأقرباذين الكبير) (لنجيب الدين السمرقندي)، و(الأقرباذين) (لبدر الدين بن بهرام القلانسي)، وكتاب (ميزان الأدوية المركبة)، وكتاب (اختصار كتاب الأدوية المفردة) (لابن وافد موفق الدين عبد اللطيف البغدادي)، و(الأقرباذين) (لسديد الدين أبي الفضل الإسرائيلي)، و(تركيب الأدوية) (لأبو العباس بن الرومية) و(الجامع في الأدوية المفردة) وكذلك (المغني في الأدوية المفردة) (لابن البيطار) و(الأقرباذين) (للعنتري أبو المؤيد الجزري) وكتاب (منهاج الدكان ودستور الأعيان) (لأبي المنى داوود بن أبي نصر) المعروف (بكوهين العطار) و(المقالة المرشدة في درج الأدوية المفردة) وكذلك (نظم الترياق الفاروق) لعماد الدين الربعي (والمختار في ألف عقار) لأبي حليقة رشيد الدين أبو الوحش (والنباتات في الأدوية المفردة)، وكذلك (المهذب في الكحل المجرب) (لابن النفيس) وكتاب (ما لا يستطيع الطبيب أو الصيدلي جهله) (للجويني الكتبي البغدادي)، و(الحاوي في علم التداوي) لنجم الدين محمود الشيرازي، وأخيراً (تذكرة أولي الألباب)، و(الجامع للعجب العجاب) للشيخ (داود بن عمر الأنطاكي).

وكان لبعض الكتب الموضوعة في علم الصيدلة أهمية خاصة نذكر بعضاً منها في عجالة كتاب (كامل الصناعة الطبية) (لعلي بن العباس المجوسي)، وقد انتقل ذلك الكتاب (كامل الصناعة) إلى أوروبا عندما قام بترجمته (قسطنطين الإفريقي)، والذي توفى (1078م)

عميد مدرسة الطب في جامعة سالرنو، لكنه نسبه إلى نفسه، ولم تكتشف تلك السرقة إلا بعد أن قام (أسطفان الأنطاكي) بترجمته مرة أخرى عام (1227م)، لكنه في هذه المرة ذكر اسم المؤلف الحقيقي، ويحتوي الكتاب على (20) مقالة في جزأين؛ نظري وعملي يشمل علوم الصيدلة في المقالتين الثانية والعاشرة، وهما الأدوية المفردة وامتحانها ومنافعها، والأدوية المركبة، ويُورد تحت الأدوية المفردة خمسة وخمسين باباً أهمها امتحان الدواء أي اختباره وأنواعه مثل الأدوية الملينة والمذيبة، والمسكنة، والمفتتة للحصى، والمدرّة للبول، وأنوا ع العقاقير النباتية كالأوراق، والبذور، والثمار، والصموغ، والمعدنية، والحيوانية، وكذلك الأدوية المسهلة والمقيئة، وذكر (المجوسي) تحت عنوان الأدوية المركبة ثلاثين باباً.

وهناك العديد من الكتب الأخرى التي أثرت علم الصيدلة منها كتاب (الحاوي في الطب) (للرازي) و(القانون في الطب) للشيخ الرئيس (ابن سينا) الذي تناول علم الصيدلة والأدوية والعقاقير في الكتابين الثاني والخامس، واحتوى الكتاب الثاني على الأدوية المفردة، وكذلك ماهية الدواء واختياره وصفاته ومفعوله وطرق حفظه، وذكر فيه (ابن سينا) عدداً ضخماً من النباتات الطبية عربية المنشأ، وكذلك الأجنبية من أصول هندية وفارسية وحتى الصينية واليونانية، وفي الكتاب الخامس نجده قد تناول الأدوية المركَّبة وطرق تحضيرها سواءً من مصادرها المختلفة، ولقد حضّر ما يزيد على 800 دواء مُركَّب، وقد شرح (ابن سينا) تأثير بعض الأعمال الصيدلانية في عمل الأدوية المفردة التي قد تفسد مفعولها أو تقلله إذا لم تُراع مواصفات كل دواء، والكتاب الخامس يتناول فيه الأدوية المركبة، ويقسمها تبعاً لخواصها إلى: حارة وباردة، ورطبة ويابسة.(1)

ويعتبر (أبو القاسم الزهراوي) من الذين أسهموا في تطور علم الصيدلة العربية، ومن أشهر مؤلفاته هو كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وقد خص (الزهراوي) الصيدلة في هذا الكتاب بنصيب وافر، إذ أفرد لها سبعة وعشرين باباً من بين المقالات الثلاثين، تناول (الزهراوي) في هذا الكتاب العديد من العقاقير، والأدوية التي تختص بمداواة أمراض معينة؛ مثل أدوية القلب وأدوية السمنة والباءة وأمراض النساء، وقد حاز (أحمد بن محمد الغافقي) والذي توفي عام (1165م) على شهرة كبيرة بعد أن وضع كتابه (الأدوية المفردة) الذي ضم فيه أكثر من (1000) دواء من الأدوية المفردة، ووصفها وصفاً دقيقاً وشرح طرق تحضير بعضها واستخدامها، ووضع رسوماً للنباتات الأسبانية والإفريقية وبعض الحيوانات والعقاقير بلغت حوالي (380) رسم ملون وضع مقابلاتها العربية واللاتينية والبربرية، كما ذكر في هذا الكتاب كل ما ذكره من قبله (ديسقوريدس) و(جالينوس)، ويعتبر كتاب (الجامع لمفردات الأغذية والأدوية) لضياء الدين بن البيطار الذي وضع لمفردات كتابه ترتيباً ألفبائياً، وذكر لكل مفردة مقابلها باللغات السائدة في زمانه، وقد تُرجم هذا الكتاب الموسوعي إلى لغات عديدة منها اللغة اللاتينية والتركية والألمانية والفرنسية.

(1) محمد كامل حسين وآخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ج2، ص 325 – 326.

يقع هذا المؤلّف الموسوعي في أربعة أجزاء يذكر فيها ماهيات الأدوية، وقوامها ومنافعها ومضارها، وإصلاح ضررها والمقدار المستعمل منها ومن عصارتها أو طبخها وبدائلها إذا انعدمت. وذكر أسماء النباتات والحيوانات والمعادن التي يتخذ منها العقار، ويصف أجزاءه وصفًا دقيقًا، ومواطن نموه، وطريقة تحضير الدواء منه، ثم طريقة الاستعمال. وقد اشتمل كتابه على بعض معتقدات العامة إلا أن مفردات وأسماء العقاقير يغلب عليها الطابع العلمي المنهجي من حيث الجمع والترتيب وأسلوب العرض وأمانة النقل.

أما (أمين الدولة ابن التلميذ) (1073 – 1165م) الذي كان ساعوراً أو رئيساً لأطباء البيمارستان العضدي ببغداد إلى حين موته، وقد عمل في خدمة (المستضيء بأمر الله) فقد ألف في (الأقرابادين) كتاباً كبيراً سماه (كتاب الأقرابادين الكبير)، بقِي الكتاب المعتمد للتدريس في البلدان الإسلامية لعدة قرون، وقد تضمن هذا المصنف العديد من الأدوية المركبة كالأقراص والحبوب والسفوفات والمعاجين واللعوقات والأشربة. وقد ألّف كتاباً أصغر أطلق عليه كتاب (الأقرابادين الصغير البيمارستاني) وضعه لاستعمال الأطباء في المستشفيات.

الأدوية المركبة:

ذكر الصيادلة عدداً كبيراً من الأدوية المركبة نذكر منها بعضها كالمعجونات والحقن الشرجية، وكانت لا تستعمل في حر النهار ولابرده، ويجب في استعمالها التحري والاجتهاد، والحبوب وهي أجسام كروية جامدة من عجينة بها مواد طبية تحبب، ثم توضع في الظل، والترياقات، وهي مشتقة من لفظة تيرون يونانية بمعنى كل ماينهش من الأفاعي واعتبرت مضادات للسموم عامة، وصل عدد المفردات فيها إلى حوالي (200) عقار، وهي تعجن بالشراب والعسل والسعوطات، أو النشوق وهو كان في الأصل يعطى لصداع الرأس وقيل إنه ينقي الدماغ، وكذلك بأنه من ابتكار (جالينوس)، والمطبوخات، والمنقوعات، والسفوفات، وهي أقدم التراكيب وهي مسحوق العقاقير مفردة كانت أم مركبة، والأصل أنها تعطى عن طريق الفم، والسنونات، وهي عقاقير خاصة بالفم والأسنان وتعالج بها اللثة والأضمدة، واللعوقات، والأكحال يطلق على مايسحق وهي عقاقير تعالج أمراض العيون وتعرف في مصر بالششم، والأدهان وهي تطلق على الزيوت الثابتة أو الشحوم والزيوت العطرية مفردة كانت أم مركبة وقد استعملها العرب في العلاج الخارجي بالتدليك، وكذلك من الداخل كأشربة والشيافات وهي ألطف على العين من الأكحال، والحمولات، وهي إما فتيلة توضع في الدبر أو فرزجة في القبل.

الربوب من الأدوية المركبة وهي عبارة عن هلام الفاكهة، وتحضر بأن تعصر الفواكه ثم تصفى عصاراتها وتطبخ على نار هادئة، وقد يضاف إليها العسل أو السكر قبل الطبخ، والأقراص وهي أجسام جامدة مستديرة، عجينة بها مادة طبية تركت لتجف ومقابلها العصري

أقراص الاستحلاب، وقد أدخلها (الزهراوي) في مكابس خاصة لها قوالب تحمل أسماء تلك الأقراص، والجوارشنات وهي اسم فارسي يعني المواد الهاضمة، وأغلب محتواها البهارات العطرية وتعجن بالعسل، والذرورات، ويطلق على كل ما سحق وهي كذلك عقاقير تنثر على الجروح أو الجلد لتجفيفه، وتوقف النزف في الأنف أو بعد الختان، وأدوية الرعاف والسمنة والكلف والبهق والبرص والجرب.

تصنيف الأدوية عند العرب:

نقل (سهل بن ربن الطبري) في كتابه (فردوس الحكمة في الطب) عن (جالينوس) أن كل شيء يتربى به فهو غذاء وكل شيء يغبر الطبيعة فهو دواء، لكن (البيروني) في كتابه (الصيدلة في الطب) أقر بأن جملة مايتناوله الإنسان هو أطعمة وأدوية وسموم، وذكر أن الأطعمة نافعة والسموم مضرة، لكن الأدوية لو أضيفت إلى الأغذية فهي مفسدة، وإذا ألحقت بالسموم فهي مصلحة للبدن، ولايظهر تأثيرها إلا بتدبير الطبيب الحاذق، واستفاد المصنفون في علم الأدوية من الكتب التي تعنى بعلم النبات مثل (معجم النبات) (لأبي حنيفة الدينوري)، و(الفلاحة النبطية) (لابن وحشية) و(الفلاحة الأندلسية) (لابن العوام الأشبيلي)، وقد وضع (الرازي) أسساً صحيحة لعلم الصيدلة وصنف العقاقير إلى أربعة أقسام، مواد ترابية أو معادن ومواد نباتية ومواد حيوانية وأخيراً عقاقير مولدة (مشتقات).[1]

وذكر الرازي أيضاً تحت الصِّنف الأول سبعة أنواع هي الأرواح أو المواد المتطايرة والمتسامية، وتشمل الزرنيخ، والزئبق، والنشادر، والكبريت، والأحجار وتشمل المرقشيتا (البيريت)، وتستخدم في صناعة حمض الكبريتيك، والتوتياء (أكسيد الخارصين)، واللازورد (كربونات النحاس القاعدية والزاجات؛ ومنها الزاج الأحمر والأصفر والأخضر والشب والبوارق؛ وتشمل بورات الصوديوم والنطرون، وصمغ الأكاسيا، وأملاح؛ ومنها ملح الطعام، والأجساد وتشمل الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص، وذكر (الرازي) منها جوهر البول (اليوريا)، وفي الصنف الثاني (المواد النباتية)، وذكر الحبوب كالحنطة والشعير والثمار، ورتب فيه الأدوية حسب حروف المعجم مبتدئاً بالأقحوان ومنتهياً بالياسمين، وفي الصنف الثالث، أي المواد الحيوانية يذكر البيض والمخ واللبن والشعر والدم والمرارة والقرون والصدف. أما الصنف الرابع وهو العقاقير المولدة (المشتقات)، فقد ذكر منها المرتك (أول أكسيد الرصاص)، الزنجار (خلات النحاس القاعدية) والزنجفر (كبريتيد الزئبق).

أما (البيروني) فقد وضع كتابه (الصيدنة في الطب)، وصنف هذه المواد تصنيفاً مشابهاً لما فعله (الرازي) بفارق واحد هو أنه رتبها ترتيباً معجمياً، بينما كان (الرازي) قد رتبها ترتيباً أبجدياً، ويصنف (البيروني) العقاقير إلى ثلاثة أنواع: أدوية، وأغذية، وسموم؛ ومنها ما هو مفرد ومنها ما هو مركب. وهو أول من أشار إلى عمليتي التبديل والحذف في

(1) محمد كامل حسين وآخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ج2، ص 328 - 331.

العقاقير، وجعلهما شرطًا لنجاح الصيدلاني الماهر. فقال: «الصيدلاني أعظم حاجة لأمرين أحدهما الحذف والآخر التبديل. والحذف هو نقصان عقار واحد يدخل في تركيب دواء يتألف من عقاقير كثيرة؛ فإن لم يتوافر أو توافر لكن حالت أسباب دون استخدامه فعلى الصيدلاني الاستغناء عنه وإتمام التركيبة دون ذلك العقار»؛ عمل (علي بن عباس المجوسي) المتوفى عام (383هـ، 993م) في كتابه (كامل الصناعة) على تصنيف الأدوية وفقاً لمنشأها وقواها، فصنَّفَ الأدوية المفردة بالاستناد إلى منشأها؛ فقسَّم العقاقير ذات المنشأ النباتي إلى: حشائش، وحبوب، وبذور، وأوراق، وأصول، وعصارات، وأصماغ، وأزهار، وأثمار، وأدهان. أما العقاقير ذات المنشأ المعدني فقسمها إلى: زاج، وطين، وأملاح، وأجساد وحجارة. كما قسم العقاقير ذات المنشأ الحيواني إلى: ألبان، ودماء، وبيض، وأنفحات، ومرارات، وأبوال، وأزبال، وشحوم، ولحوم، أما الأدوية المركبة فقد صنفها إلى أنواع عدة أهمها: الترياقات، والمعاجين، والهاضمات والمطبوخات، والنقوعات، واللعوقات، والأقراص، والأدهان، والمراهم، والأشربة، والمربيات، والأكحال، والذرورات، والغراغر، والمقيئات، ولم يختلف (ابن سينا) في تصنيفه للأدوية كثيراً عمن سبقه فقد قسمها إلى معدنية، ونباتية، وحيوانية.

تحضير الأدوية والعقاقير:

استخدم الصيادلة العرب المسلمون في عمليات تحضير العقاقير وتركيبها طرقاً مبتكرة؛ ظل بعضها معمولاً به حتى الوقت الراهن فنجد أن (الرازي) استخدم التقطير لفصل السوائل الملغمة لمزج الزئبق بالمعادن الأخرى، والتنقية لإزالة الشوائب، والتسامي؛ لتحويل المواد الصلبة إلى بخار ثم إلى حالة الصلابة ثانية دون المرور بحالة السيولة، والتصعيد؛ لتكثيف المواد المتصاعدة، والتشوية لتحضير بعض المعادن من خاماتها، والتشميع؛ لصهر بعض المواد بإضافة مواد أخرى إليها، والتكليس؛ لإزالة ماء التبلُّر وتحويل المواد المتبلرة إلى مساحيق غير متبلرة والتبلر لفصل بلورات المواد المذابة، وأخيراً الترشيح؛ لفصل الشوائب والحصول على محلول نقي، وقد ذكر (ابن سينا) في تحضير الأدوية المفردة أربع طرق هي، الطبخ والسحق والحرق والغسل، وكان (ابن سينا) أول من استعمل طريقة تغليف الحبوب بالذهب والفضة، كما أن (الزهراوي) كان أول من حضر الأقراص بالكبس في قوالب خاصة. أما (علي بن عباس المجوسي) فقد أبان القوانين التي ينبغي حذقها للوصول إلى الأوزان الصحيحة للأدوية المفردة الداخلة في تركيب الأدوية المركبة، ووضح أن مقادير هذه الأدوية تكون كالتالي: يُؤخذ منه مقدار كبير إذا كان متعدد المنافع، وتؤخذ منه كميات أقل إذا كان في استعماله بعض الضرر.

آلات تحضير الأدوية:

استعمل الصيادلة العرب العديد من الأجهزة والأدوات لتحضير العقاقير، منها على سبيل الذكر لا الحصر آلات لتذويب الأجساد، ومنها البربوط والبوتقة والراط والكور والمبرد

والمفرقة والمنفاخ وغيرها، وآلات أخرى لتدبير العقاقير منها الأتون والأثال والأنبيق الأعمى القفص والصلاية والقابلة والقارورة والقمع والقنديل والمرجل والمقلاة والميزان ونافخ نفسه وغيرها الكثير.(1)

أدوية ومستحضرات اكتشفها العلماء العرب:

ومن الأدوية النباتية التي اكتشفها الصيادلة العرب، السنامكة، والصندل، والكرنب مع السكر، والكافور، والرواند وغيرها الكثير، كما ركّبوا مستحضرات طبية كثيرة كالمعاجين المختلفة، والمراهم، والمساحيق، واللزوق، والدهانات، والكحل والسعوط، والحقن الملينة، والأشربة، والماء المقطر، كما اكتشفوا الكحول والمستحلبات وأدوية القيء، واللعوقات، والسفوفات، والذرورات والخلاصات العطرية، وكانوا أول من وصف بذور شجرة البن كدواء للقلب، ووصفوا حبوب البن والقهوة المطحونة علاجاً لالتهاب اللوزتين والدوسنتاريا والجروح الملتهبة، ووصفوا الكافور لإنعاش القلب كما خففوا من قوة بعض العقاقير بإضافة عصير الليمون والبرتقال، بالإضافة إلى القرفة أو القرنفل. كما توصَّلوا إلى عمل الترياقات التي يتم تركيبها من عشرات أو أحياناً من مئات العقاقير، واستخدموا الحشيش والأفيون وغيرهما في التخدير.

موازين ومكاييل الأدوية والعقاقير:

أدخل العرب الكثير على الموازين المختلفة التي أخذوها من كثير عن الأمم التي سبقتهم كاليونان والهنود والفرس، وجميع الموازين كانت تعتمد على رافعة وهي عنود يتحرك حول محور أفقي، وفي أحد ذراعي العمود يعلق مايراد وزنه، وفي الذراع الآخر تعلق الأوزان وكان الذراعان إما متساويين أو مختلفي الطول، وبجانب الأوزان الثابتة يوجد وزن متحرك وهو رمانة الميزان للوصول إلى الوزن الصحيح، وتتحرك تلك الرمانة على أرقام منقوشة ويكون التوازن تاماً عندما يكون العمود في وضع أفقي، ويقدر هذا الاتزان إما عن طريق المشاهدة بالعين أو بإضافة لسان يوضع في وسط العمود.

كانت الموازين إما على شكل قرسطون أو القبان، أو الميزان العادي ذو الذراعين المتساويين، وقد اهتم الصيادلة العرب (كابن سينا) و(الرازي) بصنع آلات لفحص الفضة والذهب لكي يتبينوا غشها، وتعتمد تلك الآلات على الكثافة النوعية للمادة التي تتبع قانون (أرشميدس)، وقد ابتكر (الخازن) ميزاناً دقيقاً يمكنه من اكتشاف غش المواد لتحديد الثقل النوعي للمعادن والأحجار الكريمة، وكانت من فرط دقته يستطيع تمييز (18/1) من المثقال من جملة ألف مثقال، وهذا يبلغ من الدقة جزءاً، من ستين ألف جزءاً وكذلك استعمل (البيروني) مادة لكشف الثقل النوعي وأسماها الآلة المخروطية، ومن الطريف ذكر بعض الأوزان والمكاييل

(1) محمد كامل حسين وآخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ج2، ص 328–331.

المستخدمة في ذلك العصر، ومنها المثقال الذي يساوي حوالي (4.4 من الجرام)، الأستار (ما يعادل 4 مثاقيل)، والأوقية وهي تعادل (6 مثاقيل) والباقلاة، وهي تعادل (ثلث مثقال)، والجوزة التي تساوي (سبعة مثاقيل)، وهناك الحبة، وهي تساوي (خمسة جرامات)، والدرهم وهو يعادل (ثلاثة جرامات).

آليات عمل العقاقير والأدوية عند العرب:

ورث العرب قيماً وورثوا من قدماء اليونان نظرية الأخلاط أو الأجسام السيالة الأربعة التي يتحول إليها الغذاء، وتكوّن بالتالي العناصر الرئيسية لجسم الإنسان، وهي الدم الذي ينبع من القلب، والبلغم من الدماغ ثم ينتشر في الجسد، والصفراء التي تأتي من الكبد، وأخيراً السوداء من المعدة والطحال، ويحدث المرض إذا حدث عدم توازنها، وتلك المواد لها صفات تقابل الأركان الأربعة للعالم، فالدم رطب حار كالهواء، والبلغم رطب بارد كالماء، والصفراء حارة جافة كالنار، وأخيراً السوداء باردة جافة كالأرض.(1)

لذا فإن أطباء العرب قد قسموا الأمراض إلى بلغمية وصفراوية وسوداوية ودموية، وافترضوا أن للعقاقير نفس الصفات، وهي تؤثر على الجسد فقد يكون الدواء حاراً أو رطباً وهكذا، وأحياناً يختلف فعل الدواء باختلاف الشخص نفسه، وقد كانت قوى العقاقير تعرف لدى الأطباء والصيادلة العرب بالتجربة والقياس، وذكروا كذلك أن للأدوية أفعالاً كلية مثل التسخين والتبريد والترطيب والتجفيف، وأفعال جزئية تفيد في علاج البواسير أو السرطان مثلاً، وقد لاحظوا أن الأدوية تختلف في القوة والتأثير باختلاف المريض أو طبائع الأمراض أو أوقات السنة وحالة الجو، وحتى البلد الذي يسكنه المريض فذكر (ابن سينا) مثلاً أن عشبة (اللنج) تقتل في فارس وتؤكل في مصر.

أشهر علماء الصيدلة العرب:

كان أول من أُطْلِق عليه لقب صيدلاني هو (أبا قريش عيسى المتطبب) كما يذكر (ابن أبي أصيبعه) في كتابه (طبقات الأطباء)، فقد كان صيدلانياً في الحملة التي بعث بها (المنصور) وكان على رأسها (المهدي) لمحاربة (سنقار) أحد الخارجين عليه، وكان قد شخص حمل (الخيزران) امرأة المهدي، فنال بذلك حظوة عنده، ثم بتطور مهنة الصيدلة ظهر أول طبيب غلبت عليه مهنة الصيادلة، وهو (يوحنا بن ماسويه الخوزي) الذي كان أحد معلمي (حنين بن علي)، ونجد إن صناعة الصيدلة بلغت شأوا فريداً في القرن التاسع والعاشر الميلاديين على أيدي علماء أفذاذ منهم على سبيل الذكر لا الحصر (علي بن سهل الطبري)، و(أبو بكر الرازي)، و(علي بن عباس المجوسي)، و(ابن سينا)، و(أبو القاسم الزهراوي)، وختمت هذه القفزة النوعية في القرن الثالث عشر الميلادي (لابن البيطار)، و(داود الأنطاكي) و(كوهين العطار). وقد ساهم هؤلاء العلماء وغيرهم بقسط وافر في تقدم الصناعة الطبية والصيدلانية.

(1) حسن كمال: الطب المصري القديم، ص 18.

كان (أبو الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري) (770–850م) أستاذاً (للرازي) الذي أثنى على علمه وفضله، وقد ولد (الطبري) في مرو من أعمال طبرستان، وقد قام والده بتعليمه العربية والسريانية والعبرية وشيء من اليونانية، وكذلك علوم الطب والفلسفة والهندسة ثم رحل إلى العراق ثم إلى طبرستان ثم الري، وذهب إلى بغداد ليكون في خدمة الخليفة (المعتصم) وقد كانت ممارسة فنون العلاج في عهد الطبري مزيجاً ما بين مهنتي الطب والصيدلة؛ لذا نجد أن كتابه (فردوس الحكمة) صورة لتزاوج كلا العلمين. ويعتبر هذا الكتاب أقدم مُؤَلّف باللغة العربية لفنون كلٍ من الطب والصيدلة، وسار على خطاه (الرازي) و(المجوسي) و(ابن سينا) وقد احتوى هذا الكتاب على سبعة أبواب، تضمّن الباب الواحد (30) مقالة مفصلة إلى (360) فصل، وقد ذكر ما أخذه من كتب علماء الهند كشركا، وسسرتا، وندانا، واشتانقريدي، وأفرد الباب السادس للصيدلة، وبه ست مقالات عن المادة الطبية والسموم؛ تحدث فيها عن الأدوية المفردة والمركبة، وكذلك تحضير العقاقير وطرق حفظها، وتركيب أنواع السموم والترياقات والأقراص والأشربة والأدهان، والمراهم وله أيضاً كتب (تحفة الملوك وكناش الحضرة) وكتاب (منافع الأدوية والأطعمة والعقاقير).

وجاء على أثره (أبو بكر الرازي) (854–932م) الذي عرف بإنجازاته الكيميائية، والصيدلية أيضاً، وهو في نظر بعض المؤرخين أبو الطب العربي، ساعده في ذلك نبوغه في الطب والكيمياء والطبيعيات يقول عنه القفطي هو طبيب المسلمين بلا مدافع، ويقول عنه ابن النديم بأنه كان أوحد دهره وفريد عصره، وابن خلكان في وفيات الأعيان بأنه كان إمام وقته في علم الطب تشد إليه الرحال، وهو أول من نادى بانفصال الصيدلة عن الطب، وكان يبشر بإن علم الصيدلة هو العلم الوحيد الذي سيكون العامل المشترك بين الطب والكيمياء، وبذلك كان أول من أدخل المركبات الكيميائية في الصيدلة وكتابه (الحاوي) يعتبر موسوعة لا نظير لها في علم الأمراض، وقد جعل الأجزاء الأخيرة من هذا الكتاب للصيدلة[1]، وأحصى حوالي (900) دواء وقد قام بتسمية الجزء قبل الأخير في كتابه صيدلة الطب، وقال في أوله: «المعرفة بالأدوية وتمييزها، جيدها ورديئها، خالصها ومغشوشها، وإن كان ليس بلازم للطبيب ضرورة ـ كما يحسبه جهال الناس ـ فهو أحرى وأزين به، ولذلك رأيت أن أجمع هذا الفن، وإن لم يكن جزءاً من الطب ضرورياً في كتاب يخصه». وتناول الرازي أقوى الأدوية المفردة والمركبة وطرق تحضيرها، وكشف غشها كما تناول الأوزان والمكاييل المستعملة في تركيبها، وفي آخر أجزاء الكتاب تحدث عن قوانين استعمال الأطعمة والأشربة، وأدوية الزينة، وقد تدارك في كتابه (المنصوري) ما فاته أن يذكره في فنون الطب، والصيدلة ويعتبر الرازي من أوائل من وضعوا أسس علم العقاقير وشرح صفاتها وطرق تحضيرها، وكذلك يعتبر من رواد علم الكيمياء الصيدلية، حيث قام بتحضير بعض الأحماض مثل

(1) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص 510 - 511.

حمض الكبريتيك وسمّاه الزاج الأخضر، كما كان أول من استخدم الفحم الحيواني في إزالة الألوان، ولايزال هذا الأسلوب يعمل به حتى الآن لإزالة الألوان والروائح من المواد العضوية، وهو أول من فرّق بين كربونات الصوديوم وكربونات البوتاسيوم على الرغم من التشابه الكبير في خصائصهما، وكان أول من قاس مايسمى بالوزن النوعي أو الكثافة لعدد من السوائل مستخدماً ميزاناً أطلق عليه الميزان الطبيعي، وكذلك هو أول من أدخل الزئبق في تركيب المراهم، واكتشف وسيلة لتحضير الكحول من المواد النشوية والسكرية المتخمرة، ثم استخدم تلك المادة في تطهير الجروح.

وتذكر بعض المصادر أنه اكتشف المضاد الحيوي عندما أضاف عفن الخبز والعشب الفطري في أدويته التي تعالج الجروح المتقيحة، وكان يعتمد في وصف العلاج على تنظيم الغذاء بدلاً من الاعتماد الكلي على الأدوية المفردة أو المركبة. ويقول: «مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب»،.

أما علي بن عباس المجوسي الذي ولد في الأهواز ببلاد فارس وتوفي عام (994م) فقد أسهم بوضعه كتاب (كامل الصناعة الطبية)(1)، وهو يتألف من جزأين الأول يحتوي على عشر مقالات، والثاني كان مقصوراً على المداواة وطرق العلاج تحدث فيها عن الأدوية المفردة، وكذلك المركبة موضحاً الطرق التي يستدل بها على قوة الدواء ويصف أنواع العقاقير في عصره، وكيفية إعدادها ومقدار جرعاتها وكيفية تناولها، والمقالة الأخيرة اقتصرت على الصيدلة وقد ظل مرجعاً أساسياً ووحيداً في الطب والصيدلة فترة من الزمن حتى ألف (ابن سينا) كتابه الموسوعي (القانون)، ويذكر (القفطي) أن (كامل الصناعة) في العمل أبلغ، وأن (القانون) في العلم أثبت، وكان المجوسي مثل أبو بكر الرازي، يصف للمريض في أول الأمر علاجاً بالأغذية متى أمكن ذلك، وإلا فباستخدام الأدوية المفردة ثم كان يلجأ للأدوية المركبة إذا تعذّر العلاج بكل من الأغذية والأدوية المفردة.

تأتي أهمية الشيخ الرئيس ابن سينا (980–1037م) في حقل الصيدلة أنه الذي حدّد النظريات والتطبيقات، وأضاف في كتابه (القانون) جداول أطلق عليها اسم الألواح بيّن فيها أثر كل دواء على كل عضو، وجعلها اثني عشر لوحاً؛ وهو تصنيف يمكن أن نطلق عليه تصنيف علم العقاقير، وقد ذكر وصفاً لعشرين فعلاً دوائياً أكثر مما ذكره المجوسي في (كامل الصناعة)، ولا يفوته ذكر الأوزان والمكاييل المستخدمة في عصره، بالإضافة إلى ما يماثلها عند الروم، وقد خصص الكتاب الثاني من (القانون)(2) لمفردات الأدوية وهو ينقسم إلى جزأين الأول يبحث ماهية العقار وصفاته ومفعوله على كل عضو من أعضاء الجسد، والجزء الثاني يذكر فيه المفردات مرتبة أبجدياً، ويشير ابن سينا إلى التجربة والقياس كطريقتين لمعرفة قوى الأدوية والعقاقير.

(1) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 155 - 156.
(2) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص 511.

وإذا توجهنا إلى ربوع الأندلس، فنجد هناك أبا القاسم خلف بن عباس الزهراوي (936–1013م) الذي كان طبيباً للحكم الثاني، وهو يوصف بأنه أبو الجراحة لكنه كان خبيراً أيضاً بالأدوية والعقاقير المفردة والمركبة كما ذكر (ابن أبي أصيبعه) «كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج» وأشهر مؤلفاته هو كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وقد خص الزهراوي الصيدلة في هذا الكتاب بنصيب كبير، إذ أفرد لها سبعة وعشرين باباً من بين المقالات الثلاثين التي ضمها الكتاب، وقد ترجم إلى اللاتينية وطبع في البندقية عام (1471م)، وكانت أشهر مقالة صيدلانية هي التي ذكر فيها طريقة تحضير العقاقير المعدنية والنباتية والحيوانية وتنقيتها، وقد ذكر أسماء الأدوية بعدة لغات وألسنة مختلفة غير العربية، وهي اليونانية والفارسية والسريانية والبربرية، وقد ذكر كذلك أسماء الأدوات والأجهزة الكيميائية والصيدلانية، وأبدال الأدوية المفردة وذكر مصادرها وأعمار الأدوية المركبة والمفردة؛ أي تاريخ صلاحية الدواء، وذكر الأوزان والمكاييل ورتبها ترتيباً ألفبائياً، ومن إنجازات الزهراوي في علم الكيمياء أنه أول من استخدم الفحم في ترويق شراب العسل البسيط وتبييض الخل وغسل الزيوت، وكان أول صيدلي استخدم قوالب الكبس من الأبنوس أو العاج لصنع الأقراص الدوائية.(1)

ومن الذين اهتموا بعلوم الصيدلة أبو الريحان محمد بن أحمد الفلكي البيروني (961 – 1048 أو 1053م) ولد بخوارزم وعاش في الهند ويعتبر من ألمع علماء عصره في الرياضيات وعلم الفلك وله معادلة لحساب نصف قطر الأرض زمناً، ألف كتاباً في الصيدلة أسماه (الصيدنة في الطب) عاونه فيه الطبيب أبو حامد النهشعي، وينقسم الكتاب إلى قسمين أولهما في الفارماكواوجيا والعلاج، وأضاف إليه تعريفات أضافت لعلم الصيدلة، والجزء الثاني تحدث فيه عن العقاقير مرتبة بترتيل المعجم وذكر أسماءها وطبائعها وموطنها وطرق تخزينها وجرعاتها.

ومن علماء الصيادلة العرب كذلك (أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي) توفي عام (1165م) صاحب كتاب (الأدوية المفردة)، وكان يرى أن على الطبيب أن يكون ملماً تماماً بالدواء الذي يصفه لمرضاه، لكنه لا ينبغي أن يتدخل في صنع هذا الدواء، بل يترك ذلك للصيدلاني الذي ينبغي أن يكون مطّلعاً على استعمال الأدوية وطرق تحضيرها، وبالإضافة إلى كتاب الأدوية المفردة فإن له مؤلفاً آخر أسماه كتاب الأعشاب يتميز باحتوائه على حوالي (380) صورة ملونة لنباتات وأعشاب قد رسمت بطريقة واضحة ودقيقة.

يعتبر موسى ابن ميمون القرطبي (1134–1204م) من أعظم علماء عصره في الصيدلة وقد ولد في قرطبة ببلاد الأندلس ثم ارتحل إلى مصر، وواصل الدراسة الطبية ودخل في خدمة صلاح الدين، ومن بعده ابنه الملك الأفضل نور الدين علي، وقد ألف عشرة كتب أهمها فصول القرطبي، ومنها المقالة التي سماها السموم والتحرز من الأدوية القاتلة وله رسالة

(1) شوقي أبو خليل: علماء الأندلس وإبداعاتهم المتميزة، وأثرها في النهضة الأوروبية، ص 32–33.

في مرض الربو والبواسير، ومن مؤلفاته (المختصرات) وهي تلخيص لكتب جالينوس وشرح فصول أبقراط وشرح أسماء العقار واعتمد في شرحه هذا على كتاب ابن جلجل (شرح العقار) وكتاب (التلخيص) لابن جناح.

وجاء من بعده عالم آخر يعتبره المؤرخون من أكثر علماء النبات العرب إنتاجاً من حيث وضع المصنفات وأدقهم في فحص النباتات في مختلف البيئات والبلدان وهو (أبو محمد عبد الله بن أحمد) المعروف في المصادر التاريخية (بابن البيطار) (1197 – 1248م) ولد في مالقة وكان من شيوخ أبي العباس النباتي الذي كان يجمع أنواع النباتات في مدينة أشبيلية، وقد ارتحل ابن البيطار إلى كثير من أقطار العالم المعروف آنذاك رغبة منه في جمع ما يستطيع جمعه من صنوف الحشائش والنباتات المفردة وعندما جاء إلى مصر عينه الملك الكامل الأيوبي رئيساً للعشابين، أي من علماء النبات والمهتمين بتحضير الأدوية، وكذلك عندما ارتحل إلى مدينة دمشق عينه الملك الصالح كذلك رئيساً للعشابين وانتقل بعد ذلك إلى آسيا الصغرى لدراسة نباتاتها[1]. وقد عني بدراسة كل نبات أو عشبة في زمان نضجه، وكذلك بيئته وقد وضع مصنفات وكتباً كثيرة أهمها الكتاب الموسوعي (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) تنفيذاً لأمر الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان أكبر وأهم كتاب في الصيدلة وعلم النبات طوال الحقبة الممتدة منذ عهد العلامة اليوناني (ديسقوريدس) إلى القرن السادس عشر الميلادي، وقد ذكر (ابن البيطار) في مصنفه هذا أكثر من (1500) صنف من الأدوية مختلفة المصادر الحيوانية والنباتية والمعدنية، من بينها (300) نوع جديد اكتشفها بنفسه، ولعلّ أهم مايميز (ابن البيطار) اعتماده على ترك التكرار، وكذلك على توخي المنهج العلمي أثناء تدوينه لمصنفه (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية)، وكان يرى أن من سبقوه من علماء النبات قد وقعوا في أخطاء نتيجة اعتماد جلهم على النقل من مصادر من سبقوهم ونراه يذكر عن نفسه أنه في المقابل اعتمد على التجربة والمشاهدة، ويقول في كتابه: «صحَّة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرِّره عن المتأخِّرين؛ فما صحَّ عندي بالمشاهدة والنظر، وثبت لديَّ بالخُبْر لا بالخَبَر، ادخرته كَنْزًا سريًّا، وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيه سوى الله غنيًّا، والتنبيه على كل دواء وقع فيه وَهْم أو غلط لمتقدِّم أو متأخِّر؛ لاعتماد أكثرهم على الصُّحُف والنقل، واعتمادي على التجرِبة والمشاهدة حسبما ذكرتُ من قبلُ» وله كتاب آخرٍ يدعى (المغنى) في الأدوية وكان (ابن أبي أصيبعه) تلميذاً (لابن البيطار) وقد سافر معه بحثاً عن النباتات والأعشاب.

وفي نفس المجال نبغ (سديد الدين أبو الفضل داود بن أبي الفرج الإسرائيلي) الملقب بالشيخ السيد، وهو طبيب وصيدلي مصري يهودي قد عاش في القرن الثاني عشر الميلادي وقد تعلم الطب والصيدلة على يد (هبة الله أبو البركات)، وقد تفوق في وصف وتركيب الدواء حتى أصبح صيدلي الملك العادل أحمد بن أيوب، وقد عاش مدة طويلة ولكن ضعف نظره في

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 397.

آخر أيامه لم يمكنه أن يخرج من منزله، وقد خصص له الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي في كل شهر أربعة وعشرين ديناراً مصرياً تصل إليه في منزله دون أن يكلف خدمة. وقد استمر على هذا الحال نحو عشرين سنة، ومن أهم مؤلفاته (الدستور البيمارستاني) الذي سمي أيضاً بكتاب (الأقراباذين) وقد جعله ابن أبي البيان في (12) باباً، واستخدم طويلاً في مستشفيات مصر والشام والعراق، وله أيضاً كتاب المجريات في الطب.

وفي النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي ظهر عالم جليل آخر من علماء الصيدلة، وهو أبو المني داود المعروف بكوهين العطار، ويكاد أن يجمع المؤرخون المهتمون بعلم الأدوية والعقاقير أنه بمجيئه قد ختمت حقبة التفوق الصيدلاني في الحضارة العربية خلال المدة التي قد بدأت من القرن الثامن الميلادي وحتى نهاية القرن الثالث عشر منه، وقد اهتم ذلك العلامة بدراسة الأدوية والعقاقير ووضع كتابه المتميز (منهاج الدكّان ودستور الأعيان في تركيب الأدوية النافعة للأبدان) الذي قصد به أن يكون أشمل من كتاب (ابن أبي البيان) في هذا الموضوع، والذي حل عند صيادلة مصر وعطاريها وفي مستشفيات مصر وسورية محل الكتاب الأخير، ويشمل الكتاب (25) باباً تناولت المعاجين والسفوف والأدهان والأكحال وغيرها الكثير، وقد جمع المعارف الصيدلية في هذا الكتاب كما يقول بنفسه من عدة مصادر: «مختاراً من عدة أقرباذينات كالإرشاد الملكي، والمناهج وأقرباذين ابن التلميذ والدستور ومما نقلته عن ثقات العشابين، ومما امتحنته وجربته بيدي».

«ولقد تميز داود العطار عن غيره بالنزاهة فنجده قد اعترف بأنه قد جمع معظم معارفه نتيجة تراكم خبراته وتجاربه الشخصية، بالإضافة إلى اعتماده على عدة مصادر أخرى (كالإرشاد) لابن جميع، و(كامل الصناعة) للمجوسي و(المنهاج) (لابن جزلة البغدادي)، واستمر كتاب (العطار) المرجع الأول عند العطارين العرب حتى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي، ومن نافلة القول إن كوهين العطار قد تحدث عن أعمار الأدوية أي مدة بقائها سليمة وقال إن الأصماغ تبقى أطول من البذور والأدهان تتزنخ في عامين أو ثلاثة أما الأفيون فقوته تضعف في ثلاث سنين والزنجبيل يسرع إليه الفساد من عام إلى عامين.

وآخر من يستحق الذكر في سياق الحديث عن علماء الصيدلة والنباتات العرب هو (داوود بن عمر الأنطاكي) المعروف بالحكيم أو بالرئيس الضرير وقد ولد كسيحاً ثم شفي من ذلك المرض[1]، ولد بقرية الفوعة في شمال سورية، وعاش بأنطاكية وانتسب إليها وحفظ فيها القرآن الكريم ثم طلب العلم، ورحل إلى دمشق وبلاد الأناضول والقاهرة حيث عمل كرئيس للأطباء والصيادلة في القاهرة ونال شهرة عظيمة في مداواة المرضى، ثم ذهب إلى مكة حيث استقر بها إلى أن مات عام (1599م) ومن مآثره أنه درس الأمراض الشائعة في زمانه وعمل على تركيب الأدوية التي تعالجها، ووضع عدة قوانين لاستعمال الأدوية المختلفة المفردة منها والمركبة وحدد الجرعات المناسبة لكل حالة ولم يكتف بهذا بل نراه قد وضع قوانين لصناعة الأدوية.

(1) علي عبد الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية، ص 466.

واشتمل كتابه (تذكرة أولي الألباب) و(الجامع للعجب العجاب) الذي يقع في 700 صفحة على حوالي (3000) دواء من النباتات الطبية والعطرية حوالي (1700) دواء ذكر فيه جميع الأسماء المختلفة للدواء وذكر ماهيته، الحسن منه والرديء بل ودرجة الحسن والرداءة لكل عقار وذكر التفاعل مع الأدوية أو الأطعمة وأماكن الجسم التي يوثر فيها الدواء، وكذلك مضار العقاقير، ومقدار تناوله وبديله إذا لم يوجد، وحتى مدة الصلاحية، ومكان التصنيع وله العديد من المؤلفات في الطب والصيدلة منها (تذكرة أولي الألباب) و(الجامع العجب العجاب)، وهو كتاب يشرح فن الطب والأمراض وما يخصها من العلاج، ويضم كذلك نكت، وغرائب ولطائف متعلقة بالطب وكتاب نزهة الأذهان في إصلاح الأبدان، وهو كتاب يتناول التشريح وتفاصيل العلل والأمراض الظاهرة وله أيضاً كتاب مجمع المنافع البدنية وكتاب غاية المرام في الطب وكتاب (ألفية في الطب)، وكتاب (كفاية المحتاج في علم العلاج) وكتاب (الدرة المنتخبة فيما صح من الأدوية المجربة) وكذلك رسالة في الفصد والحجامة.

بعض الأدوية المستخدمة لدى الصيادلة العرب:

كان التداوي بالأدوية عند العرب بزهور النباتات وبذورها وجذورها فاستعملوا لذلك البصل، الكمون لمعالجة أمراض الصدر، الثوم لمعالجة ديدان وأمراض المعدة، وكذلك التين لمعالجة الإمساك وبذور الحلبة لأمراض الربو والسعال، والحبة السوداء لأمراض الجهاز الهضمي، والكمأة لعلاج أمراض العين، السواك لعلاج الأسنان وفي مجال الأدوية والأشربة والخضاب استخدموا العديد من النباتات منها التمر، والريحان، والحنظل، والخردل، السمسم، وشوك السعدان، الشعير، والسلق، الحنطة، الطلح، البطيخ، والقثاء، الثوم، البصل، العنب، والحناء، الزعفران والعصفر، الصندل الكافور، والصبر، واكتشف علماء الصيدلة العرب عقاقير جديدة أضافوها إلى دستور علم الأدوية نذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر: بعض المسهلات كالراوند، والسنامكي، والسنط، وكذلك المنشطات كالجوز المقيئ والأكونيت، أو خانق الذئب والقنب أو الحشيش وصدأ القمح كمسكن للألم والخشخاش، أو الأفيون كمنوم ولتسكين الألم وإيقاف السعال ومنع الإسهال، وقد أوصى الصيادلة العرب باستخدام كل من الكافور والصندل القرنفل والمر وجوزة الطيب والتمر الهندي، القرفة، الينسون والزنجبيل والتوابل في التداوي، واستعملوا السكران وأدخلوه في صنع مزيج مخلوط الكبريت ويكون البخار المتصاعد منهما عبارة عن مخدر يستمر تأثيره يوماً كاملاً، وجوز الطيب أثناء العملية. ومن الطريف أنهم كانوا يستعملون أعضاء بعض الحيوانات لمعالجة الأمراض كتناول جزء من كلية الكلب العقور بمجرد قتله كعلاج للسعار، أو حتى مرارته التي اعتقدوا أنها تحتوي على مادة تقاوم ذلك المرض.

أثر انتقال علوم الصيدلة العربية على الحضارة الأوروبية:

انتقلت علوم الصيدلة فيما انتقل من مختلف العلوم العربية إلى القارة الأوروبية عن طريق ثلاثة مراكز رئيسية وهي مدرسة ساليرنو الطبية التي كانت مركزاً لنقابة الأطباء ومركز جذب لكل من المرضى ودارسي الطب، وقد أنتجت تلك المدرسة دستوراً طبياً لمعالجة السموم وضعه الطبيب (دونولو) في القرن العاشر الميلادي، وهو مأخوذ من أصول عربية وكتاب آخر يعد أول فارماكوبيا أوروبية وضع حوالي عام (1100م)، ومن علماء مدينة ساليرنو قسطنطين الإفريقي (1020–1087م) الذي عمل راهباً في (دير مونتى كاستينو) ثم توجه إلى ساليرنو حيث الكثير من الكتب العربية في الطب والصيدلة منها كتاب (كامل الصناعة الطبية) (لعلي المجوسي)، وكتاب (زاد المسافرين) (لابن الجزار) و(طب العيون) (لحنين بن إسحاق) لكنه أغفل أسماء المؤلفين الأصليين ونسب المعلومات الطبية لنفسه وكانت صقلية المركز الثاني لانتقال العلوم إلى الأوروبين، حيث أبدى ملوك النورمان الذين استولوا على الجزيرة من أيدي العرب تسامحاً نحو الحضارة العربية وعلومها.

وقد نقل فرج ابن سليم الذي كان يعمل في خدمة الملك روجر النورماني حاكم صقلية كتاب (الحاوي) (للرازي) و(الطب التجريبي) (لجالينوس) الذي ترجمه من قبل (حنين بن إسحاق)، وقد قام فرج بوضع كتب طبية وصيدلية قائمة على المصادر العربية مأخوذة لمؤلفين كبار أمثال (الرازي) و(ابن سينا) و(حنين ابن إسحاق) و(علي بن عباس المجوسي)[1]، لكن الأندلس كانت أكبر معبر لعلوم الطب والصيدلة العربية، حيث تعايشت الحضارتان العربية والأسبانية قروناً طويلة، وكان تسامح حكام الأندلس العرب مع الأجناس والأديان المختلفة سبباً لسهولة انتقال علوم العرب إلى أوروبا الغربية، وبالتدريج سقطت مدن الأندلس في أيدي الأسبان وكان بعض حكامها شغوفين بحضارة العرب وعلومهم، مما دفعهم إلى تشجيع المترجمين الأسبان لنقل المصادر العلمية من العربية إلى اللاتينية، ومن أقدم المترجمين في طليطلة (يوحنا الأسباني) الذي كان يترجم من العربية للأسبانية، و(جنديلفي) الذي يترجم من الأسبانية إلى اللاتينية وهناك (روبير الشستري) و(هرمان الدلماني)، و(دانيال دي مورلي)، لكن أعظم المترجمين الأوروبين كانا الإيطاليين (أفلاطون التيفالي) و(جيرارد الكريموني) اللذان أجادا اللغة العربية وترجما العديد من الكتب الطبية والصيدلية، مثل كتاب الكندي في معرفة قوة الأدوية المفردة وكتاب (المنصوري) (للرازي) و(القانون) (لابن سينا)، وكتاب (التصريف) (للزهراوي)، ومازال تأثير العلوم العربية على الحضارة الأوربية في وجود بعض الألفاظ العربية التي لازالت تستعمل بنصها، وإن حُرِّف بعضها كألفاظ الشراب والطرطير والكحول والقالي والبورق والأكسير.

---

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 378.

الفصل الخامس

حركة الترجمة الطبية
ورحلة العلوم من وإلى الغرب

مقدمة:

في ظل الحضارة العربية كانت للعلوم الطبية بفروعها المختلفة أهمية خاصة لدى المسلمين كافة سواء من الأفراد العاديين ورجالات الدولة، وحتى خلفاء المسلمين وسلاطينهم في مختلف عصور تلك الحضارة، وبدا ذلك الاهتمام بالطب وعلومه في توفير أماكن التعلم كالمدارس الطبية الملحقة بالبيمارستانات، وكذلك العناية بترجمة وتعريب أمهات الكتب الطبية لدى مختلف الحضارات السابقة، وأدى ذلك إلى حدوث تطور ملموس في هذا العلم نتيجة العمل الدؤوب لتشجيع المنتمين له من طلاب وأطباء، وقد برع الأطباء العرب في الانفتاح على مقتنيات وذخائر الطب عند الأمم السابقة، وبخاصة الطب اليوناني الذي كان له تأثير بالغ على بدايات الطب العربي، وعملوا بالتالي على نقل مجموعة ضخمة من المصنفات الطبية اليونانية إلى اللغة العربية لمشاهير الأطباء اليونان (كأبقراط) و(جالينوس)، وغيرهما كما ذكر أحد المؤرخين أن العرب قد ملكوا جميع علم اليونانيين، وكان في بغداد نحو مئة مترجم ينقلون كتب اليونان إلى العربية والسريانية[1]، وأما دور الكتب ففي عام (891م) كان عددها في بغداد أكثر من مائة[2]. وكان في سوق الكتب عند بوابة البصرة ببغداد أكثر من مائة متجر لبيع الكتب[3].

ولم يقف العرب عند هذا الحد، بل سعوا إلى إضافة العديد من المشاهدات العلمية والبحوث التجريبية التي أجروها أحياناً على أنفسهم، وأدى ذلك المنحى إلى وضع أصول ومناهج نظرية لعلوم الطب المتعددة في كل فروعه[4]، وكانت النتيجة الطبيعية إلى ظهور كم لايحصى من المؤلفات في مختلف التخصصات الطبية، ظهرت جنباً إلى جنب مع التجارب

---

(1) أحمد شوكت الشطي: العرب والطب، ص 123.

(2) زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص 385.

(3) نفس المصدر، ص 390.

(4) فؤاد سيزكين: تـــاريخ التراث العربي، ص48.

العملية التي كانت تجرى في البيمارستانات ومدارس الطب الملحقة بها، حيث كان طلبة الطب يمرون على المرضى مع أساتذتهم ويطبقون ما درسوه من نظريات بما يشاهدونه في الواقع، بل وفي بعض الأحيان كان الأستاذ الطبيب يزور المرضى في بيوتهم بعد خروجهم من أماكن العلاج، ويطلب من تلامذته تسجيل التغيرات الحادثة للمرضى ومراقبة عملية الشفاء التدريجي، مما كان له الأثر الواضح في تطور العملية التعليمية للطب عند العرب، وأدت إضافة تلك الشروح الدقيقة التي كانت أساساً للعلم التجريبي إلى إنتاج كم هائل من الآثار والدراسات الطبية المبتكرة التي كان لها الأثر الواضح في إثراء الدراسات الطبية، ورقيها حتى بلغت الحضارة العربية بهذا العلم موقع الريادة بين معاصريهم، وكان لهم من ثم الفضل الكبير في تقدم الإنسانية ورقي الأمم من بعدهم في هذا العلم.

نشوء حركة الترجمة:

تعتبر الترجمة من أفضل السبل التي سلكتها الأمم لتبادل المعرفة، وقد حرص العرب على نقل العلوم والمعارف ممن جاورهم أو خالطهم من باقي الأمم، كالفرس والروم والسريان والهنود والمصريين، وقد قاموا بتعريب كثير من المصطلحات وأدخلوها في قواميسهم ومعاجمهم، بل واشتقوا منها ألفاظاً ذات معانٍ مختلفة، وفي البداية واجه المترجمون العديد من الأسماء والمعاني التي لم تكن اللغة العربية تشتمل عليها، ولاسيما في مجال العلوم المختلفة، فسعوا بكل جد لأن يجدوا ما يقابلها في لغتهم العربية، ولقد اثبتت هذه اللغة صدارتها فاستوعبت المصطلحات والألفاظ الأعجمية، فظهرت بالتالي مجموعة ضخمة من الأسماء والمعاني الخاصة بعلوم جديدة نذكر على سبيل المثال لا الحصر، الفلسفة، وعلم الكلام، والمنطق وكذلك العلوم التجريبية كالطب والصيدلة والهندسة والحساب والفلك. هناك عوامل عدة قد مهدت لظهور حركة الترجمة في عصر الحضارة العربية، ومنها الانتصارات الكبرى التي قام بها (الإسكندر الأكبر) وأدت بدورها إلى انتشار الحضارة اليونانية في منطقة غرب آسيا وشمال إفريقية، ومنها مصر مما صبغ هذه المنطقة بصبغة خاصة أطلق عليها اسم الحضارة الهلينستية، وكانت مزيجاً من حضارة بلاد اليونان الأوروبية وعدة حضارات شرقية كالفارسية والآرامية والمصرية، وهي فترة امتدت من وفاة (الفاتح المقدوني) العظيم (323 ق.م)، وحتى القرن السابع الميلادي، عندما جاء الفتح العربي إلى تلك المنطقة التي زخرت بوجود مراكز متعددة وشهيرة للحضارة اليونانية، ومنها الإسكندرية وأنطاكيا ونصيبين وكذلك جنديسابور.

وقبل ظهور الإسلام في جزيرة العرب قام السريان بدور لاينسى في ترجمة ما وجدوه بين أيديهم من معارف اليونان وعلومهم إلى لغتهم الأم، وقد كانت هناك عوامل ساعدت السريان على ذلك منها أن وجود كثير من علماء اليونان الذين رحلوا من بلادهم تحت تأثير موجات من الاضطهاد الديني واتجهوا صوب الشرق، حيث وجدوا ملاذاً لهم واستقروا في

مدينة (الرها) شمال العراق وهناك أسسوا مدرسة شهيرة لمع نجمها في القرن الخامس الميلادي، وكذلك عندما أمر (زينون) (474 – 491م) إمبراطور القسطنطينية بإغلاق مدرسة (الرها) سنة (489م) رحل علماؤها الموجودون بها إلى مدينة (نصيبين)، حيث أسسوا مدرسة أخرى كان لها قصب السبق في عدة ميادين من صنوف المعرفة كالفلسفة اليونانية والطب اليوناني، لكن الضربة القاصمة للعلوم اليونانية حدثت عندما عندما أغلق (جستنيان) الأول (527 – 565م) مدرسة أثينا الوثنية سنة (528م) وشرد مدرسيها وعلماءها فلم يجدوا أمامهم سوى أحضان الفرس ليرتموا فيها، واستقر السريان في جنديسابور التابعة للدولة الفارسية التي ابتنى بها كسرى (انوشروان) (531 – 579م) بيمارستانا شهيراً للطب، وتقع تلك المدينة في خوزستان، وقد أسسها الملك الفارسي (سابور الأول) من قبل لتكون معقلاً لأسراه من الروم عندما انتصر على الإمبراطور الروماني (فاليران) عام (260م)[1]، ولذا فقد كانت اللغة اليونانية شائعة ومعروفة بها، وقد فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب عام (638م)، وقد حرص السريان على نقل الكثير من المصنفات اليونانية التي فقدت أصولها إلى لغتهم السريانية، وهي إحدى اللغات الآرامية، ومن أشهر مراكز السريان مركز مدينة (حران) إلى الجنوب من (الرها)، ويتنسب إلى هذه المدرسة الطبيب (ثابت بن قرة) الذي كانت له مؤلفات عديدة في الطب، وقد عمل في خدمة الخليفة (المعتضد العباسي) (279–289هـ)، وكان من ذريته الطبيب (سنان بن ثابت)[2] الذي حظي برضا الخليفة (القاهر). كما اشتهرت مدرسة (حران) أيضاً بعلم الفلك ومن علمائهم المشهورين (عبد الله محمد البتاني)، و(أبو جعفر الخازن).

لقد كانت اللغة السريانية بمثابة اللغة العالمية لتداول المعارف والعلوم في منطقة الشرق الأدنى قبل ظهور الإسلام، لكن كان هناك عيب في تلك الترجمة السريانية، وذلك كونها كانت ترجمة حرفية، مما أدى في بعض الأحيان إلى ضياع المعنى للنص المترجم، وقد أسهم السريان كذلك في ترجمة بعض الكتب عن البهلوية والتي هي اللغة الفارسية، وقد استقر كذلك بعض العلماء اليونان في جنديسابور واشتهروا بالدراسات المتعلقة بالطب، وبالتدريج صار علماء تلك المدرسة يضعون قواعد لعلاج العلل والأمراض، وقد ظلت مستعملة حتى بعد ظهور الإسلام لدرجة أن الخليفة العباسي الثاني (أبا جعفر المنصور) (136 – 158هـ) عندما أصابه المرض أحضروا له الطبيب ذائع الصيت في عصره (جرجيس بن بختيشوع) الذي كان رئيساً لأطباء بيمارستان جنديسابور، ومنذ ذلك التاريخ اشتهر (آل بختيشوع) في خدمة خلفاء بني العباس ببغداد.

عندما تتجه أبصارنا تجاه الغرب نجد أن مدرسة الطب في مدينة الإسكندرية بمصر (التي تأسست في القرن الثالث قبل الميلاد) ويعود تاريخ تأسيسها إلى عهد البطالسة،

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 43.
(2) القفطي: تاريخ الحكماء، ص 191.

وقد وجد العرب فيها خزائن كتب ضخمة، وقد استفاد العرب من البرديات المحفوظة فيها، واستعانوا بعلماء تلك المدرسة لترجمة تلك المؤلفات من لغتها الأصلية إلى اللغة العربية وشرحها، وقد قامت تلك المدرسة بتأسيس قواعد ثابتة لشرح صنوف المعارف والعلوم اليونانية، ومنها الطب، إلا أن تلك المدرسة قد انغمست بقوة في الجدل الديني حول بعض قضايا اللاهوت المسيحي، وأدى بعدها النسبي عن عواصم الخلافة في دمشق وبغداد إلى جعل تأثير مدارس الشرق، وخاصة جنديسابور يبدو أكثر قوة، وكذلك نجد مدرسة أنطاكيا التي تقع في شمال بلاد الشام (تأسست 300 ق.م)، وفتح المسلمون دولتي فارس والعراق، وكذلك الشام ومصر في القرن السابع الميلادي، وجدوا أن مدارس تلك البلاد المختلفة قد احتضنت حضارة اليونان، وفكرهم ولم يكن العرب على جهل تام بهذه الثقافات، بل إن بعض المؤثرات الثقافية من تلك المدارس قد تسربت إليهم بدليل استعانة الرسول محمد ﷺ (بالحارث بن كلدة)، وهو الذي تعلم في مدرسة جنديسابور الطبية، وكذلك (الكناش الطبي) الذي وجده عمر بن العزيز في خزائنه وأمر بنشره ربما ذلك بتأثير صديقه الطبيب (ابن أبجر) الذي تعلم في مدرسة الإسكندرية.

بدايات حركة الترجمة:

تعود جذور حركة الترجمة إلى اللغة العربية قبيل ظهور الإسلام، ذكر المؤرخون وجود ديوان خاص بالترجمة من العربية وإليها عند بعض ملوك الفرس، وكان يعمل في ذلك الديوان (زيد العبادي)، وكذلك ابنه (عديٍّ)، وكان بعض العرب من يعمل مترجماً من العربية للفارسية في بلاط كسرى، (كلقيط بن معمر)، وكان الأحناف يقرأون في مكة الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل، ويقول (ابن حجر العسقلاني) إن ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد تعلم اللسان العبراني والكتابة العبرانية، وهناك رواية أخرى أنه كان يكتب الإنجيل بالعربية وكان (النضر بن الحارث بن كَلَدة) يشتري كتب الفرس، ويحدث بها أهل مكة، إذ كان يتقن اللغة الفارسية، وكان بعض أهل يثرب يعرف الكتابة والقراءة، وبعضهم كان يعرف اللغة السريانية والعبرية، ذلك بحكم الرحلات التجارية إلى بلاد الشام ووجود الكثير من الجاليات اليهودية التي تسكن يثرب.

أما بالنسبة لحركة الترجمة في عهد الدولة العربية فيمكن إرجاعها إلى صدر الإسلام خلال العهد النبوي، بل وبتكليف منه ﷺ كما روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال (أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم السيريانية) قال الشيخ الألباني: حسن صحيح ، لذلك من أشهر من تعلم اللغة السريانية في عهده ﷺ هو الصحابي (زيد بن ثابت)، ويذكر أنه قد تعلمها في ستين يوماً، وتعلم كذلك اللغتين الفارسية والرومية، وتذكر المصادر التاريخية أن أقدم بردة في الإسلام ربما تعود إلى عام (22 من الهجرة)، وكتب عليها نص باسم الصحابي (عمرو بن العاص) ويوجد به ثلاثة أسطر باللغة اليونانية وقد كتبت الترجمة العربية تحتها، لكن هناك من يرى من المؤرخين أن جذور حركة الترجمة إلى العربية قد نبتت في

أول عصر الخلافة الأموية حيث ذكرت بعض المصادر أن (خالد بن يزيد بن معاوية) والملقب (بحكيم آل مروان) قد أرسل إلى مدينة الإسكندرية طلباً لبعض الكتب المتخصصة في علم الطب، وكذلك علم الكيمياء أو ما كان يطلق عليه علم الصنعة في ذلك الزمن لترجمتها إلى اللغة العربية، وذلك بعدما أقصى نفسه عن الخلافة عن طيب خاطر، ويذكر أيضاً أنه قد طلب قدوم راهب بيزنطي من مدرسة الإسكندرية اسمه (مريانوس)، وطلب منه أن يعلمه علم الصنعة، بل ونجده قد طلب من آخر يدعى استيفانيوس ترجمة ما أتى به (مريانوس) إلى اللغة العربية، ويذكر (ابن النديم) في هذا الصدد في كتابه (الفهرست)[1] أن خالداً كان يسمى (حكيم آل مروان)، وكان فاضلاً في نفسه، وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تصفح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة وقد وصف (ابن خلكان) في كتاب (وفيات الأعيان) (خالد بن يزيد)، بقوله إنه كان أعلم قريش بفنون العلم، وله كلام في صنعة الكيمياء والطب وكان متقناً لهذين العلمين[2]، وحتى (الجاحظ) قد قال عنه إنه كان أول من أعطى الترجمة والفلاسفة، وقرب أهل الحكمة ورؤساء كل صنعة، ويذكر أن أول ترجمة ظهرت في الإسلام كانت بتشجيع من الأمير (خالد بن يزيد بن معاوية) والذي توفي عام (85هـ) ودرس العلوم والحكمة على أحد رهبان الإسكندرية، ويدعى (مريانوس)، فنقل له كتب في صنعة الكيمياء. كما درس الحكمة وعلم النجوم على يد راهب آخر يدعى (اسطفانوس)، وقد استفاد (خالد بن يزيد) من الكتب التي ترجمت له فألف كتباً في الصنعة (الكيمياء)، وأما في عهد الخليفة الأموي (مروان بن الحكم) والذي توفي عام (65هـ) فقد نقل (ماسرجويه البصري)[3]، كناشاً في الطب (للقس أهرن) من اللغة السريانية إلى اللغة العربية، وكانت الخطوة المهمة في الترجمة إلى العربية هي تعريب ديوان الخراج الذي كان يدوَّن باللغة الفارسية، وفي أيام (الحجاج بن يوسف) (660–714م) قام (صالح بن عبد الرحمن)، مولى بن تميم بنقل الترجمة إلى اللغة العربية.

وفي بلاد الشام كان ديوان الخراج يستعمل اللغة اليونانية، وتم تغيير اللغة إلى العربية في عهد الخليفة (عبد الملك بن مروان) والمتوفى عام (86هـ)، وذلك على يد (أبو ثابت سليمان بن سعد) الذي كان يكتب الرسائل في الديوان، وأتى من بعده (عمر بن عبد العزيز) (99 – 101هـ) الذي اصطحب معه أحد علماء مدرسة الإسكندرية الطبية (عبد الملك بن أبجر الكناني) بعد أن أسلم على يديه واعتمد عليه (عمر) في صناعة الطب وقد قام أيضاً بنقل علماء مدرسة الإسكندرية إلى مدرسة أنطاكيا سنة (100هـ)، لكن هذا لا يعني أن مدرسة الإسكندرية قد تم إغلاقها بل ظلت موجودة في العصر العباسي، ومن أشهر أطبائها (بليطان) الذي طلب منه الخليفة (هارون الرشيد) (170–194هـ) ليعالج إحدى جواريه، وفي خلافة ابنه (هشام بن

(1) ابن النديم البغدادي: الفهرست، ص680.
(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج2، ص 224.
(3) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 62.

عبد الملك) والذي توفي عام (125هـ) نقل أو صلح النقل الكاتب (أبو العلاء سالم)، رسائل أرسطاطاليس إلى (الإسكندر المقدوني)، وممن نقل عن اللغة الفارسية في عهده أيضاً (جبلة بن سالم) الذي ترجم كتابي (رستم وإسفنديارو بهرام شوس)، لكن النقلة في هذا العصر الباكر، ولاسيما في العصر الأموي وبدايات العصر العباسي الذين تولوا نقل وترجمة الكتب الأعجمية إلى اللغة العربية لم يكونوا متساوين في إجادة اللغة العربية، أو إجادة حتى العلوم التي كانوا يترجمون أصولها، لهذا نجد أن كثيراً من المصنفات الأجنبية، التي ترجمت في ذلك الحين قد تعرضت لإعادة الترجمة والشرح وأحياناً التصليح على يد مترجمين آخرين، كانوا أكثر منهم في إتقان تلك المعارف علماً، وأجود لغة ممن سبقهم، وفي هذا الصدد نذكر أن عملية ترجمة المؤلفات الأجنبية إلى اللغة العربية قد تمت عن طريق إما الترجمة الحرفية، وهي الوسيلة الأكثر شيوعاً بين المترجمين السريان عند نقلهم للمؤلفات من اللغة اليونانية إلى السريانية أو العربية، وقد سار على هذا المنهاج (يوحنا بن البطريق)، و(عبد المسيح بن ناعمة الحمصي) وغيرهما، وهناك طريقة أخرى سار عليها بعض المترجمين وهي ترجمة المعاني وقد سلكها (حنين بن إسحاق) ومن تعلموا على يديه، وجاء من بعدهم مترجمون منهم (عبد الله بن المقفع)، و(يعقوب الكندي)، و(عمر بن فرخان الطبري)، وقد عمد هؤلاء إلى الترجمة بالمعنى مع الإيجاز.

تطور حركة الترجمة وازدهارها:

كانت الترجمة في عصر الدولة الأموية التي تميزت بالعصبية القبلية قليلة، فكان الخلفاء والوزراء من العرب قد اقتصروا في الترجمة على علوم الكيمياء والفلك والطب، حيث كانت تعتبر مجرد محاولات فردية لا يلبث أن تضمحل بزوال الأفراد المشجعين لحركة الترجمة، لكن نجد أنه خلال العصر العباسي قد اتسع نطاقها وازدادت قوة لتشمل علوماً أخرى، مثل الفلسفة والمنطق وعلم الكلام وكذلك العلوم التجريبية والكتب الأدبية، ومن أهم أسباب ذلك أن الدولة العباسية قد قامت بمعاونة الفرس، وخاصة أهل خراسان الذين تمسكوا بثقافاتهم القديمة، بالإضافة إلى ذلك نجد أن الكثير من خلفاء بني العباس كانت أمهاتهم غير عربيات، وأدت تلك العوامل المختلفة إلى زيادة تشجيع الخلفاء العباسيين وحكام المقاطعات والأمراء بل والأسر النبيلة ورعايتهم للمترجمين، ونراهم قد فتحوا بغداد وعواصم الأمصار أمام أولئك العلماء بل وأجزلوا لهم العطايا والأموال وخلعوا عليهم صنوف التشريف والتشجيع بغض النظر عن اختلاف أصولهم العقائدية.

كما أصبحت الترجمة أمراً من أمور الدولة وركناً من أركانها بل وسلوكاً مستمراً من رجالاتها فلم يعد مجرد جهد فردي سرعان ما يذوى بزوال الأفراد سواء حكام أو غير ذلك، ومن أمثلة اهتمام خلفاء بني العباس بالعلماء والمترجمين نجد أن ثاني خلفائهم (أبا جعفر

المنصور) (754 – 775م) قد عني بترجمة الكتب إلى العربية من مصادرها الأصلية سواء من اللغة اليونانية أو الفارسية، ويعتبر أول من بعث إلى الإمبراطور البيزنطي طالباً منه إرسال الكتب العلمية، فبعث له كتاب (إقليدس في الهندسة)، وبعض كتب الطبيعيات، وقد تُرجم في زمنه كذلك كتاب (المجسطي) (لبطلميوس)، وبعض كتب (الحساب الهندية)، وفي تلك المرحلة الباكرة نقل (حنين بن إسحاق) بعضاً من كتب الطبيب اليوناني (أبقراط)، وكذلك لبعض من مصنفات الطبيب الروماني (جالينوس) في الطب، ونقل (ابن المقفع) كتاب (كليلة ودمنة) من الفارسية، ولما ازدادت أعداد العلماء في مدينة بغداد عاصمة الخلافة أقام لهم الخليفة العباسي (هارون الرشيد) (786 – 809م) داراً أسماها (دار الحكمة) لتكون بمثابة أكاديمية علمية يجتمع بها الطلاب والأساتذة، ونجده قد حرص على إمدادها بالمؤلفات والمصنفات التي أمر بنقلها من مدن آسيا الصغرى وكذلك مدينة القسطنطينية.

وجاء من بعده ابنه الخليفة (المأمون) (813–833م)، وضاعف من اهتمامه ببيت الحكمة، فوسع من أنشطتها العلمية وبالغ في العطاء للمترجمين، بل وقام بإرسال رجاله إلى مدينة القسطنطينية لاستجلاب المؤلفات اليونانية في مختلف صنوف المعارف، نذكر منهم (الحجاج بن مطر)، و(ابن البطريق)، وقد ذكر (ابن النديم) في (الفهرست) أن (المأمون) قد راسل إمبراطور القسطنطينية وطلب منه امداده بما يستطيع من المؤلفات. ويذكر بعض المؤرخين أنه كان يعطي وزن ما يترجم له ذهباً، ومن أشهر المترجمين في ذلك العصر (ثيوفيل بن توما الرهاوي)، و(جورجيس بن جبرائيل)، و(ثابت بن قرة)، و(إسحاق بن حنين)، و(يوحنا بن ماسويه)[1] و(الحجاج بن يوسف الكوفي)، و(حنين بن إسحاق) الذي ترجم كتباً عدة في علوم المنطق والفلسفة والعلوم والطبيعة، لكن أغلب ما ترجمه كان في علم الطب، وقد ترجم تلك المؤلفات من اللغة اليونانية إلى اللغتين السريانية والعربية، ونجده قد ترجم (لجالينوس) أكثر ما يربو على مائة مصنف إلى السريانية نقل منهم إلى العربية حوالي (39) كتاباً فقط، وفي عهد (المأمون) ترجم كتاب (الحكم الذهبية) (لفيثاغورس)، كتاب (المجسطي) (لبطليموس) الذي ترجم للمرة الثانية كما نقل إلى العربية عدد كبير من مؤلفات جالينوس وأوريباسيوس في الطب، وكتاب (النواميس) (لأفلاطون)، كما نقلت أكثر مؤلفات أرسطو ومنها كتاب (السياسة)، الذي أُعجب فلاسفة العرب به ولقبوه بالمعلم الأول، يقول (ابن النديم) في الفهرست «وممن عني بإخراج الكتب من بلاد الروم (محمد وأحمد والحسن)، بنو شاكر المنجم، الذين احترفوا مهنة شراء المخطوطات، فكانوا يرسلون من يتقن اللغة اليونانية إلى بلاد الروم، ومنهم (حنين بن إسحاق) و(حبيش بن الحسن)، و(ثابت بن قرة)، لشراء الكتب، فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والحساب والطب، وقد تفرغ (حنين) لترجمة مؤلفات (جالينوس) كما انصرف ابنه (إسحاق) إلى ترجمة

(1) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 246.

كتب (أرسطو) في الفلسفة، وقام (ابن البطريق)، و(إسكندر بن لوقا البعلبكي) بنقل مؤلفاته في علم الحيوان. واشتهر (إسحاق بن يعقوب الكندي)، و(ثابت بن قرة الحرّاني) بنقل كتب الهندسة والفلك والرياضيات من اليونانية إلى العربية، وجاء من بعدهم الخليفة العباسي (جعفر المتوكل) (847–861م) الذي بنى للمترجمين بيتاً بالقرب من قصره في مدينة سامراء، ليكونوا تحت رعايته وقد تسابق الأغنياء من العرب ومن الأعاجم، في شراء المصنفات المختلفة والتفاخر باقتنائها، وفي عصر ولاية مصر عاش (سعيد بن توفيل) الذي كان طبيب (أحمد بن طولون) (835 – 884م)، فازدهرت نتيجة لذلك مهنة الوراقين وتجارة الكتب، كما أدى إلى انتعاش حركة الترجمة من اللغات الأجنبية المختلفة إلى اللغة العربية، ومن أشهر المترجمين من اللغة اليونانية (الحجاج بن مطر) الذي ترجم (للمأمون) كتاب (المجسطي)، وكذلك كتاب (إقليدس)، أما (سلام الأبرش) فقد خدم البرامكة وترجم كتاب (السماع الطبيعي) (لأرسطو)، و(استيفان بن باسيل) الذي ترجم كتاب (الأدوية) (لديسقوريدس)، وأصلحه (حنين ابن إسحق) في عصر الخليفة (المتوكل)، ونقل (أبو عمرو يوحنا بن يوسف الكاتب) كتاب (أفلاطون) في (آداب الصبيان)، كما (ترجم أيوب بن القاسم الرقّي) من اللغة السريانية إلى اللغة العربية كتاب (المدخل أو باليونانية إيساغوجي) لمؤلفه (فورفوريوس الصوري)، وقد قام (منكه) الهندي بنقل كتاب (شاناق في السموم والترياق) إلى العربية، وأخيراً فقد ترجم (أبو بكر أحمد بن علي) المعروف (بابن وحشية) عدة مؤلفات من النبطية إلى العربية، كان من أشهرها كتاب (الفلاحة النبطية).

تأثير الحضارات المختلفة على حركة الترجمة خلال عصور الحضارة العربية:

امتدت رقعة الدولة العربية في عهد الأمويين والعباسين إلى آفاق بعيدة، وشملت العديد من الحضارات السابقة لها، وضمت في رحابها علماء من مختلف الملل والعقائد وعملت على توفير أجواء البحث العلمي فسعى حكامها إلى تشجيع الترجمة من مختلف اللغات إلى اللغة العربية وارسال المبعوثين إلى أركان الأرض الأربعة لإحضار نفائس التصانيف في مختلف العلوم، وكذلك إغداق العطايا والهبات على المترجمين وتقريبهم من البلاط الحاكم، وفي هذا المجال يمكننا أن نلاحظ تأثير العديد من الحضارات السابقة للدولة العربية، ومنها التأثير الفارسي الذي كان أقوى في مجال الأدب، حيث كان الأدب الفارسي الشرقي أقرب إلى الذوق والحس العربي، ومن نظيره اليوناني الذي كان يعج بصراع الآلهة وأنصاف الآلهة، لذا فإن التأثير اليوناني في الأدب كان محدوداً، ولا يزيد عن نقل بعض الكلمات كالقنطار والدرهم وغيرهما، ونجد أن فترة خلفاء بني العباس اشتهروا بتقريب العنصر الفارسي كثيراً ممن يجيدون اللغتين الفارسية والعربية إجادة تامة، وقد قاموا بترجمة العديد من أمهات الكتب الفارسية ومن هؤلاء (عبد الله بن المقفع) الذي ترجم كتاب (كليلة ودمنة) و(الحسن بن سهل)، وكذلك أبناء خالد، ومن المعروف أن حضارة الفرس لم تكن في مجال الأدب فقط،

بل كانت لديها إسهامات في العلوم المختلفة الأخرى، كالهندسة، والفلك، والجغرافيا، لكن تأثير اليونان في العلوم العقلية كان أقوى من تأثير الفرس نتيجة اهتمامهم بالعقل فنقل العرب عن (أفلاطون) و(أرسطو) و(سقراط) في علوم الفلسفة، وفي مجال الطب عن (أبقراط) و(جالينوس)، وغيرهم وكانت حركة الفتوح قد امتدت إلى شبه جزيرة الهند في عصر الدولة الأموية في نهاية القرن الأول الهجرى، أي في خلافة (الوليد بن عبد الملك) (705 – 715م).

وفي منتصف القرن الثاني الهجري في عهد الخليفة العباسي الثاني (أبي جعفر المنصور) (754 – 775م)، وقد ذكرت الهند في بعض المؤلفات العربية يقول (الجاحظ): «اشتهرت الهند بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطب»، وكذلك (الأصفهاني) يقول بأن «الهند لهم معرفة بالحساب والخط الهندي وأسرار الطب وعلاج فاحش الداء»، ونجد أن الكثير من ثقافة الهند قد انتقلت إلى العرب عبر الحضارة الفارسية نتيجة وجود حركة تجارية بين الدولتين، ويذكر المؤرخون أن الملك الفارسي (كسرى أنوشروان) أرسل طبيبه (برزويه) إلى الهند لإحضار كتب ومؤلفات في الطب فعاد بالكثير منها، ويقال إن قصة (كليلة ودمنة) انتقلت من الهند ضمن ما نقله (برزويه) من كتب، بالإضافة إلى نقله للعبة الشطرنج، وهكذا عندما بدأ المترجمون في عصر الحضارة العربية على ترجمة الكتب الفارسية إلى اللغة العربية نقلوا أجزاء من ثقافة الهند وعلومهما وأحياناً قام بعض المترجمين بنقل المصنفات الهندية، ويعتبر الطب من أهم العلوم التي نقلها العرب عن الهنود من اللغة السنسكريتية، وهي اللغة الهندية القديمة إلى اللغة العربية مباشرة نذكر منهم، (منكة) و(ابن دهن) الهنديين وعلوم الرياضيات والفلك[1]، فقد ترجم (محمد بن إبراهيم الفرازي) كتاب (السند هند في الفلك)، وإذ أن الأرقام الحسابية المستخدمة حالياً نقلها المسلمون عن الهنود وبدورها نُقلت إلى حضارة الغرب الأوروبي، وكذلك المصطلحات الرياضية، مثل مصطلح الجيب في حساب المثلثات، أما في مجال العلوم الطبية فقد ترجم (عبد الله بن علي) كتاب (السيرك) إلى الفارسية، ثم إلى اللغة العربية وقام (منكة) بترجمة كتاب (سسرد) بأمر من (يحيى بن خالد البرمكي)، وأما كتاب (أسماء عقاقير الهند) فقد نقله (إسحاق بن سليمان)، ومن المعروف أن أطباء الهند قد نبغوا في استخدام الأعشاب والعقاقير الطبية في مداواة الكثير من الأمراض، مثل الزنجبيل والكافور، وقد نقل العلماء العرب الكثير من تلك المعارف، وبعض هذه الأعشاب لم تعرفها حضارة اليونان، حيث لا تزرع إلا في بلاد الهند وشرق آسيا، وأخيراً فإن كتاب (استنكر) قد ترجمه (ابن دهن الهندي).

انتقال الطب العربي إلى الغرب:

من الحقائق التي لا سبيل إلى إنكارها أن العلوم ليست من صنع حضارة منفردة ولا شعب معين أو نشأت حتى في زمان واحد، وأن التقدم الحادث في مختلف الميادين نتيجة

(1) القفطي: أخبار الحكماء، ص 175.

لتراكم معرفي حدث بصورة متعاقبة على مر الأزمان، لذا فيمكننا القول بأن أية حضارة مهما كانت درجة تطورها لايمكنها أن تدعي ابتداع مكوناتها الثقافية، فكما ورثت الحضارة العربية عوامل التقدم من الحضارات المختلفة السابقة لها واقتبست علومهم وأضافت اكتشافاتها، ثم تناولت شعلة المعرفة بعد أن كادت تحبو وأسلمتها بعد أن بثت فيها روحاً جديدة شابة إلى الغرب الأوروبي الذي كان يتخبط في ظلمات الجهل.

السبل التي عبرت فيها علوم العرب، ومنها الطب إلى الغرب:

أولاً: الأندلس:

في أواخر القرن الخامس الميلادي خبت جذوة الحضارة الرومانية نتيجة الغزوات الهمجية المتكررة للقبائل التي أتت من الشمال الأوروبي، كالقوط والواندال والفرنجة التي دمرت مراكز العمران المختلفة في جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية الغربية، وقد نهبوا وحرقوا العاصمة روما ثلاث مرات بحيث لم يبق بها إلا مجموعة من الخرائب، وبعض الرهبان يفتشون بين الأنقاض عن بقايا العلوم القديمة وقد كانت هيئة الكنيسة في الغرب الأوروبي تبذل جهوداً ضخمة محاولة القضاء على العلوم والكتب، وحتى اللغة اليونانية في فرنسا والجزر البريطانية لأنها في رأي القائمين عليها تمثل حضارة كفار وثنيين. قال الأب (هيرونيموس) إن الفكر اليوناني لعنة على البشر(1). لذلك كانت الترجمة العربية لهذا التراث الكبير عملية إنقاذ ضخمة وأصيلة لكنوز حضارة مهددة، وانزوت مشاعل المعرفة في بعض قصور الإقطاعيين، وكذلك في مكتبات الأديرة وانحصر العلم في ذلك الزمان في مخطوطات تحوي وعظاً دينياً وسيراً لحياة القديسين، وأما ما يتعلق بالكتب الطبية فقد كانت شديدة الندرة، وإن وجدت فإنها صارت تحوي معارف تتميز بالسطحية والبداءة، وكان الرهبان هم من يتولون مداواة المرضى وشاع بين الناس أن المرض عقاب إلهي يجب أن يترك ربما لتكفير الخطايا والأوزار، وحرم جميع أساقفة (تيلرمونت) عام (1130م) ثم (ليتران) عام (1139م) على الأساقفة مزاولة المهنة الطبية(2) كانت تلك الأحداث تسير بالتوازي مع بزوغ نهضة جديدة في الشرق حيث كانت الحضارة العربية تسير رافعة الرأس تحمل مشعل العلوم والمعارف وكان من الطبيعي أن ينتقل النور إلى أركان المعمورة، وكانت غرب أوروبة أقرب الأماكن لتقبل تلك العلوم نتيجة وجود طرق عديدة سهلت تدفق المعارف، ومنها العلوم الطبية بالطبع، وكان أول طريق عبر بلاد الأندلس التي فتحها العرب عام (711م) على يد القائد (طارق بن زياد)، وقد استمر تواجد الحضارة العربية في شبه الجزيرة الأيبرية نحو ثمانية قرون (711 – 1492م)، وبالتدريج أصبحت اللغة العربية لغة الحضارة في الأندلس ذلك في عهد الخليفة (هشام بن عبد الرحمن الداخل) (788–798م).(3)

(1) زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص361.

(2) بول غليونجي: ابن النفيس، ص147.

(3) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 378.

أصبحت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس منارة للعلوم والمعارف وخاصة بعد تولي (عبد الرحمن الناصر) (912 –976م) الذي أسس مكتبة ضخمة تضم ما يقرب من أربعمائة ألف مصنف، فأصبح طلاب العلم يحجون إليها من مختلف أرجاء الشرق والغرب وأدى ذلك إلى انتشار موسع للغة العربية بين السكان من أصول أسبانية الذين كانوا معايشين للعرب في مدن الأندلس، ولم يكن قد مضى على الفتح العربي أكثر من نصف قرن، وكان الزائر لتلك البقاع يلاحظ وجود ازدواجية لغوية عربية ورومانية بين عامة الشعب الأندلسي وأصبحت العربية الفصحى اللغة الثقافية، والعلمية للأسبان الذين كانوا يتفاخرون بمقدرتهم على النطق بها وفهمها فهماً صحيحاً وإلى جانبها تعيش اللاتينية الفصحى التي كان مجال استعمالها محدوداً في الكنائس والأديرة، وعاشت اللغة العربية في الدولة الأسبانية حتى القرن السادس عشر الميلادي. كان للعرب المسلمين الفاتحين فضل إدخال صناعة الورق إلى جزيرة الأندلس حوالي سنة (1150م)، ثم انتقلت منها إلى فرنسا وإيطاليا سنة (1170م)، ومن ثم انتشرت في باقي دول أوروبا المختلفة، وأدى ذلك إلى انتشار الكتب والثقافة وأدى وجود المناخ العلمي، وتنوع الدروس والمعارف إلى زيادة مطردة في البحوث وتأليف المصنفات في مختلف صنوف المعارف، ويمكن أن نضيف بأن الأندلس لم تكن في معزل من التيارات العلمية في مختلف حواضر المدن الإسلامية مثل دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان، حيث كان طلاب العلوم من المدن الأندلسية يتدفقون على تلك المراكز، وينهلون من مختلف أنواع المعارف.

أما في المجال الطبي فإن المصنفات التي كانت تؤلف في عواصم الشرق الفكرية كان يتداولها طلاب العلوم في الأندلس، ويتم إضافة الشروح والتعليقات عليها ويذكر العديد من المؤرخين أن الكثير من أطباء الأندلس قد ارتحلوا أياماً وليالي بين عواصم الشرق طلباً للعلم والمعرفة وأدى ذلك إلى انتعاش الحركة العلمية في بلادهم، وحتى بعد سقوط الخلافة الأموية في قرطبة ونشوء حكام الطوائف الذين تنافسوا فيما بينهم وشجعوا العلماء وأجزلوا لهم العطاء الذين تركوا قرطبة باحثين عن من يحتضن جهودهم وأبحاثهم في مختلف العلوم وقامت دول متعاقبة بعدهم، كالمرابطين، والموحدين الذين ضموا الأندلس إلى بلاد المغرب، وقد سار أولئك الحكام على نهج من سبقوهم في إحاطة الطلاب والعلماء بصنوف التشريف والتكريم فكان الطلاب يتلقون في عهدهم عن الشيوخ والعلماء في المدارس الجوامع ومختلف صنوف العلوم الطبيعية والرياضيات وفنون الطب، ويحصلون منهم على إجازاتهم العلمية، وأدت تلك الأجواء المشجعة لتقدم العلوم إلى بروز العديد من أعلام الفنون الطبية منهم على سبيل الذكر لا الحصر (ابن الخطيب الأندلسي) و(أبو القاسم الزهراوي)، و(أولاد بني زهر) و(أبو بكر بن طفيل)، و(الشريف الإدريسي) و(موسى ابن ميمون اليهودي)، و(أبو العباس أحمد ابن الرومية) و(أبو الوليد محمد بن رشد)، وغيرهم الكثير والكثير، لكن دوام الحال من المحال إذ سرعان ما دبت الفرقة بين حكام المدن الأندلسية واستعانوا بملوك قشتالة وأراجون الأسبان لمحاربة بعضهم البعض، وبالتدريج سقطت حواضر الأندلس في يد النصارى، وأدى ذلك إلى زوال العديد من المدارس العلمية وهجرها علماؤها إلى ما بقي من حواضر الأندلس في يد حكام العرب أو ارتحلوا إلى بلاد المغرب.

قد كان لارتحال الأطباء من الأندلس لبلاد المشرق العربي، والتعلم في الحواضر كالقيروان والقاهرة ودمشق وبغداد وغيرها أثر كبير في انتقال المعارف والعلوم إلى جامعات الأندلس ومدارسها الطبية، ونذكر في هذا المجال بعض الأمثلة كان أولهم (أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمي الألبيري)، وهو من البيرة خارج غرناطة، سكن قرطبة، من مؤلفاته الطبية كتاب (مختصر في الطب)، وكتاب (طب العرب)، وتتجلى أهمية هذا الكتاب أيضاً في كونه أول مؤلف أندلسي في الطب، و(يحيى بن يحيى) المعروف (بابن السمينة) (927م)، و(محمد بن عبدون الجبلي) الشهير (بالعددي) (971م)، و(أبو مروان عبد الملك بن محمد بن زهر الإيادي الأندلسي) هو أول طبيب من عائلة (ابن زهر)، وتوفي عام (1078م) و(السموال بن يهودا المغربي) حوالي (1130–1180م) و(موسى ابن ميمون القرطبي) (1135–1204م) وبالعكس فقد ارتحل العديد من أطباء المشرق إلى الأندلس (كالوليد المدحجي) الذي رافق (عبد الرحمن بن معاوية)، و(يونس الحراني) في عهد الأمير (محمد بن عبد الرحمن)، ومكث في قرطبة يعالج المرضى عن طريق معجون خاص به لآلام الجوف، وكذلك فقد تنقل أطباء المغرب بين حواضر الأندلس أمثال: (أبو عبد الله الصقلي) في عهد الخليفة (عبد الرحمن الناصر) وكذلك الحكم الثاني (المستنصر) و(عبد الله بن يوسف الوهراني) الذي برع في الطب وعلم الحساب، ولم تتوقف رحلات الأطباء على ديار الإسلام، بل تعدوا إلى ممالك أوروبة (كبطرس الفونسي اليهودي) الذي ارتحل إلى إنجلترا حاملاً المعارف الطبية العربية، و(إبراهيم بن عزرا) الذي زار لندن عام (1159م)، وكذلك قسطنطين الإفريقي الذي رحل إلى إيطاليا، واستقر في ساليرنو ثم دير كسينوا، حيث قام تلميذه (أفلانيوس) بترجمة العديد من المصنفات العربية، مثل كتاب (الحاوي) للفخر الرازي و(كامل الصناعة الطبية) لعلي بن العباس المجوسي و(زاد المسافر) لابن الجزار القيرواني، أما بيتر الفونسي اليهودي فقد رحل إلى إنجلترا ومعه صنوف العلوم العربية، وكذلك (صمويل بن طبون اليهودي) الذي توفي في مارسليا بفرنسا عام (1230م)، و(تيودوروس الأنطاكي) الذي رحل إلى بلاط الملك الألماني (فردريك الثاني) وقد ترجم له (مختصر الحيوان) (لابن سينا) وكتاب (نواميس الطبيعة) المشتمل على كتاب (البول).

وفي حوالي عام (1217م) أسس بنو الأحمر دولتهم في غرناطة، وقد اهتموا بالحركة العلمية وعملوا على ازدهارها، ومازلت تلك الآثار باقية في قصر الحمراء بغرناطة التي أصبحت قبلة طلاب العلم من مختلف أرجاء بلاد الأندلس، وخاصة في القرن الرابع عشر الميلادي، وقد نشطت حركة العلم والتعليم في مدن غرناطة (كمالقة، والمرية، ووادي آص)، وكانت العلوم المختلفة تدرس كفنون الطب والرياضة[1]، وكذلك الفلك، وأصبحت تلك العلوم وغيرها من المناهج الأساسية التي تدرس في مسجد غرناطة الكبير، والعديد من المدارس

(1) أمين أسعد خير الله: الطب العربي، ص 202.

واعتمدت من ثم كل مراكز التعليم في أوروبا على مدن طليطلة وأشبيلة وغرناطة وغيرها، حيث كان المستعربون وطلاب العلوم يشدون الرحال إليها، وحدث في عام (925م) أن أرسل ملك الألمان (أوتو الكبير) الراهب (جون) من اللورين إلى قرطبة مبعوثاً إلى الخليفة (عبد الرحمن الناصر) ولبث ذلك الراهب ثلاث سنوات كاملة، وتعلم فيها العلوم والثقافة العربية وحمل معه أيضاً الكثير من المخطوطات العلمية العربية، ويذكر المؤرخون أيضاً شخصية أخرى كانت وسيطة بين العالمين العربي واللاتيني، وهو (جيربرت) من مواطني أكويتانيا في غالة (فرنسا الحالية)، والذي استطاع بعد حين أن ينصب باباً في روما بمساعدة الإمبراطور أوتو الأول ويتسمى باسم (سلفيستر الثاني) (999–1003م)[1]، ولقد تتلمذ على يد العرب في الأندلس كما يذكر بعض المؤرخين ويعتبرونه أول من أدخل التعليم الدنيوي ودافع عنه على أسس علمية، وهو من أوائل من اهتم بالثقافة العربية والمفهوم التجريبي للمعرفة، وتجلى ذلك كله في اعتماد الأرقام العربية في أوروبا بدلاً عن الأرقام الرومانية القديمة، ولا أدل على عمق تأثيرات الطب الإسلامي على الطب في أوروبا من المرسوم الذي أصدره البابا (كلمنت الخامس) سنة (1309م) بأن لا يسمح بمزاولة مهنة الطب إلا أن يؤدي الطالب امتحاناً في مصنفات عربية بعينها، وكانت أهمها مؤلفات (ابن سينا)، و(الرازي) وكذلك كتب (حنين بن إسحاق). ولقد ساهمت طائفة من النصارى الذين لم يعتنقوا دين الإسلام وكانوا يعيشون داخل حواضر الأندلس الكبرى، وهم المستعربون وعمل هؤلاء على نقل عناصر الحضارة العربية إلى مدن أسبانيا الكاثوليكية، التي لم تعرف الانفصال الجغرافي ولا الديني بين سكان الأندلس من المسلمين والنصارى، وكان المستعربون بحكم إجادتهم للغتين العربية واللاتينية الحديثة كانوا أداة اتصال بين المدن المسلمة والمسيحية، إذ ارتحل الكثير منهم إلى المدن النصرانية، وخصوصاً إبان انتصارات جيوش المرابطين والموحدين، فقد هاجر سكان مدينة (بلنسية) منها إلى مدينة (قشتالة) في الشمال حوالي عام (1102م)، وصاحبت منهم فئة كبيرة من مدينة غرناطة جيش ملك أراجون (الفونسو الأول) عام (1125م)، وكذلك هاجرت طائفة أخرى من مدينة إشبيلية إلى مملكة قشتالة عام (1146م)، وقد كان من شأن هذه التنقلات والحركة الدائبة أن انتشرت الحضارة العربية بين سكان مدن الشمال الأسباني.

وهناك رافد آخر لانتقال الحضارة العربية إلى الأسبان ألا وهو طائفة (المدجنون)، وهم السكان المسلمون الذين ظلوا يعيشون في المدن الأندلسية التي استولى عليها ملوك الأسبان الكاثوليك[2]، وكذلك العرب المتنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون والساكنون في أسبانيا، وأكثرهم أهل مدينة غرناطة الذين اختاروا البقاء بعد سقوطها على يد الملك (فرديناند) عام (1492م)، وقد جرى تنصيرهم بأعداد كبيرة، وذلك بالرغم من العهود التي أخذها الملك (فرديناند) على نفسه بعدم إجبارهم على ترك معتقدهم الأول، ولكن في عام (1501م) أصدر الملك (فرديناند)، وزوجته الملكة (إيزابيلا)، مرسوماً ملكياً يقضي بضرورة تنصير المسلمين،

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 379 - 380.
(2) نفس المصدر، ص 379.

فظلوا يمارسون شعائر الإسلام خفية وكان من الطبيعي أن تظل الثقافة العربية مزدهرة بين المدجنين والمورسكيين في المدن التي فتحها الملوك الأسبان زمناً، وبالتدريج فإن التعايش بين مختلف هذه الطوائف في المجتمع يسر للأسبان، وغيرهم أن ينهلوا من حضارة العرب وعلومهم، بالرغم من حملات رجال الدين الكاثوليك لتدمير كل مايتعلق بالحضارة العربية من مؤلفات ومبان وآثار، وظلوا طوال خمسين سنة يحرقون الكتب والمؤلفات العربية حتى كادت تبيد الحضارة العربية وأن تختفي من تلك البلاد لولا الترجمات اللاتينية والعبرية أي منذ أن أصدر الكاردينال (خمينيس)، مطران طليطلة، ورأس الكنيسة الأسبانية سنة (1511م) أمره بإحراق عشرات الألوف من المصنفات العربية في ميادين غرناطة.

ومع تلك كل المحاولات المستميتة نجد في نهاية المطاف أن مظاهر الحضارة العربية قد انتقلت سواء مباشرة أو عن طريق غير مباشر إلى الغرب الأوروبي عن طريق أسبانيا، وكان ذلك دافعاً مهماً لنشوء عصر النهضة في أوروبا كلها، وهناك دور لايمكن نسيانه، وهو دور التجار في نقل العلوم العربية، فقد كانت مدن شمال أسبانيا على اتصال بالمدن الأندلسية في الجنوب علمياً وتجارياً كما كان عمل التجار من مختلف المدن الأوروبية (كليون، وجنوه، والبندقية)، وحتى (نورمبورج) في الشمال كوسطاء بين حواضر الأندلس، وباقي مدن الدول الأوروبية، فكانوا أثناء أسفارهم ينقلون الكتب والمصنفات بل وكل ما له علاقة بحضارة العرب.

لقد تأثر المترجمون الأوروبيون بالتعصب الديني الذي كان شائعاً في هذا العصر والخوف من رجال الكنيسة على جودة ترجمة الكتب والمصنفات من اللغة العربية أن يتعارض مع عقيدة المترجم، فعندما كان المترجم يتعرض للمسائل الطبية والعلمية التي لا تمس العقيدة فإن الترجمات تظهر خالية من أي عيوب أو تحريف، أما إذا كان الكتاب يحتوي على ما يخالف العقيدة، فإن المترجم لا يذكره كما فعل (جيرارد الكريموني) عندما ألغى باب طرق منع الحمل وإسقاط الأجنة من كتاب (القانون) (لابن سينا)؛ ذلك لإرضاء رجال الكهنوت المسيحي، ولم يجرؤ المترجمون المسيحون على نقد الأسلاف كما فعل العرب خشية التعرض لنقمة رجال الكنيسة وصاحب عملية الترجمة صفة ذميمة، وهي انتحال البحوث والمصنفات العربية ونسبها إلى أنفسهم، كما فعل (قسطنطين الإفريقي) وتلميذه (يوحنا فلانيوس) عندما ترجموا كتاب (كامل الصناعة الطبية) (لعلي بن العباس المجوسي)، وكتاب (العشر مقالات) في أمراض العين (لحنين بن إسحاق)، أو نسبوها إلى علماء من قدامى اليونان (كأرسطو وسقراط وجالينوس)، والملاحظ أن كثيراً من المترجمين قد تناسوا أسماء المؤلفين العرب الأصليين، أو حتى حرفوا اسمه، لدرجة أن في بعض الحالات يصعب الوصول لاسم المؤلف الحقيقي للكتاب، وجدير بالذكر أن المترجمين من العربية إلى اللاتينية لم يكونوا من العلماء، وكان استيعابهم لمفردات اللغة العربية ضعيفاً، بل كان بعضهم لا يعرف اللغة العربية مطلقاً واكتفى بالنقل عن ترجمة عبرية ضعيفة.

بدأت حركة ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية في منتصف القرن العاشر الميلادي، وتمت في بعض جهات أسبانيا، ولاسيما في منطقة قطالونيا وبعد انتصار الأسبان على العرب[1]

(1) أمين أسعد خير الله: الطب العربي، ص 202.

والمسماة بحرب الاسترداد استطاعوا استعادة مدينة طليطلة العاصمة القديمة لدولة القوط عام (1085م)، وأخذ ملوك قشتالة يعملون على رفع مستوى الثقافة بين رعاياهم، وذلك عن طريق نقل الكتب والمؤلفات العربية إلى لغتهم الأصلية، وربما كان من ضمن الأسرى العرب أطباء وعلماء لفتوا الأنظار بما لديهم من فنون طبية، وبالتالي ظهرت للوجود في تلك الفترة مدرسة للمترجمين الذين نقلوا المؤلفات العربية في العلوم بما تحتويه من مختلف أنواع الثقافات والحضارات، وكذلك وما أضافه العرب إليها من شرح وتعليق إلى مختلف المدارس العلمية في أنحاء القارة الأوروبية فقد كانت تزهو من قبل بمكتباتها العظيمة التي احتوت على آلاف المجلدات، كما ألحق بها جزء كبير من مقتنيات مكتبة الخليفة الأموي (الحكم الثاني)، وكان يعمل فيها مجموعة من المترجمين من مختلف الطوائف المسلمين والنصارى واليهود تحت إمرة أسقف طليطلة (ريموند) (1126–1151م) مؤسس هذه المدرسة الذي دعا مختلف العلماء، وأمر بترجمة المصنفات والترجمات ثم توالى خلفاؤه من الأساقفة في تشجيع هذه الحركة والاهتمام بها لأكثر من قرنين وكانت طريقة النقل أن يترجم يهودي مستعرب النص العربي للمؤلف ويمليه باللغة الأسبانية العامية، ثم يقوم أحد المترجمين الأسبان بنقله النص المتلو إلى اللغة اللاتينية، وكان اتجاه الترجمة في أول الأمر لترجمة كتب العلوم العربية المنقولة عن اليونانية، وذلك في محاولة لتحصيل المعارف عن طريق غير الرهبان ورجال الدين، كان على رأس تلك المجموعة من المترجمين الأسقف (دمنيكوس غوند[1] سالجينوس) المتوفى سنة (1180م)، وهو من كبار رهبان طليطلة، وقد شاركه (يوحنا بن داؤد) (ابن دريد)، وتشمل تلك التراجم كلاً من الحساب والفلك والتنجيم والطب والفلسفة، وكذلك قام (حنا الإشبيلي)، أو الأسباني بترجمة بعض مؤلفات (ابن سينا).

وقد كانت كتب (حساب الجبر والمقابلة) (للخوارزمي) و(علل الأخلاق وسر الأسرار) (للفرغاني)، و(المؤلفات الفلسفية) (للفارابي) و(ابن سينا) و(الغزالي) إلهاماً للعالم الغربي ومؤثراً عميقاً في تطور الفلسفة الأوروبية بالتبعية، وبلغ الاهتمام بنقل المصنفات والمؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية ذروته في زمن الملك (الفونسو العاشر) الذي لقب بالحكيم (1252–1284م)، ومن مآثره الأخرى أنه قد أسس في مرسيه بعد سيطرته عليها مدرسة للترجمة، وجعل على رأسها عالم مسلم من مواليد تلك المدينة، وهو الطبيب (أبو بكر محمد بن أحمد الرقوطي المرسي)، وكان يتقن العديد من اللغات لدرجة أن طلابه كانوا مسلمين ونصارى بل ويهوداً، كذلك حتى انتقلت تلك المدرسة إلى مدينة إشبيلية حيث اختلطت الثقافة العربية باللاتينية وتخرج منها علماء في شتى صنوف المعارف، وهناك ترجم (أدلارد) (مربي الملك هنري الثاني) عام (1126م) (فهارس المجريطي في الفلك والرياضيات) الذي كان لكتاباته تلك أثر كبير على (روجر بيكون)، وعلى تأسيس المنهج العلمي التجريبي الذي نسب فيما بعد له، واشتهر من المترجمين في (توم الأكويني)[2]، وهكذا كانت مدرسة طليطلة العلمية قد فتحت باب النهضة الأوروبية على مصراعيه بتوفير المصادر المعرفية لتلك النهضة.

---

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 381.

(2) محمود الجليلي: تأثير الطب العربي في الطب الأوروبي في القرون الوسطى، ص 197.

وفي معهد طليطلة قام الإنجليزيان (روبرت الكيتوني) و(أديلارد الباثي)، وكذلك الإيطالي (جيرارد الكريموني) بنقل العلوم العربية للحضارة الغربية، والأخير قد قام بترجمة ما يقرب من مائة كتاب، وكان يصاحبه فريق من مترجمي المصنفات العربية منهم غالب الذي ترجم كتاب (المنصوري) للرازي و(التصريف) للزهراوي وكذلك (القانون) لابن سينا، وتذكر بعض المصادر أن ملك ليون واستور شانجة الملقب (بالسمين) الذي قد تعلم علوم الطب في قرطبة الجراحي ولم تتوقف حركة الترجمة في طليطلة في القرن الثالث عشر الميلادي، وكان من أشهر المترجمين فيها (ميخائيل سكوت الأسكتلندي) الذي ترجم بعض مؤلفات (أرسطو) وكتب (ابن سينا)[1]، كما كان أول من ترجم مصنفات (ابن رشد) الفلسفية إلى اللغة اللاتينية التي كانت لها فيما بعد أكبر الأثر، تذكر المصادر في هذا الصدد بعض المترجمين من العربية إلى اللاتينية (كجيوفاني دي كابواو) و(الفْريد السارشيلي) و(ناثان المئوي)، و(سليمان بن يوسف)، وكذلك (اصطفان السرقسطي) (1232م) الذي ترجم كتاب (الأقرباذين) (لأبي جعفر أحمد القيرواني) والمعروف (بابن الجزار)، أما كتاب (الأرجوزة) (لابن سينا)، و(الألفية) الذي يعتبر مختصراً لكتاب (القانون في الطب)، والذي وضعها بتلك الطريقة ليسهل على طلاب الطب قراءتها وحفظها، وقد وضعت عدة شروحات لهذه الأرجوزة، أشهرها التي وضعها العالم الفيلسوف (ابن رشد) والذي توفي سنة (1198م)، وقد ترجمها (ارمنجو) في النصف الثاني من القرن الثالث عشر.

ولم تتوقف الترجمة من اللغة العربية عند اللغة اللاتينية، بل تعدتها إلى لغات أخرى كاللغة العبرية[2]، ومن أشهر المترجمين في هذا السياق (أبو إسحاق إبراهيم بن الماجد) المعروف (بابن عزر)، وقد نقل ثلاث رسائل في النحو، رسالتان في التنجيم، تعليق (البيروني) على جداول (الخوارزمي)، وقد كان كثير السفر إلى فرنسا وإنجلترا وأعجب بكتاباته كثيراً الفيلسوف الهولندي (باروخ سبنيوزا)، وكذلك (شمطوب بن إسحاق) الذي نقل تلخيص كتاب (الروح) (لابن رشد)، وكتاب (التصريف) (لأبي القاسم الزهراوي)، وكتاب (المنصوري) (للفخر الرازي)، وبذلك ساعد على نقل المعارف الطبية العربية للأطباء اليهود غير الناطقين بالعربية، وكذلك فعل الطبيب (زراحيا كريشيان) الذي ترجم الكتابين الأولين من (القانون) (لابن سينا)، وكذلك بعض النصوص من ترجمات (لحنين بن إسحاق) لبعض ما كتب الطبيب الروماني (جالينوس)، وكذلك رسالة (أبي نصر محمد الفارابي) في طبيعة الروح، وقد قام بتلك الترجمات في كل من برشلونه وطليطلة، وهناك الكثير غيرهم مثل (السموال بن يعقوب الكابوي) و(موسى بن صموئيل بن طبون) و(داؤود بن يمطوب بن بيلا) و(يوسف بن يوشع هالوقي)، وكذلك بعون يوسف الكاركاسونيز أدت كل هذه التراجم إلى انتشار علوم الطب في الغرب الأوروبي وهناك مثال واضح، لذلك عندما نقل الراهب الطبيب (ميخائيل سرفيتوس)[3] الذي قرأ ترجمة كتاب (ابن النفيس) في مدينة سرقسطة، وذهب إلى مدينة باريس ليعمل مع الطبيب (أندرياس فيساليوس)، حيث ألف كتاباً ضمنه وصف الدورة الدموية الصغرى كما ذكرها العالم العربي (ابن النفيس).

(1) محمود الحاج قاسم محمد: انتقال الطب العربي إلى الغرب معابره وتأثيره، ص 15.
(2) ماكس مايرهوف: العلوم والطب، جزء من كتاب تراث الإسلام 1972.
(3) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 380.

ثانياً: جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا:

كانت جزيرة صقلية تعتبر المركز الثاني بعد مدينة طليطلة في التأثر بالحضارة العربية وقد دخلها العرب في عهد أسرة بني الأغلب، وفتحها القائد (أسد بن فرات) عام (877م)، ثم استولى عليها قبائل النورمان نهائياً حوالي عام (1091م)، وقد حرص ملوك النورمان على اقتناء المصنفات والكتب العربية، وفي مدينة (بالرمو) العاصمة قامت مدرسة للترجمة من اللغة العربية، وكان من أهم الترجمات هي ترجمة كتاب (البصريات) (لبطليموس).(1)

وقد أسس النورمان كذلك (بالرمو) العاصمة أول مدرسة للطب في أوروبا، ومنها انتشرت علوم الطب إلى مدن جنوب إيطاليا، وبلغ ذلك التأثير مداه في افتتاح أول مدرسة لتعليم اللغة العربية في (جنوا)، وبالتالي دخلت ألفاظ عربية عدة إلى اللغة الإيطالية. وكان العامل المهم لانتشار ثقافة العرب هو تسامح الحكامٍ النورمان واهتمامهم بنشر مظاهر الحضارة العربية في بلادهم لأنهم كانوا يعتبرونها مقياساً للتقدم في ذلك الزمان واهتم الملك النورماني (روجر الثاني) المتوفٍي سنة (1154م)، بأفكار العرب في الممارسة الطبية، وعمل على محاكاة أنظمتهم، فأصدر أمراً عام (1140م) يمنع فيه الأطباء من مزاولة المهنة إلاّ بعد اجتيازهم امتحان خاص يثبت كفاءتهم وهو نفس التنظيم الذي طبقه العباسيون على الأطباء وأدخله الأغالبة، وفي تلك الجزيرة نبغ في صقلية كثير من الأعلام العرب منهم (الشريف الإدريسي الجغرافي) توفي عام (1160م) أحد كبار الجغرافيين، ويعتبر من مؤسسي علم الجغرافيا، وهو الذي رسم خريطةٍ العالم بصورة صحيحة لأول مرة، وقد عاش عالمنا فترة في جزيرة صقلية ونزل فيها ضيفاً على ملكها (روجر الثاني النورماني) (1095 – 1154م)، أما في مجال علوم الطب من العرب، فكان الطبيب محمد بن الحسن الطوبي، وعلي بن الحسين بن أبي الدار الصقلي، وأبو عبد الله الصقلي الذي تعاون مع غيره من الأطباء في ترجمة كتاب (العقاقير) (لديوسقوريدس)، و(علي بن إبراهيم) المعروف (بابن المعلم)، و(ابن جلجل الصقلي)(2) صاحب كتاب (تاريخ الأطباء والحكماء)، و(أبو سعيد بن إبراهيم الصقلي) مؤلف كتاب (المنجح في التداوي)، و(أحمد بن عبد السلام الصقلي) صاحب كتاب (الأطباء من الفرق إلى القدم).

لم يتوقف الفتح العربي عند حدود صقلية بل امتد إلى مدن جنوب إيطاليا حيث سيطر جيش عربي على مدينة بارى في بوليا حوالي عام (847م)، وأصبحت عاصمة لدويلة عربية، وغزا أحد أمرائها دوقية بينيفيتو، وقد تنازعت دوقيات كامبانيا فيما بينها، واستعانت بالمسلمين في حروبها المتعددة، وكان نتيجة لذلك أن أقام المسلمون مستوطنة دائمة على مصب نهر غاريليانو في مينتورنو (لاتسيو الحالية)، وقد اتخذ العرب ثكنة حربية في (دير فارفا) منذ عام (897م)، وقد ساعدت هذه الفتوحات على نشر الثقافة والعلوم العربية وتقوية الصلات العلمية مع الثقافة اللاتينية في المدن الإيطالية، وأدى ذلك إلى نشوء حركة علمية دفعت بأوروبا كلها نحو النهضة.

---

(1) جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي، ص 49.
(2) ألدو ميلي: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ص 429.

وكان في جنوب إيطاليا مدينة تدعى ساليرنو، وكان يوجد فيها مدرسة يحكمها الرهبان قبل الفتح العربي لجنوب إيطاليا، وكان تدريس الطب بها يتم بصورة بدائية، حيث يحوي الكثير من صنوف الدجل والشعوذة، لكن في القرن التاسع الميلادي بدأ توافد العلماء العرب وغيرهم من المستعربين عليها، مثل (هيلينوس اليهودي)، وكان يدرس باللغة العبرية،[1] (يونتس) الذي كان يقرأ على طلابه باليونانية، والأستاذ (عبيدلا) (أو عبد الله) الذي كان يستخدم اللغة العربية في شرحه لعلوم الطب، و(سالرنوس) الذي كان يقرأ على تلاميذه باللاتينية، وتذكر بعض المصادر (شبطاي بن إبراهيم بن يول اليهودي) الذي أسره العرب، ثم عاد إلى ساليرنو بعد تحرره وألف الكتاب (النفيس)، وشاركه في تأسيس مدرسة ساليرنو الطبية (ينافنتوتراسو) الإيطالي صاحب كتاب (فن وصناعة العين)، وكذلك (موسى يانوميتان) الذي ترجم كتاب (أبقراط في الطب البيطري) من أصوله العربية، ومن الذي عملوا في الترجمة من سكان إيطاليا (يوحنا) من كابوا الذي ترجم من العبرية إلى اللاتينية كتاب (التيسير) (لابن زهر)، ومقالة في (تدبير الصحة) (لابن ميمون)، وجاء من بعدهم مترجم شهير يدعى (قسطنطين الإفريقي) (1020–1087م)[2] ذو الأصول العربية الذي ولد في قرطاجة بتونس، وكان يتقن العديد من اللغات منها العربية واللاتينية واليونانية ثم رحل إلى جنوب إيطاليا، حيث قابل أمير ساليرنو جيزوفلو، وقضى معظم حياته في دير مونت كاسينو، حيث قام بترجمة المصنفات العربية، وقد درس في مدرسة ساليرنو الطبي وأدخل التعليم الطبي العربي، وساعد في كتابة القانون الصحي مع مجموعة من علماء مدرسة ساليرنو، وقد ترجم العديد من الكتب والمصنفات العربية في الطب منها كتاب (كامل الصناعة الطبية) (لعلي بن العباس المجوسي)، وكتب (إسحاق بن سليمان الإسرائيلي) في البول والحميات، وكتب (ابن الجزار) و(جالينوس) و(أبقراط) إلى اللاتينية، وتتلمذ على يديه (يونس الفلكي) حوالي عام (1103م)، وكان من تراجمة ساليرنو غير قسطنطين الإفريقي (فرح بن سالم المعروف الذي ترجم كتاب (الحاوي) للرازي، وكتاب جالينوس في الطب التجريبي ومؤلفات (حنين بن إسحاق) كذلك كتاب (تقويم الأبدان) (لابن جزلة) إلى اللغة اللاتينية. ومن بين المترجمين في ساليرنو (أدلا رد الباثي)، ونراه وقد نهل من معارف الحضارة العربية في المراكز الثقافية في جزيرة صقلية، ثم ارتحل إلى مدينة ساليرنو، وقد ترجم هناك النسخة العربية (لإقليدس)، ولم يكتف بذلك، بل وضع مختصراً في العلوم العربية، وكنتيجة لتراكم المعارف الطبية العربية في مدرسة ساليرنو أن قامت بوضع الموجز الساليرني، والنظام الصحي الساليرني المؤلف حوالي عام (1100م)[3] من حوالي (352) بيت، وأشهر من شرحها لها هو (أرنولد فلانوفا)، وبالتدريج ارتحل قسم من خريجي مدرسة ساليرنو الطبية إلى سائر جامعات أوروبا، حيث

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 380، ص 386.
(2) نفس المصدر، ص 378.
(3) محمود الجليلي: تأثير الطب العربي في الطب الأوروبي في القرون الوسطى، ص 197.

ذهب قسم منهم إلى مدرسة مونبليه الفرنسية وآخرون إلى مدينة نابلي، ومنهم (بيرجيل دي كوبري) الذي تابع رحلته إلى جامعة باريس، واستمرت مدرسة ساليرنو حتى سقوط المدينة ساليرنو في يد (هنري السادس)، وأدى ذلك إلى تدهور واضمحلال الحركة العلمية في سنة (1400م) حتى أغلقت بصورة نهائية بأمر نابليون عام (1811م)، ثم تابعت باقي جامعات أوروبا مثل بادوا الإيطالية، ومونبليه، وباريس في فرنسا وأُكسفورد بإنجلترا على نفس النهج، وذلك باعتماد العلوم العربية كأساس في برامجها التعليمية. وظهر في جامعة مدينة بادوا العديد من مترجمي العلوم العربية نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر (رينالدو كولومبوس) عام (1510 –1599م) الذي وضع كتاباً في التشريح وكان عالما بآراء (ابن النفيس) و(فالفردي) الذي صنف كتاباً في نفس المجال معتمداً على كتاب (كولومبوس)، أما في نابولي فقد تأسست جامعتها عام (1324م)، وكان فيها عدد كبير من المخطوطات العربية، واهتم ملك نابولي جارلس الأول بترجمة الكتب الطبية العربية إلى اللغة اللاتينية، وأقام مؤسسة تضم المترجمين الفعليين مثل (فرج بن سالم)، و(موسى من سالرنو)، وتمت ترجمة كتاب (الحاوي) (للرازي)، وكذلك (تقويم الأبدان) (لابن جزلة).

ثالثاً: ألمانيا:

وفي شمال أوروبا في ألمانيا نجد أن الملك (فردريك الثاني) الذي كان حفيد (روجر الثاني) وابن الملك (هنري السادس)[1] قد درس اللغة العربية وأصبح يجيدها هو وابنه (منفيرد)، وقد ألفا مصنفات بالعربية، وقد تُرجمت فيما بعد إلى اللاتينية وكان (لفردريك الثاني) اهتمام بالتنجيم والرياضيات والفلك لأنه قد عرف علوم العرب أثناء إقامته في البلاد العربية أثناء حملات الصليبيين عليها، وقرب إليه (عبد الحق بن إبراهيم بن نصر) الفيلسوف الأندلسي، كما درس وترجم الكثير من الكتب العربية، بل وأهدى الكثير منها إلى جامعة بولونيا الإيطالية وكان له مترجم ومنجم يسمى (تيودور)، وهو مسيحي من مدينة أنطاكيا قام بترجمة كتاب (مختصر الحيوان) (لابن سينا)، وكتاب (نواميس الطبيعة) المشتمل على كتاب في البول، وترجم له (ميخائيل سكوت) خلاصة لاتينية لمؤلفات (أرسطو) مع شرح (ابن سينا) وسماه ملخص (ابن سينا).

رابعاً: فرنسا:

إذا توجهنا شطر فرنسا فنجد أن قطالونيا كانت مركزاً مهماً للحضارة العربية، وتعتبر مدينة مونبليه في البداية محطة لقوافل المسافرين بين إيطاليا[2]، ثم بدأ العلماء العرب أو المتأثرون بالثقافة العربية يأتون إليها من كل حدب وصوب، وأسسوا مدرسة علمية على يد

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 389.
(2) نفس المصدر، ص 382.

الكاردينال (كونراد) بتأسيس مدرسة (جامعة) مونبليه عام (1220م)، ونظمها على شبه مدارس الطب الإسلامية. واحتل الطب الإسلامي مركز الصدارة في برامج التعليم الطبي خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، وكان الأساتذة يشرحون كتب (ابن سينا)، و(الرازي) و(أبي القاسم الزهراوي)، وكانت هذه المدرسة على اتصال دائم مع المدارس العربية في جنوب أسبانيا، وبعد سقوط الأندلس رحل عدد كبير من العلماء العرب متجهين إلى مونبليه نتيجة التسامح الديني، وتذكر المصادر التاريخية أن في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي غادر عدد من الأطباء نتيجة للحروب المتعددة في وطنهم إيطاليا ولجأوا إلى فرنسا، ومعهم الكتب الطبية (لأبي القاسم الزهراوي الأندلسي)، وقد وصلت تلك الكتب إلى باريس عن طريق أحد أطباء ساليرنو يدعى روجي دي بارم، ويعتبر أرنولد من فيلانوفا من أهم من تأثر بعلوم العرب في جامعة مونبليه، وقد ترجم العديد من الكتب الطبية العربية لكبار أطباء العرب مثل، (ابن سينا) و(الكندي) و(قسطا بن لوقا) و(أبو العلاء بن زهر)، وقد أدخل نظام السجلات الطبية مقلداً (ابن زهر)، هذا وقد تميزت مدرسة مونبليه على بقية المدارس كمدرسة باريس بكثرة ما فيها من الكتب الطبية وبالأخص العربية منها. وكان الأساتذة المستعربون يمثلون أغلبية بين الأساتذة، وقد وضع الطبيب (منديس) الذي يعتبر أول من شرّح جثة بشرية بصورة علنية في مدرسة مونبليه، كتاباً في علم التشريح أخذ معلوماته من كتب الطب العربية المتوفرة في مكتبة مونبليه. ومن طلاب تلك الجامعة سكومون من ساليرنو، وناثان بن زفاريوس في منتصف القرن الثاني عشر، و(جلبرت الإنجليزي) عام (1290م)، و(جون) من كاديسدون (1280 – 1331م)، و(جون) من الأردين (1307 – 1390م) الذين أصبحت لهم منزلة كبيرة في ممارسة الطب في إنجلترا، وكذلك (بطرس الأسباني) الذي أصبح البابا فيما بعد باسم (جون الحادي والعشرين) عام (1276 – 1277م).

ومن مترجمي المؤلفات العربية إلى اللغة الفرنسية القديمة الطبيب الإيطالي (ألدو براند السيني) من توسكانيا الذي كان يعمل عند (بياترس) كونتيسة مقاطعة سافوي (1205 – 1267م)، وألف رسالة طبية هي (حمية الجسم) مكونة من أربعة أجزاء اقتبس الأول والثاني من كتب (ابن سينا) و(الرازي)، أما الجزء الثالث فمن كتاب (الأدوية المفردة والأغذية) (لإسحاق الإسرائيلي)، وأما الجزء الرابع فهو عبارة عن ترجمة لكتاب (المنصوري) (للفخر الرازي)، وجاء من بعده مترجمون آخرون ساروا على نفس النهج، لكنهم ترجموا النصوص العربية إلى العبرية (يهودا بن سليمان ناثان) مترجم (المدخل في الطب) (لحنين بن إسحاق)، كتاب (العمدة في أصول الطب) (لابن رضوان)، و(فالونيموس بن فالونينس إبراهيم ابيكدو) ترجم في النصف الثاني من القرن الرابع عشر إلى العبرية، جزء من كتاب (القانون) (لابن سينا)، وترجمة مختصرة من كتاب (المنصوري) (للرازي)، ونظراً لأهمية اللغة العربية كلغة للعلوم ومنها الطب، فقد أسس الملك الفرنسي (هنري الثالث)

في عام (1577م) كرسي أستاذ للغة العربية في المدرسة الملكية، وبلغت أهمية الكتب الطبية العربية لدرجة أن أساتذة جامعة باريس الفرنسية رفضوا أن يستعير الملك الفرنسي (لويس الحادي عشر) (1461 – 1483م) نسختهم من كتاب (الحاوي في الطب) للإمام الرازي[1] إلا بعد أن يدفع مائة ريال ذهباً، وكذلك اثنى عشر طقماً للمائدة مصنوعة من الفضة.

خامساً: الجزر البريطانية:

كان لبعد الجزر البريطانية عن القارة الأوروبية أثر في تأخر وصول المعارف والعلوم العربية إليها، وتحدثنا المصادر التاريخية أن أول ظهور لأثر الحضارة العربية وخاصة في الطب هو (هنري الأول) حوالي عام (1100م)، وقد بعث في طلب النظام الصحي لمدينة ساليرنو، وهناك أيضاً الطبيب الأسباني (بطرس الفونسي اليهودي) الذي تنصر فيما بعد، وأصبح طبيباً للملك الإنجليزي، وقد كان أول من ترجم المؤلفات العربية في الطب والرياضيات والفلك في مملكة إنجلترا في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، وجاء من بعده يهودي أسباني آخر من مدينة طليطلة هو (إبراهيم ابن عزرا) (1159م)، وقد درس هناك مما أدى إلى انتشار الثقافة العربية في تلك البلاد، وأخذ العلماء الإنجليز يزورون المدن الأندلسية طلباً لمزيد من المعرفة نذكر منهم (اديلارد) (1116 – 1142م) من مدينة باث[2]، أحد أوائل من نشر ثقافة العرب وعلومهم السابقين إلى نشر الثقافة العربية في الغرب، فقد طاف مدن الأندلس وسوريا ودرس اللغة العربية والكثير من العلوم العربية، وقد ترجم ما استطاع من مؤلفات عربية إلى اللاتينية وانتهى به المطاف ليصبح معلماً للأمير (هنري) الذي أصبح ملك إنجلترا فيما بعد تحت اسم (هنري الثاني) (1154 – 1189م)، وتبع (اديلارد) في منهاجه روبرت من مدينة تشستر في القرن الثاني عشر، وقد درس العلوم العربية وترجم عدة مصنفات، وكذلك فعل (دانيل أوف مورلي) (1140 – 1210م) وذهب إلى الأندلس، وعاد بعدة مصنفات عربية أما (ميخائيل سكوت) الأسكتلندى (1175 – 1235م)، فقد رحل إلى باليرمو في صقلية، ودرس كلتا اللغتين العربية والعبرية، وترجم كتب (أرسطو طاليس) من أصولها العربية، وكذلك مصنفات في علوم النجوم والكيمياء، ثم جاء من بعده (الفرد دي سيرشال)[3]، وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية كتاب (النبات) (لأرسطو) من نصه العربي (لحنين بن إسحاق)، وقد نقل كتاب المعادن (لابن سينا) أيضاً.

ومن علماء إنجلترا الذين نقلوا مباشرة من العلوم والمعارف العربية (بارثلميو إنجليكوس) الراهب من طائفة الفرنسيسكان (1203 – 1272م)، الذي ولد في إنجلترا، وقد درس في جامعة إكسفورد، ثم انتقل إلى باريس وعمل مدرساً فيها عام (1224م) وقد

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 385.

(2) محمود الحاج قاسم محمد: انتقال الطب العربي إلى الغرب ـ معابره وتأثيره، ص 28.

(3) جمعة شيخة: دور مدرسة الترجمة في طليطلة في نقل العلوم العربية وبالتالي في نهضة أوروبا، ص 44.

ألف كتاباً موسوعياً في تسعة عشر جزءاً جاء معظمها منقولاً من مصادر ومصنفات عربية، وهناك العالم الإنجليزي والراهب الدومنيكاني (روبرت جروستيت) الفلكي الرياضي عام (1170 – 1253م)، وقد كان أول مدير لجامعة أكسفورد، وقد استفاد من التراجم العربية التي وصلت إنجلترا من جزيرة صقلية أو الأندلس ونراه قد ارتحل إلى أوروبا وأسبانيا خاصة ليسقى من المعارف والعلوم العربية، وقد تأثر بمؤلفات (ثابت بن قرة)، و(ابن الهيثم) في مجال علم البصريات، وجاء من بعده تلميذه العالم (روجر بيكون) عام (1214 – 1294م) الذي كان من رواد التنوير في إنجلترا، ومن أوائل من ساهموا في حركة النهضة الأوروبية، وقد استقى المنهج التجريبي من المؤلفات والتراجم للكتب العلمية العربية، ونجده قد أخذ الكيمياء من (جابر بن حيان) الذي أطلق عليه أستاذ الأساتذة، كما تلقى معلوماته في علوم الفلسفة من (ابن رشد الأندلسي) والطب من (الرازي) و(ابن سينا)، وعلم البصريات من كتابات (الحسن بن الهيثم)، وجاء من بعده (جون بيكهام) كبير أساقفة كانتربري وعالم الرياضيات عام (1230 – 1292م)، وقد درس في باريس وأخذ علومه في الفلك والبصريات من (روجر بيكون)، وهناك (جلبرت الإنجليزي) حوالي عام (1290م) نراه قد استقى معارفه من (ابن رشد) و(الرازي) و(برنارد الجوردني) الأسكتلندي الذي نجد في كتاباته صبغة عربية واضحة، وكذلك (جون أوف آردن) عام (1307 – 1380 أو 1390) الجراح الإنجليزي الذي كان يسمى سيد الجراحة، وقد تلقى خبرة كبيرة من حرب المائة عام، ونقل الكثير من فنون علم الجراحة من كتب ومؤلفات (أبي القاسم الزهراوي)، أما في طب الأطفال فإن أول مؤلف طبع في ذلك التخصص هو كتاب (بيكالاردوس) عام (1472م)، وقد اعتمد على ماكتبه (الرازي) في رسالة (تدبير الصبيان)، وأخيراً فإن تأثير الطب العربي على نظيره في إنجلترا يتجلى في إعادة اكتشاف (وليم هارفي) (1578 – 1657م) للدورة الدموية الصغرى، ومن الواضح أنه استقى معلوماته من كتب (ابن النفيس)، حيث وجدت نسخة من شرح التشريح الذي جلبها (أندريا ألباكوس) الطبيب الأنطاكي من دمشق التي درس فيها حوالي ثلاثين عاماً[1]، وترجمت ثم رحلت النسخة إلى مدينة ناني في البندقية، وقد سافر هارفي إلى بادوا بإيطاليا، حيث تعلم على يد فايرسوس لمدة خمسة أعوام من عام (1597م وحتى 1602م)، وتخرج من جامعتها ثم رجع إلى إنجلترا ليصبح طبيباً في مستشفى سان بارثوليو، ثم طبيباً للملك (جيمس الأول) عام (1618م)، وكذلك للملك (شارل الأول) عام (1632م) وقد نشر رسالته عن الدورة الدموية الصغرى في مدينة فرانكفورت الألمانية عام (1628م) باسم (رسالة في التشريح) عن نبض القلب وحركة الدم.

سادساً: الحروب الصليبية:

بدأت الحروب والحملات الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر، واستمرت حتى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر أي ما بين عامي (1096 – 1291م)، وكانت معبراً لنشر الثقافة العربية، ومن بينها العلوم الطبية إلى الغرب الأوروبي، إلا أنها ظلت ذات تأثير محدود

(1) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات، ص 393.

لا يقارن بباقي المعابر كالأندلس وصقلية والمدن الإيطالية، وذلك لعدة أسباب أهمها، العداء وروح التعصب الدينية التي حكمت العلاقة بين الجنود الصليبين والمسلمين، وكان الانشغال بالحرب أو الاستعداد لها عامل مثبط آخر لانتقال علوم العرب، وأخيراً لأن معظم الجنود كانوا من أهل الحرف والعوام ذوي ثقافة سطحية ومحدودة(1)، مما صعب عليهم استيعاب وتقبل المعارف العربية وكل ما نقله الصليبيون من العربية إلى اللاتينية لا يتعدى ترجمة كتاب (كامل الصناعة الطبية) (لعلي بن عباس) و(سر الأسرار) (لأرسطو)، لكن المعارك المتعددة أدت إلى حدوث إصابات استدعت العلاج، وقارن الجنود الصليبيون ما بين المعالجات البدائية التي كان يجريها الرهبان المصاحبون لهم، وبين العلوم المتقدمة التي كانت لدى أطباء العرب مثال ذلك عندما عالج (صلاح الدين) ملك الإنجليز (ريتشارد قلب الأسد) أثناء الحملة الصليبية الثالثة، واتخذ أمراء الفرنجة أطباء من نصارى العرب فكان لأحدهم طبيب اسمه (سليمان بن داؤود).

وفي عام (1218م) صحب الطبيب الجراح (هوغوفون لوكا البولوني) فرقة بولونية من مقاطعات إيطاليا إلى فلسطين، وكان يرى أن كثيراً من الفرسان الصليبيين يفضلون الذهاب إلى العرب للتداوي، بالرغم من تحريم رجال الكنيسة، وفي خلال هذه السنوات الثلاث، توافرت له أكثر من مناسبة للتعرف على هؤلاء الجراحين المسلمين بل وزيارة مستشفاهم العسكري، ورأى كيف أن أطباء العرب يعالجون الجرحي، ويخدرونهم بالسكران والحشيش قبل إجراء عمليات البتر للأطراف وقد لاحظ خطأ ماتعلمه عن (أبقراط)(2)، وكان (اصطفيان الأنطاكي) (البيزي) واحداً من الذين زاروا المشرق أثناء فترة الحملات الصليبية، وقد ولد في بيزا بإيطاليا، وأقام في سوريا، ونال ثقافته في ساليرنو وصقلية، ثم رحل إلى أنطاكية وتعلم العربية، وأعاد سنة (1127م) ترجمة (الكتاب الملكي) وهو (كامل الصناعة) (لعلي بن العباس المجوسي) ويرجع بعض المؤرخين الفضل في بناءٍ مستشفيات أوروبا خلال القرن الثالث عشر إلى تأثير الحروب الصليبية إذ كانت تقليداً للبيمارستانات التي أنشأها الملك (نور الدين زنكي) في دمشق، وسلطان المماليك في القاهرة (المنصور قلاوون)، فأسس (لويس التاسع) بعد رجوعه إلى باريس سنة (1260م) مستشفى كمستشفيات سوريا، وأسس البابا (أنوسنت الثالث) مستشفى آخر على نفس النسق.

اضمحلال الحضارة العربية:

بينما كانت أوروبا تسير نحو النهضة كان العرب يمرون بمرحلة من التردي والانهيار للازدهار العلمي نتيجة لتراكم العديد من العوامل، نذكر منها الحملات الصليبية التي استمرت زهاء قرنين من الزمان، وسعت إلى اقتطاع جزء غال من البلاد العربية، وكانت الإمارات الصليبية حجر عثرة في وحدة العرب، وقد استنفدت الموارد الاقتصادية والجهد الذي كان

(1) محمود الحاج قاسم: انتقال الطب العربي إلى الغرب ـ معابره وتأثيره، ص 33.
(2) راجي التكريتي: الإسناد الطبي في الجيوش العربية الإسلامية، ص 182.

يمكن أن يؤدي إلى استمرار وتطور الحضارة، فقد كانت مسألة ابتياع الأسلحة وبناء القلاع والحصون تأتي كأولويات، وأدى انتشار التوتر والحماس الديني الذي عمّ دول المشرق العربي إلى انشغال الناس عن العلم والثقافة من ناحية، ونتج عن ذلك تدمير الاقتصاد الذي يعتمد عليه التقدم الحضاري، ثم اجتاحت قبائل المغول والتتار دول المشرق التي تحوي الكثير من الحواضر والمدن وعواصم العلم والثقافة والتجارة التي كانت مزدهرة، مثل سمرقند وبخارى ونيسابور وبغداد ودمشق التي كانت تحتوي على مئات المساجد والمدارس والمكتبات والأسواق، وأدت الحروب والمعارك المتعاقبة إلى قتل وتشريد آلاف من أهل العلم والأدب، والعلماء، وكانت بغداد درة الحضارة العربية في ذلك الزمان خير شاهد على بربرية وهمجية تلك الشعوب الرعوية التي لم يتركوها إلا حطاماً بالياً والمداد الأزرق يصبغ نهر دجلة نتيجة لإلقاء آلاف الكتب والمخطوطات الثمينة التي كانت تزهو بها دار الحكمة.

كانت ثالثة الأثافي استيلاء بني عثمان على مقدرات العرب بعد قضائهم على نفوذ الدولة الصفوية ودولة المماليك في مصر والشام، وكانت لطبيعة الحكم التركي المتحجر الذي ضرب نطاقاً حديدياً حول الشعوب العربية، وسادت عقلية العصور الوسطى وهي عقلية تعتمد على الحفظ والتلقين، والاهتمام بالعلوم الشرعية دون العلوم التطبيقية، مما أدى إلى غياب مفهوم الاجتهاد واختفت روح الابتكار في العلم والأدب وبالتدريج سيطر على الفكر الجمود والتقليد دون تحكيم العقل، وانتشر الدجل والشعوذة والخرافات وشاع الجهل، وأدت كل هذه العوامل إلى حدوث نتائج كارثية على تقدم وازدهار العلوم العربية ومن بينها الطب بالقطع فساد الإهمال بالمدارس الطبية المختلفة، وتركت البيمارستانات القديمة تلاقي مصيرها المحتوم نتيجة لضعف الإنفاق والإهمال الحكومي لها.

بدايات النهضة في العالم العربي:

أدى قرب الدولة العثمانية مع أوروبا إلى نفاذ التأثير الحضاري الأوروبي عن طريق بلدان البلقان، فنجد أن أول مطبعة عثمانية قد أنشأت عام (1727م)، وكانت نتيجة جهود رجل من هنغاريا يدعى (إبراهيم متفرقة)[1]، الذي كان سجيناً عند العثمانيين، ودخل بعد إطلاق سراحه في خدمة الإدارة التركية ونجح فيما بعد في إقناع السلطان العثماني بطباعة الكتب غير الدينية وبالتدريج ظهر في العاصمة إسطنبول أوائل الأتراك الذين كانوا يتحدثون اللغة الفرنسية، ويتعلمون آدابها مما فتح الباب لانتشار الفكر والثقافة الفرنسية في أرجاء الإمبراطورية العثمانية، ثم توقف ذلك التعاون الثقافي بعد الثورة الفرنسية عام (1789م) وظهور بعض النزعات العلمانية، وكذلك نتيجة الحملة الفرنسية واستيلائها على مصر، لكنه عاد بعد عام (1809م) بعد إعادة العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا النابليونية والإمبراطورية

(1) سهيل صابان: إبراهيم متفرقة وجهوده في إنشاء المطبعة العربية ومطبوعاته، ص 11-34.

التركية، وقد أطلقت السلطنة حركة إصلاحات واسعة، ومن ضمن ذلك حركة ترجمة وتبادل بعثات ثقافية مع أوروبا، خاصة مع فرنسا وقد دفع ذلك السلطان العثماني (محمود الثاني) في إسطنبول ليرسل عام (1827م) أولى البعثات المدرسية التركية التي ضمت (127) تلميذ.

لم يختلف حال العلوم والمعارف في أرجاء الإمبراطورية العثمانية، ففي مصر مثلاً كان التعليم قد توزعته ثلاث فئات أولها العلماء والمشايخ، وهم فئة قليلة العدد في المجتمع، والجنود المماليك الذين كان تعليمهم يقتصر على المعارف العسكرية وفنون الفروسية، بدون الثقافة العامة والأدب، أما باقي الشعب المصري وسواده الأعظم فقد غرق في مستنقع الأمية والجهل الشديد، وعندما جاءت الحملة الفرنسية حملت معها الثقافة والعلوم الأوروبية وكذلك المطابع، وشكل هذا التلاقي صدمة حضارية وثقافية كبيرة للشعب المصري، وخاصة الطبقة الوسطى فقد تنبه المصريون لأول مرة في تاريخهم لوجود الدواوين التي أنشأها الفرنسيون ووضعها كنموذج جديد للمشاركة في الحكم بدلاً من فكرة الحكم المطلق المستبد التي كرسها الحكام من المماليك والأتراك لقرون، وأدى تأسيس المجمع العلمي كذلك الذي كان بمثابة نافذة حضارية أطل منها المصريون على التقدم العلمي والحضارة الأوروبية الشرقي، وجاء (محمد علي باشا) الذي تأثر بالثقافة الفرنسية وعمل على نقلها إلى مصر التي حكمها، واستخدم تلك الثقافة والحضارة ليبني من خلالهما مصر الحديثة في أوائل القرن التاسع عشر.

رأى الحاكم الجديد لمصر أن يبدأ في ابتعاث بعض الطلبة المتميزين، وكانت أول بعثة عام (1813م) إلى إيطاليا[1]، وكان ضمن هؤلاء الطلبة (نقولا مسابكي) الذي تعلم الطباعة وتولى عند عودته إلى مصر إدارة مطبعة بولاق عام (1821م)، ثم اتجه نظر (محمد علي باشا) إلى فرنسا، وكذلك بعث بعض الطلبة إلى إنجلترا لتلقي فن بناء السفن والملاحة والميكانيكا، ثم رأى (محمد علي) أن يؤسس عام (1815م) أول مدرسة عسكرية على النموذج الفرنسي وأقام عام (1816م) مدرسة مصرية للمهندسين تولى التعليم فيها أساتذة فرنسيون. والعلوم والخبرة كفيلة بإنشاء البنية التحتية لمقومات تلك النهضة الجديدة .

بدأ بعثات تعليمية كبيرة العدد من مصر إلى أوروبا عام (1826م)، ذلك بإرسال (44) طالباً إلى دولة فرنسا، ألحقت بهم بعثة أخرى مكونة من (70) طالباً في عام (1844م)، اختارهم (سليمان باشا الفرنساوي) من بين التلاميذ المصريين المتفوقين دراسياً، وتبعهم بعد ذلك وأصبح عدد طلاب البعثات جديراً بإنشاء مدرسة مصرية في فرنسا؛ لتعليم الطلاب اللغة الفرنسية بما يناسب المدارس العليا الفرنسية، وإن كانت قد أغلقت عام (1848م) إلا أنه تم فتحها من جديد في عهد (الخديوي إسماعيل)، ولقد بلغ عدد الطلاب في تلك البعثات المبكرة (28) طالباً، وكان من أشهرهم (عثمان نور الدين) الذي ذهب إلى فرنسا، وكان له شأن كبير في تنظيم البعثات الكبرى التالية وقد صار أميراً للأسطول المصري فيما بعد[2].

(1) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص 407.
(2) نفس المصدر، ص 408.

كان (جومار) أحد المثقفين الفرنسيين الذي شارك في الحملة الفرنسية على مصر أواخر القرن الثامن عشر، وكان قد أخذ المبادرة لإحضار بعثة مدرسية من الطلاب المصريين لتتلقى العلم في فرنسا، وقد ضمت هذه البعثة (رفاعة الطهطاوي) كواعظ للطلبة المبتعثين وتحول فيما بعد إلى دارس للثقافة الفرنسية ومناصر لها، وهو الذي يعتبر أول مثقف في العالم العربي، وقد عاد (الطهطاوي) (1801 – 1863م) إلى مصر عام (1831م)[1]، وبعد ثلاثة أعوام نشر تفاصيل رحلته إلى فرنسا في كتابه تحت عنوان (تلخيص الإبريز) وضح فيه إعجابه بتطور الحياة العلمية والثقافية في الغرب، وتأثره بتقدم العلوم وتنوعها، وكذلك بالتفوق العلمي والتقني، ولفت الانتباه إلى أهمية المكتبات واشتمالها على أمهات الكتب ووجد طيفاً من الصحف هناك، وبهذا يعتبر (الطهطاوي) من طليعة من نادوا بوجوب تحصيل العلم التاريخي على النهج الأوروبي. كانت البعثات العلمية في تلك الفترة مصدراً مهماً لاستحضار العلوم والتقنيات الأوروبية إلى مصر، وكانت تعتبر تلك البعثات مصدراً رئيسياً لتأسيس النهضة الحديثة التي اتخذت منهجاً واقعياً في التعامل مع الفجوة الثقافية والعلمية التي بدت واضحة بين دول أوروبا الناهضة، والبلدان التابعة للدولة العثمانية المتدهورة، وسعى رواد النهضة إلى استجلاب خبرات أجنبية لبناء اللبنات الأولى في مجال التعليم، ثم إرسال بعثات بعد ذلك لاكتساب المعارف.

تأسست في القاهرة عام (1836م) مدرسة للترجمة من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، وقد تحولت بعد عام (1841م) إلى مدرسة اللغات والمحاسبة، وتمت ترجمة العديد من الكتب الإيطالية والفرنسية الضرورية، وأصبح (رفاعة الطهطاوي) في عام (1837م) مديراً لمدرسة الترجمة تلك التي كانت تضم أربعة أقسام، وهي الطب والفن العسكري والفيزياء والرياضيات، والآداب، وأما العلوم الاجتماعية كالتاريخ والجغرافيا فقد ظل الاهتمام بهما متوسطاً، لكن علوم الفلسفة والمنطق فكان محدوداً، ولقد تمت ترجمة حوالي ألفي كتاب ما بين عامي (1836 و1848م)، لكن في نهاية القرن التاسع عشر شهدت أعداد الكتب المترجمة (بعد عام 1870م) ارتفاعاً مذهلاً، وأصبحت الفئة المثقفة المصرية على اطلاع كبير لمجريات الثقافة والعلوم في القارة الأوروبية وخاصة في الطب (1824 – 1893م) الذي تعلم في أول أمره بمدرسة الجهادية بالقصر العيني عام (1835م)، وانتقل بعد ذلك إلى المدرسة التجهيزية بأبي زعبل التي كان نظام التعليم بها أحسن حالاً، وأكثر تقدماً من مدرسة القصر العيني، وتم اختياره مع مجموعة من المتفوقين للالتحاق بمدرسة المهندسخانة في بولاق عام (1839م)، وهو أحد المبتعثين إلى فرنسا للتعلم، وقد شاركه في هذه البعثة (إسماعيل بك إبراهيم)، الذي صار بعد ذلك (الخديوي إسماعيل)، وقد أسس (علي مبارك) بعد عودته نظاماً تعليمياً في مصر مشابه لما في فرنسا، وأوجد مدارس المعلمين التي كانت تدرس المواد التعليمية باللغتين الفرنسية والإنجليزية، وأصدر مجلة (روضة المدارس) عام (1870م) لإحياء الآداب العربية[2] ونشر المعارف والعلوم الحديثة، وأنشأ كذلك دار العلوم عام (1872م).

(1) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم ج1، ص 129.
(2) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص 407.

نشأة الطب الحديث في مصر:

كانت الخانكة حين مجيء الطبيب الفرنسي (أنطوان براثيلمي كلوت) (1793 – 1868م) إلى مصر مقراً للمعسكر العام للجيش، فأشار على (محمد علي باشا) بإنشاء مستشفى عسكري بأبي زعبل بجوار المعسكر العام، فنفذ محمد علي اقتراحه، وأنشأ المستشفى الذي صار فيما بعد مستشفى عاماً لمعالجة الجنود وغيرهم ونموذجاً للمستشفيات التي أنشئت من بعده، وقد أشار (كلوت) باستعمال تطعيم الجدري لمقاومة انتشاره في مصر بعدما كاد أن يودي بحياة نحو ستين ألف من الأطفال كل عام، وكافح هو وتلاميذه وباء الكوليرا الذي وقع بمصر عام (1830م)، وقد سر (محمد علي) لما بذله من جهود في مقاومة هذا الوباء فأنعم عليه بالبكوية فصار يعرف (بكلوت بك)، وبذل أيضاً جهوداً كبيرة في مقاومة الطاعون الذي حل بالبلاد عام (1835م).

بدأ تدريس الطب في مصر عام (1827م)، عندما وضع والي مصر (محمد علي باشا) حجر أساس أول مدرسة للطب الحديث في العالم العربي[(1)] في منطقة أبي زعبل خارج مدينة القاهرة بعد أن أقنعه الطبيب الفرنسي (أنطوان براثيلمي كلوت) عام (1793 – 1868م) بذلك، وقد اختاره (محمد علي) ليكون أول ناظر لها[(2)]، وقد أتقن اللغة العربية وعلم بها، وكان من رأيه أن يكون التدريس في تلك المدرسة باللغة العربية، واستمر تعليم الطب فيها باللغة العربية نحو (60) سنة، وكان القائمون على شؤونها يستقطبون الأطباء الأجانب فيترجم لهم في قاعات المحاضرات، وقد ألف في هذه الفترة (53) كتاباً في الطب.

وقد ذكر أحد المعاصرين هو (المسيو مانجان) أن عدد تلاميذ مدرسة الطب بلغ سنة (1837م) (140) طالب و(50) طالباً في مدرسة الصيدلة، ووصف مستشفى أبي زعبل، فقال «إنه احتوى على 720 سرير، وأن غرفه منسقة تنسيقاً بديعاً، يتخللها الهواء الطلق، وتسودها النظافة» حيث عهد إلى مدرسي مدرسة الطب ملاحظة خدمة المستشفى فجمعوا بين التدريس وملاحظة المستشفى.[(3)]

وبعد مرور عشر سنوات انتقلت مدرسة الطب المصرية إلى مكانها الحالي بالقصر العيني التي سميت بهذا الاسم نسبة إلى صاحبه (أحمد بن العيني) الذي كان قد شيده في عام (1466م)، وأصبحت تحتوي على (500) طالب، وقد ألحق بها مدرسة للصيدلة، ثم أخرى لتخريج القابلات والمولدات في عام (1838م)، وفي عام (1832م) تم إرسال بعثة إلى فرنسا لتعلم مهنة الطب، وكان عدد طلابها (12) طالباً من أوائل خريجي مدرسة الطب المصرية في أبي زعبل، تم اختيارهم لإتمام دراستهم في باريس لتعيينهم أساتذة في مدرسة الطب عند عودتهم، رحل (د. كلوت) إلى فرنسا عام (1848م)، ثم عاد لمصر ثانية وتم إعادة تعيينه مديراً لمدرسة الطب ومستشفى قصر العيني في سنة (1855م)، وللأسف بعد تولي (الخديوي

(1) إلياس الأيوبي: محمد علي سيرته وأعماله وآثاره، ص 122.
(2) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص 400.
(3) نفس المصدر، ص401.

عباس) الحكم في مصر أصيبت مدرسة الطب بانتكاسة وإهمال، وكذلك في عهد خلفه (محمد سعيد) بسبب تدخل القناصل الأجانب للقضاء على هذه المدرسة، وأعاد (إسماعيل) عهد البعثات العلمية إلى مدارس أوروبا ابتداء من عام (1863م)، وأنشأ مدرسة لأعضاء البعثة في باريس بدل المدرسة التي أنشأها محمد على لهذا الغرض وأُغلقت في أواخر عهده، وقد أنشئت مدرسة للصيدلة في القلعة عام (1829م)(1)، وظهرت نتائج البعثات في اتباع المنهج العلمي في التعامل مع مشكلات مصر الصحية في ذلك الوقت، حيث تم فرض إجراء تطعيم ضد مرض الجدري كنوع من مقاومة هذا المرض، وقد أُقيم في ميناء الإسكندرية حجر صحي على السفن الواردة إلى مصر من البلاد المصابة بالأمراض، وقد تم تأليف المجلس الصحي للإشراف على الشؤون الصحية المصرية، وتم تنظيم مجموعة من الأطباء المصريين لتقديم الرعاية الصحة، وتوفير العلاج بالمجان للفقراء من أفراد الشعب ثم عاد للمدرسة رونقها في عهد (الخديوي إسماعيل)، وقد تولى رئاستها (د. محمد علي البقلي باشا) ما بين عامي (1873م و1879م)، حيث أصبح التعليم كله باللغة العربية والأساتذة مصريين عدا واحد، وعندما احتل الإنجليز مصر سنة (1882م) جعلوا لغة التعليم في المدرسة باللغة الإنجليزية في عام (1887م)، وجعلوا مديراً إنجليزياً مشرفاً عليها، وتم ضم مدرسة الطب ومستشفى القصر العيني إلى الجامعة المصرية، وعين (الدكتور ولسن) مديراً لها في عام (1925م) وعاد المصريون لرئاسة المدرسة بتعيين (الدكتور علي باشا إبراهيم) عميداً للكلية والمستشفى في عام (1929م)، واستمر رئيساً لها حتى عام (1940م).

حركة الترجمة الحديثة في مصر:

بدأت حركة الترجمة بدخول المطبعة إلى مصر أولاً في عهد الحملة الفرنسية، وكان أول كتاب تُرجم عن الفرنسية وطبع في المطبعة العربية التي أنشأتها الحملة الفرنسية كتاب عنوانه (مرض الجدري)، وهو من تأليف (دي جينيت)، ومن ترجمة (رافاييل زاخور)، ثم في عهد (محمد علي)، فقد اصطحب الجنود الفرنسيون مطبعتهم العربية والفرنسية إلى فرنسا بعد خروجهم من مصر، وكانت أهم خطوات الترجمة في عصر الوالى (محمد علي) هو إيفاده (لنيقولا مسابكي) إلى إيطاليا من عام (1811م إلى 1821م)، وذلك لدراسة فن الطباعة(2).

وتنقسم مراحل الترجمة إلى ثلاث مراحل كانت أولاها مرحلة المترجمين السوريين الذين ظهروا مع الحملة الفرنسية، ومنهم (الأب رفاييل زاخور) و(يوحنا عنحوري) و(يوسف فرعون) و(جرجس فيدال طيطي)، وكان مارونياً من حلب، وقد عُيّن مترجماً بمدرسة الطب عند إنشائها وقد كان ألمع مترجم سوري في مدرسة الطب، متقناً للإيطالية ضعيفاً في الفرنسية وكانوا طلائع المترجمين في عصر (محمد علي)، في الفترة ما بين عام (1822م و1831م)، أي حتى عودة بعثته الأولى من الطلبة المصريين في أوروبا، ثم أتت مرحلة المبعوثين المصريين في أوروبا التي تبدأ نحو عام (1831م)، وتنتهي بنهاية عهد (محمد علي) في عام (1849م)،

(1) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص 403.
(2) نفس المصدر، ص 407.

وفي تلك المرحلة تمت ترجمة أربعة وثلاثين كتاباً في الطب البشري، وأخيراً مرحلة خريجي مدرسة الألسن التي أنشأها (محمد علي) في عام (1835م)، وظلّت تعمل حتى أغلقها (عباس الأول) في نوفمبر عام (1849م).

وصاحب ذلك التطور في علوم الطب في مصر قيام حركة ترجمة كبرى عندما قام الأساتذة المصريون الرواد بترجمة معجم فرنسي للمصطلحات الطبية إلى اللغة العربية، وعاونهم في ذلك الجهد المضني عدد من المصححين المجيدين لعلوم اللغة العربية، واستمرت مجهوداتهم باستخراج الألفاظ الدالة على الأمراض من كتاب القاموس المحيط، وأدخلوا من ذلك طائفة من المصطلحات الطبية الجديدة في ذلك المعجم، وتم تكليف (محمد بن عمر التونسي) كمصحح لغوي باستخراج ما في قانون (ابن سينا)، وتذكرة (داوود الأنطاكي) من التعريفات، وضم ذلك أيضاً إلى المعجم، كما تم وضع معاجم مختلفة عربية ـ فرنسية في سنة (1842م) (لإسكندر نعمة)، وإنجليزية عربية (لخليل خير الله)، وساهم (سالم باشا) الذي كان تلميذاً (لرفاعة الطهطاوي) بترجمة كتب عديدة في الطب، منها (وسائل الابتهاج إلى الطب الباطني) في أربعة مجلدات، وكذلك (ينابيع المحتاج في الطب والعلاج)، و(الينابيع الشفائية والمياه المعدنية).

وكان لابد من إصدار صحيفة تهتم بشؤون العلوم الطبية، فتم إنشاء أول مجلة طبية شهرية ناطقة باللغة العربية، وتعتبر بذلك أول مجلة طبية باللغة العربية على الإطلاق، وتمت طباعتها بمطبعة بولاق الأميرية، وكان اسمها «اليعسوب»[1]، واستمر إصدارها ماب ين عام (1865م و1879م) وتم وضع شعار لها مقتبس من الآية الكريمة، ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾سورة النحل الآية رقم (69)، ولم تكن (اليعسوب) المطبوعة الوحيدة في مجالها بل صاحبتها مجلة (المنتخب) التي صدرت عام (1881م)، وصحيفة شهرية أخرى تحت اسم (الشفاء) عام (1886م)، أما عدد الكتب الطبية المترجمة إلى العربية فقد بلغ (ستة وثمانين) كتاباً اشتملت على العديد من الألفاظ والمصطلحات الطبية، كان من أهمها كتاب (القول الصريح في علم التشريح) الذي تمت الموافقة بوضعه للتدريس عام (1834م)، وكذلك كتاب (المنحة في سياسة حفظ الصحة) عام (1834م)، وطبعت بمطبعة بولاق بمعدل ألف نسخة من كل كتاب، وأرسل الكثير منها إلى عاصمة السلطنة التركية إسطنبول والعديد من المدن العربية كالجزائر وتونس ومراكش والشام وحتى بلاد فارس، أما في جنوب المملكة المصرية بالسودان فقد افتتحت كلية الطب بالخرطوم سنة (1924م)، وسميت مدرسة (كتشنر الطبية).

نشأة الطب الحديث والترجمة في بلاد الشام:

في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وخاصة في عهد السلطان (عبد الحميد الثاني) عام (1876 – 1908م)، كان للتقدم الكبير الذي أحرزته سبل العلاج

(1) عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، ص 248.

في التعليم الطبي الحديث في القارة الأوروبية أنْ فقد الطب القديم مكانته، وبدأت تظهر في الدولة العثمانية اتجاهات تسعى لاستنساخ كليات الطب الحديثة في مختلف الدول الأوروبية، وأقامت الدولة المستشفيات التي تماثل مثيلاتها في أوروبا، ولذا فقد تم تأسيس مدرستين للطب إحداهما عسكرية، والأخرى مَدَنية، أقيمتا في إستنبول، وكانت الدولة التركية تريد أن تؤسس مدارس أخرى للطب في مختلف الولايات، على غرار إستنبول وانعكس هذا الاتجاه في بلاد الشام بتأسيس كلية طِبِّ الشام المَدَنية في عام (1903م) في مدينة دمشق، واستمرت في مواصلة نشاطها العلمي والتعليمي، وقد تخرج بها الكثير من الأطباء الذين عملوا في خدمة الأهالي في مجالي الصحة العامة، وكذلك في علاج الأمراض والأوبئة ولقد تحملت الدولة العثمانية تكاليف الكلية بصورة كاملة، وكذلك مرتبات أعضاء هيئة التدريس والموظفين العاملين في إدارة الكلية، وكان الطبيب الجرّاح (خير الدين باشا) يقوم بجولة تفتيش في دمشق على منشآت (خط حديد الحجاز) الذي تقرر مَدُّه في المنطقة عام (1901م)، فقدَّم تقريراً ذكر فيه أن إقامة كلية الطب في دمشق سوف يحققُ العديد من المنافعَ، فدمشق تقع في موضع يتوسط بلاد الشام والخط الحديدي سوف يعزِّز مكانة المدينة، يضاف إلى ذلك أنّه في حالة إقامة كلية الطب فإنَّ الأطباء سوف يرسلون لحماية العمال الذين يعملون في إقامة الخط الحديدي من مختلف الأمراض ووقايتهم منها.

وقد صدر الفرْمان، أي المرسوم السلطاني بإنشاء كلية طِبِّ الشام التي عُرفت في ذلك العهد باسم (مكتب طبية مُلْكية شاهانة) أو (المدرسة الطبيَة المدنية الشاهانيَة)، وقد أصدر السلطان (عبد الحميد الثاني) الأوامر باستئجار مبنى للكلية، ليبدأ التدريس إلى أن يتم إنشاء المباني اللازمة، وقد افتتحت يومَ 31 أغسطس عام (1903م) في الذكرى السابعة والعشرين لجلوس السلطان (عبد الحميد) على العرش، ثم بدأت الدراسة في الكلية يوم (14) أكتوبر من نفس العام، وكان عدد الطلبة (25) طالباً منهم (15) طالباً التحقوا بقسم الطب، وعشرة طلبة التحقوا بقسم الصيدلة، وكانت كلية طِبِّ الشام(1) تابعة إدارياً من الناحية الإدارية لوزارة المعارف العثمانية، ومن الناحية العلميَة والتدريس فتتبع لمجلس أساتذة كلية الطب في إستنبول، وقد تم إنشاء مكتبة خاصةٍ بالكلية وتوفير عدد كبير من أهم الكتب في العلوم والطب وغيرها من العلوم المساعدة بكل من اللغة التركية واللغة الفرنسية، وتم الاشتراك في مطبوعات الطب الجديدة التي كانت تصدر في كل عام، وفي المجلاّت الدورية الخاصة بالطب والعلوم الأخرى، وكان التعليم في كلية طب الشام يتم باللغة التركية، وكان العثمانيون قد فضّلوا أن يضعوا مصطلحاتهم الجديدة من اللغتين العربية والفارسية وكذلك التركية، مما سهل حركة تعريب الطب بكلية طب الشام، وفي 12 يناير عام (1919م) تم افتتاح المعهد الطبي العربي خلفاً للمدرسة الطبية العثمانية، وكان التدريس باللغة العربية بفضل الأطباء أمثال (مرشد خاطر)، و(أحمد حمدي الخياط)، و(حسني سبح)، و(أحمد شوكت الشطي)، و(جميل الخاني)، (حنا سعيد) وغيرهم

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي: المؤسسات الصحية العثمانية الحديثة في سورية ـ المستشفيات وكلية طب الشام، ص 59 – 61.

الذين ألفوا الكتب والمقالات، وقد أصدر أول معجم للعلوم الطبية كل من الأطباء الرواد (مرشد خاطر) و(أحمد حمدي الخياط)، و(محمد صلاح الدين الكواكبي)، وفي عام (1924م) صدرت مجلة باسم المعهد الطبي العربي برئاسة تحرير مرشد خاطر وشارك فيها أطباء ولغويون من مختلف الأقطار العربية.

نشأة الطب الحديث والترجمة في لبنان:

كان لبنان ومازال معبراً لمختلف الحضارات والثقافات وسعى أبناؤه لإحياء الحركة الفكريّة وتحديثها، وقاموا بتأسيس المدارس والكليات على اختلاف تخصصاتها، وكان لانتشار المطابع والمنتديات والصحف والمجلّات دور في تحفيز دور الترجمة العديد من الكتب والمؤلفات من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، وكان للآباء اليسوعيّين دورٍ كبير ورائد في هذا المجال، فمنذ سنة (1839م)، ونراهم قد أنشأوا في مدينة بيروت مقرًّا لهم، وأضافوا إليه مدرسةً صغيرة؛ ثمّ أنشأوا في كسروان معهدًا إكليركيًّا سنة (1846م)، فمدرسةً سنة (1855م). ونظراً لبُعد كسروان آنذاك عن بيروت مركز التجارة والثقافة انتقلت المدرسة إلى بيروت سنة (1875م)، وقد أسبغ البابا (لاوُون الثالث عشر) على هذه المؤسّسة لقب الجامعة، وأعطاها حق منح الدرجات الأكاديميّة، ولا سيّما الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت، ثم توالى تأسيس كليّاتها والمعاهد، حيث قام (باتريمونيو) قنصل فرنسا العام في سوريا، بتقديم طلب لحكومته في باريس، لبناء مثل هذه الجامعة، للدفاع عن مصالح بلاده، ولتدعيم مركز فرنسا في الشرق أمام التوسع الانجلوأمريكي، فتم تأسيس معهد الطبّ سنة (1883م) الذي تم تحوّيله إلى كليّة للطبّ سنة (1888م)، والصيدلة سنة (1889م)، ويذكر أن الكلية اليسوعية قد توقفت عن التعليم في بداية الحرب العالمية الأولى مع الدولة العثمانية حتى انسحاب العثمانيين من البلاد العربية عام(1918م)، وكان الطب يعلم باللغة العربية إلى أن غزا الاستعمار لبنان وتحول تعليم الطب إلى اللغات الأجنبية، وفي بيروت بدأ تدريس الطب بالجامعة الأمريكية ما بين عام (1867م وعام 1887م) لمدة 20 سنة، ورافق ذلك إصدار مؤلفات مختلفة، مثل (النصائح الموافقة في سن المراهقة)، و(المبادئ الصحية للأحداث)، و(أضرار المسكرات) للدكتور (إسكندر البارودي)، وفي عام (1878م) صدرت مجلة (الطبيب) للدكتور (جورج يوسف)، وقد تم إنشاء مدرسة القابِلات والممرّضات في عام (1929م).

نشأة الطب الحديث والترجمة في العراق:

في مطلع القرن التاسع عشر وتحديداً عام (1921م)(1)، عاد الأطباء العراقيون من كلية الطب بإسطنبول، ليشكلوا ما سمي وقتها بالجمعية الطبية البغدادية في محاولة لتغطية حاجات العراق من الخدمات الطبية، واجتمع أولئك الأطباء الذين تخرجوا من كليات الأستانة

(1) هاشم الوتري ومعمر الشابندر: تاريخ الطب في العراق، ص 3-11.

ودمشق وبيروت، وكذلك عدد من الأطباء الإنجليز العاملين في مديرية صحة العراق، وقرروا تأسيس أول كلية للطب الحديث في العراق، وتم تأسيسها بالفعل عام (1927م)، التحق بها (20) طالباً، وكان معظم الأساتذة من الإنجليز، ونظام الدراسة والمناهج يماثل نظيره في كلية الطب (بأدنبرة)، وكانت مدة الدراسة خمس سنوات، وأول أستاذ عراقي درس فيها هو الدكتور (صائب شوكت)، وكانت نواة كليات الطب العراقية فيما بعد. وتم فيها استضافة أول مؤتمر طبي عربي عام (1938م).

نشأة الطب الحديث في بلاد المغرب العربي ودول الخليج:

وفي بلاد المغرب العربي نجد أن أول مدرسة أنشئت للطب كانت في مدينة الجزائر أثناء فترة الاحتلال الفرنسي للبلاد، وبدأ التدريس فيها عام (1833م)، وكان يشرف على التدريس فيها أساتذة عسكريون في مستشفى (مصطفى باشا) بالجزائر العاصمة، وكانت الدروس في البداية للطلبة الأوروبيين فقط، إلا أن مذكرة لوزير الحرب صادرة بتاريخ 10 يونيو عام (1833م) سمحت بقبول الطلبة الأتراك والجزائريين المسلمين واليهود، كانت الدروس في هذه المرحلة الباكرة تقتصر على علم التشريح، وعلم وظائف الأعضاء، وقد أوقفت الدراسة بها في سنة (1835م) بقرار من الجنرال (كلوزيل) قائد الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر الذي كان من دعاة الاحتلال الشامل، ولكن في عام (1854م) صوت المجلس البلدي للجزائر العاصمة على قرار يقضي بإعادة فتحها، وبدأ الافتتاح الفعلي لها عام (1859م)، وقد ضعت هذه المدرسة في البداية تحت إشراف كلية الطب الفرنسية بمونبليه، وفي عام (1909م) تحولت بموجب قانون إلى مدرسة عليا للطب والصيدلة، ثم إلى كلية للطب في عام (1920م)، أما في تونس فقد تأخر إنشاء كليات تدرس العلوم الطبية إلى عام (1964م)، حيث أسست كلية الطب في مدينة تونس العاصمة في نهج (زهير السافي)، وقد سجل بها في ذلك الوقت (54) طالباً، وفي دول الخليج العربي أنشئت أول كلية طب في المملكة العربية السعودية فعلاً تم فتحها رسمياً بمرسوم مؤرخ في 4 أغسطس عام (1857م) غير أنها لم تبدأ نشاطها إلا عام (1967م)، وهي تتبع جامعة الملك سعود، أما في الكويت فقد تأسست كلية الطب في عام (1973م)، وبلغ عدد أول دفعة دراسية (40) طالباً وطالبة في عام (1976م)، وقد تخرجت الدفعة الأولى من طلبة الكلية في عام (1983م)، وفي دولة الإمارات العربية صدر قرار إنشاء كلية الطب والعلوم الصحية، وهي تتبع جامعة الإمارات العربية المتحدة في 31 مارس (1986م).

لقد شهدت الحضارة العربية ازدهاراً واضحاً خلال القرون الوسطى، وظهر ذلك جلياً في مختلف ميادين العلوم، ومن أهمها العلوم الطبية، ولقد كان للأطباء العرب كبير الأثر

في تطور تلك العلوم الطبية التي شهدتها أوروبا خلال عصر النهضة، وظهر ذلك التأثير من خلال أمرين: تلك الترجمات التي قام بها الأطباء العرب للكتب الطبية القديمة سواء الإغريقية والفارسية إلى اللغة العربية، والتي بدورها ترجمت إلى اللغة اللاتينية واتخذتها الدول الأوروبية ركيزة لنهضتها، وقد ساعدت تلك الترجمات على الحفاظ على التراث القديم من الضياع، فأغلب المؤلفات العظيمة لأبقراط وجالينوس في الطب تعرفت عليها أوروبا من خلال الترجمات اللاتينية المنقولة عن العربية، وكذلك تأثير الأطباء العرب بما أضافوه في مجال الطب، ونتيجة للخبرات العلمية التي اكتسبوها نتيجة لممارستهم الطب في البيمارستانات التي كانت منتشرة أنذاك.

إننا إذا أردنا أن نظهر الدور الحقيقي الذي قام به الأطباء العرب في تطوير علم الطب، فإن ذلك يتطلب منا كتابة الكثير من المجلدات، فضلاً عن ذلك فإن ما نعرفه حتى الآن عن هذا الدور وأهميته هو أقل بكثير مما لازلنا نجهله، نظراً لأن الكثير من التراث الطبي العربي لازال حبيس الكتب والمخطوطات التي لم تر النور بعد، وقد حاولنا في هذا الكتاب تسليط الضوء على بعض من إنجازات أسلافنا من الأطباء العرب ودورهم في بناء الحضارة الإنسانية.



المراجع

أولاً: المراجع العربية

- إبراهيم أنيس، وآخرون: (المعجم الوسيط)، تحقيق: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة الثالثة القاهرة ـ مصر 1998م.
- ابن أبي أصيبعه، موفق الدين أبو العباس بن القاسم: (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)، تحقيق: عامر النجار في (تاريخ الطب في الدولة الإسلامية) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ـ مصر 2001م.
- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد القرشي: (معالم القربة في أحكام الحسبة)، تحقيق: محمد محمود شعبان، محمد محمود، صديق أحمد عيسى المطيعي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ مصر 1976م.
- ابن الأثير، أبي الحسن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: (الكامل في التاريخ)، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان 1987م،
- ابن إياس، محمد الحنفي في القاهري: (بدائع الزهور في وقائع الدهور)، مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة ـ مصر 1998.
- ابن تغرى بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي: (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين الطبعة الأولى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان 1992م.
- ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (رحلة بن جبير المسماة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك) طبعة دار ومكتبة الهلال، بيروت ـ لبنان 1981م.
- ابن جرير محمد الطبري: (تاريخ الأمم والملوك)، دار المعارف ـ القاهرة ـ مصر 1967.
- ابن جلجل، أبو داود سليمان: (طبقات الأطباء والحكماء)، تحقيق: فؤاد السيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، باريس القاهرة ـ مصر 1955م.
- ابن حجر، أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، المكتبة العصرية ـ القاهرة ـ مصر 2012.

- ابن خلدون، عبد الرحمن المغربي: (العبر وديوان الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان 1999م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر: (وفيات الأعيان وأنباء الزمان)، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ـ لبنان ـ دار الثقافة 1968م.
- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد: (الانتصار لواسطة عقد الأمصار)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1966م.
- ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله: (القانون في الطب)، تحقيق: محمد أمين الضناوي ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان 1999م.
- ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله: (الأرجوزة في الطب)، نشر: د. جان جابي وعبد القادر نور الدين، باريس ـ فرنسا 1956. الأبيات (269 – 273).
- ابن كثير، الحافظ أبي الفداء إسماعيل: (البداية والنهاية)، تحقيق: علي شيري ـ الطبعة الأولى ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان 1988م.
- ابن عريب بن سعد القرطبي: (خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين) ـ مكتبة معهد التراث ـ حلب ـ سورية 1956م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري: (لسان العرب)، الطبعة الأولى ـ دار صادر ـ بيروت ـ لبنان 1997م.
- ابن هبل، البغدادي مهذب الدين: (المختارات في الطب)، ترجمة وتحقيق: هاشم الندوي ـ دار ومكتبة بيبليون ـ لبنان 2005م.
- ابن الجزار، القيرواني: (سياسة الصبيان وتدبيرهم)، تحقيق وتقديم: محمد الحبيب الهيلة، دار التونسية للنشر ـ تونس 1968م.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد عبد الله: (الإحاطة في أخبار غرناطة)، تحقيق: محمد عبد الله عنان، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ مصر 1973م.
- ابن العوام، أبو زكريا يحي بن محمد بن أحمد الإشبيلي: (الفلاحة الأندلسية)، ترجمة وتحقيق: الراهب الأسباني خوسي أنطونيو بانكيري، المكتبة الوطنية ـ مدريد ـ أسبانيا 1802م.
- ابن القيم، الجوزية: (تحفة المودود في أحكام المولود)، دار ابن القيم ـ الرياض ـ السعودية 2000م.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد إسحاق بن يعقوب: (الفهرست)، ضبطه وشرحه وعلق عليه: يوسف علي طويل، الطبعة الأولى، دار المعرفة العلمية، بيروت ـ لبنان 1978م.

- ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب: (تهذيب الأخلاق)، دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، الطبعة الأولى ـ منشورات الجمل ـ بيروت لبنان 2011م.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك المعافري: (السيرة النبوية)، دار الفكر الإسلامي الحديث ـ القاهرة ـ مصر 2000م.
- أحمد فريد رفاعي: (عصر المأمون)، دار الكتب والوثائق القومية ـ القاهرة ـ مصر 1928م.
- أحمد على الملا: (أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية)، دار الفكر المعاصر ـ دمشق 1986م، ص 23 – 96.
- أحمد عيسى بك: (تاريخ البيمارستانات في الإسلام)، الطبعة الأولى ـ دار الرائد العربي ـ بيروت ـ لبنان 1981م.
- أحمد شوكت الشطي: (العرب والطب)، منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ـ سورية 1970م.
- أكمل الدين إحسان أوغلي: (المؤسسات الصحية العثمانية الحديثة في سورية ـ المستشفيات وكلية طب الشام ـ لجنة تاريخ بلاد الشام، عمان ـ الأردن 2002م.
- أمين أسعد خير الله: (الطب العربي)، المطبعة الأمريكانية ـ بيروت ـ لبنان 1946م.
- الأنطاكي، الشيخ داود الضرير: (تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب)، الطبعة الرابعة ـ المطبعة الأزهرية ـ القاهرة ـ مصر 1930م.
- البدري عبد اللطيف: (الطب عند العرب) ـ موسوعة وزارة الإعلام العراقية.
- البدري عبد اللطيف: (من الطب الآشوري) ـ المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ـ العراق 1976م.
- البلدي، أحمد بن محمد بن يحيي: (تدبير الحبالي والأطفال والصبيان)، مخطوطة ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ مصر.
- التكريتي، الحكيم راجي عباس: (نظرات حديثة في الطب العربي)، مجلة آفاق عربية ـ العدد الخامس ـ بغداد ـ العراق 1979م.
- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: (الحيوان)، تحقيق: عبد السلام هارون ـ دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان 1996م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: (البرصان والعرجان والعميان والحولان)، تحقيق: عبد السلام هارون ـ دار الرشيد ـ بغداد ـ العراق 1982م.
- الجليلي، محمود: (تأثير الطب العربي في الطب الأوروبي في القرون الوسطى والنهضة الأوروبي)، مجلة المجمع العراقي ج 3 ،4 مجلد 32 ـ بغداد ـ العراق 1981م.

- الخطابي، محمد العربي: (الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية)، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ لبنان 1988م.
- الخطيب، حنيفة: (الطب عند العرب)، بيروت ـ لبنان 1988م.
- الدفاع، علي عبد الله: (رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية) ـ الطبعة الأولى ـ دار الرسالة ــ بيروت 2000م.
- الدفاع، على عبد الله: (إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان)، الطبعة الأولى ــ دار الرسالة ــ بيروت ـ لبنان 1986م.
- الدميري كمال الدين، محمد بن موسى بن عيسى بن علي: (حياة الحيوان الكبرى)، تهذيب وتصنيف: أسعد الفارس ــ دار طلاس ـ دمشق ـ سوريا 1992م.
- ألدو ميلي: (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي)، ترجمة: عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، دار القلم ـ دمشق ـ سوريا 1962م.
- الذهبي، شمس الدين محمد أحمد بن عثمان: (تاريخ الإسلام)، المكتبة التوفيقية للطبع والنشر والتوزيع القاهرة ـ مصر 1993م.
- الزركلي خير الدين: (الأعلام) قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة الخامسة ـ دار العلم للملايين ــ بيروت ـ لبنان 1980م.
- الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا: (الحاوي في الطب)، تحقيق: هيثم طعيمة ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، لبنان 2002م.
- الرافعي، عبد الرحمن: (تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ مصر 1998م.
- الرافعي، عبد الرحمن: (عصر إسماعيل)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ مصر 2000م.
- الرافعي، عبد الرحمن: (عصر محمد علي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ مصر 1982م.
- الزهراوي، أبو القاسم: (التصريف لمن عجز عن التأليف)، تحقيق: د. صبحي حمامي ـ مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ـ الكويت 2005م.
- السامرائي، إبراهيم: (كتاب خلق الإنسان للزجاج)، المجمع العلمي العراقي (1963م)، ص 106 – 155.
- السامرائي، كمال: (مختصر تاريخ الطب العربي)، جزءان ـ دائرة الشؤون الثقافية والنشر ـ بغداد ـ العراق 1984م.

- السامرائي، كمال: (الجراحة النسوية في العصور الإسلامية)، المؤتمر العالمي الثاني للطب الإسلامي ـ الكويت 1982م.
- السامرائي، كمال: (الأمراض النسائية في الطب العربي القديم)، مجلة المهن الطبية ج1 ـ بغداد ـ العراق 1964م.
- الشطي، أحمد شوكت: (العرب والطب)، منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ـ سوريا 1970م.
- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر: (نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة) قام على نشره: السيد الباز العريني، إشراف: محمد مصطفى زيادة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ مصر 1946م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: (تاريخ الأمم والملوك)، الطبعة الأولى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان 1987م.
- الطبري، أبو الحسن أحمد بن محمد: (المعالجات الأبقراطية)، مخطوطة ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ مصر.
- العروضي السمرقندي: جهار مقالة المقالات الأربع في الكتابة والشعر والنجوم والطب ـ مطبعة لجنة التاليف ـ القاهرة ـ مصر 1949م.
- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف: (تاريخ الحكماء)، تحقيق: فون بوليوس ليبرت ـ ليبتزج ـ ألمانيا 1903م.
- القفطي جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، (إخبار العلماء بأخبار الحكماء)، الطبعة الأولى ـ مكتبة المتنبي للطباعة والنشر والتوزيع، إربد ـ الأردن 1998م.
- القلقشندي، أحمد بن علي: (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة ـ مصر 1962م.
- إلياس الأيوبي: (محمد علي: سيرته وأعماله وآثاره)، مكتبة الآداب ـ القاهرة ـ مصر 2012م (طبع لأول مرة عام 1923).
- إيميل سيديو: (تاريخ العرب العام)، دار العالم العربي للطباعة ـ القاهرة ـ مصر 2009م.
- باقر طه: (لمحات من تراثنا الحضاري القديم في الطب)، مجلة المجمع العلمي العراقي، أبريل 1980م.
- برهان العابد: (مختارات من تاريخ الطب)، مطبوعات جامعة دمشق ـ دمشق ـ سورية 1996م.
- بول غليونجي: (ابن النفيس)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ مصر 1983م.

- بول غليونجي: (الطب عند قدماء المصريين)، دار المعارف ـ القاهرة ـ مصر 1958م.
- جلال مظهر: (حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي)، مكتبة الخانجي ـ القاهرة 1974م.
- جلال مظهر، (مآثر العرب على الحضارة الأوروبية)، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ مصر 1960م.
- جمال الدين الشيال: (التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي)، دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان 1969م.
- جمعة شيخة: (دور مدرسة الترجمة في طليطلة في نقل العلوم العربية)، وبالتالي في نهضة أوروبا)، مجلة دراسات أندلسية، العدد 11، السنة 1994م.
- سارتون جورج: (تاريخ العلم)، دار المعارف ـ القاهرة ـ مصر 1991م.
- جوستاف لوبون: (حضارة العرب)، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ مصر 2000م، ص 11 – 73.
- حسان حلاق: (مقدمة في تاريخ العلوم والتكنولوجيا: الشرق الأدنى القديم: اليونان ـ الرومان ـ العرب) الدار الجامعية للطباعة والنشر ـ الإسكندرية ـ مصر 1996م.
- حسن كمال: (الطب المصري القديم)، مكتبة مدبولي ـ القاهرة ـ مصر 1998.
- حمارنة، سامي خلف: (تاريخ تراث العلوم الطبية والمسلمين)، جامعة اليرموك ـ عمان ـ الأردن 1986م.
- حنيفة الخطيب: (الطب عند العرب)، الأهلية للنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان1999م.
- م.ت.هوتسما؛ ت.و.أرنولد؛ ر.باسيت؛ ر.هارتمان موجز دائرة المعارف الإسلامية مركز الشارقة للإبداع الفكري الطبعة الأولى 1998م.
- راجي عباس التكريتي: (الإسناد الطبي في الجيوش العربية الإسلامية)، دائرة الشؤون الثقافية ـ بغداد ـ العراق 1984 م.
- راغب السرجاني: (قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية)، الطبعة الأولى، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة ـ القاهرة ـ مصر 2009م.
- زيجريد هونكة: (شمس العرب تسطع على الغرب)، ترجمة: فاروق بيضون، وكمال دسوقي، الطبعة العاشرة، دار صادر ـ بيروت ـ لبنان 2002م.
- شكر، قناديل: (موقف الدين من التشريح)، مجلة الدراسات، تصدر عن الجامعة الأردنية، مطبعة المتحدة ـ المجلد 6 عدد 1 ـ بيروت ـ لبنان 1979م.

- شوقي أبو خليل: (الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة)، دار الفكر ـ دمشق ـ سورية 2007م.
- شوقي أبو خليل: (علماء الأندلس وإبداعاتهم المتميزة، وأثرها في النهضة الأوروبية)، دار الفكر ـ دمشق ـ سورية 2004م.
- صابان سهيل: (إبراهيم متفرقه، وجهوده في إنشاء المطبعة العربية ومطبوعاته)، مكتبة الملك فهد الوطنية ـ الرياض ـ السعودية 1995م.
- عامر النجار: (في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية)، الطبعة الثالثة، دار المعارف ـ القاهرة ـ مصر 1994م.
- عبد العزيز بن عبد الله: (الطب والأطباء بالمغرب)، المطبعة الاقتصادية، الرباط ـ المغرب، 1960م.
- عبد المنعم عبد الحميد: (مجلة جامعة الموصل):العدد 15، السنة الثانية، ص 67.
- عبد القادر عبد الجبار: (جراحة الجمجمة والدماغ عند الأطباء العرب)، من أبحاث مؤتمر الطب الإسلامي ـ دولة الكويت 1981م.
- علي كمال: (مآثر العرب في الطب النفسي)، مجلة المهن الطبية العراقية ج1، بغداد ـ العراق 1964م.
- عفيفي، محمد الصادق: (تطور الفكر العلمي عند المسلمين)، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ مصر 1977م.
- غوانمة يوسف: (الزلازل في بلاد الشام)، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن 1990م.
- فرات فائق خطاب: (علم الكحالة عند العرب)، منشورات وزارة الإعلام، بغداد ـ العراق 1975م.
- فوسيه أزكريدو: (فضل الجراح الأسباني المسلم أبي القاسم الزهراوي على جراحة الأعصاب)، من أبحاث مؤتمر الطب الإسلامي ـ الكويت 1981م.
- فؤاد سيزكين: (تـــاريخ التراث العربي)، تعريب: محمـــود فهمي حجازي، مراجعة: د.عرفة مصـطفى ود. سعـيد عبد الرحيم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود 1990م.
- قاسم محمود الحاج: (انتقال الطب العربي إلى الغرب معابره وتأثيره)، دار النفائس ـ بيروت لبنان 1999م.
- قاسم محمود الحاج: (الطب عند العرب والمسلمين ـ تاريخ ومساهمات)، الطبعة الأولى، الدار السعودية للنشر ـ جدة ـ السعودية 1987م، ص 8 – 82.

- قاسم محمود الحاج: (الموجز لما أضافه العرب في الطب، والعلوم المتعلقة به)، مطبعة الإرشاد ـ بغداد ـ العراق 1974م.
- طوقان قدري حافظ: (علماء العرب وما أعطوه للحضارة)، منشورات الفاخرية، الرياض ـ ودار الكاتب العربي ـ بيروت 1987م.
- طوقان قدري حافظ: (العلوم عند العرب)، دار اقرأ، جدة ـ السعودية للنشر والتوزيع ـ 1983م.
- قنواني جورج شحاتة: (تاريخ الصيدلة والعقاقير في العصر القديم والعصر الوسيط)، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة ـ مصر 1996م.
- كمال السامرائي: (الأمراض النسائية في الطب العربي القديم)، مجلة المهن الطبية ـ بغداد ـ العراق 1964م.
- كمال السامرائي: (مقال الجراحة النسوية في العصور الإسلامية) نقلاً عن Spink and Lewis Albucasis:Surgical instruments-California university press , p.492
- كمال السامرائي: (مختصر تاريخ الطب)، دار الحرية للطباعة ـ بغداد ـ العراق 1984م.
- كمي، عبد المجيد: (علم التشريح والإسلام)، رسالة ماجستير نوقشت بكلية الطب بجامعة محمد الخامس ـ الرباط ـ المغرب 1986م.
- ماكس مايرهوف: (العشر مقالات في العين) لحنين بن إسحاق، المطبعة الأميرية؛ القاهرة ـ مصر 1928م.
- ماكس مايرهوف: مقالة العلوم والطب جزء من كتاب تراث الطب العربي الإسلامي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد: 105، عام 2009.
- محمد رشدي: (مدينة العرب في الجاهلية والإسلام)، مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ مصر 1911.
- محمد كامل حسين: (الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ ليبيا.
- محمد كامل حسين: (طب الرازي ـ دراسة تحليلية)، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة ـ مصر 1977م.
- مصطفى السباعي: (من روائع حضارتنا)، دار الوراق للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ السعودية 1999م.

- نجيب بلدي: (تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها)، دار المعارف ـ القاهرة ـ مصر 1962م.
- هاشم الوتري ومعمر الشابند: (تاريخ الطب في العراق) ـ بغداد ـ العراق 1969م
- هوارد تيرنر: (العلوم عند المسلمين)، ترجمة: فتح الله الشيخ، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ مصر 1997 م.
- (قصة الحضارة)، ترجمة: زكي نجيب محمود وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ويل ديورانت ـ القاهرة 2001م.
- ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله: (معجم البلدان)، 8 أجزاء، دار إحياء التراث ـ بيروت ـ لبنان 1996م.

ثانياً: المراجع الأجنبية

- Baker, Patricia Annehe: *Roman military Valetudinaria- fact or fiction* Theoretical Archaeology Group Conference 1998،Univesity of Birmingham, 20.12.1998.
- Brothwell: *Digging up Bones; the Excavation, Treatment and Study of Human Skeletal Remains*, p.126.
- Dawson W.R: *Medicine in the legacy of Egypt.* Oxford press; 1942 p.179–198.
- Dols MW, The origin of the Islamic Hospital: myth and reality. *Bulletin of the History of Medicine 1987*; 61: pp. 367–390.
- Dwivedi, Girish & Dwivedi, Shridhar (2007). *History of Medicine: Sushruta – the Clinician – Teacher par Excellence.* National Informatics Centre (Government of India).
- Garrison, FH., *An Introduction to the History of Medicine* (Philadelphia & London: Saunders, 1929, p43–62.
- Harper: *Early Chinese Medical Literature:* The Mawangdui Medical Manuscripts.

- Kremers and Urdang's History of pharmacy by Glenn Sonnedeke American Institute of the History of Pharmacy, 1986, p17.
- Legge, James, A Record of Buddhistic Kingdoms: *Being an Account by the Chinese Monk Fâ-Hien of his* Travels in India and Ceylon.
- Lévi–Provençal: *Histoire de l'Espagne musulmane* Maisonneuve et Larose, Paris, France 1999.
- Nunn, JF., *Ancient Egyptian Medicine* (London: British Museum Press، 1996) 77.
- Sander L. Gilman, Helen King Roy Porter G., S. Rousseau, Elaine Showalter: *Hysteria Beyond Freud*, University of California press Berkeley, Los Angeles, Oxford 1993.
- Sandys J.E : *A History of Classical Scholarship*, Campridge University press, 1908.
- Titsingh : *Annales des empereurs du japon*, p. 434.

إصـــدارات

مركز تعريب العلـوم الصحيـة

أولاً: الكتب الأساسية والمعاجم والقواميس والأطالس

1 ـ دليل الأطباء العرب (1)	إعداد: المركز
2 ـ التنمية الصحية (2)	تأليف: د. رمسيس عبد العليم جمعة
3 ـ نظم وخدمات المعلومات الطبية (3)	تأليف: د. شوقي سالم وآخرين
4 ـ السرطان المهني (4)	تأليف: د. جاسم كاظم العجزان
5 ـ القانون وعلاج الأشخاص المعولين على المخدرات والمسكرات (دراسة مقارنة للقوانين السارية) (5)	تأليف: د.ك. بورتر وآخرين ترجمة: المركز
6 ـ الدور العربي في منظمة الصحة العالمية (6)	إعداد: الأمانة الفنية لمجلس وزراء الصحة لعرب
7 ـ دليل قرارات المكتب التنفيذي لمجلس وزراء الصحة العرب (7)	إعداد: الأمانة الفنية لمجلس وزراء الصحة لعرب
8 ـ الموجز الإرشادي عن الأمراض التي تنتقل عن طريق الاتصال الجنسي (8)	تأليف: د. نيكول ثين ترجمة: د. إبراهيم القشلان
9 ـ السرطان: أنواعه ـ أسبابه ـ تشخيصه طرق العلاج والوقاية منه (9)	تأليف: د. عبدالفتاح عطا الله
10 ـ دليل المستشفيات والمراكز العلاجية في الوطن العربي (10)	إعداد: المركز
11 ـ زرع الأعضاء بين الحاضر والمستقبل (11)	تأليف: د. عبدالفتاح عطا الله
12 ـ الموجز الإرشادي عن الممارسة الطبية العامة (12)	تأليف: كونراد. م. هاريس ترجمة: د.عدنان تكريتي
13 ـ الموجز الإرشادي عن الطب المهني (13)	تأليف: د. هـ.أ. والدرون ترجمة: د. محمد حازم غالب
14 ـ الموجز الإرشادي عن التاريخ المرضي والفحص السريري (15)	تأليف: روبرت تيرنر ترجمة: د. إبراهيم الصياد
15 ـ الموجز الإرشادي عن التخدير (16)	تأليف: د. ج.ن. لون ترجمة: د. سامي حسين
16 ـ الموجز الإرشادي عن أمراض العظام والكسور (17)	تأليف: ت. دكوورث ترجمة: د. محمد سالم

17 ـ الموجز الإرشادي عن الغدد الصماء (18)

تأليف: د. ر.ف.فلتشر

ترجمة: د.نصر الدين محمود

18 ـ دليل طريقة التصوير الشعاعي (19)

تأليف: د. ت. هولم وآخرين

ترجمة: المركز ومنظمة الصحة العالمية

19 ـ دليل الممارس العام لقراءة الصور الشعاعية (20)

تحرير: د. ب.م.س بالمر وآخرين

ترجمة: المركز ومنظمة الصحة العالمية

20 ـ التسمية الدولية للأمراض (مجلس المنظمات الدولية للعلوم الطبية) المجلد 2 الجزء 3 الأمراض المعدية (22)

ترجمة: المركز ومنظمة الصحة العالمية

21 ـ الداء السكري لدى الطفل (23)

تأليف: د. مصطفى خياطي

ترجمة: د. مروان القنواتي

22 ـ الأدوية النفسانية التأثير: تحسين ممارسات الوصف (24)

تحرير: د. عبدالحميد قدس ود. عنايت خان

23 ـ التعليم الصحي المستمر للعاملين في الحقل الصحي : دليل ورشة العمل (25)

تحرير: د. ف.ر.أ بات ود. أ. ميخيا

ترجمة: المركز ومنظمة الصحة العالمية

24 ـ التخدير في مستشفى المنطقة (26)

تأليف: د. مايكل ب. دوبسون

ترجمة: د. برهان العابد

مراجعة: د. هيثم الخياط

25 ـ الموجز الإرشادي عن الطب الشرعي (27)

تأليف: د.ج.جي

ترجمة: د. عاطف بدوي

26 ـ الطب التقليدي والرعاية الصحية (28)

تأليف: د. روبرت هـ. باترمان وآخرين

ترجمة: د.نزيه الحكيم

مراجعة: أ. عدنان يازجي

27 ـ أدوية الأطفال (29)

تأليف: د.ن.د بارنز وآخرين

ترجمة: د. لبيبة الخردجي

مراجعة: د. هيثم الخياط

28 ـ الموجز الإرشادي عن أمراض العين (30)

تأليف: د. ب.د. تريفر ـ روبر

ترجمة: د. عبدالرزاق السامرائي

29 ـ التشخيص الجراحي (31)

تأليف د. محمد عبداللطيف إبراهيم

30 ـ تقنية المعلومات الصحية (واقع واستخدامات تقنية واتصالات المعلومات البعدية في المجالات الصحية)(32)

ترجمة: د. شوقي سالم

31 ـ الموجز الإرشادي عن طب التوليد (33)	تأليف: د. جفري شامبر لين ترجمة: د. حافظ والي
32 ـ تدريس الإحصاء الصحي (عشرون مخططاً تمهيدياً لدروس وحلقات دراسية) (34)	تحرير: س.ك. لوانجا وتشو ـ يوك تـي ترجمة: د. عصمت إبراهيم حمود مراجعة: د. عبدالمنعم محمد علي
33 ـ الموجز الإرشادي عن أمراض الأنف والأذن والحنجرة (35)	تأليف: د. ب.د. بول ترجمة: د. زهير عبدالوهاب
34 ـ علم الأجنة السريري (37)	تأليف: د. ريتشارد سنل ترجمة: د. طليع بشور
35 ـ التشريح السريري (38)	تأليف: د. ريتشارد سنل ترجمة: د. محمد أحمد سليمان
36 ـ طب الاسنان الجنائي (39)	تأليف: د. صاحب القطان
37 ـ أطلس أمراض العين في الدول العربية سلسلة الأطالس الطبية (40)	تأليف: د.أحمد الجمل ود. عبداللطيف صيام
38 ـ الموجز الإرشادي عن أمراض النساء (41)	تأليف: جوزفين بارنز ترجمة: د. حافظ والي
39 ـ التسمية التشريحية (قاموس تشريح) (42)	ترجمة: د. حافظ والي
40 ـ الموجز الإرشادي عن توازن السوائل والكهارل (43)	تأليف: د. شيلا ويللاتس ترجمة: د. حسن العوضي
41 ـ الموجز الإرشادي عن المسالك البولية (44)	تأليف: د. جون بلاندي ترجمة: د. محيي الدين صدقي
42 ـ الموجز الإرشادي عن الأمراض النفسية (45)	تأليف: د. جيمس و د. يليس و ج.م. ماركس ترجمة: د.محمد عماد فضلي
43 ـ دليل الطالب في أمراض العظام والكسور سلسلة المناهج الطبية (46)	تأليف: د. فرانك ألويسيو وآخرين ترجمة: د. أحمد ذياب وآخرين
44 ـ دليل المؤسسات التعليمية والبحثية الصحية في الوطن العربي ـ 3 أجزاء (47)	إعداد: المركز
45 ـ التدرن السريري (48)	تأليف: البروفيسور سير جون كروفتن وآخرين ترجمة: د. محمد علي شعبان
46 ـ مدخل إلى الآنثروبولوجيا البيولوجية (49)	تأليف: د. علي عبدالعزيز النفيلي
47 ـ الموجز الإرشادي عن التشريح (50)	تأليف: د. دي.بي. موفات ترجمة: د. محمد توفيق الرخاوي

48 ـ الموجز الإرشادي عن الطب السريري (51)
تأليف: د. ديفيد روبنشتين و د. ديفيد وين
ترجمة: د. بيومي السباعي

49 ـ الموجز الإرشادي عن علم الأورام السريري (52)
تأليف: د. باري هانكوك و د.ج ديفيد برادشو
ترجمة: د. خالد أحمد الصالح

50 ـ معجم الاختصارات الطبية (53)
إعداد: المركز

51 ـ الموجز الإرشادي عن طب القلب
سلسلة المناهج الطبية (55)
تأليف: د. ج. فليمنج وآخرين
ترجمة: د. عاطف أحمد بدوي

52 ـ الهستولوجيا الوظيفية
سلسلة المناهج الطبية (56)
تأليف: د. م. بوريسنكو و د. ت. بورينجر
ترجمة: أ. عدنان اليازجي

53 ـ المفاهيم الأساسية في علم الأدوية
سلسلة المناهج الطبية (57)
تأليف: د. جانيت سترينجر
ترجمة: د. عادل نوفل

54 ـ المرجع في الأمراض الجلدية
سلسلة المناهج الطبية (58)
تأليف: د. صالح داود و د. عبدالرحمن قادري

55 ـ أطلس الأمراض الجلدية
سلسلة الأطالس الطبية (59)
تأليف: د. جيفري كالين وآخرين
ترجمة: د. حجاب العجمي

56 ـ معجم مصطلحات الطب النفسي
سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (60)
إعداد: د. لطفي الشربيني
مراجعة: د. عادل صادق

57 ـ أساسيات طب الأعصاب
سلسلة المناهج الطبية (61)
تأليف: د. إ.م.س. ولكنسون
ترجمة: د. لطفي الشربيني، و د. هشام الحناوي

58 ـ معجم مصطلحات علم الأشعة والأورام
سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (62)
إعداد: د. ضياء الدين الجماس وآخرين
مراجعة وتحرير: مركز تعريب العلوم الصحية

59 ـ علم الطفيليات الطبية
سلسلة المناهج الطبية (63)
تأليف: د. و. بيك، ود. ج. ديفيز
ترجمة: د. محمد خير الحلبي

60 ـ الموجز الإرشادي عن فيزيولوجيا الإنسان
سلسلة المناهج الطبية (64)
تحرير: د. جون براي وآخرين
ترجمة: د. سامح السباعي

61 ـ أساسيات علم الوراثيات الطبية
سلسلة المناهج الطبية (65)
تأليف: د. مايكل كونور
ترجمة: د. سيد الحديدي

62 ـ معجم مصطلحات أمراض النساء والتوليد
سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (66)
إعداد: د. محمد حجازي وآخرين
تحرير: مركز تعريب العلوم الصحية

63 ـ أساسيات علم المناعة الطبية
سلسلة المناهج الطبية (67)
تأليف: د.هيلين شابل وآخرين
ترجمة: د. نائل بازركان

64 ـ معجم مصطلحات الباثولوجيا والمختبرات
سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (68)
إعداد: د. سيد الحديدي وآخرين
تحرير: مركز تعريب العلوم الصحية

65 ـ أطلس الهستولوجيا
سلسلة الأطالس الطبية (69)
تأليف: د. شو ـ زين زانج
ترجمة: د. عبد المنعم الباز وآخرين
مراجعة: مركز تعريب العلوم الصحية

66 ـ أمراض جهاز التنفس
سلسلة المناهج الطبية (70)
تأليف: د. محمود باكير، د. محمد المسالمة
د. محمد المميز، د. هيام الريس

67 ـ أساسيات طب الجهاز الهضمي (جزءان)
سلسلة المناهج الطبية (71)
تأليف: د.ت. یامادا وآخرين
ترجمة: د. حسين عبدالحميد وآخرين

68 ـ الميكروبيولوجيا الطبية (جزءان)
سلسلة المناهج الطبية (72)
تأليف: د. جيو بروكس وآخرين
ترجمة: د. عبد الحميد عطية وآخرين

69 ـ طب الأطفال وصحة الطفل
سلسلة المناهج الطبية (73)
تأليف: د. ماري رودلف، د. مالكوم ليڤين
ترجمة: د. حاتم موسى أبو ضيف وآخرين

70 ـ الموجز الإرشادي عن الباثولوجيا (جزءان)
سلسلة المناهج الطبية (74)
تأليف: د.أ.د. تومسون، د.ر.إ. كوتون
ترجمة: د. حافظ والي

71 ـ طب العائلة
سلسلة المناهج الطبية (75)
تأليف: د. ناصر بوكلي حسن

72 ـ الطبيب، أخلاق ومسؤولية
سلسلة الكتب الطبية (76)
تأليف: د. محمد خالد المشعان

73 ـ هاربرز في الكيمياء الحيوية (3 أجزاء)
سلسلة المناهج الطبية (77)
تأليف: د. روبرت موراي وآخرين
ترجمة: د. عماد أبو عسلي ود. يوسف بركات

74 ـ أطلس أمراض الفم
سلسلة الأطالس الطبية (78)
تأليف: د. كريسبيان سكولي وآخـرين
ترجمة: د. صاحـب القطـان

75 ـ الموجز الإرشادي عن علم الاجتماع الطبي
سلسلة المناهج الطبية (79)
تأليف: د. ديڤيد هاناي
ترجمة: د. حسن العوضي

76 ـ دليل المراجعة في أمراض النساء والتوليد
سلسلة المناهج الطبية (80)
تأليف: د. إيرول نورويتز
ترجمة: د. فرحان كوجان

77 ـ دليل المراجعة في أمراض الكلى
سلسلة المناهج الطبية (81)
تأليف: د. كريس كالاهان و د. باري برونر
ترجمة: د. أحمد أبو اليسر

78 ـ دليل المراجعة في الكيمياء الحيوية
سلسلة المناهج الطبية (82)
تأليف: د.بن جرينشتاين و د.آدم جرينشتاين
ترجمة: د. يوسف بركات

79 ـ أساسيات علم الدمويات
سلسلة المناهج الطبية (83)
تأليف: د.ڤ. هوفبراند وآخـرين
ترجمة: د. سعد الدين جاويش وآخـرين

80 ـ الموجز الإرشادي عن طب العيون
سلسلة المناهج الطبية (84)
تأليف: د. بروس جيمس
ترجمة: د. سرى سبع العيش

81 ـ مبادئ نقص الخصوبة	تأليف: د. بيتر برود و د. أليسون تايلور
سلسلة المناهج الطبية (85)	ترجمة: د. وائل صبح و د. إسلام أحمد حسن
82 ـ دليل المراجعة في الجهاز الهضمي	تأليف: د. سانيش كاشاف
سلسلة المناهج الطبية (86)	ترجمة: د. يوسف بركات
83 ـ الجراحة الإكلينيكية	تأليف: د. ألفريد كوشيري وآخرين
سلسلة المناهج الطبية (87)	ترجمة: د. بشير الجراح وآخرين
84 ـ دليل المراجعة في الجهاز القلبي الوعائي	تأليف: د. فيليب آرونسون
سلسلة المناهج الطبية (88)	ترجمة: د. محمد حجازي
85 ـ دليل المراجعة في المكروبيولوجيا	تأليف: د. ستيفن جليسبي و د. كاترين بامفورد
سلسلة المناهج الطبية (89)	ترجمة: د. وائل محمد صبح
86 ـ مبادئ طب الروماتزم	تأليف: د. ميشيل سناث
سلسلة المناهج الطبية (90)	ترجمة: د. محمود الناقة
87 ـ علم الغدد الصماء الأساسي والإكلينيكي	تأليف: فرنسيس جرينسبان و ديڤيد جاردنر
سلسلة المناهج الطبية (91)	ترجمة: د. أكرم حنفي وآخرين
88 ـ أطلس الوراثيات	تأليف: د. إبرهارد باسرج وآخرين
سلسلة الأطالس الطبية (92)	ترجمة: د. وائل صبح وآخرين
89 ـ دليل المراجعة في العلوم العصبية	تأليف: د. روجر باركر وآخرين
سلسلة المناهج الطبية (93)	ترجمة: د. لطفي الشربيني
90 ـ معجم مصطلحات أمراض الفم والأسنان	إعداد: د. فتحي عبدالمجيد وفا
سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (94)	مراجعة: د. محمد فؤاد الذاكري وآخرين
91 ـ الإحصاء الطبي	تأليف: د. جينيفير بيت وآخرين
سلسلة المناهج الطبية (95)	ترجمة: د. نائل عبدالقادر وآخرين
92 ـ إعاقات التعلم لدى الأطفال	تأليف: د. بيتر بيرك و د. كاتي سيجنو
سلسلة المناهج الطبية (96)	ترجمة: د. عبدالمنعم الباز و أ. سميرة مرجان
93 ـ السرطانات النسائية	تأليف: د. أحمد راغب
سلسلة المناهج الطبية (97)	تحرير: مركز تعريب العلوم الصحية
94 ـ معجم مصطلحات جراحة العظام والتأهيل	إعداد: د. عبدالرزاق سري السباعي وآخرين
سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (98)	مراجعة: د. أحمد ذياب وآخرين
95 ـ التفاعلات الضائرة للغذاء	إعداد: د. جودث بيترس
سلسلة المناهج الطبية (99)	ترجمة: د. طه قمصاني و د. خالد مدني
96 ـ دليل المراجعة في الجراحة	تأليف: د. بيرس جراس و د. نيل بورلي
سلسلة المناهج الطبية (100)	ترجمة: د. طالب الحلبي

97 ـ الطب النفسي عند الأطفال
سلسلة المناهج الطبية (101)
تأليف: د. روبرت جودمان و د. ستيفن سّكوت
ترجمة: د. لطفي الشربيني و د. حنان طقش

98 ـ مبادئ نقص الخصوبة (ثنائي اللغة)
سلسلة المناهج الطبية (102)
تأليف: د. بيتر برود
ترجمة: د. وائل صبح وآخرين

99 ـ المعجم المفسر للطب والعلوم الصحية
(الإصـدار الأول حرف A)
سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (103)
إعداد: د. يعقوب أحمد الشراح
إشراف: د. عبدالرحمن عبدالله العوضي

100 ـ دليل المراجعة في التاريخ المرضي
والفحص الإكلينيكي
سلسلة المناهج الطبية (104)
تأليف: د. جونثـان جليـادل
ترجمة: د. محمود الناقة و د. عبدالرزاق السباعي

101 ـ الأساسيات العامة ـ طب الأطفال
سلسلة المناهج الطبية (105)
تأليف: د. جوديث سوندهايمر
ترجمة: د. أحمد فرج الحسانين وآخـرين

102 ـ دليـل الاختبـارات المعمليـة
والفحوصات التشخيصية
سلسلة المناهج الطبية (106)
تأليف: د.دنيس ويلسون
ترجمة: د. سيد الحديدي وآخرين

103 ـ التغيـرات العالمية والصحة
سلسلة المناهج الطبية (107)
تحرير: د. كيلي لي و چيف كولين
ترجمة: د. محمد براء الجندي

104 ـ التعرض الأولي
الطب الباطني: طب المستشفيات
سلسلة المناهج الطبية (108)
تأليف: د. تشارلز جريفيث وآخرين
ترجمة: د. عبدالناصر كعدان وآخرين

105 ـ مكافحة الأمراض السارية
سلسلة المناهج الطبية (109)
تحرير: د. نورمان نوح
ترجمة: د. عبدالرحمن لطفي عبدالرحمن

106 ـ المعجم المفسر للطب والعلوم الصحية
(الإصـدار الأول حرف B)
سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (B)
إعداد: د. يعقوب أحمد الشراح
إشراف: د. عبدالرحمن عبدالله العوضي

107 ـ علم النفس للممرضات ومهنيي
الرعاية الصحية
سلسلة المناهج الطبية (110)
تأليف: د. جين ولكر وآخرين
ترجمة: د. سميرة ياقوت وآخرين

108 ـ التشريح العصبي (نص وأطلس)
سلسلة الأطالس الطبية العربية (111)
تأليف: د. چون هـ ـ مارتن
ترجمة: د.حافظ والي وآخرين

109 ـ المعجم المفسر للطب والعلوم الصحية (الإصـدار الأول حرف C) سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (C)
إعداد: د. يعقوب أحمد الشراح
إشراف: د. عبدالرحمن عبدالله العوضي

110 ـ السرطان والتدبير العلاجي سلسلة المناهج الطبية (112)
تأليف: روبرت سوهامي ـ جيڤري توبياس
ترجمة: د. حسام خلف وآخرين

111 ـ التشخيص والمعالجة الحالية: الأمراض المنقولة جنسياً سلسلة المناهج الطبية (113)
تحرير: د. جيفري د.كلوسنر وآخرين
ترجمة: د. حسام خلف وآخرين

112 ـ الأمراض العدوائية .. قسم الطوارئ ـ التشخيص والتدبير العلاجي سلسلة المناهج الطبية (114)
تحرير: د. إلين م.سلاڤين وآخرين
ترجمة: د. ضياء الدين الجماس وآخرين

113 ـ أسس الرعاية الطارئة سلسلة المناهج الطبية (115)
تحرير: د. كليف ايڤانز وآخرين
ترجمة: د. جمال جودة وآخرين

114 ـ الصحة العامة للقرن الحادي والعشرين آفاق جديدة للسياسة والمشاركة والممارسة سلسلة المناهج الطبية (116)
تحرير: د. جودي أورم وآخرين
ترجمة:د. حسناء حمدي وآخرين

115 ـ الدقيقة الأخيرة ـ طب الطوارئ سلسلة المناهج الطبية (117)
تحرير: د. ماري جو واجنر وآخرين
ترجمة: د. ناصر بوكلي حسن وآخرين

116 ـ فهم الصحة العالمية سلسلة المناهج الطبية (118)
تحرير: د. وليام هـ . ماركال وآخرين
ترجمة: د. جاكلين ولسن وآخرين

117 ـ التدبير العلاجي لألم السرطان سلسلة المناهج الطبية (119)
تأليف: د. مايكل فيسك و د. ألين برتون
ترجمة: د.أحمد راغب و د. هشام الوكيل

118 ـ التشخيص والمعالجة الحالية ـ طب الروماتزم ـ سلسلة المناهج الطبية (120)
تأليف: د. جون إمبودن وآخرين
ترجمة: د. محمود الناقة وآخرين

119 ـ التشخيص والمعالجة الحالية ـ الطب الرياضي سلسلة المناهج الطبية (121)
تحرير: د. باتريك ماكموهون
ترجمة: د. طالب الحلبي و د. نائل بازركان

120 ـ السياسة الاجتماعية للممرضات والمهن المساعدة سلسلة المناهج الطبية (122)
تأليف: د. ستيڤن بيكهام و د.ليز ميرابياو
ترجمة: د. لطفي عبد العزيز الشربيني وآخرين

121 ـ التسمم وجرعة الدواء المفرطة سلسلة المناهج الطبية (123)
تحرير: د. كينت أولسون وآخرين
ترجمة: د. عادل نوفل وآخرين

122 ـ الأرجية والربو	تحرير: د. مسعود محمدي
«التشخيص العملي والتدبير العلاجي»	ترجمة: د. محمود باكير وآخرين
سلسلة المناهج الطبية (124)	
123 ـ دليل أمراض الكبد	تحرير: د. لورانس فريدمان و د. أيميت كييفي
سلسلة المناهج الطبية (125)	ترجمة: د. عبد الرزاق السباعي وآخرين
124 ـ الفيزيولوجيا التنفسية	تأليف: د. ميشيل م. كلوتير
سلسلة المناهج الطبية (126)	ترجمة: د. محمود باكير وآخرين
125 ـ البيولوجيا الخلوية الطبية	تأليف: روبرت نورمان و ديڤيد لودويك
سلسلة المناهج الطبية (127)	ترجمة: د. عماد أبوعسلي و د. رانيا توما
126 ـ الفيزيولوجيا الخلوية	تأليف: د. مورديكاي بلوشتاين وآخرين
سلسلة المناهج الطبية (128)	ترجمة: د. نائل بازركان
127 ـ تطبيقات علم الاجتماع الطبي	تحرير: د. جراهام سكامبلر
سلسلة المناهج الطبية (129)	ترجمة: د. أحمد ديب دشاش
128 ـ طب نقل الدم	تأليف: د. جيفري ماكولف
سلسلة المناهج الطبية (130)	ترجمة: د. سيد الحديدي وآخرين
129 ـ الفيزيولوجيا الكلوية	تأليف: د.بروس كوبن وآخرين
سلسلة المناهج الطبية (131)	ترجمة: د. محمد بركات
130 ـ الرعاية الشاملة للحروق	تأليف: د. ديڤيد هيرنادون
سلسلة المناهج الطبية (132)	ترجمة: د. حسام الدين خلف وآخرين
131 ـ سلامة المريض ـ بحوث الممارسة	تحرير: د. كيرين ولش و د. روث بودن
سلسلة المناهج الطبية (133)	ترجمة: د. تيسير العاصي
132 ـ المعجم المفسر للطب والعلوم الصحية	إعداد: د. يعقوب أحمد الشراح
(الإصدار الأول حرف D)	إشراف: د. عبدالرحمن عبدالله العوضي
سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (D)	
133 ـ طب السفر	تحرير: د. جاي كايستون وآخرين
سلسلة المناهج الطبية (134)	ترجمة: د.عادل نوفل وآخرين
134 ـ زرع الأعضاء	تحرير: د. جون فورسيث
دليل للممارسة الجراحية التخصصية	ترجمة:د. عبد الرزاق السباعي
سلسلة المناهج الطبية (135)	د. أحمد طالب الحلبي
135 ـ إصابات الأسلحة النارية في الطب الشرعي	تأليف: د. محمد عصام الشيخ
سلسلة المناهج الطبية (136)	
136 ـ «ليڤين وأونيل» القدم السكري	تأليف: د. جون بوكر و مايكل فايڤر
سلسلة المناهج الطبية (137)	ترجمة:د. أشرف رمسيس وآخرين
137 ـ المعجم المفسر للطب والعلوم الصحية	إعداد: د. يعقوب أحمد الشراح
(الإصدار الأول حرف E)	إشراف: د. عبدالرحمن عبدالله العوضي
سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (E)	

138 ـ معجم تصحيح البصر وعلوم الإبصار
سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (138)
تأليف: د. ميشيل ميلودوت
ترجمة: د. سُرى سبع العيش
و د. جمال إبراهيم المرجان

139 ـ معجم «بيلير»
للممرضين والممرضات والعاملين
في مجال الرعايــة الصحيــة
سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (139)
تأليف: د. باربرا ـ ف. ويللر
ترجمة: د. طالب الحلبي وآخرين

140 ـ علم أعصاب النوم
سلسلة المناهج الطبية (140)
تأليف: د. روبرت ستيكجولد و ماثوي والكر
ترجمة: د. عبير محمد عدس
و د. نيرمين سمير شنودة

141 ـ كيف يعمل الدواء
«علم الأدوية الأساسي لمهنيي الرعاية الصحية»
سلسلة المناهج الطبية (141)
تأليف: د. هيو مكجافوك
ترجمة: د. دينا محمد صبري

142 ـ مشكلات التغذية لدى الأطفال
«دليل عملي»
سلسلة المناهج الطبية (142)
تحرير: أنجيلا ساوثال وكلاريسا مارتن
ترجمة: د. خالد المدني وآخرين

143 ـ المعجم المفسر للطب والعلوم الصحية
(الإصدار الأول حرف F)
سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (F)
إعداد: د. يعقوب أحمد الشراح
إشراف: د. عبدالرحمن عبدالله العوضي

144 ـ المرض العقلي الخطيـر ـ
الأساليب المتمركزة على الشخص
سلسلة المناهج الطبية (143)
تحرير: إبراهام رودنيك وديفيد روي
ترجمة: د. محمد صبري سليط

145 ـ المنهج الطبي المتكامل
سلسلة المناهج الطبية (144)
تأليف: راجا باندارانا ياكي
ترجمة: د. جاكلين ولسن

146 ـ فقد الحمل
«الدليل إلـى ما يمكـن أن يوفـره
كل من الطب المكمل والبديل»
سلسلة المناهج الطبية (145)
تأليف: جانيتا بنسيولا
ترجمة: د. محمد جابر صدقي

147 ـ الألم والمعاناة والمداواة
«الاستبصار والفهم»
سلسلة المناهج الطبية (146)
تحرير: بيتر وميس جورمان
ترجمة: د. هشام الوكيل

148 ـ الممارسة الإدارية والقيادة للأطباء
سلسلة المناهج الطبية (147)
تأليف: جون واتيس و ستيفن كوران
ترجمة: د. طارق حمزه عبد الرؤوف

149 ـ الأمراض الجلدية لدى المسنين
سلسلة الأطالس الطبية العربية (148)
تأليف: كولبي كريغ إيفانز و ويتني هاي
ترجمة: د. تيسير كايد العاصي

150 ـ طبيعة ووظائف الأحلام
سلسلة المناهج الطبية (149)
تأليف: د. أرنست هارتمان
ترجمة: د. تيسير كايد العاصي

151 ـ تاريخ الطب العربي
سلسلة المناهج الطبية (150)
تأليف: د. محمد جابر صدقي

ثانياً: سلسلة الثقافة الصحية

1 ـ الأسنان وصحة الإنسان	تأليف: د. صاحب القطان
2 ـ الدليل الموجز في الطب النفسي	تأليف: د. لطفي الشربيني
3 ـ أمراض الجهاز الحركي	تأليف: د. خالد محمد دياب
4 ـ الإمكانية الجنسية والعقم	تأليف: د. محمود سعيد شلهوب
5 ـ الدليل الموجز عن أمراض الصدر	تأليف: د. ضياء الدين الجماس
6 ـ الدواء والإدمان	تأليف الصيدلي: محمود ياسين
7 ـ جهازك الهضمي	تأليف: د. عبدالرزاق السباعي
8 ـ المعالجة بالوخز الإبري	تأليف: د. لطفية كمال علوان
9 ـ التمنيع والأمراض المعدية	تأليف: د. عادل ملا حسين التركيت
10 ـ النوم والصحة	تأليف: د. لطفي الشربيني
11 ـ التدخين والصحة	تأليف: د. ماهر مصطفى عطري
12 ـ الأمراض الجلدية في الأطفال	تأليف: د. عبير فوزي محمد عبدالوهاب
13 ـ صحة البيئة	تأليف: د. ناصر بوكلي حسن
14 ـ العقم: أسبابه وعلاجه	تأليف: د. أحمد دهمان
15 ـ فرط ضغط الدم	تأليف: د. حسان أحمد قمحية
16 ـ المخدرات والمسكرات والصحة العامة	تأليف: د. سيد الحديدي
17 ـ أساليب التمريض المنزلي	تأليف: د. ندى السباعي
18 ـ ماذا تفعل لو كنت مريضاً	تأليف: د. چاكلين ولسن
19 ـ كل شيء عن الربو	تأليف: د. محمد المنشاوي
20 ـ أورام الثدي	تأليف: د. مصطفى أحمد القباني
21 ـ العلاج الطبيعي للأمراض الصدرية عند الأطفال	تأليف: أ. سعاد الثامر
22 ـ تغذية الأطفال	تأليف: د. أحمد شوقي
23 ـ صحتك في الحج	تأليف: د. موسى حيدر قاسه
24 ـ الصرع، المرض.. والعلاج	تأليف: د. لطفي الشربيني
25 ـ نمو الطفل	تأليف: د. منال طبيلة
26 ـ السِّمنة	تأليف: د. أحمد الخولي
27 ـ البُهاق	تأليف: د. إبراهيم الصياد

28 ـ طب الطَّوارئ — تأليف: د. جمـال جـودة
29 ـ الحساسية (الأرجية) — تأليف: د. أحمد فرج الحسانين
30 ـ سلامة المريض — تأليف: د. عبدالرحمن لطفي عبد الرحمن
31 ـ طب السفـر — تأليف: د. سـلام محمد أبو شعبـان
32 ـ التغذيـة الصحيـة — تأليف: د. خالد مدني
33 ـ صحة أسنان طفلك — تأليف: د. حبابـة المزيدي
34 ـ الخلل الوظيفي للغدة الدرقية عند الأطفال — تأليف: د. منال طبيلة
35 ـ زرع الأسنـان — تأليف: د. سعيد نسيب أبو سعدة
36 ـ الأمراض المنقولة جنسياً — تأليف: د. أحمد سيف النصر
37 ـ القثطـرة القلبيـة — تأليف: د. عهـد عمر عرفـة
38 ـ الفحص الطبي الدوري — تأليف: د. ضياء الدين جماس
39 ـ الغبار والصحة — تأليف: د. فـاطمة محمد المأمون
40 ـ الكاتاراكت (السـادّ العيني) — تأليف: د. سُرى سبع العيش
41 ـ السمنة عند الأطفال — تأليف: د. ياسر حسين الحصيني
42 ـ الشخيـر — تأليف: د. سعاد يحيى المستكاوي
43 ـ زرع الأعضـاء — تأليف: د. سيد الحديدي
44 ـ تساقط الشعر — تأليف: د. محمد عبدالله إسماعيل
45 ـ سـن الإيـاس — تأليف: د. محمد عبيد الأحمد
46 ـ الاكتئـاب — تأليف: د. محمد صبري
47 ـ العجـز السمعـي — تأليف: د. لطفية كمال علوان
48 ـ الطب البديل (في علاج بعض الأمراض) — تأليف: د. علاء الدين حسني
49 ـ استخدامات الليزر في الطب — تأليف: د. أحمد علي يوسف
50 ـ متلازمة القولون العصبي — تأليف: د. وفاء أحمد الحشاش
51 ـ سلس البول عند النساء (الأسباب ـ العلاج) — تأليف: د. عبد الرزاق سري السباعي
52 ـ الشعرانية «المرأة المُشْعِرة» — تأليف: د. هناء حامد المسوكر
53 ـ الإخصاب الاصطناعي — تأليف: د. وائل محمد صبح
54 ـ أمراض الفم واللثة — تأليف: د. محمد براء الجندي
55 ـ جراحة المنظار — تأليف: د. رُلى سليم المختار
56 ـ الاستشارة قبل الزواج — تأليف: د. ندى سعد الله السباعي
57 ـ التثقيف الصحي — تأليف: د. ندى سعد الله السباعي
58 ـ الضعف الجنسي — تأليف: د. حسان عدنان البارد

59 ـ الشباب والثقافة الجنسية — تأليف: د. لطفي عبد العزيز الشربيني
60 ـ الوجبات السريعة وصحة المجتمع — تأليف: د. سلام أبو شعبان
61 ـ الخلايا الجذعية — تأليف: د. موسى حيدر قاسه
62 ـ ألزهايمر (الخرف المبكر) — تأليف: د. عبير محمد عدس
63 ـ الأمراض المعدية — تأليف: د. أحمد خليل
64 ـ آداب زيارة المريض — تأليف: د. ماهر الخاناتي
65 ـ الأدوية الأساسية — تأليف: د. بشار الجمّال
66 ـ السعـــال — تأليف: د. جُلنار الحديدي
67 ـ تغذية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة — تأليف: د. خالد المدني
68 ـ الأمراض الشرجية — تأليف: د.رُلى المختار
69 ـ النفايات الطبية — تأليف: د.جمال جوده
70 ـ آلام الظهر — تأليف: د.محمود الزغبي
71 ـ متلازمة العوز المناعي المكتسب (الإيدز) — تأليف: د.أيمن محمود مرعي
72 ـ التهاب الكبد — تأليف: د.محمد حسن بركات
73 ـ الأشعة التداخلية — تأليف: د. بدر محمد المراد
74 ـ سلس البول — تأليف: د. حسن عبد العظيم محمد
75 ـ المكملات الغذائية — تأليف: د.أحمد محمد الخولي
76 ـ التسمم الغذائي — تأليف: د. عبدالمنعم محمود الباز
77 ـ أسرار النوم — تأليف: د. منال محمد طبيلة
78 ـ التطعيمات الأساسية لدى الأطفال — تأليف: د. أشرف إبراهيم سليم
79 ـ التوحـد — تأليف: د. سميرة عبد اللطيف السعد
80 ـ التهاب الزائدة الدودية — تأليف: د. كفاح محسن أبو راس
81 ـ الحمل عالي الخطورة — تأليف: د. صلاح محمد ثابت
82 ـ جودة الخدمات الصحية — تأليف: د. علي أحمد عرفه
83 ـ التغذية والسرطان وأسس الوقاية — تأليف: د. عبد الرحمن عبيد مصيقر
84 ـ أنماط الحياة اليومية والصحة — تأليف: د. عادل أحمد الزايد
85 ـ الموسمان الثقافيان الأول والثاني — إعـــداد: المركز
86 ـ الموسمان الثقافيان الثالث والرابع — إعـــداد: المركز

ثالثاً: مجلة تعريب الطب

1 ـ العدد الأول «يناير 1997»	أمراض القلب والأوعية الدموية
2 ـ العدد الثاني «أبريل 1997»	مدخل إلى الطب النفسي
3 ـ العدد الثالث «يوليو 1997»	الخصوبة ووسائل منع الحمل
4 ـ العدد الرابع «أكتوبر 1997»	الداء السكري (الجزء الأول)
5 ـ العدد الخامس «فبراير 1998»	الداء السكري (الجزء الثاني)
6 ـ العدد السادس «يونيو 1998»	مدخل إلى المعالجة الجينية
7 ـ العدد السابع «نوڤمبر 1998»	الكبد والجهاز الصفراوي (الجزء الأول)
8 ـ العدد الثامن «فبراير 1999»	الكبد والجهاز الصفراوي (الجزء الثاني)
9 ـ العدد التاسع «سبتمبر 1999»	الفشل الكلوي
10 ـ العدد العاشر «مارس 2000»	المرأة بعد الأربعين
11 ـ العدد الحادي عشر «سبتمبر 2000»	السمنة المشكلة والحل
12 ـ العدد الثاني عشر «يونيو 2001»	الچينيوم هذا المجهول
13 ـ العدد الثالث عشر «مايو 2002»	الحرب البيولوچية
14 ـ العدد الرابع عشر «مارس 2003»	التطبيب عن بعد
15 ـ العدد الخامس عشر «أبريل 2004»	اللغة والدماغ
16 ـ العدد السادس عشر «يناير 2005»	الملاريا
17 ـ العدد السابع عشر «نوڤمبر 2005»	مرض ألزهايمر
18 ـ العدد الثامن عشر «مايو 2006»	إنفلونزا الطيور
19 ـ العدد التاسع عشر «يناير 2007»	التدخين: الداء والدواء (الجزء الأول)
20 ـ العدد العشرون «يونيو 2007»	التدخين: الداء والدواء (الجزء الثاني)
21 ـ العدد الحادي والعشرون «فبراير 2008»	البيئة والصحة (الجزء الأول)
22 ـ العدد الثاني والعشرون «يونيو 2008»	البيئة والصحة (الجزء الثاني)
23 ـ العدد الثالث والعشرون «نوڤمبر 2008»	الألـم.. «الأنواع، الأسباب، العلاج»
24 ـ العدد الرابع والعشرون «فبراير 2009»	الأخطـاء الطبيــة
25 ـ العدد الخامس والعشرون «يونيو 2009»	اللقاحات.. وصحة الإنسان
26 ـ العدد السادس والعشرون «أكتوبر 2009»	الطبيب والمجتمع
27 ـ العدد السابع والعشرون «يناير 2010»	الجلد..الكاشف..الساتر
28 ـ العدد الثامن والعشرون «أبريل 2010»	الجراحات التجميلية
29 ـ العدد التاسع والعشرون «يوليو 2010»	العظام والمفاصل...كيف نحافظ عليها؟
30 ـ العدد الثلاثون «أكتوبر 2010»	الكلى ... كيف نرعاها ونداويها؟

31 ـ العدد الحادي والثلاثون «فبراير 2011»	آلام أسفل الظهر
32 ـ العدد الثاني والثلاثون «يونيو 2011»	هشاشة العظام
33 ـ العدد الثالث والثلاثون «نوفمبر 2011»	إصابة الملاعب «آلام الكتف.. الركبة.. الكاحل»
34 ـ العدد الرابع والثلاثون «فبراير 2012»	العلاج الطبيعي لذوي الاحتياجات الخاصة
35 ـ العدد الخامس والثلاثون «يونيو 2012»	العلاج الطبيعي التالي للعمليات الجراحية
36 ـ العدد السادس والثلاثون «أكتوبر 2012»	العلاج الطبيعي المائي
37 ـ العدد السابع والثلاثون «فبراير 2013»	طب الأعماق.. العلاج بالأكسجين المضغوط
38 ـ العدد الثامن والثلاثون «يونيو 2013»	الاستعداد لقضاء عطلة صيفية بدون أمراض
39 ـ العدد التاسع والثلاثون «أكتوبر 2013»	تغير الساعة البيولوجية في المسافات الطويلة
40 ـ العدد الأربعون «فبراير 2014»	علاج بلا دواء ... عالج أمراضك بالغذاء
41 ـ العدد الحادي والأربعون «يونيو 2014»	علاج بلا دواء ... العلاج بالرياضة
42 ـ العدد الثاني والأربعون «أكتوبر 2014»	علاج بلا دواء ... المعالجة النفسية





ARABIZATION CENTER FOR MEDICAL SCIENCE (ACMLS)

The Arabization Center for Medical Science (ACMLS) is an Arab regional organization established in 1980 and derived from the Council of Arab Ministers of Public Health, the Arab League and its permanent headquarters is in Kuwait.

ACMLS has the following objectives:

- Provision of scientific & practical methods for teaching the medical sciences in the Arab World.
- Exchange of knowledge, sciences, information and researches between Arab and other cultures in all medical health fields.
- Promotion & encouragement of authorship and translation in Arabic language in the fields of health sciences.
- The issuing of periodicals, medical literature and the main tools for building the Arabic medical information infrastructure.
- Surveying, collecting, organizing of Arabic medical literature to build a current bibliographic data base.
- Translation of medical researches into Arabic Language.
- Placement of Arabic medical curricula to serve medical and science Institutions and Colleges.

ACMLS consists of a board of trustees supervising ACMLS' general secretariate and its four main departments. ACMLS is concerned with preparing integrated plans for Arab authorship & translation in medical fields, such as directories, encyclopeadias, dictionaries, essential surveys, aimed at building the Arab medical information infrastructure.

ACMLS is responsible for disseminating the main information services for the Arab medical literature.

ISBN:978-999-66-34-61-1

ARABIZATION CENTER FOR MEDICAL SCIENCE
(ACMLS - KUWAIT)

P.O. Box 5225, Safat 13053, Kuwait

Tel. : + (965) 25338610/25338611
Fax. : + (965) 25338618/25338619

E-Mail: acmls@acmls.org
website: www.acmls.org

Printed and Bound in the State of Kuwait.



ARABIZATION CENTER FOR MEDICAL SCIENCE

ACMLS - KUWAIT

Arab Medicine History

By

Dr. Mohammad J. Sedky

Revised & Edited by

Arabization Center for Medical Science

ARABIC MEDICAL CURRICULA SERIES